

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك  
كلية الآداب  
قسم التاريخ

خلافة المستعصم بالله (٦٤٠هـ/١٢٤٢م - ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

آخر خلفاء العباسيين في بغداد

" Al-Mustasim BeAllah (640AH-656AH/1242AD-1258AD)  
The Last Abbasid Caliph in Baghdad "

إعداد الطالبة

أسمى فرحان عبد الرحمن الشراب

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة  
في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية الآداب في جامعة اليرموك

إشراف

الأستاذ الدكتور

سليمان الخرابشه

٢٠١١م

## قرار لجنة المناقشة

خلافة المستعصم بالله (٥٦٤٠هـ/١٢٤٢م-٥٦٦هـ/١٢٥٨م)

آخر خلفاء العباسيين في بغداد

" Al-Mustasim BeAllah (640AH-656AH/1242AD-1258AD)  
The Last Abbasid Caliph in Baghdad "

إعداد

أسمى فرحان عبد الرحمن الشراب

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية / جامعة اليرموك

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د سليمان عبد العبدالله الخرابشة ..... مشرفاً ورئيساً

أستاذ التاريخ الإسلامي / جامعة اليرموك

أ.د نعمة محمد جبران ..... عضواً

أستاذ التاريخ الإسلامي / جامعة اليرموك

أ.د محمد ضيف الله البطاينة ..... عضواً

أستاذ التاريخ الإسلامي / جامعة اليرموك (سابقاً)

أ.د محمد عبد القادر خريسات ..... عضواً

أستاذ التاريخ الإسلامي / الجامعة الأردنية

د. عليان عبد الفتاح الجالودي ..... عضواً

أستاذ التاريخ الإسلامي / جامعة آل البيت

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ

لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾

سورة الفرقان، آية (١)

## الإهداء

إلى والديّ العزيزين اللذين طالما انتظرا هذه اللحظة ... برأ وإكراماً  
إلى من أحب زوجي الغالي فارس فريحات الذي شاركني الصعاب ... إجلالاً وإكباراً  
إلى نور حياتي ابني قصي وبناتي لقاء، ريماس، ريتاج، لجين، جودي ... دعاءً و عرفاناً  
إلى إخواني وأخواتي خاصة الدكتور زيد ... فخراً واعتزازاً  
وإليكم جميعاً أهدي ثمرة جهدي المتواضع ... شكراً وامتناناً

الباحثة

أسمى الشراب العبادي

## شكر وتقدير

وأنا أسير في ركب الخريجين أتذكر قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): " من لا يشكر الناس، لا يشكر الله عز وجل"، فإنني أتقدم بخالص شكري وامتناني إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور سليمان الخرابشة الذي أكرمني الله تعالى بالنهل من معين علمه الوافر، بالإضافة إلى سعة صدره، وتوجيهاته السديدة، وملحوظاته القيمة التي أثرت هذه الرسالة، سائلاً المولى تبارك وتعالى أن يكلاه بعين رعايته، وأن يرفع درجاته في الدنيا والآخرة، ويكف عنه وعن ذريته البلاء إنه سميع مجيب الدعاء.

والشكر موصول كذلك إلى كل من أعانني على إنجاز هذا البحث وأخص بالذكر موظفي مكتبة الجامعة الأردنية على المساعدات القيمة والتسهيلات التي منحوني إياها وكذلك موظفي مكتبة جامعة اليرموك، ومكتبة شومان وإلى الأصدقاء الذين وفروا لي الكتب والمجلات من خارج الأردن وقدموا لي التسهيلات الكبيرة، وخاصة الصحفية لبنى العلاوين والسيدة آمنه الدقس والسيدة نور المحاميد والسيدة فاطمة ارتيمه، كما أخص بالشكر السيدة أمونه نصيرات على ما بذلته من جهد في طباعة هذه الرسالة وإخراجها بهذا الشكل.

ولا يفوتني أن أشكر المحرر اللغوي، الدكتور عبدالله مانع الأستاذ خالد الجدوع على تفضلهما بقراءة الرسالة، ووضع ملاحظاتها القيمة عليها، كما أشكر موظفي إدارة المناهج والكتب المدرسية الذين قدموا لي التسهيلات خلال فترة الدراسة.

كما أتوجه بالشكر والتقدير للمناقشين الأفاضل على تفضلهما بقبول مناقشة رسالتي، سائلاً الله عز وجل أن ينفعنا بعلمهم.

## الاختصارات

- أشير للمصادر والمراجع في الهوامش على النحو التالي :
١. عندما يرد المؤلف لأول مرة، يشار للمعلومات اللبوغرافية كاملة على النحو الآتي:  
ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد ١٩٧٠م، ص ٢٧٣.
  ٢. حينما يتكرر اذكر فقط اسم الشهرة للمؤلف وشهرته، ثم تذكر الكلمة الأولى من عنوان الكتاب، أو الكلمتين الأولى والثانية لنفي الإلتباس، ثم الجزء - إن وجد - والصفحة على النحو التالي:  
ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٣.
  ٣. إذا ورد للمؤلف كتابين أو أكثر ووردا في هامش واحد فصل بينهما بفاصلة منقوطة (... ؛ ...) ومثال ذلك:  
الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١١١؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٤٣٦؛ العبر، ج ٣، ص ٢٧٨.
  ٤. ترمز الحروف التالية إلى ما يلي:  
أ = اللوحة الأولى من ورقة المخطوطة  
ب - اللوحة الثانية من ورقة المخطوطة  
ت = الوفاة  
مج = المجلد، بالنسبة للمصادر أو المراجع المتعددة الأجزاء أو الدوريات  
ج = الجزء  
ق = القسم  
د.ن = دون ناشر  
د.م = دون مكان النشر  
د.ت = دون تاريخ النشر  
د.ط = دون طبعة  
ص = الصفحة  
ط = الطبعة  
ع = العدد بالنسبة للدوريات  
هـ = الهجري  
م = الميلادي  
ق.هـ = قبل الهجرة  
جاب = تعني طبعة بالفارسية  
جلد = تعني جزء بالفارسية  
ق = القرن  
P = رقم الصفحة  
Vol. = رقم الجزء

## ثبت المحتويات

الصفحة	الموضوع
ب	قرار لجنة المناقشة
د	الإهداء
هـ	الشكر والتقدير
و	الاختصارات
ز	ثبت المحتويات
١	الملخص باللغة العربية
٤	المقدمة:
٤	- أهمية البحث ومنهج الدراسة
٦	تحليل مصادر الدراسة
٧٢-٢٧	<b>الفصل الأول</b> <b>حياة المستعصم بالله وشخصيته</b>
٢٧	أولاً: سيرة المستعصم بالله
٢٧	- نسبه
٢٩	- لقبه
٢٩	- مولده
٣٠	ثانياً: حياة المستعصم بالله
٣٠	- نشأته
٣٦	- أسرته
٤٢	ثالثاً: مبايعة المستعصم بالله بالخلافة
٤٧	رابعاً: شخصية المستعصم بالله
٤٧	- صفاته
٦٠	- شيوخه وتلاميذه

الصفحة	الموضوع
٦٥	خامساً: أعمال المستعصم بالله ونقش خاتمه
٦٥	- أعماله العمرانية والعلمية
٦٨	- نقش خاتمه
٦٩	سادساً: نهاية المستعصم بالله ووفاته
١٢١-٧٣	<b>الفصل الثاني</b> <b>الأحوال السياسية للخلافة العباسية (٦٤٠هـ/١٢٤٢م-٦٥٦هـ/١٢٥٨م)</b>
٧٤	أولاً: الأوضاع الداخلية للخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله.
٧٤	١- جهود المستعصم بالله في القضاء على الفتن الداخلية.
٧٨	٢- انتشار الفوضى والاضطرابات وفقدان الأمن.
٧٩	٣- موقف المستعصم بالله من الصوفية وغيرها من المذاهب.
٨١	٤- دور الأمراء وكبار رجال الدولة في الحياة السياسية والحياة العامة.
٨٥	ثانياً: العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله.
٨٥	١- علاقة الخلافة ببلاد المغرب والأندلس.
٨٩	٢- علاقة الخلافة ببلاد الحجاز (مكة والمدينة) واليمن.
٩٦	٣- علاقة الخلافة بالأيوبيين في بلاد الشام ومصر.
١٠٣	٤- علاقة الخلافة بإمارة الموصل.
١٠٥	٥- علاقة الخلافة مع سلاجقة الروم.
١١٠	٦- علاقة الخلافة بالدولة الخوارزمية.
١١٣	٧- علاقة الخلافة مع الإسماعيلية.
١١٧	٨- علاقة الخلافة مع المغول.
١٨٩-١٢٣	<b>الفصل الثالث</b> <b>إدارة الدولة في عهد المستعصم بالله</b>
١٢٣	أولاً: الوزارة
١٢٧	- وزراء الخليفة المستعصم بالله.



الصفحة	الموضوع
	ثانياً: الجيش
١٤٢	- الجيش في عهد المستعصم بالله
١٤٤	١- عناصر الجيش:
١٤٧	أ- العرب
١٤٨	ب- الأتراك
١٤٨	ج- الأكراد
١٤٩	د- الروم والأرمن
١٥٠	هـ- الأحباش
١٥١	و- التركمان
١٥١	ز- عناصر أخرى
١٥٢	٢- فئات الجيش:
١٥٢	أ- الفرق النظامية: (العسكرية الديوانية)
١٥٣	١. حرس الخليفة (السلحدارية)
١٥٤	٢. فرقة المشاة
١٥٤	٣. فرقة الطلائع
١٥٦	٤. فرقة الفرسان
١٥٨	٥. النفاطون والمنجنقيون
١٥٨	ب- المتطوعة:
١٥٨	١. أهل بغداد
١٥٩	٢. العيارون والشطار
١٦١	٣. جند الولايات
١٦٢	٤. الأعراب
١٦٣	٣- أصناف الجيش المساعدة:
١٦٤	أ- الاستخبارات العسكرية
١٦٤	ب- الخدمات الطبية

الصفحة	الموضوع
١٦٥	ج- الأصناف الأخرى
١٦٥	٣- تسلسل مراتب الجند
١٦٩	٤- نفقات الجند
١٧١	ثالثاً: الدواوين
١٧٩	رابعاً: الشرطة
١٨١	خامساً: البريد
١٨٣	سادساً: القضاء
١٨٧	سابعاً: الحسبة
٢٤٨-١٩٠	الفصل الرابع الحياة الاقتصادية في عهد المستعصم بالله
١٩١	أولاً: الزراعة
١٩١	- الأراضي الزراعية
١٩٤	- البطائح
١٩٥	- الري والقنوات
٢٠٢	- ملكية الأرض
٢٠٨	ثانياً: الصناعة
٢٠٨	- المهن والحرف
٢١٠	- الصناعات
٢١٨	ثالثاً: التجارة
٢٢٠	- الطرق التجارية
٢٢٦	- الصادرات والواردات
٢٢٧	- وسائل المعاملات التجارية
٢٣١	- المراكز التجارية

الصفحة	الموضوع
٢٣٣	رابعاً: النظام المالي
٢٣٣	- موارد الدولة
٢٤٠	- نفقات الدولة
٢٩٠-٢٤٩	<b>الفصل الخامس</b> <b>الزحف المغولي وسقوط بغداد</b>
٢٥٠	أولاً: بداية الزحف المغولي باتجاه العالم الإسلامي
٢٥٧	ثانياً: موقف المستعصم بالله من التهديد المغولي
٢٦٢	ثالثاً: اتهام ابن العلقمي بالخيانة
٢٧٢	رابعاً: سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)
٢٨٦	خامساً: نتائج الغزو المغولي على الخلافة العباسية
٢٩١	نتائج الدراسة
٢٩٧	الملاحق
٣١٤	قائمة المصادر والمراجع
٣٥٢	الملخص باللغة الإنجليزية

## الملخص باللغة العربية

خلافة المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين في بغداد

(٦٤٠هـ/١٢٤٢م - ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

إعداد

أسمى فرحان عبدالرحمن الشراب

إشراف

أ.د. سليمان الخرابشة

تتناول هذه الدراسة خلافة المستعصم بالله؛ وهو الخليفة السابع والثلاثون والأخير من خلفاء بني العباس في بغداد؛ حيث إن فترة حكمه تمتد من سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م - ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وتقع ضمن الفترة التي أطلق عليها المؤرخون (انتعاش الخلافة) أو (الصحة الأخيرة)، وقد بدأت بعصر الخليفة الناصر لدين الله من (٥٧٥هـ/١١٧٩م - ٦٢٢/١٢٢٥م)، وبخاصة بعد استقلال الخلافة وتحررها من نفوذ السلاجقة، فكان عصره من خلال ذلك عصر خير ورخاء، وفترة استقرار نسبي عاشته الخلافة على الرغم من وجود الخطر الخارجي المتمثل في المغول، وهو الخطر الذي رافقه طيلة فترة حكمه؛ حيث كان ظهور المغول واجتياحهم للعالم الإسلامي وسقوط بغداد ومقتل الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وما أحدثوه من الدمار والخراب والهلاك في بلاد الإسلام عامة وفي العراق بصفة خاصة، فترة تحول في تاريخ المسلمين، وقد بدأت هذه الفترة بتثير اهتمامي الشديد أثناء دراستي للتاريخ، وازدادت هذه الرغبة تأكيداً حينما بدأت إعداد بحث لرسالة الدكتوراه، فوقع اختياري على أن يكون موضوع الرسالة " خلافة المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين في بغداد من سنة (٦٤٠هـ/١٢٤١م - ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) .

لهذا عازمت على دراسة (عصر الخليفة المستعصم بالله) دراسة علمية شاملة لتقديم جهد متواضع للقارئ الكريم يتضمن حياة الخليفة وحالة عصره وإنجازاته واهتماماته الأخرى منذ توليه الخلافة وحتى قتله على يد المغول، بالإضافة إلى أنني تطرقت إلى ما قيل بشأن المستعصم بالله ووزيره ابن العلقمي متتبعاً رأي المؤرخين بذلك.

وجاءت الدراسة في خمسة فصول ومدخل للمصادر، ناقش الأهمية التاريخية للمصادر، وبيّن قيمتها بالنسبة لموضوع البحث، بالإضافة إلى بيان أهمية البحث ومنهج الدراسة، وكذلك الملاحق التي تضمنت الخرائط، والرسائل المتبادلة بين الخليفة المستعصم بالله وهولاكو، وأيضاً نماذج من العملة التي كانت في عهد المستعصم بالله واستمرت بعده.

فاختص الفصل الأول بدراسة حياة المستعصم بالله وشخصيته من حيث: نسبه، ولقبه، ومولده، وكذلك نشأته وأسرته، موضحاً أن المستعصم بالله نشأ في بغداد. وقد عاصر خلال فترة طفولته وشبابه ثلاثة خلفاء عباسيين، كما تحدثت في هذا الفصل عن مبايعة المستعصم بالله بالخلافة والظروف التي أحاطت بذلك، وتطرقت في هذا الفصل أيضاً إلى صفاته من خلال وصف بعض المؤرخين له، سواء أكانت تلك الصفات إيجابية أم سلبية، كما كانت عادة الخلفاء لتعليم أبنائهم عند كبار العلماء، سواء أكانت العلوم دينية أم دنيوية، وكذلك كان للمستعصم بالله منجزات عمرانية وعلمية من حيث إنشاء الأربطة والمدارس والمكتبات، بالإضافة إلى نقش خاتمه، وأخيراً تحدثت في هذا الفصل عن نهاية المستعصم بالله وكيفية وفاته في ضوء أقوال المؤرخين.

أما الفصل الثاني، فقد قسمته إلى مبحثين، تحدثت في أولهما عن الأوضاع الداخلية للخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله من حيث جهود الخليفة في القضاء على الفتن الداخلية، ثم انتشار الفوضى والاضطراب وفقدان الأمن ودور المستعصم بالله في مواجهة ذلك، وكذلك تحدثت عن الصوفية في عهد المستعصم بالله؛ حيث كان حريصاً على إنشاء الأربطة في أماكن مختلفة من بغداد، ووقفها على المتصوفة، ومن جوانب اهتمام الخلفاء بالمتصوفة تقريبيهم لهم، وجعل بعضهم من حاشيتهم ومعاونيهم، ورُسل إلى ملوك الأطراف. وكذلك أشرت إلى دور الأمراء وكبار رجال الدولة في الحياة السياسية والحياة العامة في عهد الخليفة المستعصم بالله.

أما المبحث الثاني من هذا الفصل، فقد تحدثت فيه عن العلاقات الخارجية للخلافة في عهد المستعصم بالله، موضحاً طبيعتها الإيجابية أو العدائية بالأقطار والدويلات التابعة لها؛ حيث تعرضت فيها إلى علاقة الخلافة ببلاد المغرب والأندلس، ثم بلاد الحجاز (مكة والمدينة) واليمن، والأيوبيين في بلاد الشام ومصر، وكذلك علاقتها بإمارة الموصل، وسلاجقة الروم، ثم الدولة الخوارزمية، كما تحدثت عن علاقة الخلافة بالإسماعيلية وموقف الإسماعيلية من الخلافة في هذه الفترة حتى نهاية هذه الحركة على يد هولاكو سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، ثم علاقة الخلافة مع المغول وبداية احتكاكهم وهجماتهم على أرض الخلافة وموقف المستعصم بالله من ذلك.

وبخصوص الفصل الثالث، فقد تضمن دراسة الإدارة متتالاً الوظائف الرئيسية والمهمة في الدولة كالوزارة، والجيش، والدواوين، والبريد، والقضاء، ثم الحسبة، ذاكراً الشخصيات البارزة والمؤثرة التي تولت هذه المناصب في عهد المستعصم بالله، موضحاً دورها في الدولة، كما أنني ركزت في الحديث عن الجيش، من حيث عناصره وفتاته وأصنافه، ومراتب الجند، بهدف بيان كيف كان وضع الجيش حينما سقطت الخلافة العباسية في بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

أما في الفصل الرابع، فقد عالجت الدراسة في مبحثها الأول الجانب الاقتصادي لدولة الخليفة المستعصم بالله، الذي شمل الزراعة، وما يتعلق بها من الأراضي الزراعية، والبطائح، والري والقنوت، وعرضت بالدراسة لنهري دجلة والفرات وفروعهما، كما تناولت نوعية ملكية الأراضي والإقطاع، أما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد تحدثت فيه عن الصناعة؛ حيث تعرضت للمهن والحرف في عهد المستعصم بالله، كما تحدثت عن أهم الصناعات التي كانت موجودة واستمرت، مثل: صناعة النسيج، والصبغة، والورق، والصبغة، والزجاج، والحدادة، وفي مبحث آخر من هذا الفصل تحدثت فيه عن التجارة من حيث أهميتها وأسباب نشاطها، وطرقها التجارية، سواء أكانت الطرق المائية (البحرية والنهرية)، أم الطرق البرية، كما تعرضت في هذا الفصل إلى الصادرات والواردات، بالإضافة إلى أهم وسائل المعاملات التجارية السائدة آنذاك، وأخيراً تحدثت فيه عن المراكز التجارية المشهورة التي كان لها نشاط تجاري ملحوظ في تلك الفترة.

وأما الفصل الخامس والأخير، فقد تناولت فيه بداية الزحف المغولي باتجاه العالم الإسلامي، موضحاً موقف الخليفة المستعصم بالله من التهديد المغولي خلال فترة حكمه؛ فنجده قد بذل كل ما في وسعه من أجل صد خطر المغول عن بغداد، كما تعرضت في هذا الفصل إلى ظاهرة اتهام ابن العلقمي بالخيانة، فأشرت إلى انقسام المؤرخين تجاه موقف ابن العلقمي؛ حيث كانوا بين مؤيد ومعارض، وهناك من التزم الصمت، وتوصلت إلى أن قدوم المغول إلى بغداد كان ضمن خطة مغولية تستهدف السيطرة على العالم؛ أي أن المغول لم يكونوا بحاجة إلى أن يستدعيهم ابن العلقمي، ثم تحدثت في هذا الفصل عن المراسلات التي تمت بين الخليفة المستعصم بالله مع هولاءكو، لكن من غير الوصول إلى اتفاق يذكر، فكانت النتيجة، زحف هولاءكو باتجاه بغداد، ثم الحصار، ثم الحرب بين الطرفين إلى أن سقطت بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، ثم تعرضت إلى الأوضاع في بغداد خلال فترة السقوط، وأخيراً تحدثت عن نتائج الغزو المغولي على الخلافة العباسية.

وأما المنهج الذي اتبعته في الدراسة، فقد قمت بجمع الروايات التاريخية ونقدتها وتحليلها قدر المستطاع. والترجيح بينها، أخذة بالحسبان آراء المؤرخين السابقين والمعاصرين، فعلى سبيل المثال، عندما درست التهم الموجهة إلى ابن العلقمي بالخيانة، ذكرت الروايات التي أكدت هذه التهمة في المصادر التاريخية، ثم ذكرت الروايات التي نفت ذلك، فذكرت وجهة نظر المؤرخين المعاصرين حول هذه التهمة، بين المؤكد لها أو مكذب، وفي سبيل إخراج الحقائق العلمية بدقة من المصادر، والمراجع الحديثة، فقد بذلت قصارى جهدي، فاقنضت ذلك أن أبحث عنها في جميع المكتبات في الأردن، لذا أمل أن يكون هذا الجهد المتواضع ذا نفع وفائدة للدارس والباحث من جهة، ثم خدمة لتراث الأمة من أجل المحافظة على شخصيتها، عن طريق وصل الحاضر بالماضي، من جهة أخرى.

## المقدمة

لقد حظي التاريخ الإسلامي بشكل عام، باهتمام بالغ من قبل المؤرخين والكتّاب المسلمين وغير المسلمين لما له من أهمية متميزة حيث إن الدراسات الحديثة قد تناولت بكثرة فترة عصر الرسول (ﷺ)، وعصر الخلفاء الراشدين والأمويين بشكل مفصل، وبحثت في جوانبها المختلفة، السياسية والاقتصادية والحضارية والاجتماعية والعسكرية، وأما العصور المتأخرة من تاريخ الخلافة العباسية، بشكل عام وفترة المستعصم بالله بشكل خاص، فإن الدراسات فيها تكاد تندر، كما يلاحظ أن صورة الخلافة جاءت في تلك الدراسات غير متكاملة فهي بذلك تحتاج إلى المزيد من الدراسة والمتابعة لاستكمال النقص فيها، حيث أن المعلومات المتوافرة عنها، موزعة نثراً في بطون الكتب، الأمر الذي دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع.

### أهمية البحث ومنهج الدراسة:

لقد اخترت أن يكون موضوع هذا البحث، الحديث عن المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد (٦٤٠هـ/١٢٤٢م - ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، للكشف عن أوضاع الخلافة في تلك الفترة ولمعرفة الأسباب التي أدت إلى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وخاصة أن أحداث سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) لم تكن مفاجئة، إنما كانت ذات جذور موعلة في أعماق الماضي، وكانت مظاهر الضعف والتفكك والانحلال تنخر في جسم الأمة لتقودها إلى مثل هذا المصير، وقد كان لإختياري لهذا الموضوع أسبابه ودوافعه، ويمكنني تلخيص أهم هذه الدوافع فيما يلي:

- ١- قلة الدراسات المتخصصة عن الدولة العباسية في الفترة ما بين سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) وسنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) بسبب ضعف الخلافة العباسية في هذه الفترة، وقلة المصادر التاريخية التي تتطرق للحديث عن هذه الفترة بشكل عام، والأمور العسكرية للدولة العباسية ضمن هذه الفترة بشكل خاص، فلم يحظ الخليفة المستعصم بالله بدراسة وافية مستقلة فيما أعلم من المصادر التي وقعت عليها يدي، وما جاء في ذلك لا يعدو كونه إشارات تناثرت هنا وهناك لا تفي بالغرض ولا تشفي الغليل، حيث جاءت هذه الإشارات في إطار البحث في تاريخ الخلفاء العباسيين بشكل عام.
- ٢- رغبتني في إعطاء صورة واضحة ومفصلة عن اهتمام وعناية الخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله بالدفاع عن الخلافة والتصدي للمغول منذ بداية عهد المستعصم بالله.

- ٣- كما هدفت إلى تقديم بحث بشكل متكامل عن أوضاع الخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله في الفترة ما بين (١٢٤٠هـ/١٢٤٢م - ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) من حيث العلاقات السياسية، الأوضاع الداخلية، الإدارة، النواحي الاقتصادية والاجتماعية مع التركيز على أوضاع الجيش في تلك الفترة من حيث عناصرها وقدراتها وأساليبها القتالية العالية وأسلحتها التي زودت بها، والاستعدادات والتدريبات العسكرية، لأن عرض هذه التنظيمات مهم جداً في توضيح مدى النجاح الذي حققته الخلافة العباسية في مسعاها والنتائج التي وصلت إليها على يد الجيش الجديد سواء في مرحلة تكوينه ونموه في ظل الحكم السلجوقي أو في الفترة اللاحقة حتى سقوط الدولة العباسية، والفساد الذي دخل إليه وأثر ذلك على الدولة عسكرياً، للوقوف على الأوضاع التي أدت إلى سقوط الخلافة العباسية.
- ٤- كما هدفت أيضاً إلى توضيح دور الحاشية في التأثير على الخليفة وخاصة ابن العلقمي الذي أتهم بالخيانة والتآمر مع المغول على الخليفة المستعصم بالله .
- ٥- ندرة الدراسات عن آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وإتهامه بسقوط بغداد بسبب إهماله وركونه إلى وزيره ابن العلقمي، فوجدت أنه من واجبي أن أضع الحقائق التاريخية التي توصلت إليها بين يدي القارئ ليحكم.
- ولذلك كله رأيت أن أقدم على هذه المحاولة للكشف عن فترة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد.



## تحليل مصادر الدراسة

أولاً: كتب الحوليات

اقتضى البحث في الفترة ما بين (١٢٤٢هـ/١٢٤٢م - ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) أي في فترة الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، تنوع مصادر المعلومات من مؤلفات تاريخية وجغرافية وتراجم وكتب في الفقه والحرب والأدب والإدارة وغيرها، وكانت الحاجة عامة في جميع فصول البحث لهذه المصادر، وسأحاول تقديم تحليل لبعض المصادر التي استخدمتها في البحث بغض النظر عن الفائدة التي أخذت منها، وذلك لتعريف القارئ بأهمية هذه المصادر في موضوع البحث. علماً أن الفائدة جاءت متفاوتة من هذه المصادر بحسب موضوعاتها، وأهميتها للموضوع.

١- أما المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، فقد اتبع المؤلف فيه منهجاً متميزاً عما سبقه من مؤلفات، حيث جمع بين التاريخ للأحداث على مدار السنوات فتحدث بإسهاب عن السيرة النبوية والخلفاء الراشدين والدولة الأموية، فالعصر العباسي حتى سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م)، وتناول جميع النواحي الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، ولقد أفادني الكتاب في كافة فصول البحث سواء أكان في التراجم أم في النواحي الإدارية أم في عناصر الجيش وتنظيماته أم في الناحية الاقتصادية. كما احتوى على ثلاثة آلاف وثلاثمائة وسبعين ترجمة لمختلف الشخصيات. وقد أدخل ابن الجوزي تقسيماً فاصلاً بين الحوادث وبين الوفيات، فوضع الأخيرة بعد حوادث كل سنة ورتبها حسب الألقاب. إن فصل الوفيات عن الحوادث لم يكن جديداً في أساسه، نظراً لأن أخبار الوفيات كانت موضوعاً تاريخياً قائماً بذاته، غير أن بحث التراجم بهذا الشكل يبدو وكأنه من مميزات ابن الجوزي، الذي اهتم بصورة خاصة بالتراجم التي تفيد في نقد رجال الحديث. وحين يصل إلى عصره يكثر من ذكر الحوادث الثانوية كـ بعض الظواهر الطبيعية الخارقة<sup>(١)</sup>.

٢- كتاب مضممار الحقائق وسرّ الخلائق لمحمد بن تقي الدين عمر ابن شاهنشاه الأيوبي المتوفى سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م)، وهو مؤلف ضخم من مؤلفات القرن السابع، حيث يبلغ عشرة مجلدات، والكتاب يختلف اختلافاً جوهرياً عن من سبقه بأنه يلقي الضوء على كثير من أحداث هذه الفترة الغامضة لا سيما على جوانب حركات صلاح الدين

(١) روزنتال، علم التاريخ، ص ١٩٨.

إزاء الخليفة أولاً ثم إزاء أهل بيته ثانياً وفتوحاته وأعماله بمصر والشام، وأوضاع دار الخلافة في بغداد، هذا مع عنايته بذكر حملة قراقوش التقوى على بلاد المغرب<sup>(١)</sup>، كما اهتم المؤلف بذكر الكوارث والأوبئة والأسعار<sup>(٢)</sup>. ويندر أن يذكر مصادره، لكنه يعتمد أحياناً على روايات من يثق بهم " حكى لي بعض أصحابي ممن أثق به " <sup>(٣)</sup>، وقد ينتقد ويرجح بعض الروايات مع إضافة رأيه " وكان هذا من لطف الله تعالى لأن الوقت متعسر والوقت متعذر والعلف معدوم <sup>(٤)</sup>.

٣- أما كتاب التاريخ المنصوري، فقد وضعه أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي المتوفى سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، وهو من فئة الكتاب، حيث عمل كاتباً للملك الحافظ الأيوبي صاحب جعبر، ثم خدم الملك المنصور صاحب حمص. وكان قد وضع مصنفاً كبيراً باسم الكشف والبيان في حوادث الزمان، لكن لم يصل سوى كتابه التاريخ المختصر الذي أهده لملكه صاحب حمص وسماه التاريخ المنصوري. ولقد ثبت أن ابن نظيف الحموي في أقسامه الأولى لم يتجاوز النقل حرفياً مع تعديل قليل على تاريخ العظيمي، ولم يقدم مادة أصيلة يمكن الاعتماد عليها إلا في أقسامه الأخيرة المتعلقة بالتاريخ الأيوبي بعد صلاح الدين، لاعتماده على محفوظات الدول، وعلى العديد من المعلومات الشخصية الأصيلة<sup>(٥)</sup>. ويمتاز ابن نظيف الحموي بأنه قدم معلومات قيمة عن علاقة الخليفة الناصر بكل من الأيوبيين والخوارزميين والمغول<sup>(٦)</sup>، كما أضاف معلومات جيدة عن حال الوزارة<sup>(٧)</sup>.

٤- والكامل في التاريخ، هو كتاب وضعه عز الدين بن الحسن بن علي بن أبي الكرم المشهور بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، وهو من خيرة الكتب الموضوعية في التاريخ العالمي، جعله على المنهج الحولي<sup>(٨)</sup>. كما أن المؤلف يعبر عن آرائه بأمانة علمية كبيرة ومهارة في النقد نادرة بالنسبة لعصره، وتحليلاً صادقاً للشخصيات

- 
- (١) الأيوبي، مضمار الحقائق (مقدمة المحقق)، ص و - ص. شاکر مصطفى، التاريخ والمؤرخون، ج٢، ص ٢٤٩-٢٥٠.
  - (٢) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص ٣، ٤، ٣٩.
  - (٣) الأيوبي، ص ٥٤.
  - (٤) الأيوبي، ص ٥٢، ٥٢.
  - (٥) شاکر مصطفى، التاريخ والمؤرخون، ج٢، ص ٢٥٥.
  - (٦) الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٦٥، ٦٩، ١٠٩، ١١٠، ١١٦.
  - (٧) الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٧٠.
  - (٨) سالم، التاريخ والمؤرخون، ص ٨٤. شاکر مصطفى، التاريخ والمؤرخون، ج٢، ص ١١٢-١١٣.

التاريخية، ومعالجة للمادة بتفهم عميق<sup>(١)</sup>، كل ذلك بأسلوب بسيط وواضح يقلّ من يجاريه فيه<sup>(٢)</sup>، وقد قدم تراجم دقيقة للخلفاء وسيرهم<sup>(٣)</sup>، حيث عرض مادة تاريخية قيمة وخاصة أنه عاصر الفترة الأولى من الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، وكان شديد الصلة بأخبار العراق، وقد استقصى أخباره عن غزوات المغول للبلاد الإسلامية من تجار ومسافرين بينهم شهود عيان، وكان هو نفسه في الموصل حين اقترب المغول منها.

٥- كتاب سيرة السلطان جلال الدين منكوبرتي، لمحمد بن أحمد النسوي المتوفى سنة (٦٣٩هـ/١٢٤١م)، وقد عمل النسوي كاتباً للإنشاء للسلطان جلال الدين ورسولاً له لدى عدد من حكام المسلمين، وكان مستشاره وموضع ثقته في كثير من أمور الدولة، وتظهر أهمية هذا الكتاب بأنه عاصر الأحداث التاريخية للدولة زمن علاء الدين محمد خوارزمشاه وابن جلال الدين خوارزمشاه الملقب (بمنكوبرتي)، وجاء ما دونه أصدق ما دون في تاريخ الخوارزميين، فهو معتدل في رواياته، ففي صدد حديثه عن رجوع السلطان علاء الدين خوارزمشاه عن قصد العراق العربي قال: "... ورجع السلطان عن وجهه ذلك على خيبة مما هم به، ويأس مطلبة ... وندم السلطان على ما ارتكبه ... " (٤).

وتاريخه سجل وافي لما جرى من اتصالات بين سلاطين الخوارزميين والمغول وما حدث في الفترة التي دون فيها تاريخه، ونراه دقيقاً في وصفه للأحداث، فذكر ما قاساه السلطان علاء الدين من الشدائد والأزمات حتى مات بالجزيرة في بحر الخزر، فيذكر من غسله بعد موته والكفن الذي كفن به، فذكر أن شمس الدين محمود هو الذي غسله وكفن بقميصه لعدم وجود ما يكفونه به<sup>(٥)</sup>، وتراه يصحح الأحداث لابن الأثير، فعندما ذكر ابن الأثير أن كشلوخان هلك سنة (٦١٦هـ/١٢١٨م)، فقد أورده وصححه بأنه سنة (٦١٢هـ/١٢١٤م)<sup>(٦)</sup>.

(١) بارتولد، تركستان، ص ٦٠-٦٢.

(٢) سالم، التاريخ والمؤرخون، ص ٧٩.

(٣) ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٥٧، ٣٨٤، ٣٩١، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٢٣، ٤٤٩-٤٥٢، ٤٦٠،

٤٨٨، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠٢، ج ٩، ص ٢٥، ٢٦، ٦١-٦٢.

(٤) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٦٤.

(٥) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ١٠٨.

(٦) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٤٦.

ولأبي المظفر شمس الدين يوسف بن قرأوغلو بن عبدالله التركي سبط الحافظ ابن الجوزي المتوفى سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، كتاب بعنوان مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، وهو من مشاهير المؤرخين، وكان سبط ابن الجوزي قد نشأ ببغداد ثم الموصل، لكنه استقر أخيراً في دمشق وحظي بالرعاية من الملوك الأيوبيين، وقد اعتمد أثراً ومراجع كثيرة ومن أهمها تاريخ جدّه أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المعروف بالمنظم، وقد تناول المؤلف تاريخ العرب العام على الأساس الحولي مع ذكر التراجم والوفيات في أعقاب الحوادث سنة بعد سنة، ويشتمل الكتاب على مادة تاريخية متفاوتة في قيمتها العلمية، ففي الأقسام الأولى منه وحتى القرن الرابع الهجري، اعتمد على مؤلفات مؤرخين لم تصل إلينا، وتزيد القيمة العلمية للكتاب في القرنين الرابع والخامس الهجريين، لاستقائه من مصادر مفقودة، وفي حين لا يمكن القول أن تميّز في أخبار القرن السادس لتوفر المصادر التاريخية التي أخذ عنها<sup>(١)</sup>، إلا أن الكتاب لا يخلو من بعض الفائدة لا سيّما أخبار الوزارة والجيش، حيث يورد أحياناً تفاصيل لا وجود لها لدى مصدر آخر<sup>(٢)</sup>. وأبرز ما عني به هذا المؤلف هو تدوين الأحداث التاريخية قبيل سقوط بغداد، وكان وصفه لوقائع الغزو المغولي للعراق من الأوصاف الشاملة لهذه الأحداث في هذه الفترة.

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المتوفى سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، ومع أن أبا شامة لم يقدم فيه شيئاً من عنده سوى بعض الجمل والتعليقات الصغيرة، إلا أنه استطاع ببراعته أن يؤلف كتاباً شاملاً في تاريخ الفترة الممتدة من مطلع العهد النوري (٥٤٠هـ/١١٤٥م) إلى وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م). وقد تميز الكتاب بالاعتماد على مصادر مفقودة، وبوضوح شخصية المؤلف بالنقد والمناقشة<sup>(٣)</sup>، ولذلك تتوفر لديه أحياناً تفاصيل جيدة عن الخلافة وعلاقتها الخارجية، خاصة ببلاد المغرب<sup>(٤)</sup>، وفي نيل كتاب الروضتين والذي فصل فيه الحوادث على السنين ما بين سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م) وسنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، حيث أورد فيه معلومات لا تتوفر في المصادر الأخرى<sup>(٥)</sup>.

(١) شاکر مصطفی، التاريخ والمؤرخون، جـ٢، ص ٢٦١. روزنتال، علم التاريخ، ص ٢٠١.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٦٣، ٨٦، ١١٧، ١١٩، ٢١٦، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤.

(٣) شاکر مصطفی، التاريخ والمؤرخون، جـ٢، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٤) أبو شامة، الروضتين، جـ٥، ص ١٨٥-١٨٩، ٢٧٤-٢٧٥.

(٥) أبو شامة، نيل، ص ١١٧، ١١٨، ١٦٥.

٨- وبخصوص كتاب الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، لعلي بن انجب الساعي المتوفى سنة (٦٧٤هـ/٢٧٥م)، فقد كان كتاب كبير في خمسة وعشرين مجلداً بلغ فيه إلى آخر سنة (٦٥٦هـ/٢٥٨م)، مرتب على حسب السنين، والموجود منه الجزء التاسع ويبدأ من سنة (٥٩٥هـ/١٩٧م)، وينتهي بحوادث سنة (٦٠٦هـ/١٢٠٨م) ذكر فيه ما وقع خلال هذه الفترة من الأحداث السياسية والطبيعية، وترجم لكثير ممن توفوا في تلك الحقبة الزمنية، ومن أهم ما فيه أنه يذكر ضعف الدولة العباسية، حيث كثرة غارات الدول والملوك المجاورين للدولة على أملاكها، وقد وفر لنا معلومات في كثير من مواضع الدراسة<sup>(١)</sup>، وقد أخذ عن ابن الأثير وعن ياقوت الحموي في معجم الأدباء وغيرهم من المؤرخين.

٩- تاريخ جهانكشاي (فاتح العالم)، لعلاء الدين عطا ملك الجويني، الذي توفي سنة (٦٨١هـ/١٢٨٣م)، حيث يعد من مؤرخي البلاط المغولي وبالتالي فهو معاصر للتوسع المغولي، ويعتبر في مقدمة من كتب عن تاريخ المغول والترك، واعتمد عليه العرب في النصوص المستنقاة منه رأساً أو بالواسطة، وتظهر أهمية هذا الكتاب في أن الجويني شرح ما رأى ودون ما سمع، ووصف وصفاً وافياً، فكان في قدوة المؤرخين، وأن صلته المباشرة بهولاكو وبأمراء المغول جعلته يطلع على ما يجري، وكان كاتباً للأمير أرغون وزار مملكة المغول عدة مرات وتجول نحو عشر مرات في ما وراء النهر وتركستان حتى وصل حدود الصين، وكتابه هذا دون أيام المغول، باللغة الفارسية، فهو من الوثائق المعاصرة وأن كان اقتصر على صفحة من تاريخ المغول، فهو من أقدم ما كتب عن المغول. وقد أظهر لنا الكتاب أهداف جنكيز خان من حربه وغزواته خارج بلاده، كما أظهر لنا الخطورة من حادثة قتل التجار في مدينة أترار بقوله: " وأن كل قطرة من دماهم قد كفر عنها المسلمون بسيل من الدماء، كما كلفتهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من أرواحهم، ودفعوا مقابل كل دينار ألف قنطار"<sup>(٢)</sup>، كما وصف دخول جنكيز خان للمدن الإسلامية وصفاً دقيقاً<sup>(٣)</sup>.

١٠- ويمكن الإشارة إلى آثار أخرى مثل تاريخ مختصر الدول، لابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الكاتب السرياني (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) الذي ولد في قرية عبرا على الفرات، وترهب في انطاكية، حيث سمي كاهناً وأصبح في العشرين من عمره

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ١٦٨-١٦٩.

(٢) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ٦١-٦٥.

(٣) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ٨٢.

أسقفاً على جوباس ومنها نقل إلى أسقفية لاقبين ثم إلى حلب وأخيراً رقي إلى مقام المفريان أي كبير رئيس أساقفة وهو نائب عام لبطريك أنطاكية لبلاد الشرق التي كانت آنذاك تحت السيطرة المغولية. وقد تنقل خلال اثنتين وعشرين سنة لممارسته وظيفته بين ما يعرف بالعراق، وأذربيجان خصوصاً تبريز ومراغة وفي هذه المدينة لفظ ابن العبري أنفاسه الأخيرة، وكانت آنذاك عاصمة للمغول الأيلخانيين<sup>(١)</sup>. وضمن كتابه تاريخ العالم من آدم عليه السلام حتى سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٥م)، وجل ما يقال فيه أنه ظهر في عصر مضطرب حدثت فيه فتن عظيمة بين صليبية ومغولية، ولم يكن ابن العبري حيادياً فيما يكتب لأنه كان معاصراً للمغول ويخشى بطشهم بل يعدهم مناصرين لملته، ومع ذلك فإنني كنت حذراً في الاعتماد على ما كتبه. كما أن ابن العبري استقى مادته من مصادر فارسية وعربية وسريانية، إلى جانب ملاحظاته الشخصية الخاصة لأنه عايش العديد من الأحداث التي سردها، وهو لا يكتفي بالنقل من مصادره بل يقارن بينها ويصحح هذا الخطأ أو ذاك<sup>(٢)</sup>، وقد جهد ابن العبري أثناء سرده للأحداث التاريخية الإسلامية أن يقدم عرضاً جيداً وموجزاً للأوضاع التي سبقت سقوط بغداد، وقد أسهب في الحديث عن المغول ودخولهم بغداد وكيفية سقوطها<sup>(٣)</sup>.

١١-

كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، لصفي الدين أبو عبدالله محمد بن النقيب تاج الدين علي بن طباطبا الحسني الطقطقي (ت ٧٠١هـ/١٣٠١م)، فقد ختم حوادث هذا الكتاب باحتلال بغداد على يد هولوكو حتى وفاة الوزير مؤيد الدين بن العلقمي، إلا أنه خلال حديثه تعرض للوقائع بعد هذا التاريخ بكثير وأتم تأليفه سنة (٧٠١هـ). تكلم عن حكومة الخلفاء الراشدين فلم يمسه خشية أن ينال العقاب الصارم من سخط الرأي العام، وكتب كتابه بشكل يرضي المغول وقدمه إلى أحد ولاتهم وهو فخر الدين عيسى بن إبراهيم وجعله باسمه واشتهر الكتاب باسم "تاريخ الفخري"، والكتاب يمدح المغول مدحاً زائداً ويدعو لهم بالدوام والتوفيق، ويبين رجحان حكومتهم وفضلها على غيرها من سائر الحكومات ليرضي المغول. وقد قال في الدولة المغولية: "فانظر كيف كان زي الناس في زمن الخلفاء فلما ملكت هذه الدولة (الدولة المغولية) أسبغ الله إحسانها وأعلى شأنها غير الناس زيهم في جميع الأشياء ودخلوا في زي ملوكهم..."<sup>(٤)</sup>. وأيضاً: "ولم ينقل في تاريخ ولا تضمنت سيرة من السير أن دولة من

(١) ابن العبري، تاريخ الزمان (مقدم الكتاب)، ص ١٢.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان (مقدمة الكتاب)، ص ١٤-١٥.

(٣) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٣٣٢-٣٣٤.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٥.

الدول رزقت من طاعة جندها ورعاياها ما رزقته هذه الدولة القاهرة المغولية ... " (١). وكان يطعن في بعض أفراد الإدارة لأغراض حزبية لتعصبه الشيعي دون مراعاة الواقع، ويدافع عن البعض وآيات ذلك دفاعه عن الوزير ابن العلقمي ونفى التهمة عنه، كما أنني استفدت منه في كافة فصول الدراسة.

١٢- أما كتاب خلاصة الذهب المسبوك المختصر من سير الملوك، لبدر الدين عبدالرحمن بن إبراهيم بن قنيتو الأربلي (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م)، فقد كان موجزاً في تاريخ الخلفاء يبتدئ من خلافة الوليد ابن عبدالملك إلى منتهى الدولة العباسية، ويعطي وصفاً كاملاً عن كيفية تولي المستعصم بالله الخلافة والمبايعة له (٢). وأهم ما جاء في هذا الكتاب وصفه للحالة في العراق قبيل سقوط بغداد فيصور لنا تصويراً صادقاً عهد الناصر والفترة التي تلتها حتى سقوط بغداد في أيدي المغول، كما أنه قدم معلومات عن الخلفاء العباسيين ومن بينهم المستعصم بالله.

١٣- كتاب جامع التواريخ، لرشيد الدين فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨هـ/١٣١٩م)، يعد هذا الكتاب من أمهات الكتب التي كتبت حول المغول وتاريخهم وعلاقتهم مع الخليفة المستعصم بالله، وقد فصل في فتوحات هولوكو وحياة غازان وإصلاحاته الإدارية والمالية (٣). وقد وضع الكتاب في الأصل بناء على أوامر السلطان غازان، ووضعت تحت تصرف مؤلفه كل المعلومات التي كان يريد الحصول عليها، وقد اتصل بعدد من أمراء المغول وحكامهم وحكمائهم والعارفين منهم بجانب استخدامه العديد من المصادر الإسلامية، وهذا الكتاب من المؤلفات الفارسية القديمة التي تؤكد على تاريخ إيران وتفصل فيه ولا يأتي تاريخ العراق فيها إلا عرضاً باستثناء الأحداث العسكرية والسياسية المهمة، أما النصوص المفيدة في تاريخ العراق الاقتصادي والاجتماعي فإنها قليلة في الكتاب على الأغلب.

والأجزاء التي اعتمدت عليها من هذا الكتاب الجزء الأول والثاني من المجلد الثاني وهما عبارة عن تاريخ هولوكو وأبنائه، وفي هذا الكتاب يعطي الهمذاني معلومات كاملة عن المراسلات التي تمت بين هولوكو والخليفة المستعصم بالله قبيل سقوط بغداد (٤). وعلى العموم فإنه يظهر بوضوح ميل المؤرخ وانحيازه للمغول، حتى غلب في بعض الأحيان طابع التمجيد والمدح والفخر على أخباره.

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦.

(٢) الأربلي، الذهب المسبوك، ص ٢٩٠-٢٩١.

(٣) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢١٨-٢٣١.

(٤) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٦٧-٢٨١.

١٤-

وفي كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، المنسوب لكمال الدين عبدالرازق بن أحمد الشيباني المعروف بابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/١٣٣٢م)، فقد برع مؤلف الكتاب في معالجة تاريخ المائة السابعة الهجرية من الناحية السياسية على الإجمال. فهو أفضل ما كتب في التاريخ السياسي في العراق على الأكثر لأنه يعني بالإشارة إلى نظم الحكم وسياسة الدولة والنظم الاقطاعية في المائة السابعة، ويعنى بتاريخ الخلفاء العباسيين والملوك والوزراء والصدور وكبار المتصرفين والأعيان في الدولتين العباسية والمغولية. فترجم لهولاكو، وأباقا وأرغون وكياختوو غازان<sup>(١)</sup>. كما تحرى الكتاب وفيات العلماء والأطباء والفلاسفة والمنجمين والسلطين والملوك والخلفاء والوعاظ والكتّاب والأمراء وغيرهم. فكشف عن مآثرهم وأخلاقهم إلى جانب الحوادث المتعلقة بالدولة العباسية منذ سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) وحتى سقوط الدولة على يد المغول. وتظهر قيمة هذا الكتاب أيضاً في أنه يتبسط في وصف الرسوم والقواعد والعادات المتبعة في الدولتين وصور البراءات، ويدخل في ذلك البراءات والمراسيم الصادرة بتعيين رؤساء أهل الذمة من يهود ونصارى<sup>(٢)</sup>. ووصف حفلات التوديع والاستقبال لمختلف رجال الدولة والإشارة إلى أزيائهم وشاراتهم وملابسهم في تلك الحفلات. وهذا الكتاب من أوفى المراجع في تاريخ المساجد والمدارس والخطباء والمدرسين والمحدثين، لذا فقد أفادني هذا الكتاب في كافة فصول البحث، سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم إدارية.

١٥-

وفي كتاب المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل صاحب حمّاه (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، كان عمدة في أخباره، وقد اعتمد على تاريخ المنشى النسوى المعروف " بسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي" في تاريخ المغول وعلاقتهم بخوارزمشاه فلخصه في تاريخه، ومباحثه مهمة، وينقل بعض الأخبار عن الكامل لابن الأثير ومن مؤرخين آخرين. وتظهر أهمية هذا الكتاب بأن المؤرخ كان معاصراً في العراق، وكان دقيقاً في تدوين الحوادث التي حدثت بين أفراد الأسرة الأيلخانية وعنى بكا عنايك كبيرة، وقد أعطى معلومات متنوعة وذات قيمة عن الخليفة المستعصم بفرّقه وعن سقوط بغداد<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٥٣، ٣٧٥-٣٧٩.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١٨، ٣٤٨، ٣٠٠.

(٣) أبي الفداء، المختصر، ج٣، ١٨٢-١٨٣، ٢١٥-٢١٦، ٢٢٩-٢٣٠.



١٦- كتاب البداية والنهاية، للحافظ أبي الفداء بن كثير الدمشقي المتوفى سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، حيث تناول فيه التاريخ منذ بدء الخليقة حتى سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، وجعله على السنين مع إضافة بعض التراجم المهمة في نهاية حوادث كل سنة<sup>(١)</sup>. لكنه لم يأخذ بالتنظيم الأبجدي الذي اتبعه المنتظم وتحاشى إلى حد ما الفصل بين الحوادث والتراجم<sup>(٢)</sup>، ومن الواضح أن المؤلف اعتمد على مؤلفات المؤرخين السابقين، حيث اعتاد ذكر المصدر الذي ينقل عنه "قال سبط بن الجوزي في كتابه مرآة الزمان"<sup>(٣)</sup>. وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة<sup>(٤)</sup>. كما أنه يبدي رأيه أحياناً "هذا كثير من أهل تلك البلاد" فسألت جماعة عن ذلك فأخبروني به<sup>(٥)</sup>، ألا إنه لا يقظ برأيه فيما يذكر في بعض الحوادث مثل طريقته قتل المستعصم بالله، حيث ردد أقوال الرواة في ذلك واكتفى بقوله: "فإنه أعلم"<sup>(٦)</sup>، وأيضا نفس الأمر يتكرر عندما يتحدث عن عدد القتلى من أهالي بغداد<sup>(٧)</sup>، وبالنسبة لموقف ابن العلقمي من الخلافة العباسية، فقد ذكر تأمره والأعمال التي قام بها من أجل ذلك. فقال: "... وذلك كله طمعا من أن يزيل السنة بالكلية وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين..."<sup>(٨)</sup>. وهو من خير المؤلفات التي استندت منها في البحث في كافة الفصول بمعلومات حربية سياسية اقتصادية، فكانت فائدته قيمة.

١٧- وفي كتاب العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك للمؤلف الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الغساني المتوفى سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) الذي تقلد الحكم في اليمن سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦م). فالمعلومات تكاد تكون عامة عن فترة البحث وخاصة الجزء الثاني، وقد عالج التاريخ على السنين، واهتم بالخلفاء وأفرد لكل منهم فصلاً خاصاً منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى آخر الخلفاء العباسيين. والكتاب يجمع بين الحوادث والوفيات، وقد ترجم لعلماء ومحدثين وشعراء وأدباء ونحاة

(١) ابن كثير، البداية (مقدمة المحقق)، ج١، ص ٥-٨.

(٢) روزنتال، علم التاريخ، ص ٢٠٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٦، ١٨٥.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٨٠، ١٨١، ١٨٤.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٩، ٢٣، ٢٩.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠-١٩٢.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠.

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠٢.

وأمرء وقواد وفقهاء، ولا يخلو من ذكر مناسبات اجتماعية كالزواج وكيفية الاحتفال به، وحفلات الختان والتهيء للحج ثم استقبال موكب الحاج وما إلى ذلك<sup>(١)</sup>.  
ويتجه المؤلف إلى الإيجاز في ذكره لأغلب الحوادث والتراجم، كما يمتاز بالترابط، وله الكثير من التعليقات الخاصة على الحوادث، وهذه التعليقات تتباين من حيث أهميتها، فقد تبدو في بعض المواضيع سطحية وقليلة الأهمية، غير أنها في مواضع أخرى لها قيمة تاريخية، ثم أنه يناقش بعض الروايات، وينبه على الشعر الذي ينسب لغير قاتلة<sup>(٢)</sup>. وشملت أخباره بلاد العالم الإسلامي، بل لقد شملت حتى الدول غير الإسلامية التي كانت لها علاقة حربية أو سلمية مع الدول الإسلامية، فهو يتحدث عن الجزيرة بأقطارها كما يتحدث عن العراق ومصر والشام والأندلس وشمال أفريقيا، وعن بلاد الروم والدول المسيحية. وتفوق مادته التاريخية المتبقية، والتي تشمل حوادث سنة (٥٧٥-٦٥٦هـ/١١٧٩-١٢٥٨م)، من حيث الوفرة والقيمة التاريخية المصنفات الأخرى، وخاصة أنه يعطي معلومات مفيدة عن حالة الدولة العباسية، والسياسية والاجتماعية قبيل سقوط بغداد في أيدي المغول وعلاقتهم التجارية مع البلاد الإسلامية، وخاصة الخوارزميين<sup>(٣)</sup>، ثم تعرض لوقائع الغزو المغولي للبلاد الإسلامية وما ارتكبه من فظائع، كما وصف تأمر ابن العلقمي مع المغول ووقعة بغداد وسقوطها في أيدي المغول وصفاً كاملاً<sup>(٤)</sup>.

١٨- كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشندي، المتوفى سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م)، وأصله من بلدة قلقشندة، لكنه عاش فترة في الإسكندرية حيث خدم نائباً بها، ثم انتقل إلى القاهرة واستقر بها، فعمل في ديوان الأعباس وبتوقيع الدرج دون معلوم، ثم قاضياً شافعيّاً إلى أن التحق بالعمل في ديوان الإنشاء في سنة (٧٩١هـ/١٣٨٨م)<sup>(٥)</sup>. ولعله هدف من تأليف الكتاب أن يكون مرجعاً أساسياً لمجموعة المعارف والعلوم التي يلزم كاتب الإنشاء الإحاطة بها<sup>(٦)</sup>، ويذكر أن القلقشندي استند في تأليفه لهذا الكتاب إلى محفوظات ديوان الإنشاء الرسمية حيث استخرج مادته من الوثائق والكتب والمراسلات الخلافية والسلطانية والمكاتبات الرسمية عموماً، وأفاد من

(١) الغساني، العسجد، "مقدمة المحقق"، ص ١٤-١٥.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٠٠، ٥٢٣، ٥٣٣، ٥٦٠، ٦٢٩.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٣٦١.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٠٩-٦٤٥.

(٥) المقرئزي، المقفى، ج١، ص ٥١٢-٥١٣.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٣٤.

الكتب التي سبقته في موضوعه (١)، وقد قسمه إلى عشر مقالات وخاتمة وكل مقالة يمكن أن تكون كتاباً قائماً بذاته (٢). وهو كما يلاحظ يذكر مصادره " وفي مسالك الأبصار " وقال صاحب العبر (٣)، وزيادة على هذا فإن المؤلف يعطي آراءه بكثرة " وربما قيل فيه " ، " قلت وأكثر هذه الألقاب " (٤)، ويمدنا الكتاب بمادة دقيقة وواسعة عن الناحية الإدارية (٥).

وله أيضاً كتاب آخر بعنوان " مآثر الأنافة في معالم الخلافة " كتبه سنة (٨١٩هـ/١٤١٦م)، وعالج فيه معنى الخلافة وألقابها وشروطها ثم استعرض الخلفاء حتى سقوط بغداد، وقد تحدث بإسهاب عن سقوط بغداد (٦)، ثم يذكر أسماء الولاة على الأمصار في عهد المستعصم بالله (٧). وبعد ذلك تابع سلسلة الخلفاء العباسيين في القاهرة، ذكراً للخليفة والحوادث والوقائع في خلافته، وولايات الأمصار حتى انتهى إلى المعتضد بالله (٨)، وتميز عرض الكتاب بالإيجاز.

١٩-

أما تقي الدين أحمد بن علي المقرئ (ت ٩٤٥هـ/١٤٤١م) فله مجموعة من الكتب التي استخدمت في البحث أهمها اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء والسلوك لمعرفة دول الملوك، وكتاب المقفى الكبير وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ولد المقرئ في حارة برجوان بالقاهرة، وكان حنفيّاً بدايةً تبعاً لجدّه لأمه العلامة الأديب شمس الدين بن الصائغ الحنفي، في حين كان والده حنبلياً، ثم تحول بعد ذلك إلى المذهب الشافعي، وتعصب على أصحاب المذهب الحنفي، وانكب على دراسة الحديث واللغة والفقه والتاريخ الذي استنفذ فيه معظم جهوده (٩). وكان المقرئ قد شغل الحسبة أكثر من مرة، ثم عمل بعدها خطيباً بجامع عمرو بن العاص، ومدرساً بمدرسة السلطان حسن، وناظراً وإماماً بجامع الحاكم، ثم مدرساً للحديث بالمدرسة المؤيدية. وسافر عام (٨١١هـ/١٤٠٨م) إلى دمشق وأقام بها عشر سنوات، وعمل فيها

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٠١-٣٠٢، ٣١٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٣٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ١١٩، ١٢٠، ١٢٤، ١٢٥.

(٥) القلقشندي صبح الأعشى، ج١٠، ص ٢٤٢-٢٤٣، ٢٤٦-٢٥١.

(٦) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٩٠-٩٣.

(٧) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٩٣-١١٠.

(٨) شاکر مصطفى، التاريخ والمؤرخون، ج٣، ص ١٣٣-١٣٧.

(٩) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص ٤١٥.

ناظراً لأحباس المدرسة القلانسية، وأحباس البيمارستان النوري، ومدرساً بمدرستي الإقبالية والأشرفية بعد أن رفض تسلم منصب القضاء<sup>(١)</sup>.

ويبين أن المقرئ كرس معظم حياته وجهوده لكتابة التاريخ حتى نعته ابن إياس " مؤرخ العصر ووحيد الدهر " <sup>(٢)</sup>، كما هدف المؤلف في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، إكمال سلسلة المؤلفات التي تناولت تاريخ مصر، وذلك باستعراض تاريخ الدولتين الأيوبية والمملوكية، ووصل به إلى سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) مع التركيز على الحوادث دون التراجم والوفيات<sup>(٣)</sup>، وتأتي الأهمية لهذا الأثر لموضوع البحث في احتوائه تفاصيل دقيقة عن حياة المستعصم بالله وما يتعلق به، ثم ذكر بعض الشذرات عن سير الخلفاء وعلاقاتهم، كما تناول أخبار المغول من مسكنهم وديانهم وعلاقاتهم<sup>(٤)</sup>، ثم تعرض لغزواتهم للبلاد الإسلامية.

وبالنسبة لكتاب المقفى الكبير في تراجم أهل مصر والواردين إليها، فقد كان حافل بتراجم الملوك والأمراء والعلماء المصريين أو من عرفتهم مصر من جميع الأقطار على منهاج تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. وقد جعله في ١٦ مجلداً على حروف المعجم<sup>(٥)</sup>، وقد استفدت منه في بعض جوانب الدراسة.

أما كتاب المواعظ والاعتبار، فقد كان هذا كتاب جليل، نال عناية كبيرة من المؤرخين، وفيه معلومات مفيدة عن المغول والعهود التالية لهم.

٢٠- كتاب النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، لأبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، يبتدئ هذا الكتاب من فتح مصر على يد العرب المسلمين ويمتد إلى أيام مؤلفه، وهو من المصادر التاريخية التي يعول عليها في تاريخ مصر والشام والعراق، وأهم ما في الكتاب ما تناوله من أحداث في الفترة الأخيرة من الدولة العباسية من غزوات المغول للبلاد الإسلامية، وما جرى بين الخوارزميين وخلفاء العباسيين في هذه الفترة، وغزوات المغول المتكررة على العراق قبل سقوط بغداد في أيديهم<sup>(٦)</sup>. وكان تاريخه من المصادر الهامة التي حوت بين صفحاتها حروب المغول في بلاد الشام بالتفصيل. ولابن تغري بردي كتاب هام آخر هو : (المنهل الصافي

(١) المقرئ، السلوك، ج٣، ق٣، ص ٩٦٩، ٩٩٩، ١١٠٣.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٣) المقرئ، السلوك، ج١، ق١، ص ٩.

(٤) المقرئ، السلوك، ج١، ق١، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٥) شاعر مصطفى، التاريخ والمؤرخون، ج٣، ص ١٤٥.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٤٧-٥٥.

والمستوفى بعد الوافي) (يريد الوافي بالوفيات). وهو من أجل الكتب وأعظمها فائدة وأجمعها مادة، ويبدو أنه بدأه بسنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، كما صرح هو في بعض المواضع، وكتب على طريقة ابن خلكان والصفدي في الوافي بالوفيات، وذكر الأشخاص المشاهير من علماء وأمرء على ترتيب حروف الهجاء إلى آخر أيامه.

## ثانياً: كتب التراجم والسير

تكمن أهمية هذا النوع من الكتب بما تحتويه من مادة غزيرة في مختلف جوانب حياة الشخصيات الذين ترجمت لهم سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم ثقافية وإدارية، لذا فإنها أمدت البحث بمعلومات كثيرة عن الشخصيات الواردة فيها. ومن لهم اتصال بهم من خلفاء وسلاطين ووزراء وفقهاء وموظفي إدارة، فكان من الطبيعي أن تكون هذه الكتب ذات أهمية كبرى بالنسبة للباحثي، وأشهر هذه الكتب :

١- كتاب تاريخ واسط لجمال الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد بن محمد البغدادي المعروف بابن الديبتي المتوفى سنة (٦٣٩هـ/١٢٤١م)، وهو واسطي المولد، حيث نشأ ودرس الفقه والعربية، ثم رحل إلى بغداد والموصل والحجاز، ودرس على العديد من الشيوخ، وله كتب أخرى إلى جانب تاريخ واسط هي: ذيل على ذيل السمعاني لتاريخ بغداد ابتداءً به من حيث انتهى السمعاني، وذكر فيه ما لم يذكره الخطيب ولا السمعاني من التراجم والأخبار<sup>(١)</sup>، وكتاب المختصر المحتاج إليه، وهما كتابا تراجم ويعتبران المرجع الوثيق للمشتغلين بدراسة تاريخ العراق في القرنين السادس والسابع الهجريين. أهتم ابن الديبتي بالإسناد<sup>(٢)</sup> وذكر مصادره "ذكره أبو سعيد السمعاني في تاريخ". وحدثنا عنه طالب عبدالرحمن الهاشمي بكتاب أسباب التنزيل " في كتاب المذهب لأبي إسحاق"<sup>(٣)</sup>، وكان اعتماده الكبير على الروايات الشفوية، والمقابلات الشخصية<sup>(٤)</sup>. وفي كتابيه ذيل تاريخ بغداد، والمختصر المحتاج إليه مادة تاريخية متفرقة وهامة عن الوزارة من سنة (٥٠٠-٦٢٠هـ/١١٠٦-١٢٢٣م)<sup>(٥)</sup>.

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص ١٠٣.

(٢) ابن الديبتي، المختصر المحتاج إليه، ج١، ص ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٧.

(٣) ابن الديبتي، المختصر المحتاج إليه، ج١، ص ٦٤، ٦٧، ٨١، ٨٣، ٩١، ٩٢، ٩٦.

(٤) ابن الديبتي، المختصر المحتاج إليه، ج١، ص ٦٣، ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٨، ٨٠.

(٥) ابن الديبتي، المختصر المحتاج إليه، ج١، ص ٦، ٤١، ٧٦، ج٣، ١٧٢، ٢٩٨، ٣١٩، ٣٤٣، ٢٨٥،

٢٦٧، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص ٩٦، ٩٧، ١٤٧، ١٤٨، ٢٢٧، ٢٢٨، ج٢، ص ٦٢، ٦٤، ١٣٨.

ومن المصنفات التي لها أهمية خاصة للبحث ذيل تاريخ بغداد للحافظ محب الدين أبو عبدالله محمد بن أبي الفضل محمد البغدادي، المعروف بابن النجار المتوفى سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م). نشأ المؤلف في بيت علم وأدب وحديث ورواية، وزار السثم ومصر وأصفهان وخراسان والحجاز ومرو وهراة وأذربيجان واليمن وبلاد الجبل وحران والموصل وحبلى والمعة وبيت المقدس، واستمع أثناء ترحاله إلى دروس في الفقه وعلوم الدين<sup>(١)</sup>. ومن أهم مؤلفاته كتاب التاريخ المجدد لمدينة السلام، استوعب فيه ذيلي السمعاني وابن الدببئي وزاد عليهما، فجاء كتابه سفرأ حافلاً من حيث عدد التراجم ونوعيتها، لفترة زمنية قاربت المائة والثمانين سنة، امتدت من سنة (٤٦٣-٦٤٣هـ/١٠٧٠-١٢٤٥م)، وفيه سار على خطة الخطيب البغدادي في ذكر من كان ببغداد أو وردها من الخلفاء والوزراء والقضاة والعدول والخطباء والشعراء والقراء ورواة الحديث ورتب كتابه على حروف المعجم<sup>(٢)</sup> وهو يعمد في أغلب الأحيان إلى إثبات مصادره " في كتاب طبقات الهمدانين " قرأت في كتاب أبي نصر القارئ بخطه " قرأت في كتاب المعجم لأبي عبدالله الأرجاني " ذكره الخطيب في التاريخ"<sup>(٣)</sup>، كما يعتمد على الروايات الشفوية بالقول " حدثنا " أخبرنا " أخبرني شهاب الخاتمي بهراه " أخبرنا جعفر بن علي بالإسكندرية " " حدثنا عبدالعزيز بن محمود من لفظه " أنبأنا عبدالوهاب بن علي " " وخبرني بعض أصحابنا "<sup>(٤)</sup>. وقد قدم روايات متفرقة عن الوزارة، سيما وزارة عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، ولم يرد ذكرها عند غيره .

كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب، لكامل الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم المتوفى سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، وكان هدف المؤلف الأساسي تناول تاريخ حلب من حيث أخبار ملوكها وابتداء عمارتها، ومن كان بها من العلماء، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتّاب. ورغم أن الكتاب يزيد على عشرين مجلداً إلا أنه لم يصل إلينا منه سوى عشرة مجلدات، وكثيراً ما رجع المؤلفون المتأخرون إلى هذا الكتاب وأشادوا به<sup>(٥)</sup>. والكتاب

(١) ابن النجار، الذيل، ج١، " مقدمة المحقق"، ص ١٢-١٧.

(٢) ابن النجار، الذيل، ج١، ص ٢١.

(٣) ابن النجار، الذيل، ج١، ص ٥٠، ٥٣، ٦٠، ٦٦، ٧٢.

(٤) ابن النجار، الذيل، ج١، ص ٤٢، ٤٦، ٥٣، ٥٧، ٦٤.

(٥) شاکر مصطفى، التاريخ والمؤرخون، ج٢، ص ٢٦٣-٢٦٤.

عبارة عن تراجم للأشخاص مع ذكر للمؤلفين الذين ينقل عنهم الأخبار حين إيرادها (١).  
والكتاب من المصادر القيمة، إلا أنه أعطى بعض الإشارات العابرة عن كثير من  
مواضيع الدراسة.

٤- كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان المتوفى  
سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م). ولد ابن خلكان بأربل وسمع بها صحيح البخاري وأجاز له  
المؤيد الطوسي وعبدالمعز الهروي وزينب الشعرية، وهم أنفسهم الذين أجازوا للخليفة  
المستعصم بالله (٢)، ومن الجلي أن ابن خلكان كان متفنناً بالعربية ضليعاً في الأدب  
والشعر، مولعاً بمطالعة أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم وموادهم مما  
دعاه إلى تأليف هذا المختصر التاريخي (٣). وقد أفاد من المصنفات التاريخية السابقة،  
والتي اعتاد إثباتها "نقلته من جمهرة النسب لابن الكلبي" "ذكره أبو الحسن عبدالغافر  
في سياق تاريخ نيسابور"، "ذكر محب الدين بن النجار في تاريخ بغداد" "قاله الحافظ أبو  
سعد بن السمعاني في كتابه الأنساب (٤). وقد عالج المادة المتوفرة بتدقيق ونقد، ورجح  
بعض الروايات فيذكر أحياناً "قيل" "ويقال" "والله أعلم" "وطريقته فيه لطيفة"  
"ونبهت على المقصود منه" "ويحتمل" "وقد اختلفوا في هذه النسبة" "والأول أصح" (٥).  
وقد وضع مؤلفاً فيه اتزان وموضوعية، جدير بالثقة حتى في الحالات التي نجعل فيها  
المصادر التي استقى منها مادته، وهو من بين المؤرخين القلائل الذي قدم لنا ترجمة  
مفصلة عن الوزير.

٥- وبالنسبة لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيمان بن عبدالله الذهبي  
(ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، فقد كان له مجموعة من الكتب أبرزها: تاريخ الإسلام، وسير  
أعلام النبلاء، والعبور، ودول الإسلام، وقد كان الذهبي ينتمي إلى أسرة تركمانية  
الأصل (١). وقد أمتاز الذهبي بالبراعة في القراءات والحديث والنحو والعقائد وأصول

(١) ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص ٤٨، ٥٠، ٦٠.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٤.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، (مقدمة المحقق)، ص ٢٠-٢١.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، (مقدمة المحقق)، ص ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١،  
٤٢، ٥٢.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، (مقدمة المحقق)، ص ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٥٠،  
٥٣، ٥٤.

(٦) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ٧٧.

الفقه والتاريخ<sup>(١)</sup>، كما أمتاز بنشاطه الثقافي إذ تولى الخطابة بمسجد كفرطنا، وكان شيخ دار الحديث بترية أم الصالح، ودار الحديث الظاهرية، والمدرسة التتكريزية والفاضلية<sup>(٢)</sup>.

وأهم كتب الذهبي كتاب تاريخ الإسلام الذي جعله في واحد وعشرين مجلداً، تناول فيه الحوادث والتراجم ابتداء من السنة الأولى للهجرة حتى سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٢م). وتقوم خطة الكتاب على تقسيمه إلى وحدات زمنية أطلق عليها لفظ الطبقة وتعنى اللقب في الأغلب دون وحدة زمنية ثابتة<sup>(٣)</sup>، إن الكتاب يتألف من سبعين طبقة، رتب المؤلف فيه الحوادث على السنين وجعل حوادث كل سنة منفرد بنفسها، ووضع لها عنواناً خاصاً، وكان يفصل الحادثة عن الأخرى في السنة الواحدة باستعمال لفظة وفيها أو يذكر الشهر الذي وقعت فيه وربما عيّن اليوم<sup>(٤)</sup>. يقدم الذهبي المترجمين مرتبين على حروف المعجم، لكنه لم يعتبر اسم المترجم الأساس، بل اعتبر الشهرة واتخذها أساساً في ذلك سواء أكانت شهرة المترجم في اسمه أم لقبه أم كنيته<sup>(٥)</sup>.

وقد استقى الذهبي مادته من المشاهدة والملاحظة والمشاهدة، والمساءلة والمكاتب، ومجامع الطلبة والشيوخ، ومؤلفات المترجم، والمؤلفات السابقة<sup>(٦)</sup>، وزيادة على هذا فإن المؤلف يقدم لنا المادة بلغة قوية متينة يصعب أن تجد في كتابه لحناً أو غلطاً لغوياً أو استعمالاً عاماً<sup>(٧)</sup>. وتميز أسلوبه بالطراوة والحبك ولم يعن بالصنعة البيانية وتزويق الألفاظ كغيره من معاصريه وتلامذته. وهو الناقد الذي يختار العبارة المناسبة للتعبير عما يريد بصورة دقيقة، فيصف المترجم بالعبارة التي تزنه جرحاً أو تعديلاً<sup>(٨)</sup>. هذا وجرى المؤلف على الإشارة إلى المصادر ومواضع النقل، وبداية النقل وانتهائه، والمقارنة بين الروايات وترجيح الصحيح منها، ومسايرة أكثر المؤرخين وعدم اعتداده بالشاذ، وانتقاء النسخ الموثقة، والمقابلة بين المخطوطات<sup>(٩)</sup>.

- (١) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ٩٦-١٠٥.
- (٢) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ١٠٦-١٠٩.
- (٣) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ٢٧٩-٢٨٠.
- (٤) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ٢٨٢-٢٨٣.
- (٥) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ٣١٠.
- (٦) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ٣٨٥-٣٩٣.
- (٧) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ٣٢٨-٣٢٩.
- (٨) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ٣٣٠.
- (٩) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ٤٢٢-٤٤٣.



أما سير أعلام النبلاء، فقد رتبته على الطبقات، فجعله من بداية الإسلام حتى سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٢م) تقريباً في خمس وثلاثين طبقة. وليس الكتاب مجرد اختصار لتاريخ الإسلام بل ضمنه كثيراً من الروايات الجديدة التي لم يوردها في تاريخ الإسلام، وتوسع في بعض التراجم على أنه لم يضيف تراجم جديدة إليه<sup>(١)</sup>. هذا الكتاب لا يخلو من فائدة من خلال إيراد بعض التراجم للخلفاء ولبعض الوزراء وشخصيات أخرى<sup>(٢)</sup>، إلا أنه لا يرتفع إلى أهمية كتاب تاريخ الإسلام.

-٦

أما كتاب دستور الوزراء، فقد وضعه غياث الدين بن همام الدين الملقب بخواندمير والمتوفى سنة (٩٤٢هـ/١٥٣٩م)، وهو يعد موسوعة عن الوزراء في العالم الإسلامي في عصوره المختلفة، سواء تحت ظل الخلفاء أو السلاطين، وجاء الكتاب جامعاً بشكل لم تشهده الكتب السابقة عليه المؤلفة منها بالعربية أو الفارسية، وهو يكثر الحديث عن الوزراء الذين كان لهم أثر كبير في مجرى الأحداث في مختلف الدول<sup>(٣)</sup>. وهو في أغلب الأحيان يثبت مصادره " ذكر صاحب جامع الحكايات والتواريخ " " ومن الثابت عند كبار المؤرخين " " وذكر آخرون " <sup>(٤)</sup>، ويورد الروايات المتعددة للخبر الواحد " حيث أن الرواية الثانية أقرب " <sup>(٥)</sup>، كما أنه يعبر عن آرائه في الأحداث التاريخية بالكثير من الحرية " وجملة القول " " ومن المقطوع بصحته " " ومن الثابت " " والخالصة " والرواية الثانية أقرب إلى الصحة في نظري " ومن مضمون هذه القصة يتضح " <sup>(٦)</sup>. ولما كان مؤلفنا فارسياً، لذا يفيد من مصادر فارسية.

### ثالثاً: كتب الجغرافيا والرحلات

١- وكان كتاب رحلة ابن جبير لمحمد بن أحمد الكنانى الأندلسي بن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، عبارة عن رحلة قام بها للحج استغرقت عامين وثلاثة أشهر ونصفاً من أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوال (٥٧٨هـ/ فبراير ١١٨٢م)، إلى يوم الخميس الثاني والعشرين لمحرم (٥٨١هـ/ ٢٥ إبريل ١١٨٥م)، وزار فيها مصر وبلاد

(١) معروف، الذهبي ومنهجه، ص ١٧٥-١٧٦.

(٢) الذهبي، سير أعلام، ج ١٨، ص ٢١٧، ٣٠٨، ج ١٩، ص ٣، ٤، ٢٨، ٣٠، ٣١، ١٧٦، ١٩٨، ٣٨٤، ٤٠٧.

(٣) خواندمير، دستور الوزراء (مقدمة المحقق)، ص ١٧-٢٦.

(٤) خواندمير، دستور الوزراء (مقدمة المحقق)، ص ١٦١، ١٦٩، ١٨٥، ١٨٧.

(٥) خواندمير، دستور الوزراء (مقدمة المحقق)، ص ١٦١، ١٦٩.

(٦) خواندمير، دستور الوزراء (مقدمة المحقق)، ص ١٦١، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١.

العرب والعراق والشام وصقلية ، وبعد كتاب رحلة ابن جبیر من المصادر الهامة التي تصور لنا حالة العراق الاقتصادية والعمرائية لما جاء فيه من معلومات قيمة عن المناطق التي مر بها في طريقة وشاهدها ووصفها دقيقتاً بما فيها من أبنية ومدارس ومساجد وحمامات وربط وغيرها.

٢- كتاب معجم البلدان، لشهاب الدين بن ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) أضخم المصادر الجغرافية وأنفسها لاحتوائه على معلومات تفيدنا كثيراً في تعيين مواقع المدن بصورة كاملة لتوضيح المعلومات المتعلقة بالمواقع التي لها شأن في هذا البحث، وعليه فالرجوع إليه ضروري من هذه الناحية، وقد اختصره عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) وأسماه (مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) في ثلاثة أجزاء، ولقد استفدت منه في كثير من فصول الدراسة.

٣- أما كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، لعلي بن موسى بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، فقد بحث فيه في الأقاليم على سطح الأرض، وأهم ميزة في هذا الكتاب أنه يبحث في الأقاليم مبيناً خطوط الطول والعرض الواقعة عليها الأماكن، فهو يصف لنا المدن العراقية ويبين خطوط الطول والعرض الواقعة عليها هذه المدن، كما يصف أرضها ومزروعاتها وبنياتها والأنهار الواقعة عليها.

٤- وكتاب تقويم البلدان، لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حماء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، وفيه مباحث جليلة، وهو من أهم الكتب الجغرافية في تعيين مواقع البلدان في الأقاليم المختلفة من الأرض، وأخذ في كتابه عن كثيرين مما سبقوه من الجغرافيين والرحالة مثل ابن حوقل، وياقوت الحموي، وابن خلكان وابن سعيد المغربي، والإدريسي، وأهم ما في كتابه هو ضبط الأماكن وتعيين مواقعها وأضاف إليها أوصافاً مفيدة .

٥- وبالنسبة لكتاب تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لأبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي، ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م). فقد بدأ رحلته سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٥م) ودامت إلى سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣م) طوف في أقطار عربية وإسلامية عديدة، وأهم ما في رحلته انه معاصر للفترة الأخيرة من العهد الأيلخاني في العراق. فقد زار العراق سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٧م) ووصف المناطق والطرق التي سلكها وصفاً شاملاً ودقيقتاً حتى أنه تطرق إلى وصف بعض العادات المحلية في بعض الأماكن العراقية كالعادات المتبعة في قرية أم عبيده، وتعرض لذكر القبائل التي مر بمناطق سكنها، وسيادتها على تلك المناطق، وفي خلال سفراته في الأنحاء العراقية وإيران دون أشياء مهمة تتعلق بدولة

المغول، وذكر المشاهد ووصف البلدان التي طرقها، وأوضح عن العراق كثيراً وأتم ما ذكره ابن جبير أو بين ما تغير من معالم، وأوضح ما جد من أحداث. وتعد رحلته من خير ما كتب عن العراق من مشاهدات في الفترة التي زار فيها العراق.

وهذا العدد المحدود من المصادر لا يعني أنني اعتمدت عليها وحدها في هذا البحث، بل هناك مصادر أخرى لا تقل قيمة وأهمية عن التي ذكرتها. وقد أفدت منها في العديد من مواضيع الدراسة، مثل:

كتاب مختصر التاريخ لمؤلفه ظهير الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، وكتاب الوافي بالوفيات لمؤلفه صلاح الدين خليل أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، وكتاب فوات الوفيات للمؤلف محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن الكتبي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، وكتاب الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء لمؤلفه علاء الدين أبو عبدالله مغلطي بن قلسج (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٢م)، وكتاب تاريخ ابن الوردي لمؤلفه زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، وكتاب الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لمحمد كمال الدين عز الدين علي (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، وكتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للمؤلف بدور الدين محمود العيني (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، وكتاب إنسان العيون في مشاهير سادس القرون للمؤلف شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الشافعي المعروف بابن عذبية (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، وكتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب للإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحى ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي لعبد الملك حسين بن عبدالملك الشافعي العاصمي المكي (ت ٦١١هـ/١٢١٢م) وغيرها.

#### رابعاً: الدراسات الحديثة

بالرغم من البحث والتقصي إلا أنني لم أجد دراسة شاملة وكاملة عن فترة الخليفة المستعصم بالله من جميع النواحي، فكانت أول محاولة للكتابة في تاريخ المستعصم بالله، هي محاولة محمود بن جنيد، في كتابه المستعصم بالله، ولكنها جاءت مختصراً جداً واكتفى المؤلف بعدد قليل من المصادر الأولية.

أما الدراسة الحديثة ذات الأهمية بالنسبة للنواحي الاقتصادية والسياسية والإدارية، فهي دراسة محمد بن صالح القزاز في كتابه " الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير"، إلا أن عرضه اتصف في بعض المواضيع بالإيجاز.

أما كتاب كلشن خلفاً، لنظمي زادة مرتضي، باللغة التركية، نقله إلى العربية موسى كاظم نورس، فقد عرض في كتابه لخلفاء بني العباس حتى سقوط بغداد في أيدي المغول، ووصف وقعة بغداد وصفاً أفاض فيه، وقد وضع كتاب سنة (١١٠٠هـ/١٦٨٩م).

ومن الباحثين المحدثين الذين اهتموا بهذا الموضوع جعفر حسين خصباك في كتابه العراق في عهد المغول الأيلخانيين، وهذا الكتاب فهو من ناحية عامة يتناول الحالة في العراق في هذه الفترة بشكل موجز ومجمل في غالب موضوعاته، وعلى الرغم من إيجازه وتحيزه في دفاعه عن مؤيد الدين بن العلقمي، إلا أنني تمكنت من الاستفادة منه، وقد بذل خصباك جهداً كبيراً في محاولة جادة لدراسة هذه الفترة في تاريخ العراق.

وغيرها من المراجع التي لا غنى للباحث عنها عند دراسة هذه الحقبة من الزمن مما أثبتته في قائمة المصادر والمراجع في ختام هذا البحث.

# الفصل الأول

## حياة المستعصم بالله وشخصيته

أولاً: سيرة المستعصم بالله

- نسبه

- لقبه

- مولده

ثانياً: حياة المستعصم بالله

- نشأته

- أسرته

ثالثاً: مبايعة المستعصم بالله بالخلافة

رابعاً: شخصية المستعصم بالله

- صفاته

- شيوخه وتلاميذه

خامساً: أعمال المستعصم بالله ونقش خاتمه

- أعماله العمرانية والعلمية

- نقش خاتمة

سادساً: نهاية المستعصم بالله ووفاته

## أولاً: سيرة المستعصم بالله

نسبه:

إن نسب الخليفة المستعصم بالله هو امتداد لنسب أبيه وجده من الشجرة العباسية، التي تنتهي إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول، صلى الله عليه وسلم، وقد ورد تسلسل نسبة في أغلب المصادر التاريخية؛ فهو الخليفة السابع والثلاثون أبو أحمد عبدالله ابن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور ابن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد ابن الناصر لدين الله أبي أحمد ابن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن المستجد بالله أبي المظفر يوسف ابن المقتفي لأمر الله أبي عبدالله محمد ابن المستظهر بالله أبي العباس أحمد ابن المقتدي بأمر الله عبدالله ابن الأمير ذخيرة الدين أبي العباس محمد ابن القائم بأمر الله عبدالله ابن القادر بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير أبي بكر إسحاق ابن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر ابن المعتض بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير الموفق أبي أحمد طلحة ابن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر ابن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ابن عبدالمطلب بن هاشم<sup>(١)</sup>.

(١) ابن الكازروني، الشيخ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد ١٩٧٠م، ص ٢٦٦. الدواداري، أبي بكر عبدالله بن أبيك (ت ٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١م، ج ٨، ص ٣٣-٣٧. ابن الطقطقي، أبو جعفر محمد طباطبا (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق بن أحمد الشيباني (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، المكتبة العربية، بغداد سنة ١٩٣٢م، ص ١٥٨. اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، ط ١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٥٤م، ج ١، ٢٥٣-٢٥٤. النويري، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب الوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م، م ٢٣، ص ٣٢٢. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، العبر في خبر من غير، حققه أبو هاجر محمد زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٥م، ج ٣، ص ٢٨٠-٢٨١. تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٣٣-٣٧. سير أعلام النبلاء، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، ج ١٦، ص ٤٣١. مُغلطاي، الحافظ مُغلطاي، بن قليج (ت ٧٦٢هـ/١٣٦٠م)، الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح. دار القلم، ط ١، ١٩٩٦م، ص ٥٥٨. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١٧، =

## لقبه:

كان الخليفة العباسي الجديد، يختار له لقباً يتسمى به ويباع عليه<sup>(١)</sup>، وكان الكتاب والوزراء يقدمون له قائمة بألقاب عدة، يختار منها ما يرتاح إليه ويلئم شخصيته<sup>(٢)</sup>، وقد اختار أبو أحمد عبدالله بن المستنصر لقب المستعصم بالله<sup>(٣)</sup>.

= ص ٣٤٣. السبكي، تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، طبقات الشافعية، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، ط ١، ١٩٧١م، ج ٨، ص ٢٦١-٢٦٢. ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م، ج ٣، ص ٥٣٦. ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن ايدمر (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م، ج ١، ص ٢٢٠. ابن عذبية، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشافعي المقنسي (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، إنسان العيون في مشاهير سانس القرون، تحقيق إحسان ذنون الثامري ومحمد عبدالله القدحات، ط دار ورد، عمان، ٢٠٠٧م، ص ٣٠٧. ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٧، ص ٥٩. الدليل الشافي على النهل الصافي، تحقيق فهد محمد شلتوت، ط ٢، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ج ١، ص ٣٩٢.

(١) ابتدأت الألقاب بابتداء الدولة العباسية، وكان أول من أضيف في لقبه من الخلفاء اسم الله هو الواثق بالله، وجرى الأمر على ذلك فيمن جاء بعده من الخلفاء، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق نبيل خالد الخطيب، دار الفكر، بيروت، ج ٥، ص ٤٤٧.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٩. القزاز، محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القضاء، النجف، ١٩٧١، ص ٩٠.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٩. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩٠. ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٥٣٣. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج ١، ص ٢٢٠. الذهبي، دول الإسلام، ط ١، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، ١٣٣٧هـ، ج ٢، ص ١١١.

Jane-Poole, Stanlly. Catalogue of oriental coins in British Museum, ١٠ vols, Londen

١٨٧٥. ١٧٠.No,٥٠٣

## مولده:

ذكرت أغلب المصادر التاريخية أن ولادة عبدالله بن منصور، الذي عرف بالمستعصم بالله كان يوم السبت (١) ثالث عشر من شوال (٢) سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م) (٣). وكانت ولادته في خلافة جد أبيه الخليفة الناصر لدين الله الذي توفي سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) (٤)، لذلك نستنتج أن المستعصم بالله قد عاصر ثلاثة خلفاء، حيث كان عمره ثلاثة عشر عاماً عندما توفي جد أبيه الناصر لدين الله (٥٥٣-٦٢٢هـ/١١٥٨-١٢٢٥م)، وكان في الرابعة عشر عندما توفي جده الظاهر بأمر الله (٥٧١-٦٢٣هـ/١١٧٥-١٢٢٦م)، ثم كان عمره إحدى وثلاثين عاماً عندما توفي والده المستنصر بالله (٥٨٨-٦٤٠هـ/١١٩٢-١٢٤٢م) وبعد ذلك آلت إليه الخلافة.

ويعتد الخليفة المستعصم بالله ترتيبه الخليفة المستعصم بالله من حيث العدد الكلي للخلفاء العباسيين السابع والثلاثين (٥)، وهو آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وكانت دولتهم قد دامت خمسمائة وأربعاً وعشرين سنة.

- (١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٥.
- (٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. ولقد ورد في عقد الجمان أنه ولد يوم السبت حادي عشر من شوال. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٥.
- (٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٩. ابن الفوطي، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٣م، ج٥، ص ٢٠٩؛ ولقد انفرد ابن الفوطي بقوله إن ولادة المستعصم بالله كانت في سنة ثمان وستمئة. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٨؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣٣. العبر، ج٣، ص ٢٨١. الصفدي، الوافي، ج١٧، ص ٣٤٣. فوات الوفيات، ج١، ص ٥٧٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٥. ابن تغري بردي، الدليل على المنهل الصافي، ج١، ص ٣٩٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤. ابن العماد، شذرات الذهب، ج١، ص ٤٠٣.
- (٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٣.
- (٥) ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تنمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠م، ج٢، ص ١٦٨. المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م، ج١، ق١، ص ٤١٢. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٥. ابن أبي عذبية، إنسان العيون، ص ٣٠٧. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٣.



## ثانياً: حياة المستعصم بالله

### نشأته:

نشأ المستعصم بالله في بغداد، وقد عاصر خلال فترة طفولته وشبابه ثلاثة خلفاء عباسيين، ولكن بعض المصادر لم تتحدث عن تفاصيل حياته في فترة طفولته وشبابه. ولكن مهما قلنا فإن فترة حكم جد أبيه وجدده وفترة حكم أبيه قد أثرت في شخصيته وانعكست عليها؛ حيث يؤكد ابن كثير أن المستعصم بالله كان مقتدياً بأبيه المستعصم بالله<sup>(١)</sup>.

أمّا والده المستعصم بالله، فهو أبو جعفر منصور بن محمد الظاهر بن أحمد الناصر بن الحسن المستضيء بن يوسف بن عبدالله بن العباس<sup>(٢)</sup>، وهو الخليفة السادس والثلاثون.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن ولادة الخليفة المستعصم بالله كانت في صفر سنة (٥٨٨هـ/١٢٩٠م)<sup>(٣)</sup>، وكانت أمه أم ولد جارية رومية ذكر ابن الكازروني أن اسمها شيرين<sup>(٤)</sup>.

كما أنه تزوج من اثنتين؛ الأولى هي هاجر حيث كانت جارية من جواريه فأعجب بها وتزوجها وانجب منها ولدين؛ هما: المستعصم بالله، والأمير عبدالعزيز، ويبدو أنها كانت متدينة<sup>(٥)</sup>. أما الثانية فقد أشار إليها ابن الفوطي إشارة عابرة من غير ذكر اسمها<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ١٥٤.

(٢) سبط بن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قز أوغلي، (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط١، حيدر آباد، الدكن، ١٩٥٢، ج٨، ق٢، ص٦٤٣. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٨٥. اليونيني، مرآة الزمان، ج١، ص٢٥٣-٢٥٤. القلقشندي، مآثر الأنفاة، ج٢، ص٧٨. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٠.

(٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٥٤، ٢٥٨. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٥. الذهبي،

العبر، ج٣، ص٢٣٩. الغساني، العسجد المسبوك، ج١-٢، ص٥٠٧. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٠.

(٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٥٨. أما السيوطي فيذكر أن والدته أم ولد جارية تركية، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٠.

(٥) الكتبي، عيون التواريخ، تحقيق فيصل الساهر ونبيله عبدالمنعم داود، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠. ج٢٠، ص١٢٢. جواد، مصطفى، سيدات البلاط العباسي، دار الفكر للجميع، بيروت، د.ت، ص ١٨٩.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث، ص ١٥٦. الذهبي، العبر، ج٣، ص ٢٣٩. ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٣.

وقد بويع بالخلافة يوم الجمعة الموافق ثالث عشر من شهر رجب سنة (٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) <sup>(١)</sup>، ويوصف بأنه كان أشقر ضخماً قصيراً <sup>(٢)</sup>، وكان خاتمه هو " العفوك أولى " <sup>(٣)</sup>. وسلك المستنصر بالله سيرة والده الظاهر في التدين وفي اعتناقه مذهب أهل السنة والجماعة <sup>(٤)</sup>، وكان متواضعاً حريصاً على قراءة القرآن، وكان له اهتمام في مجال الدين <sup>(٥)</sup>، وقد تميز المستنصر بالعدل لرجاحة عقله وسمو أخلاقه، وحبه للحق والعدل؛ حيث كان يسميه جده الناصر بالقاضي <sup>(٦)</sup>.

وتمتد فترة حكم المستنصر بالله من سنة (٦٢٣هـ / ١٢٢٦م - ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م)، وتقع ضمن المدة التي أطلق عليها المؤرخون اسم: انتعاش الخلافة أو الصحوة الأخيرة.

لذا، فقد عاشت الخلافة في عهده فترة استقرار وهدوء نسبي، وتميزت بالخير والرخاء، على الرغم من وجود الخطر الخارجي المتمثل بـ (المغول) <sup>(٧)</sup>، الذين قصدوا بغداد في أيام خلافته فاستخدم العساكر وكسرتهم وافنى منهم خلقاً كبيراً، وقد رافقه خطر المغول طيلة فترة حكمه، إلا أنه لم يثن من عزمه في إنجازاته الكثيرة التي أبرزها المدرسة المستنصرية، التي أوقفها على المذاهب الأربعة <sup>(٨)</sup>.

وقد اهتم المستنصر بالله بتأديب أولاده وتربيتهم دينية وإسلامية <sup>(٩)</sup> تليق بهم كأبناء خليفة المسلمين على يد الشيخ صدر الدين بن النيار <sup>(١٠)</sup>، الذي حذقه الخط وعلمه القرآن <sup>(١١)</sup>.

- (١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٥٨. الإربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٨٥-٢٨٦. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٢٠. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج١، ص ٢١٨.
- (٢) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١١٠؛ العبر، ج٣، ص ٢٣٩.
- (٣) الإربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٨٦.
- (٤) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٧، ج٥، ص ٣١٥.
- (٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٠.
- (٦) ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج٤، ق ٣، ص ٥٥١. الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٤٦. مختصر تاريخ الإسلام، ص ٣٣١. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٥٢. الكتبي، فوات الوفيات، ج٤، ص ١٧٠. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج١، ص ٢١٩. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦١.
- (٧) حول المغول انظر الفصل الثاني، ص ١١٧.
- (٨) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٥٢. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج١، ص ٢١٩.
- (٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٧١. تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ص ٤٩٨.
- (١٠) الشيبني، محمد رضا، مؤرخ العراق بن الفوطي، بغداد، ١٩٥٨م، ص ١٠٧.
- (١١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣، الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩١.

وتوفي المستنصر بالله يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة لسنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) (١).  
وقد بلغ عمره اثنتين وخمسين سنة وستة أشهر وسبعة عشر يوماً (٢).

وجده هو الظاهر بأمر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م)، وهو أبو نصر محمد بن أحمد الناصر لدين الله، وهو الخليفة الخامس والثلاثون في دولة بني العباس.  
ولد سنة (٥٧١هـ/١١٧٥م)، وأمه تركية أم ولد اسمه أخشو لم تترك خلافته (٣).

تولى الخلافة وعمره (٥٢ سنة)؛ حيث كان والده قد حبسه مدة طويلة، ثم أخرجه قرب وفاته (٤)، فلم يل الخلافة من بني العباس أسنّ منه، وكان من أجود بني العباس وأحسنهم سيرة، وسريرة، كما كان عاقلاً، وقوراً، ديناً (٥)، من أهل الورع، تابعاً للشرع (٦)، وبالرغم من قصر فترة حكمه التي لم تتعدّ السنة، فإنه كان موصوفاً أيضاً بالقوة والعدل (٧)، يفرق الأموال ويبرّ الفقراء (٨)؛ حيث رد مظالم كثيرة، وقد سار في الناس سيرة حسنة حتى قيل: إنه لم يكن بعد عمر بن

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ٢، ص ٧٣٩. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣١٥. الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٤٥؛ العبر، ج٥، ص ١٦٧. ويذكر ابن دقماق بأنه توفي سنة (٦٣٩هـ)، ويقول أيضاً (٦٣٨هـ). ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج١، ص ٢١٨.

(٢) ناجي معروف، تاريخ علماء المستنصرية، مجلة الأقاليم، مج (١-٢)، السنة الثانية، كانون الأول، بغداد، ١٩٦٥. أمين، حسين، المدرسة المستنصرية، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٠م. العميد، طاهر مظفر، دور المدارس الأثرية في التعليم في العصر العباسي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع ١٤٤، ١٩٥٩م، ص ١١٦-١٣٧. جواد، مصطفى، المدرسة المستنصرية، مجلة سومر، مج ١٤، ج (١-٢)، بغداد، ١٩٥٨، ص ٣٧-٦٧.

(٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٥٤، يذكر الإربلي أن اسم والدته بقجه. خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٤.

(٤) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج١، ص ٢١٦.

(٥) ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ج ١٢، ص ٤٤١. كنعان، محمد أحمد، تاريخ الدولة العباسية وما رافقها من الممالك (خلاصة تاريخ ابن كثير)، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٨١-١٨٤.

(٦) عبدالمك بن حسين بن عبدالمك الشافعي العاصمي، (ت ١١١١هـ/١٦٩٨م)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق عادل أحمد عبدالجواد وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج ٣، ص ٥١٢.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٤٥٦. النويري، نهاية الأرب، م ٢٣، ص ٣١٨. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٤١٣. ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ١، ص ٢١٧.

(٨) الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٤. النويري، نهاية الأرب، م ٢٣، ص ٣١٨.

عبدالعزیز أعدل منه لو طالت مدته، لكنه لم يحل إلى الحول، فكانت مدة خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٥م) <sup>(١)</sup>، وكان نقش خاتمه (راقب العواقب) <sup>(٢)</sup>.

أما جد أبيه، فهو الناصر لدين الله أبو العباس أحمد المستضي بأمر الله <sup>(٣)</sup>، ويذكر السيوطي أنه ولد يوم الاثنين العاشر من رجب سنة (٥٥٣هـ/١١٥٨م) <sup>(٤)</sup>، وقد خطب له أبوه بولاية العهد قبل موته بثمانية أيام وذلك في سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) <sup>(٥)</sup>.

وكانت أم الناصر أم ولد تركية، اسمها زمرد خاتون، جلبها الجلابون من بلاد الترك الشرقية، إلى أن استقر بها المقام في دار الخلافة؛ إذ أصبحت جارية الخليفة المستضيء بأمر الله ثم اعتقها وتزوجها، وكانت لها مكانتها عند الخليفة، لا سيما بعد أن ولدت له ابناً سنة (٥٥٣هـ/١١٧٨م) سماه أحمد وكناه بأبي العباس <sup>(٦)</sup>؛ حيث عاشت في خلافة ابنها أربعاً وعشرين سنة <sup>(٧)</sup>، وبويع الناصر لدين الله بالخلافة صبيحة ليلة الوفاة، وذلك في مستهل ذي العقدة سنة (٥٧٥هـ/١١٨٩م) <sup>(٨)</sup>، وذكر أنه بويع وله من العمر ثلاث وعشرون سنة <sup>(٩)</sup>، وكان أبوه المستضيء قد تخوفه فاعتقله ومال إلى أخيه أبي منصور هاشم <sup>(١٠)</sup>، ولكن بعد وفاة المستضيء

- (١) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢١٨. الصفدي، الوافي، ج٢، ص ٩٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص ١١٢. ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٣٥.
- (٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٥٥. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٤.
- (٣) القضاعي، أبو عبدالله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي (ت ٤٥٤هـ/١٠٥٦م)، عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، تحقيق عبدالرحيم محمد عبدالحميد علي، دار الينايع، عمان، ١٩٩٧م، ص ٢٧٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٤٣٨. ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن أبي علي (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، النبراس في تاريخ بني العباس، بغداد، ١٩٤٦م، ص ١٦٤. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٠. أبي الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م). المختصر في أخبار البشر، ج٤، ط١، دار المعارف، القاهرة، ج٣، ص ١٦٨. ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج١، ص ٢١٤. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٤٨.
- (٤) الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٠. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٤٨.
- (٥) ابن دحية، النبراس، ص ١٦٥. ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج١، ص ٢١٤.
- (٦) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٣٥٤. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٠. جواد، مصطفى، سيدات البلاط العباسي، دار الفكر للجميع، د. ت. ص ١٧٤.
- (٧) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٤٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣٦. ابن أبي عذينة، إنسان العيون، ص ٢٢٦.
- (٨) ابن أبي عذينة، إنسان العيون، ص ٢.
- (٩) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٩١.
- (١٠) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٣١.

بأمر الله بادر ظهير الدين بأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله على الرغم منه<sup>(١)</sup>، ويعد الخليفة الناصر لدين الله أقوى الخلفاء منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فكانت خلافته سبعاً وأربعين سنة<sup>(٢)</sup>، وكان مستقلاً بأمر الملك في العراق متمكناً من الخلافة يتولى الأمور بنفسه<sup>(٣)</sup>، وقد وصفه أحد الباحثين المحدثين قائلاً: إن "الناصر لدين الله أعظم سياسي عباسي وأحسن بني العباس اضطلاعاً بأمر الخلافة، فقد وسع مملكته توسيعاً لا يبلغه إلا ذو همة حاسمة وطموح عظيم"<sup>(٤)</sup>. وكان من الخلفاء المهتمين بالأدب والشعر، حتى إنه جعل للشعر ديواناً سمي "ديوان الشعراء"<sup>(٥)</sup>.

وقد قضى الخليفة الناصر لدين الله سني ملكه الأخيرة في خوف مستمر من المغول<sup>(٦)</sup>. وكان الناصر فاضلاً، عالماً، أديباً، حسن الرأي والتدبير، ذا فكر جيد، وكان يباشر الأمور بنفسه<sup>(٧)</sup>.

وتوفي الناصر إثر مرض عضال، وفي ذلك يذكر ابن الأثير أنه: "بقي ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة كلياً، وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً، وفي آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوماً ومات"<sup>(٨)</sup>، فكانت وفاته في سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م). وكان للخليفة المستعصم بالله من الإخوة أبو القاسم عبدالعزيز<sup>(٩)</sup>، الذي توفي في خلافة أخيه المستعصم بالله سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)، ودفن بالرصافة<sup>(١٠)</sup>(<sup>١١</sup>)، كما كانت له شقيقتان، إحداهما

- 
- (١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٣٥٤.
  - (٢) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٢٦.
  - (٣) الياقعي، أبي محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٤، ج١، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤، ص ٤٠-٤١. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٩٨.
  - (٤) جواد، مقدمة كتاب الجامع المختصر لابن الساعي، ج٩، ص ٥.
  - (٥) القدحات، محمد عبدالله، الحياة الاجتماعية في بغداد، دار البشير، ٢٠٠٥م، ص ٩٤.
  - (٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٣٨٤-٣٩٢. حتي، فيليب، تاريخ العرب مطول، ط٣، دار الكشاف، بيروت، ١٩٦١م، ج٢، ص ٥٧٩.
  - (٧) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج١، ص ٢١٥.
  - (٨) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٤٣٨.
  - (٩) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٥٦. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٠٧.
  - (١٠) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٦.
  - (١١) الرصافة: تقع في بغداد في الجانب الشرقي، وفيها مقابر الخلفاء، ياقوت، معجم البلدان، م٣، ص ٥٣٥.

تسمى ست العرب، وتوفيت في حيات المستنصر بالله سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٥م)، والأخرى ست الشرف، وقد توفيت في خلافة أخيها المستعصم بالله سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، وهي التي كانت تسرّ الصوم وتتضرع إلى الله تعالى أن يقبضها ولا يريها أهوال المغول، فاستجاب الله لها (١). أما والدته فكانت تسمى هاجر، وهي أم ولد (٢)(٣)، وقيل إنها جارية هندية (٤)، وقد اتصفت بأنها كانت من النساء الصالحات المتديّبات، كما كانت كريمة حيث قال عنها الكازروني: "كانت صالحه، دينه، كريمة، كثيرة البرّ والعطاء" (٥). كما قيل عنها أيضاً: "وكانت امرأة صالحه، راغبة في أفعال الخير، مؤثرة للإحسان : نافعة للأرامل والأيتام" (٦).

لقد حجت والدته المستعصم بالله في عهده في سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) (٧)، وخرج المستعصم بالله لوداعها، ورافقها إلى الكوفة ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد، (٨) وكان معها الأمير مجاهد الدين أيبك المعروف بالدويدار (٩) الصغير (١٠)، وكان الخليفة قد جرّد معها أربعمئة مملوك (١١). وعندما عادت من الحج في السنة التالية (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، حاول الخليفة المستعصم بالله الخروج من أجل لقاء

- (١) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٦.
- (٢) أم ولد: وهي الأمة التي تلد ولداً من مولاها، وتصبح حره بالزواج أو بعد موت زوجها، وذهبت المذاهب الأربعة جميعها إلى أنه لا يجوز بيع أم الولد، الموسوعة العربية، النسخة العربية ٦٤٥-٦٤٩، أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط١٠، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ج١، ص ١٠.
- (٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٩. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٥. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤. جواد، سيدات البلاط العباسي، ص ١٨٩.
- (٤) الغساني: العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٠. يذكر بأنها حبشية أسماها هاجر، مجهول، مؤلف، تاريخ الخلفاء والسلطين، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط ميكروفلم ٥٦٢، ص ٣٥.
- (٥) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦.
- (٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٥٥.
- (٧) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦.
- (٨) الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٧-١٨٨.
- (٩) الدويدار، عرفها القلقشندي بقوله موضوعها تبليغ الرسائل من السلطان (الخليفة)، وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم البريد ويقوم بتنفيذ الأوامر الصادرة له بحسب ما يقتضيه الحال، صبح الأعشى، ج٥، ص ١٣٤-١٣٥.
- (١٠) أما الدويدار الكبير، فكان هو ركن الدين الطبرسي، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤١-٦٥٠هـ)، ص ٤٤٣.
- (١١) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣٢ : تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤١-٦٥٠هـ)، ص ٨.

والدته، إلا أنه لم يستطع بسبب ظروف تعرض لها ومنعته من ذلك، فصدر أمر إلى أرباب الدولة العباسية كافة بالخروج لاستقبالها (١).

وقد توفيت والدة المستعصم بالله في ذي الحجة سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) وصلي عليها بدار الخلافة وحمل تابوتها الوزير ابن العلقمي وأرباب الدولة مشاة بين يديه إلى مدفنها بالتربة التي أنشأتها لنفسها بالمسجد بشارع ابن رزق الله بالجانب الغربي من بغداد (٢).

إذن، تبين لنا مما سبق أن نشأته كانت في ظل أبوين عُرُفاً بالفضل، وأن والده على وجه الخصوص تميز بأخلاقه العالية، وحبه للعلم، وتقدير العلماء، وكان متديناً وكراماً محباً للخير، وكذلك جده الظاهر الذي كان مثلاً في العدل والإحسان والإنصاف، هذا كله أثر في شخصية المستعصم بالله تأثيراً كبيراً، وانعكس على أسلوب حياته ومعاملته خلال فترة خلافته (٣).

#### أسرته:

لا نتحدث المصادر كثيراً عن أسرة الخليفة المستعصم بالله، لكن يرد أنه كان له جاريتان قبل أن يدرك الخلافة، ولدت له إحداهما ثلاثة بنين وابنة واحدة، وولدت له الأخرى أربع بنات. ولما ماتت أم البنين (٤) اتخذ المستعصم بالله حظية أخرى يظهر أنها عرفت بباب بشير (٥)، وقد ولدت ولداً سمي محمداً وكني بأبي نصر (١).

وهي التي بنت المدرسة البشيرية التي سميت بأسمها (٧)، وقد كان الشروع في بناء هذه المدرسة في سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م)، حيث تقع في الجانب الغربي من بغداد (٨).

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٧-١٨٨. جواد، سيدات البلاط العباسي، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٤٥٨. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٦٤٣، ٧٣٩. ابن العميد، المكين جرجيس (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م): أخبار الأيوبيين، تحقيق كلود كاهن، مج ١٥، دمشق، ١٩٥٨م، ص ١٥٤. ابن واصل، المفرج، ج ٥، ص ٣١٥.

(٤) جواد، سيدات البلاط العباسي، ص ١٩٥.

(٥) سميت باب بشير نسبة إلى الخادم الذي كان يقف ببابها، وكان يسمى بشيراً. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٨. جواد، المعاهد الخيرية، ج ١، ص ١٣٢.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٧. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٨. جواد، سيدات البلاط العباسي، ص ١٩٥.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٥.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٥، ٣٠٧.

وقد توفيت البشيرية قبل أن يتم افتتاح المدرسة في تاسع شوال سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٢م).  
ودفنت تحت القبة التي أعدها بجانب المدرسة (١).

والبشيرية جعلت مدرستها وفقاً على المذاهب الأربعة على قاعدة المدرسة المستنصرية التي  
افتتحت سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م)، ووقفت عليها وقوفاً كثيرة. وكان افتتاحها يوم الخميس ثالث عشر  
جمادى الآخرة، وحضر الخليفة المستعصم بالله وأولاده فجلسوا في وسطها، وحضر خواص  
الخليفة والوزير وأرباب المناصب ومشايخ الربط والمدرسون (٢) وكان سراج الدين النهركلي (٣)،  
أشهر مدرسي هذه المدرسة (٤) وشرف الدين عبدالله بن أستاذ الدار، ومحبي الدين بن الجوزي (٥)،  
ونور الدين محمد الغربي الخوارزمي الحنفي، وعلم الدين أحمد بن الشرمحي المالكي، وعملت  
وظيفة عظيمة، وخلع على المدرسين المذكورين، وعلى الناظر بها، وعلى نواب العمارة، والفراشين  
وخدم القبة، وأنشدت الأشعار حيث كان يوماً مشهوداً (٦). وأشهر الأشعار التي قيلت في هذا اليوم  
هي:

(البحر الكامل)

من ذا رأى فصل الربيع وزهره	ورياضه في العشر من تشرين
خلعاً مكمله يقارن وشيها	ما جاء من مصر ومن جيرون
سبعون تشريقاً وما أحصيتها	ولربما زادت على السبعين
كرم يزيد على البحار مديدها	وعلى حيا داني الرباب هتون (٧)

وبعد أن جهزت المدرسة البشيرية سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، نقل إليها من الكتب ستة  
وثلاثون صندوقاً من الكتب المكتوبة بالخطوط المشهورة، والنسخ المضبوطة منها مما هو بخط ابن

- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٥. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٨.
- (٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٥. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٣.
- (٣) كان سراج الدين النهركلي إلى جانب تدريسه بالمدرسة البشيرية متولياً منصب أفضى القضاة في عهد المستعصم بالله. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٦.
- (٤) حنفي، علاء الدين علي حلي بن أمر الله، طبقات الحنفية، دار ابن الجوزي، عمان ٢٠٠٣. ص ١٩٨.
- (٥) وهو الذي كان محتسباً في بغداد، وكان مثلاً للعلم والفضيلة، توفي في سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٣. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١٠.
- (٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٧-٣٠٨. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٣.
- (٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٣.



البواب<sup>(١)</sup>، ومصحف بخط الخليفة عثمان بن عفان، ومصحف بخط زين العابدين بن علي بن الحسين عليه السلام<sup>(٢)</sup>.

ولم تقتصر السيدة باب بشير في أوقافها على المدرسة البشيرية، بل كان لها وقفاً على رباط للنساء، والمعاهد الخيرية كدار القرآن على شاطئ دجلة بالجانب الغربي من بغداد؛ حيث كان يدرس فيها أبناء الفقراء<sup>(٣)</sup>، وقد أشهدت على نفسها في دار الوزير بصحة الوقف وثبوته بحضور قاضي القضاة، وتمت كتابة الوقف في السجل المخصص لذلك، وقرئ على الحاضرين فوضعوا خطوطهم تأكيداً لذلك<sup>(٤)</sup>.

فبذلك تكون ثاني مدرسة متعددة المذاهب، ليس في بغداد وحدها بل في العالم الإسلامي أجمع.

وأولاد المستعصم بالله هم: الابن الأكبر أبو العباس أحمد؛ حيث كان مولده سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م)، وقد قتل في بغداد على يد المغول<sup>(٥)</sup> سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م). حيث كان عمره عندما قتل خمساً وعشرين سنة، وكان أبو العباس أحمد شاباً جميل الصورة<sup>(٦)</sup>، وعندما توفي ترك من الأولاد: أبا الفضل العباس<sup>(٧)</sup>، ثم أبا القاسم عبدالعزيز<sup>(٨)</sup>، ومن البنات رابعة ويقال إن مولدها كان يوم العيد

- 
- (١) ابن البواب: هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب، توفي سنة (٤١٣هـ/١٠٢٢م)، ولم يوجد من المتقدمين ولا من المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص ١٠.
  - (٢) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٣.
  - (٣) ابن الفوطي، الحوادث، ص ٢٧٥. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٣، ٦٠٨.
  - (٤) ابن الفوطي، الحوادث، ص ٢٧٥. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٣.
  - (٥) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤. الهمذاني، رشيد الدين فضل الله (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م)، جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، مصر، د.ت، مج٢، ج١، ص ٢٩٤. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٨. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٦٢. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣.
  - (٦) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤.
  - (٧) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤. وورد عند ابن الفوطي والصفدي بـ أبا الفضل محمد؛ الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٨. الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣.
  - (٨) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤.

الكبير سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) <sup>(١)</sup>. وهي التي تزوجها خواجه هارون بن الصاحب شمس الدين الجويني <sup>(٢)</sup>، ثم ابنته ست الملوك <sup>(٣)</sup>.

أما ابنه الأوسط، فهو: أبو الفضائل عبدالرحمن <sup>(٤)</sup> الذي كان يوصف بالشهامة، وقد ولد في شهر <sup>(٥)</sup> ربيع الأول سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، وقتل أيضاً على يد المغول في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) <sup>(٦)</sup>. وله من الأولاد أبو القاسم محمد، وبنت واحدة <sup>(٧)</sup>.

وأخيراً ابن الخليفة الأصغر أبو المناقب المبارك، وقد ولد يوم الأحد التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، ولم يقتل كباقي إخوانه على يد المغول بل أسر من قبلهم <sup>(٨)</sup>، وبقي عند التتار وعاش تحت حكمهم وعاملوه معاملة حسنة، وكان مطمئناً على نفسه وعلى أولاده حيث يذكر ابن الكازروني: <sup>(٩)</sup> بأن أبا المناقب المبارك قد تزوج وأنجب أربعة أولاد هم: أبو نصر محمد الذي ولد في ثامن عشر من شعبان سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، وتوفي في ثاني عشر من ذي القعدة سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) وقد دفن في منطقة الرصافة بجانب والدته تحت القبة التي أعدتها والدته بجانب المدرسة البشيرية <sup>(١٠)</sup>، ومن أبنائه أيضاً أبو أحمد عبدالله وأبو هاشم

- (١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٨. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣.
- (٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٨.
- (٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٨. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣.
- (٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣. وقد ورد عند ابن الفوطي باسم أبو الفضل. الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧.
- (٥) ابن الطقطقي، الفخري في الأداب السلطانية، ص ٣٣٣.
- (٦) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٨-٣٢٩. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٦٢.
- (٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٨.
- (٨) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٥٦. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣.
- (٩) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤-٢٧٦. ويذكر الهمداني بأنه تزوج في الأسر من امرأة مغولية وانجب منها ولدان، جامع التاريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٤.
- (١٠) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٨.

يوسف، وله ابنة واحدة هي المباركة ماما خاتون<sup>(١)</sup>. وقد توفي أبا المناقب يوم الخميس ثاني جمادى الأولى سنة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) في بلدة مراغة<sup>(٢)</sup>، ثم نقل تابوتة بعد ذلك إلى بغداد في حادي عشر رجب سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م) ودفن إلى جانب أخته. وكان للخليفة المستعصم بالله من البنات عائشة وفاطمة وخديجة ومريم<sup>(٣)</sup>، أما عائشة فقد توفيت في خلافة والدها المستعصم بالله في رابع عشر شوال سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، وقد دفنت بالرصافة، وأنشد الشعراء المراثي، وكتب الوزير مؤيد الدين العلقمي<sup>(٤)</sup> إلى الخليفة: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" (٥) (٦).

أما ابنته الثانية فتسمى فاطمة، وقد توفيت ببلاد المغول وهي في الأسر؛ حيث إن المغول لم يتعرضوا لها بسوء، وأما ابنته الثالثة فهي خديجة، وقد أسرت أيضاً وأخذت إلى بلاد المغول، وهناك تزوجت من الإمام محيي الدين بن إبراهيم المنيعي الخالدي<sup>(٧)</sup>، وقد عاد بها إلى بغداد في سنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، وتوفيت يوم الثلاثاء ثامن عشر من المحرم سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م)، وكان لها من الأولاد، عز الدين عبدالعزيز أبو القاسم، وهو الأكبر، ثم عبدالحق مظفر الدين أبو الفضل، وابنة واحدة هي ست العرب مباركة<sup>(٨)</sup>.

أما ابنته الأخيرة فكانت تسمى مريم، وهي ممن أسرهم المغول<sup>(٩)</sup>.

- 
- (١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤-٢٧٦.
- (٢) مراغة، مدينة كبيرة مشهورة من بلاد أنزيبجان، وهي جزيرة الأنهار كثيرة الأشجار بها آثار قديمة للمجوس. القزويني، آثار البلاد، ص ٥٦٢. وقد بني فيها مرصداً للكواكب، وكان يشرف على هذا المرصد نصير الدين الطوسي؛ حيث عرف بصدق سريرته، وقد أمر ببناء هذا المرصد هولاءكو. الهمذاني، جامع التواريخ، ص ٢٠٣-٢٠٤، بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية (الإمبراطورية الإسلامية واتحلالها)، ط ٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦١م، ص ٢٧١.
- (٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤-٢٧٦. أما ابن الفوطي والصفدي. لم يذكرُوا أن للخليفة المستعصم بالله ابنة تسمى عائشة. الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩. الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣.
- (٤) حول الوزير ابن العلقمي؛ انظر: الفصل الثالث، ص ١٣٠.
- (٥) سورة الزمر، الآية (١٠).
- (٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٦. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٣٧.
- (٧) وهو ابن الشيخ شمس الدين أبي المحاميد المنيعي الخالدي، وكان حافظاً للقرآن، سمع الأحاديث من أبيه وجدّه وجماعة من مشايخ تركستان وما وراء النهر. ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٦-٢٧٧.
- (٨) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٦-٢٧٧.
- (٩) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٦-٢٧٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٥٦.

وكذلك يذكر ابن الكازروني ابنة أخرى لم يذكر اسمها، قائلاً إنها توفيت في خلافته؛ أي في عشرين شعبان سنة (٦٤٧هـ-١٢٤٩م) <sup>(١)</sup>؛ حيث دفنت بالدار الزرقاء من دار سوسيان <sup>(٢)</sup>، ثم حولت إلى ترب الرصافة في عاشر رجب سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) <sup>(٣)</sup>، وكان عمرها ثماني عشرة سنة، وقرئت الختمة الشريفة عند دفنها، وكذلك قرئ القرآن وأنشد الشعراء المراثي <sup>(٤)</sup>، فقال أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد <sup>(٥)</sup>:

(البحر الكامل)

يا ذاهباً عظمت مكانته	عن أن أسميه وأن كني
بكت السماء عليك من وله	لما فجعت الأرض بالحرز
من جنت الدنيا رحلت إلي	ما تشتهي من جنتي عدن <sup>(٦)</sup>

علماً بأن المصادر لم تتعرض لها، ولم أجد لاسمها ذكراً.

نلاحظ أن ابن الكازروني عندما يتحدث عن أسر المغول من أبناء المستعصم بالله يذكر بأنهم كانوا مكرمين ومحترمين وكانوا يمارسون حياتهم على نحو طبيعي، والسدليل على ذلك أن بعضهم قد تزوج وهو في أسر المغول، فمثلاً يذكر في سياق حديثه عن أبي المناقب المبارك ابن المستعصم بالله ما يأتي:

(١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٦-٢٧٧. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٧٣.

(٢) دار سوسيان: نسبة إلى الأمير سوسيان بن شملة المتوفي سنة (٥٩٨هـ/١٢٠١م)، وكان هو صاحب قلاع خوزستان، وكانت هذه الدار قد انشأت على نهر عيسى مجاور (شارع رزق الله). ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٥، ٢٧٤.

(٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٧٣.

(٥) أبو المعالي القاسم أبي الحديد: كان فاضلاً، عزيز العلم بالفقه والجدل والأصول والحكمة والطب، سريع الإدراك، نشأ ببغداد ثم سافر إلى الشام، ثم عاد إلى بغداد حيث جعله ابن العلقمي كاتب ديوان الإنشاء، قتل على يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م). الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٤١.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٧٣.

"... أبو المناقب المبارك، وهو أصغر أولاده الأحياء، ومولده يوم الأحد التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربعين وثمانمائة، ولم يقتل بل أسرته المغول، وبقي تحت حكمهم، إلا أنه كان محترماً عندهم وتزوج... " (١).

وكذلك في حديثه عن مريم ابنة المستعصم بالله "... ومريم وهي باقية إلى الآن - وهو أول سنة إحدى وثمانين وثمانمائة - في أسر المغول محترمة مكرّمة... " (٢).

### ثالثاً: مبايعة المستعصم بالله بالخلافة

تولى المستعصم بالله الخلافة بعد والده المستنصر بالله الذي توفي في سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، ومن خلال الاطلاع على المصادر تبين لنا أن أغلبها أجمع على أن الخليفة المستنصر بالله قد توفي بصورة مفاجئة (٢)، ولم يكن مريضاً (٤)، لذلك لم يعرف بوفاته أحد سوى من كان قريباً منه بالتأكيد، وبناء على ذلك لم يعهد بولاية العهد لأحد، ولعله كان يحاول أن يمهد الظروف لإعلان البيعة لأخيه الخفاجي المعروف بشجاعته وإقدامه، لدرجة أن بعضهم اعتبره رجل الساعة؛ حيث كان يقول :

" إن ملكني الله الأمر لأعبرن بالجيش نهر جيحون وانتزاع البلاد من التتار " (٥).

وإذا دققنا النظر في العبارة السابقة، نستنتج أن الخفاجي كان يأمل في أن يستلم الخلافة، ولعل ذلك التأمل جاء بإيحاء من الخليفة المستنصر بالله، فبناء عليه خطط لإنهاء وجود المغول ومطاردتهم وراء نهر جيحون، وتخليص البلاد من شرهم.

لكن قبل كل شيء، وقع اختلاف بين بعض المؤرخين حول شخصية الخفاجي، فتارة يرد أنه أخ للمستنصر بالله وتارة يرد أنه أخ للمستعصم بالله.

(١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤.

(٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٧.

(٣) الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩٠. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٥. الذهبي، مختصر تاريخ الإسلام، ص ٣٥١.

(٤) فوزي: فاروق عمر، الخلافة العباسية (السقوط والإنهيار)، ط ١، عمان، ٢٠٠٣، ج ٢، ص ٢٤٨.

(٥) ابن واصل، المفرج، ج ٥، ص ٣١٨. اليونيني، ذيل المرأة، ج ١، ص ٢٥٥. الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١١١. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨، ص ٢٦٢. الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤.

فيرد عند الدواداري (١) بأن الخفاجي كان أخ المستنصر بالله وكان يتميز بالشهامة والقوة، وبسبب هذه الشهامة والقوة لم يفضل رجال الدولة اختياره للخلافة بل فضلوا المستعصم بالله لما كان يتميز به من اللين والانقياد، وليكون الأمر في النهاية إليهم.

بينما يذكر الذهبي بأنه (٢) " كان للمستعصم بالله أخ يسمى الخفاجي، وكان يتميز بالشهامة والقوة ويتوعد بملاحقة التتار واستئصالهم وانتزاع البلاد التي يسيطرون عليها، فعندما توفي المستنصر بالله خشي الدويدار والشرابي (٣) وكبار الدولة من سطوة الخفاجي وقوته إذا استلم الخلافة، وفضلوا المستعصم بالله لما عُرف عنه من اللين وضعف الرأي.

لكن إذا تتبعنا المصادر المعاصرة لفترة المستعصم بالله نجدها لم تتناول هذه الشخصية بأي شكل، وكذلك عند تتبعنا لكتب الأنساب لم نجد له أيضاً أي ذكر، ولم يذكر أيضاً ضمن أبناء الظاهر بأمر الله ولا حتى ضمن أبناء المستنصر بالله، فأبناء الظاهر بأمر الله هم المستنصر بالله، أبو عبدالله العباس، الذي توفي سنة (٦٣١هـ/٢٣٣م)، وأبو الفضل، وقيل أبو الفتح سليمان، وأبو القاسم علي أبو المظفر، وقيل أبو منصور، وأبو هاشم، ثم أبو الفتح حبيب، وكلهم قتلوا في واقعة بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) (٤).

أما أبناء المستنصر بالله، فهم: أبو أحمد عبدالله، وهو الخليفة المستعصم بالله، الذي توفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وأبو القاسم عبدالعزيز؛ حيث توفي في خلافة أخيه المستعصم بالله سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)، ودفن بالرصافة، كما كان له كريمتان، هما ست العرب، التي توفيت أيام أبيها سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٥م)، والأخرى ست الشرف، وقد توفيت في خلافة أخيها المستعصم بالله سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) (٥).

(١) الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص ٣٦.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٩. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦١. المكي، سمط النجوم العوالي، ج٣، ص ٥١٦.

(٣) الشرابي: هو إقبال الشرابي. هو مملوك حبشي بدار الخلافة، وكان شريباً يقدم الشراب للخليفة المستنصر بالله. ثم التحق بالجيش وارتقى إلى رتبة الأمراء حتى أصبح قائد الجيش للمستنصر ومن بعده للمستعصم بالله؛ حيث كان له دور في توليته الخلافة. الكتبي، عيون التواريخ، مج ٢٠، ص ٨٤.

(٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٥٧. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٥.

(٥) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٤. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٩. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٢٧.

إذن لقد كانت مبايعة المستعصم بالله بالخلافة شرعية، وحسب الأصول كما ورد في النصوص التاريخية؛ حيث إنه عندما توفي والده المستنصر بالله، وكان ذلك يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) <sup>(١)</sup>، استدعى المستعصم بالله من قبل إقبال الشرايبي إلى دار والده، فعندما حضر وكان معه خادمة مرشد الهندي وجد والده ميتاً، وقد أخفيا الأمر إلى اليوم التالي وهو يوم السبت؛ حيث لم يعلم بوفاة المستنصر بالله سوى المقربين جداً من الخدم. وكان أمر كتمان وفاته في يوم مثل يوم الجمعة من الصعوبة بمكان، حيث صلاة الجمعة واجتماعهم للصلاة، فعندما حضر أستاذ داره <sup>(٢)</sup> مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي مؤذناً بالأذان قبل صلاة الجمعة جرياً على العادة، أسر إليه خبر وفاة المستنصر بالله فكتم الخبر، وبعد ذلك عرف الخبر الوزير نصير الدين ابن الناقد، وأيضاً كتمه، أذن كل من عرف يوم الجمعة بوفاة المستنصر بالله، سواء أكان من الخدم أم من غيرهم كتم الخبر <sup>(٣)</sup>.

ويكاد يتفق بعض المؤرخين بأن مبايعة المستعصم بالله تمت في اليوم التالي لوفاة المستنصر بالله، وهو يوم السبت، وكان حينها عمر المستعصم بالله ثلاثين عاماً <sup>(٤)</sup>، وهو الصحيح، بينما يذكر بعض المؤرخين أن المبايعة كانت يوم الجمعة؛ أي نفس اليوم الذي توفي فيه والده <sup>(٥)</sup>، وهذا مستبعد

- 
- (١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩٠. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦. ص ٤٣١. مغطاي، الإشارة إلى سيرة المصطفى، ص ٥٥٨، ويتفق ابن شاکر والعيني بأن وفاة والد المستعصم بالله كانت في ٢٠ جمادى الأولى سنة (٦٤٠هـ). الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٥٧٩-٥٨٠. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٥٣. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٢٠٥.
- (٢) أستاذ الدار: وظيفة يتولى صاحبها قبض وصرف مال السلطان أو الأمير، ويتولى شؤون دار الخليفة ونفقاتها وأمور الأسرة العباسية المقصورة في دار الخلافة كأحوال الخليفة وأعمامه وأبناء أعمامه، وكان يتمتع بمكانة اجتماعية رفيعة، ومما يدل على أهميته في الدولة العباسية، أن كان مسؤولاً عن أخذ البيعة للخلفاء. ابن جبیر، الرحلة، ص ١٨١. الذهبي، المختصر، ج ١، ص ٣٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٢٩.
- (٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. الإربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٩٠. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٨. الذهبي، مختصر تاريخ الإسلام، ص ٣٠٢-٣٠٤.
- (٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦. ص ٤٣١. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٥٣.
- (٥) ابن العميد، المكين جرجيس (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٣م)، أخبار الأيوبيين، تحقيق كلود كاهن، دمشق، ١٩٥٨م، ج ١، ص ١٥٤-١٥٥. ابن العبري، أبي الفرج غريغوروس بن هارون الملطي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٥م)، تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٢٣. الدوادري، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٤٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٥٣.

علماً بأنه وقع اختلاف بين المعاصرين للمستعصم بالله في يوم مبايعته، فمثلاً ابن الكازورني (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٩م)، يقول بمبايعته يوم السبت، بينما يختلف معه ابن العميد (٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) الذي يذكر بأن المستعصم بالله تمت له المبايعة يوم الجمعة.

يذكر القزاز بأنه " كانت تولية المستعصم موضع استغراب واستنكار من أبناء الأسرة العباسية التي كانت تتوقع أن يفوز بالخلافة غيره، لذلك امتنعوا عن مبايعته جميعاً حتى أكرهوا على ذلك " (١).

ويؤكد الأربلي (ت ٧١٧هـ/ ١٣١٧م أن المبايعة تمت عن طريق الحيلة التي اتبعت لأخذ البيعة للمستعصم، فيقول: " واستدعى أحد أعمامه، وهو أبو الفتوح حبيب، وأوهم أن جماعة إخوته حضروا وبايعوا، فلما حضر لم يرهم فبايع وعاد إلى داره بالفردوس، ثم طلب البايعون للمبايعة فامتنعوا... وأما أعمامه وكذا عم أبيه الممتنعون من الحضور والمبايعة فأشير باستدامة غلق باب الفردوس الذي يحتوي دورهم، بحيث لا يدخل عليهم طعام ولا غيره، فبقوا على ذلك ثلاثة أيام، فسألوا المبايعة وأحضروا وبايعوا " (٢).

لكنني أجد أن مبايعة المستعصم بالله تمت حسب الأصول المتعارف عليها ولم يكن فيها شيء من الإكراه، فقد بايعه بالتدريج أهله وأقرباؤه وأسرته، ثم بعد ذلك بايعه الأمراء والوزراء والأكابر والقضاة والعلماء والفقهاء والمدرسون والمشايخ وأعيان الناس، ثم فتح الباب للعامّة، وقد كان لفظ المبايعة التي بويع بها المستعصم بالله " أبايح سيدنا ومولانا الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيه الشريف، وأن لا خليفة للمسلمين سواه "، فبايعوه على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم (٣).

وقد كان إقبال الشرابي هو القائم بأمر البيعة؛ إذ يذكر ابن الكازورني، وهو معاصر للمستعصم بالله، ويعدّ خبره عن بيعته الأقدم، أن المستعصم بالله: "بويع له بالخلافة في يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة حين استدعى من داره بالفردوس وبين يديه إقبال الشرابي، ورأى والده - رحمه الله تعالى - ميتاً ثم أخفى الأمر إلى يوم السبت، وجلس في شبك المبايعة بعد أن بايعه أهله وأقرباؤه وأسرته، وأخذ له البيعة أستاذ الدار أبو طالب محمد بن العلقمي لعجز الوزير أبي الأزهر بن الناقد عن ذلك لعلو سنّه، وكان جالساً على آخر مرقاة من درج

(١) القزاز، الحياة السياسية، ص ٩٦.

(٢) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣) ابن الكازورني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦-٢٦٧. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٨-١٦٠.



المبايعة، واستدعى الأئمة فالأئمة للمبايعة، فبايع الأكابر والقضاة وأولو العلم والفقهاء وأماثل العالم، وكان لفظ المبايعة "أبايع سيدنا ومولانا الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيه الشريف، وأن لا خليفة للمسلمين سواه". ثم في آخر يوم أمر أبا الفتح عبد الرحمن بن الجوزي أن يقول بأعلى صوته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتْ فَايْمَانُكَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَّا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَّا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ (١)، ثم أسبلت الستارة، ومضى الولاة إلى بيت النبوة فجعلت محفة الوزير بباب الرواق وهو فيها وأرباب الدولة حوله، وقال الشعراء، وختمت الختمة، ودعا ابن النسابة، ثم خرج إقبال الشرايبي وبيده المطالعة والخدم حوله يبسمون فسلمها إلى الوزير، وجلس إلى جانبه فلم يرتفع صوت الوزير بقراءتها فقرأها أستاذ الدار قائماً ومضمونها التسلي والتعزي مفتحة بقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٢) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (٣)، وفي أثناء كلامها "ونحن أجدر من عمل بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤) " (٣) " (٤).

ويمكننا أن نقول إننا لا نكاد نجد بين الخلفاء اللاحقين بعد المقتفي من له دور فعال في النشاط السياسي أو تأثيره في شؤون الحكم وإدارة البلاد، وقد غلبت على معظمهم العزلة عن الناس واتخذوا من الوزير واجهة لأوامرهم ونواهيهم، وقصروا الاتصال به دون الناس، ولم يحاول أحدهم الخروج من بغداد وتفقد أحوال البلاد أو الاتصال بالشعب ومعرفة حاجاته (٥). وأياً كان الأمر فقد مدح الشعراء تولي المستعصم بالله الخلافة، فهذا الناصر داود، قال يرثي المستعصم بالله ويمدح المستعصم بالله حينما بلغه الخبر:

(البحر الطويل)

فأججت نار الحزن ما بين أضلعي  
يصوغُ أفانين القريض الموشع  
فأوقفتِ أمالي وأجريتِ أدمعي

أيا رنة الناعي عبثتِ بمسمعي  
وأخرستِ في مقولاً ذا براعة  
نعتتِ إلى البأس والجلود والحجى

(١) سورة الفتح. الآية (١٠).

(٢) سورة الأنبياء. الآية (٣٤-٣٥).

(٣) سورة الحج. الآية (٤١).

(٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ١٩-٢٠.

(٥) القزاز، الحياة السياسية، ص ٩٧.

ويقول في نفس القصيدة:

وتسليمه تاج الخلافة بعده  
هو قمرُ العلياء من برج سعدة  
بفرع نمي من دوحة ظاهريّة  
بمستعصم بالله منتصر له  
أقام منار العدل بعد إعوجاجه  
إلى خير مودوع وأوثق مُودع  
فأطلع شمس المجد من خير مطلع  
نمي عرفها عن طيبها المتضوع  
بحزم التآني لا بحزم التسرع  
رشيد واهي الدين بعد التضضع (١)

رابعاً: شخصية المستعصم بالله

صفاته:

يمكن التعرف على صفات الخليفة المستعصم بالله وشكله من خلال وصف بعض المؤرخين له؛ حين قالوا: إنه كان جميل الصورة، حسن الوجه، كامل المحاسن، كما أنه كان أسمر اللون، وذا عينين جميلتين، وكان مسترسل اللحية، وكثير الحياء (٢). ويقول ابن الساعي (٣) "شاهدته - يعني الخليفة المستعصم بالله - وهو أسمر اللون مسترسل اللحية، ربة ليس بالطويل، ظاهر الحياء، لين الكلام، سهل الأخلاق، سليم الصدر"، ويوصف أيضاً بأنه كان عفيف الفرج واللسان، كريم الطباع، شريف النفس، وفاضلاً (٤)، حليماً (٥)، محدثاً (٦)، فقيهاً (٧)، عادلاً (٨)، صبوراً على الشدائد والأمور

- (١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٢٠.
- (٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٦.
- (٣) ابن الساعي، علي بن انجب بن عثمان بن عبدالرحمن البغدادي (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، تاريخ ابن الساعي، دراسة وتحقيق محمد القدحات، دار الفاروق، عمان، ٢٠١٠م، ج٩، ص ٣٤١. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩٠.
- (٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩١. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٩. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٩؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣١. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٧، ص ٣٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٥٣-١٥٤ و ١٩٠. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٣.
- (٥) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٩. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٣.
- (٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٩. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠. ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٦-٥٣٧.
- (٧) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٦-٥٣٧.
- (٨) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٠٨. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٩. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٢.

المستعصيات، صاحب رأي سديد وعزم شديد، ونستدل على ذلك أنه عندما داهمت عساكر المغول بغداد في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، أوعز الخليفة المستعصم بالله إلى إقبال الشرابي أن يلقاهم، فثبت عسكر بغداد لهم أحسن ثبوت ورشقوهم بالسهام، وظهرت إمارات القوة على عسكر بغداد إلى أن جاء الليل ولم يلتق الطرفان بل كان الوضع عبارة عن مناوشات إلى أن ارتحل عسكر المغول راجعين إلى بلادهم<sup>(١)</sup>.

كما أن المستعصم بالله كان عفيف الفرج واللسان، يتجنب ارتكاب المنكرات، ظاهر الحياء. سهل العريكة، خفيف الوطأة، حسن العشرة، وفياً<sup>(٢)</sup>؛ حيث كانت عنده جاريتان قبل الخلافة، أنجب من إحداهما ثلاثة أبناء وبنات واحدة، أما الأخرى فقد أنجب منها أربع بنات، فلما أصبح خليفة بقي عليهما ورعاهما؛ حيث طلبت منه أم الأبناء أن يعتقها ويتزوجها، ففعل، وعندما ماتت اتخذ جارياً أخرى وأنجب منها ولداً. وأيضاً طلبت منه أن يعتقها ويتزوجها ففعل ذلك، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وفائه وحسن العشرة وحفظ الود<sup>(٣)</sup>.

وأيضاً تذكر بعض المصادر أن المستعصم بالله كان صالحاً، ديناً، متمسكاً بالسنة، والدليل على ذلك أنه كان يكثر من تلاوة القرآن الكريم، يجوده ويحفظه، وكان ذلك على يد الشيخ شمس الدين أبي المظفر علي ابن النيار الشافعي، وعندما ختمه عملت دعوة عظيمة، وأعطى علي ابن النيار ستة آلاف دينار، كما أن المستعصم بالله قد أكرمه وأحسن إليه في خلافته، ويعرف عن المستعصم بالله أنه كان متقناً للغة العربية وكان حسن الخط<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٣-٢٢٤. ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨-٢٦٩. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٩.

(٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨-٢٦٩. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٠٨. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٩٠. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٣٢. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤-٤٦٥.

(٣) الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩١.

(٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩١. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٤. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٢٥٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٩؛ وسير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٤٣١. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣. الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٥٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٩٠. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٣٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤. ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٠٣.

ووصف المستعصم بالله أيضاً بأنه كان مناهضاً للبدع، وكان يؤدي الصلوات في أوقاتها ويصوم الاثني عشر من كل شهر، ويصوم شهر رجب على نحو مستمر (١).  
بهذا يتبين أن في الخليفة المستعصم بالله أوصافاً لم تجتمع في غيره ممن مضى من آبائه وأجداده.

وشهد للمستعصم بالله بأنه كان مهتماً بإكرام العلماء ومهتماً بالعلم وتوفير مصادره كأهتمامه بأمور الدولة وحرصه على الرعية (٢).

حيث يقول ابن الطقطقي (٣) في وصف المستعصم بالله إنه: " في بعض الأوقات كان يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة". وقد قام الخليفة المستعصم بالله بتسليم هذه الخزانة إلى عبدالمؤمن الأرموي (٤) الذي كان يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد (٥).

ومهما ذكرت المصادر من صفات إيجابية فإن هناك بعض المؤرخين يصفون المستعصم بالله بأنه كان ضعيف الرأي مستبداً به (٦)، قليل الخبرة بأمور الخلافة، خاصة أنه أوكل كثيراً من أمور الخلافة إلى غيره، كما يوصف بأنه سيء التدبير وضعيف، يبذل الجهد والتفكير والتدبير لأمور الخلافة، فهو يتناول السهل ويترك الصعب. ويوصف بأنه اهتم بالأمور الصغيرة للناس ونسي الاهتمام بحوائج الخلافة التي أولاهها إلى وزيره، وأستاذ داره، وكتاب ديوانه، وأمير جنده.

(١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨. الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩١. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٤. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٩؛ وسير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣١. الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٥٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٢. السبوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤.

(٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨-٢٧٠. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣-٣٣٤. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٩. مغلطي، الإشارة إلى سيرة المصطفى، ص ٥٥٩. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٧، ص ٣٤٣. الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٥٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩١. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٦. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٦.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٤.

(٤) عبدالمؤمن هو: صفى الدين عبدالمؤمن بن فاخر الأرموي، حيث كان مقرباً من المستعصم بالله حتى صار من خواصه، ابن الطقطقي، الفخري، ص ٣٠٩.

(٥) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٤.

(٦) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج١، ص ٢٩٠. الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص ١٤٣.

دون أن يكون هناك تشاور أو محاسبه على ما يقومون به، لذلك جعلهم يستغلون الخليفة وأصبح منقاداً من غير أن يعلم شيئاً عن أمور الخلافة<sup>(١)</sup>.

ووصف أيضاً بأنه كان مهملاً، نازل الهمة، لا يهابه أحد، وغالباً ما يقضي وقته في مجالسة النساء وسماع الأغاني والموسيقا<sup>(٢)</sup>. وكان أصحابه من أراذل العوام<sup>(٣)</sup>، والخليفة بحكم منصبه يكون معرضاً للاحتكاك مع جميع فئات السكان، فلا أدري ماذا قصد المؤرخون بأراذل العوام؟ كما أن الخليفة كان يحفظ القرآن الكريم، ويروي الأحاديث، وهذا بالطبع سينعكس على شخصيته وأخلاقه!

كما أنني أجد أن كثيراً من الخلفاء العباسيين كانوا كذلك، فلماذا تضخم الأمور بالنسبة للمستعصم بالله، فهو إذا أركن الأمور إلى كبار رجال الدولة فإن هذا لا يعني أنه ضعيف، ولكن ذلك قد يُقال فيه إن متابعتة لهؤلاء لم تكن كما يجب.

الخليفة المستعصم بالله مثل غيره من الخلفاء العباسيين، فيه جوانب إيجابية، وجوانب سلبية، ولكني أجد أن بعض المؤرخين قد بالغوا في الصفات السلبية، فوصفوه بالصفات السابقة ذكرها، كيف ذلك وما نحن نجد أن الملك الصالح أيوب بعد أن شعر بدنو أجله سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، أوصى أحد كبار قادة جيشه بتسليم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله، ليرى فيها رأيه<sup>(٤)</sup>. فلو كان الخليفة فيه هوج أو عدم تدبر لأمر الدولة - كما قالوا - لما أوكل بتسليم البلاد له.

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٣. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩١. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣١. مغلطاي، الإشارة إلى سيرة المصطفى، ص ٥٥٨. الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٥٨٠؛ عيون التواريخ، ج٢٠، ص ١٤٣. القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٨٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٦٠. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٦. مجهول، تاريخ الخلفاء والسلاطين، (مخطوط)، ص ٣٥.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٣. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩١. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣١. مغلطاي، الإشارة إلى سيرة المصطفى، ص ٥٥٨. الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٥٨٠؛ عيون التواريخ، ج٢٠، ص ١٤٣. القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٨٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٦٠. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٦.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١١٤.

وكذلك فإن السلطانة شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهي أول سلاطين المماليك، التي تولت حكم مصر بعد مقتل توران شاه ابن السلطان أيوب سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، أظهرت انتسابها إلى الخليفة المستعصم بالله<sup>(١)</sup>، وأتضح ذلك في تلقبها بـ "المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين"، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين<sup>(٢)</sup>، وهذا دليل آخر على عكس ما قيل عن المستعصم بالله بأنه مهمل سيء التدبير ولا يهابه أحد، ويذكر المقرئزي<sup>(٣)</sup> أن سبب وصية السلطان بتوجيه البلاد إلى الخليفة وعدم تسليمها إلى والده توران شاه أنه كان على علم بما في والده من الهوج، وفي هذا تأكيد أن الخليفة المستعصم بالله كان يخلو من الهوج، ويتصف بحسن التدبير. وتذكر بعض المصادر أن المستعصم بالله كان محباً للمال وجمعه، شحيحاً، حريصاً، عنده لين وعدم تيقظ؛ حيث يُذكر أنه استعمل الوديعه التي استودعها إياه الملك الناصر داود ابن المعظم<sup>(٤)</sup>، وكان ذلك في سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وكانت قيمتها مائة ألف دينار، فاستقبح هذا العمل، فما بالك إذا كان من الخليفة، وخاصة أن الملك الناصر طلبها من الخليفة مرات عدّة، فكان الخليفة يماطل في ردها<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٧. المقرئزي، السلوك، ج١، ق ١، ص ٢٤٢. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٣٢-٣٣٣. عنان، محمد عبدالله، تراجم إسلامية، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١٠٣.

(٢) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج١، ق ١، ص ٢٤٢. فهد، بدري محمد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥١٢-٦٥٦هـ/١١٥٧-١٢٥٨م)، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٣م، ص ٣٧.

(٤) هو الملك الناصر داود بن المعظم، صاحب الكرك، كان مولده بدمشق سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٥م)، وكان قد غلب عليه الشيب لكثرة الأحوال التي مر بها، مكث بالكرك إحدى وعشرين سنة، وكان ملكاً فاضلاً عالماً فقيهاً جيد الشعر، ومن قوله:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكنا

وقد توفي بالطاعون في دمشق سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وكان عمره ٥٣ سنة. الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص ٣٦-٣٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٧٦. الياقعي، مرآة الجنان، ج٤، ص ١٠٧.

(٥) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج١، ص ٢٧١. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ١٣. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦١هـ)، ص ٢٥٩-٢٦٠. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٧٨-٢٧٩. الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٥٨٠. عيون التواريخ، ج٢٠، ص ١٤٣. ويقول الكتبي: "والله لو كان الناصر من بعض الشعراء، وقد قصده وتردد إليه على بعد المسافة ومدحه بعدة قصائد، كان يتعين عليه أن ينعم عليه بقريب من قيمة وديعته في ماله. عيون التواريخ، ج٢٠، ص ١٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠، ١٩٩. القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٨٨-٨٩. المقرئزي، كتاب السلوك، ج١، ق ١، ص ٣٩٧. ابن أبي عذبية، إنسان العيون، ص ٣٠٧. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٦٠.

لكن الملك الناصر لم ييأس، وكان قد سافر إلى بغداد، وأقام في كربلاء (١)، حيث بعث من هناك إلى الخليفة المستعصم بالله، قصيدة يطلب فيها وديعته (٢)، وهي:

(البحر الطويل)

مقامك أعلى من الصدور	حلمك أرجى في النفوس وأكرم
فلا عجب إن غص بالقول شاعرٌ	وفوه مصطك اللهاتين مُعجَم
إليك أمير المؤمنين توجهي	بوجه رجاءٍ عنده منك أنعم
وأني بقولٍ، والمحلُّ معظّم	ولم لا وما يُرجى من الحلم أعظم؟
إلى ماجدٍ يرجوه كلُّ مُجدِّ	عظيمٍ فلا يغشاه إلا المُعظّم
ركبتُ إليه ظهريهما قفرة	بها تسرُّجُ الأعداءُ خيلاً وتلجُم

ويقول ابن حبيب (٣): " إن المستعصم بالله صمّ أذانه عنها وقطع آمال ناظمها من رد المال. عندها توجه الناصر داود إلى الحج وتعلق بأستار الكعبة، طالباً شفاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى المستعصم بالله برد وديعته إليه " (٤).

أعتقد أن الأمر فيه شيء من المبالغة؛ لأن المستعصم بالله كان في المناسبات والأعياد يخلع على الأمراء والمقربين بمبلغ يفوق وديعة الناصر داود، ثم ما تميز به المستعصم بالله من صفات مثل حفظ القرآن، وكثرة الصيام، كفيhle بأن تمنعه من عمل فعل كهذا.

كان الخلفاء، وخاصة الناصر والمستعصم بالله، مغرمين بالصيد (٥)، فإذا خرج أحدهم للصيد صحب معه جماعة من الأمراء والمقربين، وعند وصولهم إلى المكان المحدد لذلك نصبوا الخيم

(١) كربلاء: الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي في الكوفة على جانب الفرات، ابن عبد الحق، صفى الدين عبد المؤمن البغدادي، (ت ٥٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٣ مج، تحقيق علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، مج ٣، ص ١١٥٤.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، م ١، ص ١٦٨. أبي الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٢٩-٢٣٠. الكتبي، عيون التواريخ، ج ٢، ص ٩٣-٩٤.

(٣) ابن حبيب الحلبي، بدر الدين الحسن بن أبي القاسم عمر الشافعي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج ١، مركز الوثائق، الجامعة الأردنية، شريط رقم ٥٣٩، ق ١٦ أو ق ١٦٠.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ١٧٢.

(٥) ابن جبیر، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٦م)، رحلة ابن جبيرة المسماة رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٨٢.

للإقامة والراحة<sup>(١)</sup>. والخليفة المستعصم بالله كان يعشق الصيد واللعب بطيور الحمام ويهتم بها اهتماماً عجبياً<sup>(٢)</sup>، ففي سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) خرج الخليفة مع الأمراء والخدم يتصيد في ناحية الأنبار<sup>(٣)</sup>، فأقام أياماً وعاد وقد اصطاد من الغزلان وحمير الوحش ما يزيد على ثلاثة آلاف رأس، وقد وزعت على أرباب الدولة والحاشية<sup>(٤)</sup>، حيث تقدم الخليفة في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) بإرسال طيور من الحمام إلى أربع جهات لتصنف أربعة أصناف، وسميت هذه الأصناف باليமானيات والعسكريات والغنويات والقادسيات، وقال النقيب الطاهر قطب الدين الحسيني بن الأقساسي<sup>(٥)</sup> أبياتاً، عرضها على الخليفة أولها :

(البحر البسيط)

موكل بصروف الدهر بصرفها

خليفة الله يا من سيف عزمته

ويقول فيها :

(البحر البسيط)

على الحمام التي من قبل نعرفها

إن الحمام التي صنفتها شرفت

أذ أنت يا مالك الدين مصنفها

والقادسيات أطيار مقدسة

غني الحياة وما يهوى مؤلفها

وبعدها غنويات تتال بها

وليس غيرك في الدنيا يشرفها

والعسكريات أطيار مشرفة

الأسيوفاً على الأعداء ترهقها

ثم الحمام اليمانيات ما جعلت

يهدى لمجدك أسناها وأطفها

لا زلت مستعصماً بالله في نعم

- (١) الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧هـ/١٢١٩م)، مضمّن الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١٧٣.
- (٢) ابن العبري، تاريخ مختصر، ص ٢٢٣. ابن الفوطي، الحوادث، ص ٢٠٣-٢٠٤. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٦٠.
- (٣) الأنبار: مدينة صغيرة في العراق بينها وبين بغداد ثلاثة عشر فرسخاً، وهي من المنازل التي عمرت في سالف الزمان، الحميري: محمد بن عبدالمنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٣٦.
- (٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٨.
- (٥) قطب الدين الأقساسي، نقيب العلويين، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٧٧، كما أنه كان ينظر في شؤون أولاد الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، ابن الطوير، أبي محمد المرتضي عبدالسلام بن الحسن (ت ٦١٧هـ/١٢١٨م)، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ١٩٩٢م، ص ١١٣-١١٥.



ويقول في آخرها :

(البحر الطويل)

قضى الله أن يبقى إماماً معظماً      مدى الدهر ما لاح الصباح وأسفرا  
قدم يا أمير المؤمنين مخلداً      وعلى الملك منصور الجيوش مظفراً<sup>(١)</sup>

وكان الخليفة يستقدم الحمام من مناطق عدة، ويعين من يهتم بها من حيث التصنيف والتسجيل وذكر نسبها<sup>(٢)</sup>، ويذكر ابن الفوطي في حوادث سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٥م) قائلاً :  
" وفي هذه السنة وصلت الطيور الحمام من عبادان<sup>(٣)</sup> وخشبات<sup>(٤)</sup>، وسبق النقيب الطاهر قطب الدين أبو عبدالله الأقساسي من سطح الشرابي<sup>(٥)</sup>، فنظم العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد المدائني<sup>(٦)</sup> كاتب الإنشاء قصيدة يمدح فيها الخليفة قائلاً فيها:

(البحر الكامل)

سبق النقيب من البلاد بأسرها      جبايها وجنوبها وشمالها  
لا واسط أجدت عليه وإنما      ضرته بلدة أربل بجبالها  
وللموصل الفيحاء مات جماعة      فيها مع الغرباء في أطلالها  
ملك الحمام ما بحشو قلوبها      شوق إلى دار النقيب وحالها  
أني لأعذرهما وقد ولت إلي      سنجار تطلب خمسها من مالها  
لم تلق في سطح النقيب غداءها      أبداً سوى أنواره بزلالها  
كم هذه الخلوات أني خائف      من بردها وزكامها وسعالها

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٣. الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص ٣٣-٣٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٧٤-١٧٥.

(٣) عبادان: جزيرة تحت البصرة قرب البحر المالح، وهي مثلثة الشكل، القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (٦٨٢هـ/١٢٨٤م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٤١٩.

(٤) خشبات: موضع بالعراق، بينها وبين عبادان ستة أميال، وهي على متصّل بحر فارس بمصب دجلة، الحميري، الروض المعطار، ص ٢٢٤.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٢-٢١٣.

(٦) كان أديباً معروفاً وكاتباً بليغاً، له باع في النظم والنثر، وكان له حضور لدى ابن العلقمي؛ حيث كان يكرمه وينوه بذكره كثيراً، توفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٧٢.

ما كان يغلط طائر لك مرة      فيجيء عاشرها لدى إرسالها  
الله أكبر إن هذه عبرة      لم يقدر أحد على أمثالها  
لو صور الله البروق حمائماً      لك لم تر الأيماض في أفعالها  
وسواك لو حمل الدجاج مسابحاً      سبقتك طائرة على إرسالها (١)

ثم قال فيه أبياتاً، منها:

أرسل الطاهر النقيب طيوراً      (البحر الخفيف)  
وسباق فلم يفز بمراد  
وطيور المولى الشرايبي جاءت      وطيور النقيب في كل وادي  
مما حداها على التأخر إلا      طلب الخمس من طبق الزاد (٢)

كان المستعصم بالله يستخدم في الصيد طريقة استخدمها قبله الخليفة المعتصم وهي طريقة الحلقة، وتستخدم لحصر الصيد، فبنى في أرض دجيل حائطاً على شكل نعل فرس طوله فراسخ كثيرة وطره على النهر، فكان رجاله يطردون الصيد حتى يُحصر بين الحائط والنهر ثم يصطادون (٣).

كما كان الخليفة المستعصم بالله يصطحب معه إلى الصيد الشعراء والأدباء (٤)، فهذا علاء الدين أبو المظفر عماد الدين الدويدار، قد خرج مع الخليفة إلى الصيد سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، فسقط وحمل في محفة إلى بغداد، فقال:

أني أعينك يا مولاي من ألم      (البحر البسيط)  
يا من سطاه أرتنا الأسد خاضعة      يا إذا الهني والعلا والجود والكرم  
وحسبنا شرف أن بأعيننا      ومن عطاياه أغنتنا عن الديم  
نفديك من ألم يلقاك في القدم (٥)

- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٢-٢١٣.
- (٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٢-٢١٣.
- (٣) حتي، تاريخ العرب مطول، ج٢، ص ٤١٧-٤١٨.
- (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ١٨٨-١٨٩.
- (٥) ابن الساعي، تاريخ ابن الساعي، ج٩، ص ٣٤٥.

وبلغت أهمية الطيور أن كانت تهدي للخلفاء، فقد أهدي للمستعصم بالله سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) طائر غراب أبيض كله، وبذلك نظم الشعراء أشعاراً كثيرة منها:

(البحر الوافر)

وما لون الغراب بياض شيب      ولكن نور عدلك يا أمام  
فحش للملك ما وخذت قلوب      وراكبها وما ناح الحمام  
يزيل البؤس والغمَاء عنا      ويكلؤك المهيمن والسلام<sup>(١)</sup>

والخليفة المستعصم بالله ليس الوحيد بين الخلفاء الذين يحبون اللعب بالحمام والصيد<sup>(٢)</sup>، فهذا الخليفة المستجد بالله يخرج إلى الصيد في سنة (٥٥٦هـ/١١٦١م) مرتين في السنة<sup>(٣)</sup>، والخليفة الأمين ابن هارون الرشيد كان مولعاً بصيد السباع<sup>(٤)</sup>، وكذلك جعل الناصر لدين الله جل همه في رمي البندق والطيور<sup>(٥)</sup>.

كما أن المستعصم بالله كان يشجع الرياضة والسعي لمسافات طويلة، ففي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) جرى معتوق الموصل من دقوقا إلى بغداد، وكان في استقباله الخليفة المستعصم بالله وأولاده وحاشيته من الأمراء، وقائد الجيش إقبال الشراي، وقد أمر الخليفة بإعطائه خمسمائة دينار، كما أعطاه الشراي ثلاثمائة دينار، وحصل من أرباب الدولة الشيء الكثير<sup>(٦)</sup>.

وأيضاً في سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) جرى سعي وسباق تحت رعاية المستعصم بالله وأولاده، وكان السباق بين معتوق الموصل المعروف بالكوثري وعلي بن الأربلي<sup>(٧)</sup>، وكانت مسافة السباق

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٩.

(٢) أسامة بن منقذ، مؤيد الدين أبو مظفر الشيزري، (ت ٥٨٤هـ/١١٥٣م) كتاب الاعتبار، حرره فليب حتي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، طبعة ١٩٨١م، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة ١٩٣٠م، ص ٢٤٧-٢٥٥. المنجد، صلاح الدين، بين الخلفاء والخلفاء في العصر العباسي، دار الحياة، بيروت، ١٩٥٧م، ص ١٠١-١٠٦.

(٣) الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٥.

(٤) المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، ج ٣، ص ٣٩٤-٣٩٥.

(٥) النويري، نهاية الأرب، م ٢٣، ص ٣١٨.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩١.

(٧) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٤م)، نسبة إلى مدينة أربل إحدى المدن الشمالية في العراق، وقد تربى في بيت علم وفضيلة، له تلاميذ كثير، أشهر كتبه كشف الغمة في معرفة الأئمة. بهاء الدين الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى الأربلي كشف الغمة في معرفة الأئمة، ط ٢، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٥م، ص د. هـ.

من دقوقا إلى بغداد، وكان الخليفة المستعصم بالله وأولاده قد خرجوا للتفرج على السباق حيث جلسوا في الكشك إلى حين وصولهما، فأمر الخليفة المستعصم بالله للكوثري الذي فاز بالسباق بفرس من مراكبه، وخلعة، وذهب، ودار في البلد بالطبول والبوقات حيث حصل الشيء الكثير<sup>(١)</sup>.

إذن كان المستعصم بالله يشجع الرياضة التنافسية بين المتسابقين للحصول على الجوائز المالية، التي تعكس روح المجتمع الإسلامي الرياضية، وكانت هذه الرياضة تتم تحت رعايته أو رعاية أحد من الأمراء.

وقد كان الخلفاء العباسيون على نحو عام يحرصون على النزاهة؛ لأنهم يعدونها وسيلة من وسائل التسلية، وقد كان أهل بغداد يحرصون على المشاركة فيها؛ فيخرجون إلى البساتين والرياض لقضاء أوقاتهم<sup>(٢)</sup>، فنجد المستعصم بالله قد أنشأ داراً بالمحول<sup>(٣)</sup> أنزه مواقع بغداد<sup>(٤)</sup>، كما حرص على القيام برحلات نزهة إلى واسط<sup>(٥)</sup> ومعه الأمراء حيث أقام بها أياماً<sup>(٦)</sup>، وفي الوقت نفسه كان الخليفة يخرج مع أمرائه ومماليكه إلى قرية من أعمال طريق خراسان للتنزه ولرمي البندق<sup>(٧)</sup> (٨).

كما ورد أن الخليفة المستعصم بالله كان يحب سماع الأغاني<sup>(٩)</sup>، بالرغم مما كان عليه من التقوى والتدين<sup>(١٠)</sup>. ويحب الجواري الحسان، وكان يقضي بعض وقته معهن، فقد ورد عند الكتبي

- 
- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣٤.
- (٢) ابن الكازروني، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، تحقيق كوركيس عواد، وميخائيل عواد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٢م، ص ٤٣٨.
- (٣) المحول: بليدة حسنة طيبة، كثيرة البساتين والفواكة والأسواق، والمياه بينها وبين بغداد فرسخ، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، ص ٥٥٣، دار صادر، بيروت، ص ٥٦٦.
- (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٩. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٩٤.
- (٥) واسط: مدينة بين الكوفة والبصرة من الجانب الغربي، تشقها دجلة، بناها الحجاج سنة (٨٤هـ/٧٠٣م)، وبقي فيها إلى أن توفي سنة (٩٥هـ/٧١٣م). القزويني، آثار البلاد، ص ٤٧٨.
- (٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٥.
- (٧) البندق: كرات صغيرة، تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص، ترمى بواسطة الأقواس كالنبال، وهي كلمة فارسية بلفظها واستعمالها. وتسمى أيضاً الجلاهقات، زيدان، جورجي، تاريخ التمدن الإسلامي، راجعه وعلق عليه حسين مؤنس، ص ٥٥، دار الهلال، بيروت، ١٩٥٧م، ص ٧٥٣. ج ٥، ص ١٥٣-١٥٤.
- (٨) الأيوبي، مضممار الحقائق، ص ١٧٣.
- (٩) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣. الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٩-٤٠.
- (١٠) الإبلي، خلاصة الذهب، ص ٢٩١.

أنه كانت ببغداد: " مغنية تعرف بلحاظ فائقة الجمال، تغني جيداً، فأحبها الخليفة، وأجزل لها العطاء، فكثر خدامها وجواريها وأملاكها، فاتفق أن غنت يوماً بين يديه بلحن طيب غريب، فسألها عنه، فقالت: هذا لمعلمي، صفي الدين، فقال، عليّ به، فأحضر بين يديه، وضرب بالعود فأعجبه، وأمر بملازمة مجلسه، وأمر لي برزق وافر وخير جزيل، غير ما كان ينعم به عليّ، وصرت أسفر بين يديه وأقضي للناس حوائج، وكان لي مرتب في الديوان كل سنة خمسة آلاف دينار، يكون عنها دراهم مبلغ ستين ألف درهم... " (١).

وأيضاً يقال بأن الخليفة المستعصم بالله كان مغرماً بالجواري، فعندما أحاطت التتار بدار الخلافة وأخذو برشقها بالنبال أصاب سهم مولدة تسمى عرفة وقد دخل السهم من الشبايك؛ حيث قتلها، فانزعج الخليفة من ذلك، وهذه الجارية كانت من جملة حظاياها المدللات عنده، وكانت تضحكه، وقيل إن السهم الذي قتل المولدة عرفة كتب عليه: " إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم " (٢)، وبناء على ذلك أمر الخليفة المستعصم بالله بزيادة الاحتراز والحذر، فعملت سنائر من ألواح الخشب (٣).

ويرد بأنه كان للخليفة المستعصم بالله علاقات نسائية كثيرة؛ إذ عندما وصل هو لآكو ببغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) حضر الخليفة المستعصم بالله بين يديه، فطلب من الخليفة أن يفرز النساء التي باشرهن هو وأولاده عن غيرهن، ففعل فكن سبعمائة امرأة، فأخرجهن ومعهن ثلاثمائة خادم خصي (٤).

كيف ذلك وأغلب المصادر تجمع على أن الخليفة كان يحفظ القرآن ويتلوه، ويروي الحديث، ويصوم الاثنين والخميس ويكثر من الصدقات (٥). كما أن المتعارف عليه أن سماع الأغاني وكثرة الجواري كان بالنسبة للخلفاء شيئاً طبيعياً، فإذا تتبعنا أغلب الخلفاء العباسيين نجدهم كانوا على الشاكلة نفسها، ولكن الأمر بالنسبة للخليفة المستعصم بالله جاء فيه شيء من المبالغة، فليس من

(١) الكتبي، فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٩-٤٠.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ١٨٦.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ١٨٦.

(٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٧. ابن جنيد، يحيى محمود، المستعصم بالله العباسي (ت ٦٤٠-٦٥٦هـ)، ط ١، دار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ١١٢.

(٥) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص ١١١. الكتبي، عيون التواريخ، جـ ٢، ص ١٣٣. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٤٠. الغساني، المسجد المسبوك، جـ ٢، ص ٤١٢. جواد، سيدات البلاط العباسي، ص ١٧٣.

المعقول أن يحيط جنود التتار بقصر الخليفة وهو لاه مع المحظية عرفة التي كانت ترقص بين يديه، وكل الذي فعله عندما علم بقدوم التتار أنه انزعج وقام بسد الشبابيك.

ويمكن القول إن المجتمع الإسلامي قد ألف وجود الجواري في البيوت على مستويات اجتماعية مختلفة، لذلك أصبح الاقتران بالجواري أمراً غير معيب، فلو دققنا النظر في جنسيات أمهات الخلفاء، نجد أن جميع الخلفاء من أبناء الجواري، فالناصر لدين الله ابن جارية تركية مملوكة جلبها الجلابون من بلاد الترك إلى دار الخلافة، وكانت جارية للخليفة المستضيء بأمر الله، وله جارية أخرى اسمها بنفشة فاعتقها فصارتا زوجتين ولقبت أم الناصر زمرد خاتون، وأم الظاهر جارية تدعى قشوة، والمستنصر بالله ابن جارية اسمها شيرين<sup>(١)</sup>.

كان الخليفة المستنصر بالله مهتماً بمتابعة أمور الناس وقضاء حوائجهم؛ حيث اهتم كثيراً بأمر الحجاج وكان قد عاد الحج إلى وضعه بعد انقطاعه منذ سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، وقد اهتم بطريق الحج من حيث الاهتمام بالأبار وتنقيتها لتصبح صالحة للاستخدام، كما عين عليها مشرفاً يعرف باسم ابن ورخز ومعه جماعه من الرجال، وكذلك اهتم بأمر سبيل<sup>(٢)</sup> الفقراء، وجعل السراج عمر ابن بركة النهركلي مشرفاً عليه. ووضع سبيلاً لكل من المستنصر بالله والظاهر بأمر الله، وسبيل لوالده الناصر لدين الله، وعين لكل سبيل من يتولاه ويشرف عليه<sup>(٣)</sup>.

لقد أسندت إمرة الحج في عهد المستنصر بالله إلى قادة الجيش مثل مجاهد الدين أيبك المستنصري، وقد تكرر انتدابهم لهذا العمل في سنوات متتالية، بعد أن كان أمير الحج في العهود العباسية الأولى يُختار من الأمراء العباسيين، ثم من البارزين من العلويين<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص ١١١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٤٠. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٤١٢. جواد، سيدات البلاط العباسي، ص ١٧٣.

(٢) السبيل، الطريق، وسبيل الله طريق الهدى، واستعمل السبيل في الجهاد أكثر، وقوله في سبيل الله أريد الذي يريد الغزو ولا يجد ما يبلغه مغزاه فيعطي من سهمه، وسبيل الله عام على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله تعالى بأداء الفرائض والنوافل والتطوعات، وإذا أطلق فهو في الغالب على الجهاد حتى صار لكثرة الاستعمال مقصوراً عليه، ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، دار الحديث، القاهرة، ج ٤، ص ٤٨٤.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٤، ١٧٤. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٢٧.

(٤) الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٢٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٤٣٢. فهد، تاريخ العراق، ص ٢٦٠.

ولقد اهتم الخليفة المستعصم بالله بأمر السجناء، حتى إنه في سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) أمر بالإفراج عن جميع المسجونين في الحبس بعد أن يرضى غرماؤهم بالمصالحة على ديونهم<sup>(١)</sup>. ولم يكن للسجن مدة خاصة، ولم يكن لكل جرم عقوبة ذات أجل معروف، أما السبل التي يخرج بها المسجونون فهي: الفرار، كسر السجن، موت الخليفة، العفو، حيلة يحتال بها<sup>(٢)</sup>، ومع ذلك فقد نظمت أمور السجون على نحو جيد، وكان الخليفة المستعصم بالله شديداً مع من يخطئ؛ فقد حدث في سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) أن سرق جوهر الهندي، وهرب إلى اليمن. فكتب الخليفة إلى صاحب اليمن مطالباً به، فبعث به تحت الحفظ<sup>(٣)</sup>.

كما أن الخليفة المستعصم بالله كان يهتم بأن يجعل كل شيء وخاصة الطعام في متناول أيدي الجميع وخاصة الفقراء، وذلك بجعل الأسعار تتناسب الجميع، يذكر الغساني أن:

" أمر الخليفة المستعصم بالله برز إلى المحتسب عبدالرحمن بن الجوزي بتقرير سعر مسترخص للحنطة، وغيرها، وكان الكرمن الحنطة بخمسة وخمسين ديناراً وأربعة عشر قيراطاً، وكان الخبز كل عشرة أرتال منه بدرهم، فجعل أربعة عشر رطلاً بدرهم، وألزم أصحاب الغلات بإتباع هذا السعر، وأحضر المحتسب الطحانيين، وأخذ خطوطهم بذلك<sup>(٤)</sup>.

وكانت الخيرات في عهد المستعصم بالله تعم خلقاً كثيراً، ولا يقتصر بها على جهة معينة بل تعم المدارس، الأربطة، الجوامع، زوايا الفقراء، والمشاهد<sup>(٥)</sup>.

#### شيوخه وتلاميذه:

كانت عادة الخلفاء تعليم أبنائهم عند كبار العلماء، سواء أكانت العلوم دينية أم دنيوية، وتذكر بعض المصادر أن الخليفة المستعصم بالله قد درس على يد كبار الشيوخ في عصره ومن أشهرهم:

١- الحافظ ابن النجار، هو الإمام الحافظ المحب أبو عبدالله محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن، ولد سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م)، كان أبرز الشيوخ في زمانه حفظاً وصدقاً وتدقيقاً وإتقاناً، حفظ القرآن، كما اهتم بالأحاديث والتاريخ، سافر إلى الحجاز ومصر والشام

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٩، ١٧٧. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٦.

(٢) المنجد، بين الخلفاء والخلعاء، ص ١٤٣-١٤٤.

(٣) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٩٣.

(٤) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٢.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣٢. الغساني،

المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٨، ٥٧٨، ٦٠٣، ٦١١.

وبلاد الجزيرة وخراسان، حيث كانت رحلته سبعاً وعشرين سنة<sup>(١)</sup>، ألف كتاب القمر المنير في المسند الكبير<sup>(٢)</sup>، وقد توفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)<sup>(٣)</sup>.

٢- أبو الحسن: المؤيد بن محمد الطوسي، وهو من مشايخ خرسان ولد سنة (٥٢٤هـ/١١٢٨م) حدث عنه مجموعة من كبار المشايخ، مثل، ابن الحصري، وابن الصلاح، وابن النجار وغيرهم، وقد توفي سنة (٦١٧هـ/١٢١٩م)<sup>(٤)</sup>.

٣- أبو روح عبد المعز بن محمد الهروي<sup>(٥)</sup>، هو الشيخ الجليل الصدوق المعمر مسند من خراسان، وهو من الطبقة الثانية والثلاثين ولد في سنة (٥٢٢هـ/١١٢٦م)، وقد سمع من مجموعة من المشايخ، كما سمع صحيح البخاري<sup>(٦)</sup>، وقد توفي على يد المغول عندما دخلوا هراة<sup>(٧)</sup> سنة (٦١٨هـ/١٢٢٠م)<sup>(٨)</sup>.

٤- أبو الحسن بن النيار<sup>(٩)</sup>، هو صدر الدين أبو المظفر علي بن النيار لقد سمع الخليفة من علي بن النيار الذي لقنة الختمة، كان مثلاً للعالم، المتدين في ورعه واستقامته، فاختاره الخليفة المستنصر بالله لتربية أبنائه وتأديبهم؛ حيث علمهم الخط وحفظهما القرآن الكريم، ومن بينهم المستعصم بالله الذي تولى الخلافة بعد أبيه، وعندما أراد ابن النيار تعليم المستعصم بالله في أول أمره أنشد قائلاً:

- 
- (١) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٥-٥٣٦.
- (٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٣١-١٣٤.
- (٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٣١-١٣٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٥-٥٣٦.
- (٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٤. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٩؛ العبر، ج٣، ص ٢٨١؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٦. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤. حيث ورد عند الذهبي والعيني والسيوطي ابن النجار المؤيد الطوسي.
- (٥) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣١. وتاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٩. ورد أبو روح عبدالعزيز بن محمد الهروي، عند العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٦. وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤.
- (٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص ١١٤.
- (٧) هراة: مدينة بفارس قرب إصطخر، كثيرة البساتين والخيرات، القزويني، آثار البلاد، ص ٢٨١.
- (٨) الذهبي، وفيات سير أعلام النبلاء، ص ٢٩٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص ١١٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٢٤.
- (٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣١. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٣.



(بحر مجزوء الكامل)

أقل عقل من معلم

رب سلم رب سلم<sup>(١)</sup>

ما طار بين الخافقين

ولقد دخلنا في الصناعة

وعندما تولى الخلافة دعا الخليفة المستعصم بالله مؤدبه ابن النيار وعرض عليه تقليده الوزارة، إلا أنه رفضها وفضل عليها طريقته الصوفية<sup>(٢)</sup>، وذلك لأن كثير من العلماء ممن يتصفوا بالورع كانوا يرفضون الاقتراب من السلطان والعمل في الوظائف تحرزاً على دينهم.

٥- أبو بكر بن القاسم بن عبدالله ابن الصفار<sup>(٣)</sup>. وهو محمد بن القاسم من أهل وادي الحجاره، ارتحل إلى المشرق لما تقلبت الدول بقرطبة، فجال في العراق واجتاز بطلب ثم بدمشق، ثم ذهب إلى الأندلس حيث اتصل بملكها مجاهد العامري<sup>(٤)</sup>، وقد توفي سنة (٦١٨هـ/١٢٢٠م) في نيسابور<sup>(٥)</sup>.

٦- أم المؤيد زينب بنت عبدالرحمن الشعري<sup>(٦)</sup>، وهي الشيخة الجليلة مسنده خراسان جرجانية الأصل<sup>(٧)</sup>، ولدت سنة (٥٢٤هـ/١١٢٩م)<sup>(٨)</sup>، وهي من الطبقة الثانية والثلاثين، كانت صالحة مَعْمَرَة مُكْتَرَة<sup>(٩)</sup>، وقد سمعت من كبار المشايخ، كما سمعت صحيح البخاري<sup>(١٠)</sup>. وقد توفيت بمدينة نيسابور سنة (٦١٥هـ/١٢١٧م)<sup>(١١)</sup>.

(١) العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٩. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٣١-٦٤٠هـ)، ص ١٠. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٧.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٦.

(٤) البستاني، بطرس، دائرة المعارف، ١١مج، دار المعرفة، بيروت، د.ت، مج٢، ص ١٩-٢٠.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٤.

(٦) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٤.

(٧) الذهبي، وفيات سير أعلام النبلاء، ص ٥٨٠.

(٨) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٣٦٤.

(٩) الذهبي، وفيات سير أعلام النبلاء، ص ٥٨٠.

(١٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص ٨٦.

(١١) الذهبي، وفيات سير أعلام النبلاء، ص ٥٨٠.

وذكر بعض المؤرخين<sup>(١)</sup> أن المستعصم بالله عُرف عنه بأنه راوٍ للأحاديث، فأبرز من

حدث عنه هم:

- ١- نجم الدين أبو محمد عبدالله بن محمد الباذرائي، ولقد حدث عنه بهذه الإجازة<sup>(٢)</sup>، والباذرائي هو الإمام قاضي القضاة نجم الدين أبو محمد عبدالله بن أبي الوفاء محمد ابن حسن بن عبدالله بن عثمان الباذرائي ثم البغدادي الشافعي الفرضي، ولد في العراق سنة (٥٩٤هـ/١١٩٧م)، تفقه وبرع في المذهب، ونفذ رسولاً للخلافة، أكثر من مرة، ومنها عندما كادت الحرب أن تنشب بين الملك الصالح والحلبين بخصوص حمص، فأرسل الخليفة المستعصم بالله الباذرائي الذي أنهى الخلاف بين الطرفين<sup>(٣)</sup>، وكذلك أنهى الخلاف بين الملك المعز أيك وبين الملك الناصر صلاح الدين يوسف، على أن تكون الشام للملك الناصر، وديار مصر للملك المعز أيك<sup>(٤)</sup>. وأنشأ مدرسة كبيرة بدمشق، وحدث بها وبحلب ومصر<sup>(٥)</sup>، وعرفت هذه المدرسة باسم المدرسة الباذرائية، وكذلك درس الباذرائي بالمدرسة الجاروخية بدمشق<sup>(٦)</sup>. وقد توفي الباذرائي في بغداد سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)<sup>(٧)</sup>.

- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧-٣٢٩. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠. ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٦-٥٣٧.
- (٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣١. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٧، ص ٣٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٠. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٣. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤.
- (٣) أبي الفداء، المختصر، ج٣، ص ٢١٥.
- (٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٧٧٠. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٧٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١١.
- (٥) الصابوني، أبو حامد محمد بن الصابوني (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، تكملة الإكمال في الأنساب والألقاب، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٧، ٢٨. ابن الكازروني، مختصر، ص ٢٧٨-٢٧٩. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص ٢٢، ١٠٥.
- (٦) ابن شداد، عز الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٦م)، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٦م، ص ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٥.
- (٧) المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المقفي الكبير، ١٦٦، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ج٤، ص ١١٣-١١٤.

وقد كان فقيهاً، عالماً، دينياً، فاضلاً، متواضعاً، دمث الأخلاق، منبسطاً كثير الصدقات، وقد تولى القضاء ببغداد، لكنه مات بعد خمسة عشر أو تسعة عشر يوماً حيث كان مريضاً<sup>(١)</sup>. وكان ذلك في سنة (٦٥٥هـ / ١٢٥٧م)<sup>(٢)</sup>.

٢- محيي الدين بن أبي المظفر يوسف بن الإمام أبي الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي؛ حيث حدث عنه وأجاز<sup>(٣)</sup>، ولد في سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٢م)، ونشأ شاباً حسناً، وحين توفي أبوه وعظ فأحسن وأجاد وأفاد، وقد تولى حاسبة بغداد<sup>(٤)</sup>، ثم تولى تدريس الحنابلة المستنصرية سنة (٦٣٢هـ / ١٢٤٣م)، وقد تولى أستاذ دار الخلافة، وقد قتل وأبناؤه الثلاثة عبدالرحمن، عبدالله، عبدالكريم مع الخليفة المستعصم بالله في سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)<sup>(٥)</sup>.

لقد أذن الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين لأبي الفرج عبدالرحمن ابن محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وكان - شاباً ظريفاً فاضلاً - في الوعظ بباب البدرية، فتكلم وأجاد وأفاد وامتدح الخليفة المستعصم بالله بقصيدة طويلة جليلة فصيحة<sup>(٦)</sup>.

٣- كما حدث عن المستعصم بالله ولده الأمير أبو المناقب مبارك<sup>(٧)</sup>، في مراغة. وهو الابن الأصغر، ولد سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م)، ولم يقتل كباقي إخوانه على يد المغول بل أسر، وبقي عندهم، وعاش تحت حكمهم، حيث تزوج وأنجب من الأولاد أربعة، وقد توفي سنة (٦٧٩هـ / ١٢٨٠م)<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن الكازروني، مختصر، ص ٢٧٨-٢٧٩. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص ٢٢، ١٠٥.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٥٥.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٢٥٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٤٣١؛ العبر، ج٣، ص ٢٧٦. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٧، ص ٣٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٩٠. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٣.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٣، ٢٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٦.

(٥) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٢٤؛ وسير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٩٦.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٥٤.

(٧) الذهبي، وتاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٩. سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣١. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣.

(٨) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص ٥٦. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٧، ص ٣٤٣.

٤- صدر الدين أبو الحسن علي بن محمد بن النيار: سمع من الخليفة المستعصم بالله وحديث عنه<sup>(١)</sup>، ويذكر السيوطي: " أن المستعصم بالله روى عنه الشرف الدمياطي وخرج له الدمياطي أربعين حديثاً رأيتها بخطه"<sup>(٢)</sup>.

#### خامساً: أعمال المستعصم بالله ونقش خاتمه

##### أعماله العمرانية والعلمية

من أهم أعمال ومنجزات المستعصم بالله العمرانية والعلمية ما يأتي :

- انشئت فتح الرباط المستجد الذي أمرت أم الخليفة المستعصم بالله السيدة هاجر بعمارته، وكان الشيخ ظهير الدين ابن الكازورني يتولى عمارته، وعند الانتهاء عملت حفله عظيمة حضرها الخليفة المستعصم بالله والوزير ابن العلقمي وأرباب الدولة كافة. وقد خلع على كل من تولى عمارته، وكان ظهير الدين ابن الكازورني من أوائل من خلع عليهم في ذلك الاحتفال، وذلك في سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)<sup>(٣)</sup>.

- فتحت في عهد الخليفة المستعصم بالله المدرسة البشيرية بالجانب الغربي من بغداد، التي أمرت ببنائها حظية الخليفة المستعصم بالله أم ولده أبي نصر المعروفة بباب بشير، وجعلتها وفقاً على المذاهب الأربعة، وكان افتتاحها يوم الخميس سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، وحضر الافتتاح الخليفة وأولاده والوزير وكبار الدولة والمشايخ، وكان المدرس بها سراج الدين النهرقلي، وشرف الدين عبدالله بن أستاذ الدار، ومحبي الدين بن الجوزي، ونور الدين محمد بن الخوارزمي الحنفي، وعلم الدين أحمد بن الشرمحي المالكي. ونقل إليها من الكتب ما حمل على ستة وثلاثين صندوقاً، بالخطوط المنسوبة، والنسخ المضبوطة منها مصحف بخط عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومصحف بخط زين العابدين علي بن الحسين، ومصحف بخط ابن البواب إلى غير ذلك<sup>(٤)</sup>. ويومها خلع على المدرسين الذين ذكرناهم سابقاً وعلى الناظر بها وعلى نواب العمارة والفراشين والخدم، وقد أنشدت الأشعار<sup>(٥)</sup>.

- (١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٢٥٤. الذهبي، وتاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص٢٥٩؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٤٣١. ابن كثير البداية والنهاية، ج١٣، ص١٩٠.
- (٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٦٤.
- (٣) ابن الكازورني، مختصر التاريخ، ص٢٦٨-٢٦٩. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢٥٨-٢٦١.
- (٤) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص٦٠٩-٦١٠.
- (٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٠٨.

- بنيت المدرسة المستعصمية بأمر من الخليفة المستعصم بالله، كما يتضح من اسمها، وهي من المدارس القليلة الذكر في بغداد، وقد بقيت هذه المدرسة إلى ما بعد سقوط بغداد في يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(١)</sup>، وفي خطط بغداد لا يوجد ما يشير إلى موقع المدرسة<sup>(٢)</sup>.

- ومما يدل على اهتمام الخليفة المستعصم بالله بالعلم أن انشأ في سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) خزانتين للكتب وجعل فيهما من نفائس الكتب من سائر العلوم<sup>(٣)</sup>؛ حيث كتب على وجه الأولى منها:

(البحر الكامل)

أنشأ عمارتها خليفة عصره	لا زالت الأملاك من أنصاره
مستعصم بالله من أوصافه	جمع العلوم بليله ونهاره
فأصولها من بيته وفروعها	تقرأ عليه وكتبه في داره

وكتب على وجه الأخرى:

(البحر البسيط)

خليفة الله قد أكملت بنيته	فليس في وقتها شيئاً يدانيها <sup>(٤)</sup>
أودعتها من عقول الناس ما سمحت	به النفوس وأبدت عن معانيها
حتى كأن شيوخ العلم قاطبة	جاءوا إليك وقد أنكثهم فيها <sup>(٥)</sup>

كما أن الخليفة المستعصم بالله كان يهتم بخزائن الكتب ويجلس فيها مدة طويلة، ويحب الجلوس فيها<sup>(٦)</sup>، وسلم المستعصم بالله هذه الخزانة إلى عبد المؤمن الأرموي<sup>(٧)</sup> الذي كان يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص ٢٤٥، رؤوف، عماد عبدالسلام، مدارس بغداد في العصر

العباسي، ط١، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٩٦٦م، ص ٢٠٣.

(٢) رؤوف، مدارس بغداد، ص ٢٠٣.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٤-١٨٥. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٦.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٦.

(٥) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٦.

(٦) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٢.

(٧) وهو صفي الدين عبدالمؤمن بن فاخر الأرموي، كان مقرباً من المستعصم بالله، صار في آخر أيامه مقرباً

عنده ومن خواصه. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٤.

- لقد حرص الخلفاء على إنشاء الأربطة في أماكن مختلفة من بغداد، ووقفها على المتصوفة، ولكثرة المتصوفات من النساء في بغداد، شيد الخليفة المستعصم بالله رباطاً نسوياً سنة (٦٥٢هـ / ١٢٥٤م) بدار الشط<sup>(٦)</sup>، وأسكنه النساء المتصوفات، وجعل مشيخته للشريفة العباسية التي يرجع نسبها إلى الخليفة المهدي<sup>(٧)</sup>، ولما استولى هولاء على بغداد سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) صدر من وزيره أمرٌ إلى الجائليق<sup>(٨)</sup> بالاستيلاء على دار الفلك<sup>(٩)</sup> مع غيرها من الدور المجاورة<sup>(١٠)</sup>.

- هذا بالإضافة إلى الأربطة التي كانت موجودة، وقام الخليفة المستعصم بالله بدعمها مثل رباط ابن النيار. الذي كان يقع في الجانب الشرقي من بغداد، وقد توفرت فيه خزانة كتب. قال ابن الفوطي<sup>(١١)</sup> عنها: " أنشأ به خزانة للكتب النفيسة والخطوط المنسوبة".

وكذلك كان الخليفة يزور المشاهد باستمرار ويهتم بها، فقد زار مشهد موسى ابن جعفر<sup>(١٢)</sup>، وبلغ اهتمام المستعصم بالله بالصوفية أن قام عندما تولى الخلافة سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م) بتكريم شيوخهم وكان حريصاً على تفقد الصوفية والأولياء، فقصدهم ومشاهدهم وربطهم ووزع عليهم الأموال والهدايا<sup>(١٣)</sup>.

وكان الشيخ شمس الدين أبو المظفر علي بن النيار الفقيه الصوفي مختصاً بخدمة الخلفاء منذ صغره، وهو الذي تولى تأديب المستعصم بالله. فلما أفضت الخلافة إليه عرض عليه منصب الوزارة بعد أن أصبح شاغراً بوفاة الوزير أحمد بن الناقد، فأبى، وقال: " إني

- 
- (١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ٣٣٤.
  - (٢) دار الشط: هي دار الأمير علاء الدين الطبريسي المعروف بالدويدار الكبير، وتقع بالجانب الشرقي على شاطئ دجلة، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٤.
  - (٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٤. جواد، الربط البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية، مجلة سومر، مج ١٠، ج ٢، ١٩٥٤م، ص ٢٤٣.
  - (٤) الجائليق، هو صاحب الصلاة عند النصارى. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٤٤.
  - (٥) دار الفلك: هي رباط أنشأت على عهد الخليفة الناصر، وكان رباطاً خاصاً بالنساء، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٤، جواد، الربط البغدادية، ص ٢٤٤.
  - (٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٣-٣٣٤.
  - (٧) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج ٤، ق ١، ص ١٣٣.
  - (٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٥.
  - (٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٠، ٢٧٤. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١٨، ٥٧١.

عاهدت الله أن لا أغير لبس المتصوفين، ولا أنزع عني ما تعودته". ففوض إليه مشيخة الشيوخ ببغداد، وسلم إليه رباطاً، ثم أضيف له مشيخة رباط المرزبانية<sup>(١)</sup>.

- كذلك كانت الخلافة لا تسمح بالإساءة إلى الشيعة أو الاعتداء على مشاهد الأئمة؛ فكانوا يهتموا بعمارتها وترميمها، فالخليفة المستعصم بالله أمر بعمارة سور مشهد الإمام موسى بن جعفر سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)<sup>(٢)</sup>.

كذلك نجد أن الخليفة المستعصم بالله، بعد أن تولى الخلافة مباشرة، زار مشهد موسى بن جعفر، ثم خرج بعد ذلك في موكب الحاج، فزار مسجد الكوفة وقصد مشهد الإمام علي<sup>(٣)</sup>. وكذلك في سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) توجه الخليفة المستعصم بالله لزيارة مشهد الحسين وتصدق هناك بمال كثير ثم توجه لزيارة مشهد الإمام علي وتصدق أيضاً<sup>(٤)</sup>.

نستنتج أن سياسة الخليفة المستعصم بالله كانت متذبذبة مع الشيعة، فنجدة أحياناً يحرص على زيارة مشاهدهم ورعاية فقرائهم، ففي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) أمر بعمارة سور مشهد موسى بن جعفر الذي كان قد غرق في سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)<sup>(٥)</sup>، ويرجع هذا التذبذب إلى طبيعة الأوضاع الداخلية وإلى علاقة السنة مع الشيعة.

#### نقش خاتمة:

كان الخليفة المستعصم بالله قد اتخذ خاتماً ونقش عليه عبارة "اعتصمت بالله"<sup>(٦)</sup>. ومن يتخذ خاتماً نقش عليه اعتصمت بالله، كيف يكون - كما قيل عنه - مهملاً، يقضي وقته في مجالسة النساء، وسماع الأغاني؟

#### سادساً: نهاية المستعصم بالله ووفاته

قتل المستعصم بالله سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) على إثر دخول المغول إلى بغداد؛ حيث اجتاح هو لآكو ببغداد بجحافل وقواته الغازية، وكان المغول قد استقل أمرهم منذ أيام المستنصر بالله<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٤-٢٨٦. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٧.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٤.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٥، ١٨٨.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٩٣.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٤.

(٦) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٠.

وقد اختلفت بعض المصادر في كيفية قتل الخليفة المستعصم بالله فقد قيل قتلوه رفساً إلى أن مات (٢)، وقيل خنقاً، وقيل غماً في بساط (٣)، وقيل غرقاً (٤)؛ حيث كان من عادة المغول أنهم لا يسفكون دماء الملوك والأكابر غالباً خوفاً من أن يؤخذ بثأره كما قيل لهم (٥).

أما الهمداني فذكر حادثة قتل الخليفة، ولكن من غير توضيح (٦)، كما أن المؤرخ الأرمني قيراقوز وهو معاصر (ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، يذكر أن هولاء قتل الخليفة بيده (٧)، كما كان في

- (١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ج٢، ص ٢٧٢-٢٧٤، ٢٨٤. الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص ٣٦. الهمداني، جامع التاريخ، ص ٢٩٣-٢٩٥. الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١١١؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣٦؛ العبر، ج٣، ص ٢٧٨. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٨٢. الصفي، الوافي بالوفيات، ج١٧، ص ٣٤٣. الكتبي، عيون الأخبار، ج٢٠، ص ١٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٨٨. ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٤. المقرئ، السلوك، ج١، ص ٤١٠. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧١. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٣. المكي، سمط النجوم العوالي، ج٣، ص ٥١٨-٥١٩. صلاح، مذني، تاريخ الدولة العباسية سياسياً وحضارياً، دار المعارف، الرباط، ١٩٧٧م، ص ٤١٩-٤٢٠.
- (٢) أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط٢، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٩٨-١٩٩. ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٣. ابن العميد، الأيوبيين والمماليك، ص ٤٤-٤٥. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٥٩؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣٧؛ العبر، ج٣، ص ٢٨١. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ١٩١. الكتبي، الوافي بالوفيات، ج١، ص ٥٨٠؛ عيون التواريخ، ج٢٠، ص ١٣٤. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٧٣. ابن خلدون، العبر، ج٥، ص ٥٣٤. ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج١، ص ٢٢٢. القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٩٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٢. المكي، سمط النجوم العوالي، ج٣، ص ٥١٩.
- (٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١-٦٦٠هـ)، ص ٢٦١؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣٧. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ١٩١. الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٥٨٠. القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٩٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٢.
- (٤) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٨٢. الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٥٨٠. القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٩٢. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٧٣.
- (٥) النويري، نهاية الأرب، م ٢٣، ص ٣٢٤. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٧٣. الصياد، فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، ج١، ص ٢٦٩.
- (٦) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٤.
- (٧) John Andrew Boyle "the Death of the last Abbasid caliph" Journal of Semitic studies, Vol ٦, No٢, P.١٩٩



قوات هولاءكو التي اشتركت في فتح بغداد كتيبة من الجورجيين، وقد ورد طبقاً للتاريخ الجورجي الرسمي إن أحد قواد هولاءكو المسمى ايلكانويان قتل الخليفة بالسيف<sup>(١)</sup>، كما كانت هناك قصة تقول إن هولاءكو بعد أن قبض على الخليفة، اكتشف بغرابة شديدة أن للخليفة برجاً مليئاً بالذهب، فاستدعاه بين يديه وأنبه لجشعة وبخله اللذين منعاه من استخدام كنوزه في تكوين جيش يدافع به عن بغداد التي كانت مهددة منذ مدة طويلة، عند ذلك أمر هولاءكو بحبسه في ذلك البرج من غير طعام إلى أن مات بين كنوزه<sup>(٢)</sup>، أنني استبعد هذه الرواية لأنها تعني أن الخليفة استشهد بعد فترة ليس بقليلة من القبض عليه، وأنتي أؤيد الروايات التي أخبرت بوفاته في نفس الفترة التي قبض عليه فيها، ولكن يبقى الأمر مجهولاً في الكيفية التي تم فيها القتل.

وكانت مدة خلافة المستعصم بالله (١٥) سنة و ٨ أشهر وأيام، وكان عمره ٤٦ سنة وأربعة أشهر. وبموته انتهت دول بني العباس في العراق، وكان عدد خلفائها (٣٧) خليفة ملكوا مدة (٥٢٤) سنة<sup>(٣)</sup>.

وكانت واقعة بغداد من أعظم الوقائع؛ حيث قتل الخليفة المستعصم بالله، وقد قال الشيخ شمس الدين الكوفي الواعظ، يذكر مقتل الخليفة المستعصم بالله:

(البحر الكامل)  
عندي لأجل فراقكم آلامٌ      فالإلم أعذل فيكم وألامٌ  
من كان مثلي للحبيب مفارقاً      لا تعذلوه فالكلام كلامٌ

(١) J.A. Boyle, Juvoyni And Rashed At-Din As Sources on The History of the, Mongols London, No date, p. ١٤٩.

(٢) The Travels of Marco polo, (Edited by Manuel Komroff), P.٣١

(٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٤. مغطاي، الإشارة إلى سيرة المصطفى، ص ٥٥٩. الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٦٢-٢٦٣. ويذكر الهمداني بأنه كانت مدة خلافة المستعصم بالله (٥٢٥). ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧. النويري، نهاية الأرب، م ٢٣، ص ٣٢٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٤٣١. الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٥٧٩-٥٨٠؛ عيون التواريخ، ج ٢٠، ص ١٤٣. لكنه يذكر أن الخليفة عندما توفي كان عمر (٤٧) سنة. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٨٨. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٠٩. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٧. ابن عذبية، إنسان العيون، ص ٣٠٧. ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٠٣. المكي، سمط النجوم العوالي، ج ٣، ص ٥٢٠. الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٤، ص ١٤٠.

نَعْمَ الْمَسَاعِدُ دَمْعِي الْجَارِي عَلَى  
 وَيذِيبُ رَوْحِي نَوْحُ كُلِّ حَمَامَةٍ  
 إِنْ كُنْتُ مِثْلِي لِلأَحْبَةِ فاقْدَأْ  
 قَفَّ فِي دِيَارِ الظَّاعِنِينَ وَنَادَهَا  
 أَعْرَضْتُ عَنْكَ لِأَنَّهُمْ مَذَّأَعْرَضُوا  
 يَا دَارُ أَيْنَ السَّاكِنُونَ وَأَيْنَ ذُبُ  
 يَا دَارُ أَيْنَ زَمَانُ رِبْعِكَ مَوْنَقَا  
 يَا دَارُ مَذَّأَقَلْتُ نَجُومُكَ عَمَّنَا  
 فَلْبَعْدَهُمْ قَرَبُ الرَّدَى وَلَفَقْدِهِمْ  
 فَمَتَى قَبِلْتِ مِنَ الأَعَادِي سَاكِنَنَا  
 يَا سَادَتِي أَمَّا الفُؤَادُ فَشِيقُ  
 وَالدَّارُ مَذَّأَعَدَمْتُ جَمَالَ وَجُوهِكُمْ  
 لَاحِظْ فِيهَا لِلْعَيُونِ وَلَيْسَ لِلْـ  
 وَحَيَاتِكُمْ إِنْ عَلَى عَهْدِ الهَوَى  
 فَدَمِي حَلَالٌ أَنْ أَرَدْتُ سِوَاكُمْ  
 يَا غَائِبِينَ وَفِي الفُؤَادِ لِبَعْدِهِمْ  
 لَا كُتُبُكُمْ تَأْتِي وَلَا أَخْبَارُكُمْ  
 نَعَصْتُهُمُ الدُّنْيَا عَلَى وَكَلِمَا  
 وَلَقَيْتُ مِنْ صَرْفِ الزَّمَانِ وَجَوْرِهِ  
 يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالُ أَحَبَّتِي  
 مَا لِي أَنْيْسَ غَيْرُ بَيْتِ قَالَهُ

خَدَيْ إِلَّا أَنَّهُ نَمَامُ  
 فَكَأَنَّمَا نَوْحُ الحَمَامِ حِمَامُ  
 أَوْ فِي فُؤَادِكَ لَوْعَةٌ وَغِرَامُ  
 " يَا دَارُ مَا صَنَعْتَ بِكَ الأَيَّامُ "

لَمْ يَبْقَ فِيكَ بِشَاشَةٌ تُسْتَنَامُ  
 يَاكَ البِهَاءُ وَذَلِكَ الإِعْظَامُ  
 وَشِعَارُكَ الإِجْلَالُ وَالإِكْرَامُ  
 وَاللَّهِ مِنْ بَعْدِ الضِّيَاءِ ظَلَامُ  
 فَقَدَ الهُدَى وَتَزَلَّزَلَ الإِسْلَامُ  
 بَعْدَ الأَحْبَةِ لَا سَقَاكَ غَمَامُ  
 قَلْبُكَ وَأَمَّا أَدْمَعِي فَسَجَامُ  
 لَمْ يَبْقَ فِي ذَلِكَ المَقَامِ مَقَامُ  
 أَقْدَامِ فِي عَرَصَاتِهَا إِقْدَامُ  
 بَاقٍ وَلَمْ يُخْفَرْ لِيَدِي نَمَامُ  
 وَالعَيْشُ بَعْدَكُمْ عَلَيَّ حِرَامُ  
 نَارٌ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ ضِرَامُ  
 تُرَوِّى وَلَا تُدْنِيكُمْ الأَحْلَامُ  
 جَدَّ النُّوَى لَعِبْتُ بِئِي الأَسْقَامُ  
 مَا لَمْ تَخَيَّلُهُ لِي الأَوْهَامُ  
 وَبِأَيِّ أَرْضٍ خَيَّمُوا وَأَقَامُوا  
 صَبَّ رَمْتُهُ مِنَ الفِرَاقِ سَهَامُ

" والله ما اخترتُ الفراقَ وإنما حكمتُ عليَّ بذلكَ الأيامُ " (١)

ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على شعراء العرب وحدهم، بل شاركهم في هذا الميدان شعراء الفرس، حتى إننا نجد الشاعر الكبير سعد الشيرازي الذي كان يعيش في تلك الفترة في شيراز أمناً مطمئناً بعيداً عن ميدان المعركة لا يستطيع أن يخفي تأثره لهذا الأمر، فنظم قصيدة فارسية يرثي فيها المستعصم بالله، ويتحسر على زوال الخلافة العباسية في بغداد، فيقول بما معناه:  
للسماء حق إذا بكت على وجه الأرض دماً  
لزوال ملك المستعصم أميراً للمؤمنين (٢)

ويقول الذهبي عن الخليفة المستعصم بالله:

" قتل وله ذرية إلى اليوم بأذربيجان، وانقطعت الإمامة العباسية ثلاث سنين وأشهرات بموت المستعصم بالله، فكانت دولتهم من سنة اثنين ومئة إلى سنة ست وخمسين وست مئة فذلك خمس مئة وأربع وعشرون سنة، والله الأمر " (٣)، وبذلك قضى على الخلافة العباسية في بغداد، وعلى آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين بقوا من غير خليفة مدة ثلاث سنين؛ أي لغاية سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م)، عندما تصدى المماليك لأحيائها مجدداً في القاهرة بعد زوالها في بغداد.

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٥٨٠-٥٨١.

(٢) الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) النويري، نهاية الأرب، م٢٣، ص ٣٢٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص ٥٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٦٠. مدني، تاريخ الدولة العباسية، ص ٤١٩-٤٢٠.

## الفصل الثاني

### الأحوال السياسية للخلافة العباسية

(٦٤٠هـ/١٢٤٢م - ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

أولاً : الأوضاع الداخلية للخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله.

- ١- جهود المستعصم بالله في القضاء على الفتن الداخلية.
- ٢- انتشار الفوضى والاضطرابات وفقدان الأمن.
- ٣- موقف المستعصم بالله من الصوفية وغيرها من المذاهب.
- ٤- دور الأمراء وكبار رجال الدولة في الحياة السياسية والحياة العامة.

ثانياً : العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله.

- ١- علاقة الخلافة ببلاد المغرب والأندلس.
- ٢- علاقة الخلافة ببلاد الحجاز (مكة والمدينة) واليمن.
- ٣- علاقة الخلافة بالأيوبيين في بلاد الشام ومصر.
- ٤- علاقة الخلافة بإمارة الموصل.
- ٥- علاقة الخلافة مع سلاجقة الروم.
- ٦- علاقة الخلافة بالدولة الخوارزمية.
- ٧- علاقة الخلافة مع الإسماعيلية.
- ٨- علاقة الخلافة مع المغول.

أولاً: الأوضاع الداخلية للخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله:

#### ١- جهود المستعصم بالله في القضاء على الفتن الداخلية.

عندما نتحدث عن الأوضاع الداخلية في عهد المستعصم بالله، لا بد من التذكير بأن المجتمع الإسلامي كان يتكون من فئتين رئيسيتين هما: المسلمون سواء أكانوا سنة أو شيعة، ثم أهل الذمة سواء أكانوا يهوداً أو نصارى، كما كان المذهب السني هو المذهب الرسمي للدولة العباسية، وبذا فإن السنة كانوا يمثلون آنذاك أغلبية سكان بغداد.

كانت الظروف السياسية التي تعرضت لها المنطقة حتى منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني الميلادي قد فرضت على سكان بغداد التجمع في السكن على أساس مذهبي؛ فاشتهرت محلة الكرخ ومشهد موسى الكاظم، والمختارة، ومحلة الخضيريين مثلاً بأنها مسكن الشيعة. كما اشتهرت أحياء أخرى كباب الأزج<sup>(١)</sup>، ومشهد أبي حنيفة<sup>(٢)</sup> في الجانب الشرقي. وأحياء قطفنا<sup>(٣)</sup> وباب البصرة والحربية في الجانب الغربي بأنها مسكن أهل السنة<sup>(٤)</sup>. ولعل وجود المذاهب الإسلامية أدى إلى إنكفاء العصبية المذهبية، بحيث تحولت من خلافات فكرية إلى فتن دموية، أفادت منها القوى الطامعة في العراق، وسخرتها لتحقيق أهدافها ومصالحها.

وكان المستعصم بالله حريصاً على تجاوز الخلافات الطائفية، ويتدخل أحياناً لمنع وقوع الفتن بين المذاهب، ولما كانت مجالسهم من أكثر المجالات التي تكون نقطة انطلاق لها، فإن الخلافة كانت في بعض الأوقات تمنع عقد تلك المجالس، ففي سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) أمر الخليفة المستعصم بالله بمنع الوعاظ من الجلوس للوعظ ببغداد<sup>(٥)</sup>. وفي الوقت نفسه كان المستعصم بالله يعالج الفتن الطائفية التي كانت تنشب في عاصمة الخلافة من غير أن يميل إلى طائفة دون أخرى، ومنها الفتنة التي وقعت بين أهل محلة الرصافة من جهة، وأهل محلة أبي حنيفة والخضيريين من جهة أخرى، وأدت إلى الاقتتال وسفك الدماء، وذلك في سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)<sup>(٦)</sup>.

(١) باب الأزج: من محلات الجانب الشرقي في بغداد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ١٦٨.

(٢) وصفه ابن جبير بقوله: وبأعلى الشرقية خارج البلد محلة كبيرة، بإزاء محلة الرصافة وفي تلك المحلة مشهد حفيل البنيان، له قبة بيضاء سامية في الهواء، فيه قبر الإمام أبي حنيفة - رضي الله عنه - وبه تعرف المحلة، الرحلة، ص ١٨١.

(٣) قطفنا: محلة كبيرة مجاورة للمقبرة التي فيها قبر معروف الكرخي، ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع، مج ٣، ص ١١٠٧.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٨-٢٩٩، ٣١٤-٣١٥. القزاز، الحياة السياسية، ص ١٥١-١٥٢.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٣. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٥١.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٨-٢٩٩.

كما أن الخليفة المستعصم بالله قد لجأ إلى منع بعض المظاهر المسيبه للاختلاف<sup>(١)</sup>؛ إذ منع في سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) أهل الكرخ والمختارة من النياحة والإنشاد وقراءة مقتل الحسين عليه؛ خوفاً من تجاوز ذلك إلى ما يؤدي إلى وقوع الفتنة<sup>(٢)</sup>. وكذلك تصرفه مع الشيعة عندما منعهم من قراءة مقتل الحسين في يوم عاشوراء أيضاً خوفاً من الفتنة، وذلك في سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م)<sup>(٣)</sup>.

وتشير بعض المصادر<sup>(٤)</sup> إلى أن الخلافة كانت تقف أحياناً إلى جانب السنة في نزاعهم مع الشيعة، فعندما قتل أهل الكرخ سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) رجلاً من أهل قطفنا، حمله أهله إلى باب النوبي، فدخل جماعة من الخدم إلى الخليفة، وعرفوه وعظموه ذلك ونسبو إلى أهل الكرخ كل فساد، فأرسل المستعصم بالله الجند لتأديب أهل الكرخ، فنهبت الكرخ، وسُيبت النساء، وسُفكت الدماء.

ويختلف الشيعة عن أهل السنة في موقفهم من الخلافة العباسية ونظرتهم إليها، فكان قيام الخلافة العباسية إيذاناً بانتهاء وحدة آل البيت السياسية؛ حيث استأثر آل العباس بالخلافة، فدعوا الناس سراً إلى البيعة لهم، وقادوا كثيراً من الثورات العسكرية. والخلافة كانت تضطر إلى استخدام الشدة لقمع الفتن والثورات دفاعاً عن وجودها. وكان ضعف الخلافة ووقوعها في قبضة المتغلبين، فرصة أتاحت للشيعة في بغداد أن يقوموا بنشاط سافر، فعندما سيطر البويهيون على الخلافة، وفروا للشيعة الحماية والقوة<sup>(٥)</sup>.

ولم تقتصر الفتن بين السنة والشيعة، بل كانت بين مذاهب أهل السنة أنفسهم، ففي خلافة المستعصم بالله حدثت خلافات بين الحنابلة والحنفية، ومن ذلك أن شخصاً كتب رقعة تقول: هل الإيمان يزيد أو ينقص؟ وعرضت على جماعة فلم يكتب فيها، فكتب وضاح الحنبلي<sup>(٦)</sup>

(١) يحيى، المستعصم بالله العباسي، ص ٧٤.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٣، ٢٧٦.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٣-١٨٤. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨٥.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١٤.

الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٢٥. القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٩٠. الرفيعي، العراق، ج١، ص ١١٨.

(٥) القران، الحياة السياسية، ص ١٥٩-١٦٠.

(٦) هو الشيخ كمال الدين علي بن محمد بن وضاح الشهرستاني، ولد بشهر بيان سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م)، ثم قدم بغداد، ودرس بالمستنصرية، ثم تخرج منها سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، وبعدها رتب بالمدرسة المجاهدية بعد احتلال بغداد مباشرة من قبل المغول، ابن رجب، أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد الحنبلي (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م)، الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢م، ج٢، ص ٢٨٣.

وعبدالعزيز القحيطي وبالغاً في ذم من يقول إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، ثم سلّمت الفتوى إلى فقيه حنفي، فلم يكتب فيها، فانتهى الحديث إلى الديوان، وتألّم الحنفية من ذلك، وقالوا: هذا يعرض بزم أبي حنيفة، فأمر الخليفة بإخراج ابن وضاح من المدرسة المستنصرية، ونفي ابن القحيطي خارج بغداد (١).

وبالرغم من ذلك، فقد سمحت الدولة لأتباع المذاهب بحرية إنشاء المدارس التي تقوم على أساس المذهب. فنجد في بغداد أكثر من ثلاثين مدرسة أحادية المذهب، لا يُدرّس بها إلا المذهب الذي وقفت لأجله. واستمر هذا حتى حكم المستعصم بالله، الذي حرص على التقريب بين تلك العناصر. وكان أعظم إجراء اتخذه، إنشاء المدرسة البشيرية في الجانب الغربي من بغداد، وكان ذلك سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، وجعلها وفقاً على المذاهب الأربعة (٢).

وهذا عامل مهم من عوامل التقارب والوحدة بين الطوائف المختلفة التي كانت تتنافس وتتناحر في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. إلا أننا نجد في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي أن ذلك التناحر قد ضعف نوعاً ما، وقد يكون السبب أن المدارس التي أنشئت في الفترة الأخيرة كانت من العوامل المؤثرة وبصورة كبيرة في تقليل وإضعاف ذلك التنافس والتناحر المذهبي. ولكن مع كل ذلك نجد أن الشيعة لم يقاطعوا وظائف الدولة بالرغم من رأيهم بالخلافة العباسية؛ حيث إن الشيعة يشكلون جزءاً مهماً من المجتمع البغدادي، وقد تولوا الكثير من المناصب الهامة في الخلافة العباسية، وفي عهد المستعصم بالله، كان للوزير مؤيد الدين بن العلقمي دورٌ كبير في الخلافة (٣)، كما كان لنائبه بأربيل تاج الدين أبو المعالي محمد بن صلاح (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) (٤) (٥).

وبالنسبة لغير المسلمين نجد أن الخليفة المستعصم بالله كان شديد الحرص على حقوقهم، ومهتماً بشؤونهم؛ حيث إن أهل الذمة كانوا يمثلون فئة دينية في المجتمع، أما بالنسبة لمفهوم

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٣. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٧، ص ٤٧. ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص ٢٨٣.

(٢) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٩-٦١٠.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥. وبخصوص ابن العلقمي انظر الفصل الثالث، ص ١٣١.

(٤) كان ابن صلاح قد قصد هولاء بعد وقعة بغداد ليقرر حالة، فأمر بقتله، وكان كريماً، جوداً، فاضلاً، متديناً، يبالغ في عقوبة من يفسد أو يشرب الخمر، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٧.

(٥) الذهبي، تاريخ الإسلام (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٢٩١-٢٩٢. السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٦٤-٦٨. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٧٩-٢٨٠. ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٧.

الذمة فقد كان يشمل اليهود والنصارى والمجوس<sup>(١)</sup>، والصابئة<sup>(٢)</sup>،<sup>(٣)</sup>، وقد تمتعوا بكثير من التسامح وإقامة شعائرهم بأمان واطمئنان<sup>(٤)</sup>.

وفي عهد الخليفة المستعصم بالله صارت مراسيم تعيين رأس الجالوت وتنصيبه<sup>(٥)</sup> تتم عند قاضي القضاة، فبعد مشافهة الوزير لرأس الجالوت بالولاية، يذهب إلى قاضي القضاة يسلمه مرسوم تعيينه، فعندما عين غالي بن زفريا اليهودي رأس ميشئة اليهود سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) سار إلى قاضي القضاة، فأجلسه بين يديه وقال له: "قد وليتك الزعامة على أهل شريعتك"<sup>(٦)</sup>.

وكذلك كان المستعصم بالله حريصاً على توفير العدل في التعامل معهم، ومما يدل على ذلك ما وقع في سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) عندما عين فيها دانيال بن شمويل ابن أبي الربيع رأس مئبية. وهو منصب ديني خاص باليهود<sup>(٧)</sup>.

ومما يدل على الاهتمام بشؤون اليهود أنه كان لهم في بغداد ثمانية وعشرين كنيسة، قسم في الرصافة (الجانب الشرقي)، وقسم في الكرخ (الجانب الغربي) على شاطئ دجلة، وقد وصف التطيلي كنيسة اليهود في بغداد بقوله، "وهي بناء عظيم فيه الأساطين الرخام المنقوشة بالأصباغ الزاهية المزوقة بالفضة والذهب، وتزدان رؤوس الأساطين بكتابات من المزامير بحروف من ذهب، وفي صدر الكنيسة مصطبة يصعد إليها بعشر درجات من رخام، وفوقها الأريكة المخصصة لرأس الجالوت"<sup>(٨)</sup>.

(١) المجوس: وهي الملة التي كان عليها الفرس ومن دان بدينهم وهم ثلاث فرق هي: الكيومرنية، الثنوية، الزرادشتية، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٢) متر، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريذة، ج٢، بيروت، ١٩٦٧م، ج٢، ص ٥٨.

(٣) الصابئة: هي ملة من أمة السريان قليل أهلها، ليس لهم ذكر ولا مملكة، وليس منهم محارب لأهل الإسلام، وليس منهم خوف لأنه ليس لهم دولة قائمة، وتعتمد أعيادهم على الكواكب. أبو الفداء، المختصر، ج١، ص ١٠٧. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٩٥، ج٢، ص ٤٦٧.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٦٩.

(٥) التطيلي، بنيامين بن يونه (٥٦٩هـ / ١١٧٣م)، رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، ط١، المطبعة الشرقية، بغداد، ١٩٤٥م، ص ١٣٥.

(٦) رأس الجالوت: هو رئيس اليهود، والجالوت هم الذين جلوا عن أوطانهم ببيت المقدس، الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن يوسف (ت ٣٨٣هـ / ٩٩٣م)، مفاتيح العلوم، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٢م، ص ٢٤.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٤٨. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٧٥.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٠. يحيى، المستعصم بالله، ص ٧٥.

(٩) التطيلي، الرحلة، ص ١٣٩.



ومن خلال ما سبق نستنتج أن الخليفة المستعصم بالله لم يكن يتعامل مع الناس على أساس المذهب، وإلا لما أبقى ابن العلقمي في الوزارة ثم بعد ذلك نجده يعطيه صلاحيات واسعة في الدولة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الثقة أولاً، ثم عدم التفريق في المعاملة على أساس سني أو شيعي ثانياً<sup>(١)</sup>. إذن كان أهالي بغداد خليط من السنة والشيعية وأهل الذمة، وكانت بينهم خلافات حول المعتقدات الدينية، كما كانوا يختلفون أيضاً في توجهاتهم السياسية.

## ٢ - انتشار الفوضى والاضطرابات وفقدان الأمن:

لقد شجعت الفوضى على انتشار اللصوص وقطاع الطرق، وبلغ من استهانتهم بالحكم أنهم كانوا يسلبون الناس في وضح النهار، ويعتدون على أفراد الشرطة للتخلص منهم، حتى أصبح الناس لا يأمنون على أنفسهم، وكثرت تعدياتهم على الناس، ففي سنة (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)، اعتدى شابان من الأتراك على دار أحد التجار ببغداد وسرقا ابنتيه وجاريتين وخمسة آلاف دينار وجملة من زركش ومصاغ<sup>(٢)</sup>.

كما اعتدى اللصوص في سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) على مخزن المدرسة المستنصرية المقابل لباب سوق المدرسة، وأخذ منه نحو أربعمائة رطل شمعاً معمولاً، وثلاثمائة رطل من السكر، ومبلغ ثلاثمائة دينار وغيرها من الثياب، كما تعرضت المدرسة مرة أخرى للسرقة سنة (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م)<sup>(٣)</sup>، من غير أن تتخذ الدولة إجراءات كفيلة بكف هؤلاء اللصوص وردعهم، مما أدى إلى كثرتهم في بغداد وتجرؤهم على الناس حتى صاروا يحضرون وينهبون الناس قهراً وغلبة، ويدخلون بيوت الأمراء ينهبون ويقتلون<sup>(٤)</sup>، فقد دخلوا دار قطب الدين سنجر البلكاي ونهبوها بسبب ما أشيع أنه سيرتب شحنة بغداد<sup>(٥)</sup>.

وقد أدت هذه الاضطرابات وتعديات اللصوص إلى فقدان الأمن، وفقدان الدولة هيبتها وسيطرتها على النظام مما جعل للعوام دوراً في هذه الاضطرابات، فاستولى جماعة من العوام على المدرسة الناجية وسكنوا بها وأصبحوا يتتابعون بها، وفي سنة (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م) كثر فساد العيارين في بغداد وأخذوا يسلبون عمائم الناس ويأخذون ثيابهم من الحمامات، ويقتلون من يظفرون به من أتباع صاحب الشرطة وينهبون الدكاكين<sup>(٦)</sup>. إن هذه الأحداث وما تبعها من

(١) حول هذا الموضوع، انظر الفصل الثالث، ص ١٣٥-١٤٢.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٤.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٣، ٢٢٣.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٥٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٧٨.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٥١٦.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤٧١.

تقصير الحكومة وإهمال أجهزتها كان لها دور في إضعاف الدولة وإنهاكها، إلى جانب أحداث الطبيعة التي ساعدت على زيادة التفكك واستمرار الفوضى في المنطقة في عهد المستعصم بالله.

### ٣- موقف المستعصم بالله من الصوفية<sup>(١)</sup> والمذاهب الأخرى:

جاء ظهور تيار التصوف امتداداً لحركة الزهد القريبة من الدين الإسلامي، حتى أصبح مذهباً منظماً في الجزء الأخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ثم تأثر هذا التيار بمعتقدات مسيحية وهندية وفلسفية، فغدا التصوف يعني الانقطاع إلى العبادة، وترك الكسب وهجرة الحياة الاجتماعية<sup>(٢)</sup>.

كما أن الخلفاء العباسيين على نحو عام والخليفة المستعصم بالله على نحو خاص كانوا حريصين على إنشاء الأربطة في أماكن مختلفة من بغداد، ووقفها على المتصوفة. فنجده شديد رباطاً نسبياً سنة (٦٥٢هـ / ١٢٥٤م) بدار الشط، وأسكنه النساء المتصوفات، وجعل مشيخته للشريفة العباسية التي يرجع نسبها إلى الخليفة المهدي<sup>(٣)</sup>، كما ذكر ابن الفوطي<sup>(٤)</sup> أن الخليفة المستعصم بالله وقف في نفس السنة دار سوسيان<sup>(٥)</sup>، وما يجري معها من الحجر والبساتين، وجعلت رباطاً للصوفية، ورتب الشيخ عبدالصمد ابن أبي الجيش إمام مسجد القمريه<sup>(٦)</sup> شيخاً للصوفية بها، وجعل ولده موضعه في مسجد قمريه. ويذكر أنه لما استولى هولاء على بغداد سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) صدر من وزيره أمر إلى الجائليق بالاستيلاء على دار الفلك مع غيرها من الدور المجاورة<sup>(٧)</sup>.

(١) من أشهر المتصوفة في الإسلام ابن عطاء السكندري، والحلاج الذي لاقى مصرعه في بغداد، ومحيي الدين بن عربي وابن الفارض وغيرهم، النبراوي، فتحية، تاريخ النظم والحضارة والإسلام، ط ١٤، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٢١٤.

(٢) العبود، عبدالكريم توفيق، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٦م، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٨. جواد، الربط البغدادي، ص ٢٤٣.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١٧-٣١٨.

(٥) دار سوسيان: نسبة إلى الأمير سوسيان بن شملة (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠٠م)، وهو صاحب قلاع خوزستان، وهذه الدار أنشئت على نهر عيسى، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٩٦.

(٦) مسجد القمريه: هو من المساجد التي تأثرت بسبب غرق بغداد في سنة (٦٥٤هـ / ١٢٥٨م)، وبقي إلى أن أصلحه بالشكل الكامل علاء الدين عطا ملك الجويني في سنة (٦٦٧هـ / ١٢٦٨م)، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١٨.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٤.

وبلغ اهتمام المستعصم بالله بالصوفية أن قام عندما تولى الخلافة سنة (٦٤٠هـ) / (١٢٤٢م) بتكريم شيوخهم، وكان حريصاً على تفقد الصوفية والأولياء، فقصدهم مشاهدتهم وربطهم ووزع عليهم الأموال والهدايا (١).

ومن جوانب اهتمام الخلفاء بالمتصوفة تقريبتهم لهم، وجعل بعضهم من حاشيتهم ومعاونيهم، ورسلمهم إلى ملوك الأطراف، فكان الشيخ شمس الدين أبو المظفر علي بن النيار الفقيه الصوفي مختصاً بخدمة الخلفاء منذ صغره، وهو الذي تولى تأديب المستعصم بالله. فلما أفضت الخلافة إليه عرض عليه منصب الوزارة بعد أن شغل هذا المنصب بوفاة الوزير أحمد بن الناقد، فأبى ذلك، وقال: "إني عاهدت الله أن لا أغير لبس المتصوفين، ولا أنزع عني ما تعودته". فقوض إليه مشيخة الشيوخ ببغداد، وسلم إليه رباطاً، ثم أضيف له مشيخة رباط المرزبانية (٢).

ولكن في الوقت نفسه نجد أن فئة كبيرة من المجتمع العباسي، كانت غير راضية عن الصوفية حتى قيل في ذمهم الشعر، فقال أحدهم:

(البحر الخفيف)

لا تثق بالسكون من كل صوفي      واجتنب مكرهم وكن في صروف  
افقروا العالمين أكلاً ورقصاً      وادعوا أنه لرب رؤوف  
أترى ربهم يقول أرقصوا لي      واتركوا ما فرضت من معروف (٣)  
أما ظهير الدين أبو إسحق بن عسكر (٤) فقد قال في سماع الصوفية للغناء:

(البحر المتقارب)

متى سمع الناس في دينهم      بأن الغنا سنة تتبع  
ويأكل المرء أكسل البعير      ويرقص في الجمع حتى يقغ  
ولو كان طاوي الحشا جائعاً      لما دار من طرب واستمع (٥)

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٠، ٢٧٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١٨، ٥٧١.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٤-٢٨٦. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٣٧.

(٣) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج ٤، ق ٢، ص ٩٢١.

(٤) هو ظهير الدين أبو إسحق إبراهيم بن نصر بن عسكر، قاضي السلامة فقيهاً تفقه بالنظامية، وسمع

وحدث، وغلب عليه نظم الشعر، الإسنوي، جمال الدين عبدالرحيم (ت ٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، طبقات

الشافعية، تحقيق عبدالله الجبوري، ط ١، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠م، ج ٢، ص ٦١.

(٥) الإسنوي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٦١.

وأيضاً نجد الخليفة المستعصم بالله يتعامل مع الطوائف والفرق والمذاهب في بغداد، على أنهم وحدة واحدة، ويترفع عن التفريق بينهم، فهذا هو يعرض الوزارة على ابن النيار، مع أنه يعلم بأنه صوفي، وعندما رفض ابن النيار أوكل إليه مهام أخرى<sup>(١)</sup>، والكلام نفسه يقال بالنسبة للطريقة القادرية<sup>(٢)</sup>، التي أسسها عبدالقادر الجيلاني<sup>(٣)</sup>، ففي عهد المستعصم بالله نجد أن مشايخ هذه الطريقة لم يبتعدوا كثيراً عن مسرح الأحداث الداخلية، بل شاركوا فيها من خلال إسناد بعض الوظائف لهم، فقد تولى أبو نصر محمد بن نصر الجيلاني القضاء والحكم بحريم دار الخلافة في عهد الخليفة المستعصم بالله، وقد توفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ودفن بجوار جده في المدرسة<sup>(٤)</sup>.

وبذا، فإن تتبع أخبار المستعصم بالله تجعلنا نستنتج بأنه كان مشهوداً له بالعدل والإنصاف لرعيته<sup>(٥)</sup>.

#### ٤ - دور الأمراء وكبار رجال الدولة في الحياة السياسية والحياة العامة:

إن الأمراء من أفراد العائلة العباسية - عائلة الخليفة - لم يكن لهم أي نشاط سياسي يذكر، ولعل السبب في ذلك يعود إلى السياسة التي اتبعها الخلفاء، وتقوم على منعهم من الاختلاط بالمجتمع والخروج من دار الخلافة، وذلك "لأن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلون اعتقالاتاً جميلة لا يخرجون ولا يظهرون"<sup>(٦)</sup>. وكان هؤلاء الأمراء يقيمون بدار

(١) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٩. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٧.

(٢) الطريقة القادرية: هي طريقة صوفية ظهرت في بغداد في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، أسسها عبدالقادر الجيلاني الذي ولد سنة (٤١٧هـ/١٠٧٧م) في جيلان، انتقل إلى بغداد في سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، وقد كانت مدرسته مركزاً لنشاطات عدة في الإفتاء والتدريس والوعظ إلى أن توفي سنة (٥٦١هـ/١١٦٦م). ابن أبي يعلى، القاضي محمد (ت ٥٢٦هـ/١١٣١م)، طبقات الحنابلة، ط١، تحقيق أحمد عبيد، المكتبة العربية، ١٣٥٠هـ، ص ٢٩١. ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨ج، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج١٠، ص ٢١٩.

(٣) التادفي، محمد بن يحيى (ت ٩٦٣هـ/١٥٥٦م)، قلند الجواهر في مناقب عبدالقادر، ط٣، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ١٨.

(٤) التادفي، قلند الجواهر، ص ٥٩.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٢.

(٦) ابن جبیر، الرحلة، ص ١٨١.

الصخرة<sup>(١)</sup> ودار الفردوس ودار الشجرة<sup>(٢)</sup> دور من دار الخلافة فنجد الغساني، قد أشار إلى ذلك عندما تحدث عن غرق بغداد في سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، حيث قال :

" وانتقل الساكنون بدار الصخرة من أولاد الخلفاء وكذلك ساكنوا الفردوس من أعمام الخليفة، وكذلك سكان دار الشجرة ونقل الوزير أهله، وكذلك أستاذ الدار ... " (٣).

وعندما تولى المستعصم بالله الخلافة أطلق أولاده الثلاثة، ولم يحبسهم، كعادة الخلفاء العباسيين من قبله، إلا أنه أبقى جميع أعمامه وأبناءهم مقيمين في تلك الدور، ولم يسمح لهم بالخروج (٤).

كما أن الخليفة المستعصم بالله أمر في سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) أن يحمل إلى أعمامه وأولاد الظاهر بأمر الله وإلى أخيه عبدالعزيز عشرين ألف دينار<sup>(٥)</sup>؛ حيث ورد أن هذه الفئة من الأمراء لم تكن تتمتع بالثروة والمناصب الإدارية، بل إن بعضهم كانوا فقراء ينتظرون صدقات وهبات الخليفة (٦).

وبالمقابل كان هناك أشخاص لهم دور في خلافة المستعصم بالله ومنهم شرف الدين

أقبال الشرايبي (٧)، الذي كان من كبار أمراء المماليك، وفي بداية حياته كان مملوكاً لنجاح الشرايبي (٨)، ثم انتقل إلى زوجته بعد وفاته، فلما أفضت الخلافة إلى الظاهر بأمر الله، حملته إليه فقبله، وأرسله إلى ولده المستعصم، وحينما صارت الخلافة للمستعصم بالله زادت منزلته (٩)،

(١) دار الصخرة: هي الدار الخاصة بأعمام الخليفة وأسابيه، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، هامش ص ٢٠٣.

(٢) دار الشجرة: هي دار بالدار المعظمة الخليفة ببغداد من أبنية المقتدر بالله، وكانت فسيحة ذات بساتين، وسميت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة وسط بركة كبيرة مدورة أمام إيوانها، مكللة بالجواهر على شكل الثمار، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٤٢١. القزويني، آثار البلاد، ص ٣١٦.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦١٦.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣.

(٥) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٦.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٧١.

(٧) حول أقبال الشرايبي، انظر الفصل الثالث، ص ١٤٥.

(٨) هو الأمير نجم الدين أبو اليمان نجاح الشرايبي، كانت بداية خدمته لدى الخليفة الناصر لدين الله منذ صغره، وقد جعله الناصر فيما بعد مقدم الجيوش العباسية، وقد توفي سنة (٦١٥هـ/١٢١٧م)، ابو الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ١، ص ٣٧٤. سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ٢، ص ٦٠٠. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٣٦٤.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٩. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٢١.

وكان له دور مميز في أخذ البيعة للمستعصم بالله بعد وفاة الخليفة المستنصر سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م).

وكان الخليفة المستعصم بالله يثق كثيراً بشرف الدين أقبال الشرابي، حتى إنه ولاة قيادة الجيش<sup>(١)</sup> وسرخيل العسكر<sup>(٢)</sup>، كما تمتع بامتيازات مالية وإقطاعات، حتى إن الخليفة في سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) خلع عليه وقلده سيفان<sup>(٣)</sup>، وقد توفي إقبال الشرابي في سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م). وكان لإقبال الشرابي في السنوات (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)<sup>(٤)</sup>، و (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)<sup>(٥)</sup>، و (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)<sup>(٦)</sup> دورٌ مميز في التصدي لحالات تدمير الجند التي حصلت في عهد المستعصم بالله، إلى جانب دور علماء الإسلام الذين شعروا بخطورة خروج الجند من البلد في وقت كانت تتعرض فيه لغزو المغول، فأخبروا الجند بالإثم الذي قد يلحقهم إذا خرجوا من البلد، فاستجابوا واعتذروا<sup>(٧)</sup>.

ومنذ وفاة الشرابي وقع خلاف بين الأمير مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير من جهة، والأمير فلك الدين محمد بن علاء الدين الطبيرسي الدويدار الكبير، والوزير مؤيد الدين بن العلقمي من جهة أخرى، وكان الدويدار قد أصبح قائد للجيش بعد وفاة إقبال الشرابي<sup>(٨)</sup>، فبدأ التنافس بينهما على السلطة في الدولة، وأخذ كل منهما يحاول الإيقاع بالآخر عند الخليفة، فاتهم الدويدار من قبل الوزير بالتآمر على خلع الخليفة وتولية ابنه أبا بكر خليفة مكانه<sup>(٩)</sup>، وأتهم الوزير من قبل الدويدار بالتآمر على الخليفة ومراسلة المغول<sup>(١٠)</sup>، وامتد الصراع الشخصي إلى المجتمع وزاده الصراع المذهبي بين طرفي المجتمع العراقي؛ الشيعة والسنة، فوقف الدويدار إلى جانب السنة، وابن العلقمي إلى جانب الشيعة. وبلغ الأمر ذروته سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م)

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٢١.

(٢) سرخيل العسكر: هي وظيفة تعني قائد الفرسان. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٩. معروف، حياة إقبال الشرابي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٦م، ص ٧٥. حاشية رقم ١.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٤٤.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٨-١٦٩.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٠، ٣٢٣-٣٢٥.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٦.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٨-١٦٩. القزاز، الحياة السياسية، ص ١١٨.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٨، الرفيعي، العراق، ص ١١٦.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥، ص ١٨٤.

(١٠) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٧٤.

عندما حدثت الفتنة بين السنة والشيعة في محلة الكرخ<sup>(١)</sup>؛ حيث أمر المستعصم بالله قائد الجيش الدويدار بالخروج لإخماد هذه الفتنة<sup>(٢)</sup>.

ونستطيع القول إن مجاهد الدين قد خاف على نفسه، وجمع عساكره، " وباتوا تحت السلاح"<sup>(٣)</sup> ورغم إرسال الرسل له من قبل الخليفة من أجل طمأنته إلا أنه أصرَّ على الجمع بينه وبين من اتهمه حتى وقعت فتنة عظيمة بين عوام سوق المدرسة النظامية ومشركة الصباغين بسبب ذلك، فاشتد خوف الناس ولكن مجاهد الدين استمر على عناده<sup>(٤)</sup>. وأخذ يدبر المؤامرات ويهدد الأمن، فأراد الخليفة تدارك الأمر، فأرسل رسالة مرة أخرى على يد نجم الدين عبدالغني ابن الدرنوش<sup>(٥)</sup> إلى الدويدار الصغير، فلما حضر ومثل بين يدي الخليفة طلب أن يكتب له الأمان، وأن يعلم بهذا الأمان جميع الناس، وقد تم له ما طلب، فعاد إلى طاعة الخليفة<sup>(٦)</sup>.

على الرغم من عدم وقوع صدام بين قوات الخليفة وقوات الأمير، إلا أن هذا الأمر كان سبباً في إثارة الفتن داخل بغداد، التي قتل بسببها الكثير من الناس، كما أن هذا يعكس مدى نفوذ الأمراء وتحديدهم لسلطة الخليفة. في الوقت الذي كانت تحتاج فيه هذه الفترة من عمر الخلافة إلى الوحدة والتكاتف والتضامن ضد المغول. وبعد ذلك نجد العديد من المؤرخين قد تناولوا اتهام الوزير ابن العلقمي ومراسلته للمغول؛ حيث كانوا بين مؤيد ومعارض<sup>(٧)</sup>.

وإنني أتفق مع ما ذهب إليه الأستاذ محمد صالح القزاز<sup>(٨)</sup> بأن تحقيق هذا الاتهام أو نفيه لا يرتبط بعدد المؤيدين أو المعارضين، وإنما يتم بدراسة طبيعة الأوضاع السياسية التي

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١٤. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٢٥.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ١٨٠. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٢٥.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٥) ابن الدرنوش أو ابن الدرنوس: كان ببغداد حمالاً، ثم أصبح في عهد الخليفة المستنصر بالله برآجاً في بعض أبراج دار الخليفة، كما أصبح متقدم البراجين في عهد الخليفة المستعصم بالله، وكان الخليفة المستعصم بالله يرسل به الوزير ويشاوره في الأمور. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٧، ٣٣٥.

(٦) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٦٣-٢٦٤. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٧) حول الموضوع انظر الفصل الخامس، ص ٢٦٢-٢٧١.

(٨) القزاز، الحياة السياسية، ص ٣١٦-٣١٨.

كانت سائدة آنذاك، ودور الانقسامات المذهبية والخصومات الشخصية التي كانت تؤثر كثيراً في صنع الحقائق أو الأكاذيب.

كما إنني اعتقد بأن تصرف الخليفة على هذا النحو يدل على دبلوماسيته وعلى حنكته، فقد أراد بذلك أن يسيطر على الوضع ويضمن صلاح الحال، ونستدل على ذلك من خلال جواب المستعصم بالله على الوزير؛ حيث كان الوزير قد أخبره بسوء نية الدويدار الصغير وتخطيطه للفتك بالخليفة، فكان جوابه " ولم لا تعمل بقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، "مدارة الناس صدقة" <sup>(١)</sup>، وهذا يدل أيضاً على العمق الديني لدى الخليفة ".

### ثانياً: العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله.

تبين بعض المصادر التاريخية أن الخليفة المستعصم بالله كان على علاقة حسنة بكثير من أقاليم العالم الإسلامي، وأنه كان يحظى بمكانة رفيعة عند الحكام الذين يديرون مناطقهم على نحو مستقل، وكانوا يعترفون به خليفة للمسلمين، وأنه كان صاحب دور مميز في حل بعض المشكلات الكبرى في الأقاليم الإسلامية التي يحكمها الأمراء والولاة، ونستنتج ذلك من خلال عرض العلاقات السياسية للخليفة المستعصم بالله مع الدول والقوى الآتية:

#### ١- علاقة الخلافة ببلاد المغرب والأندلس

##### أ- علاقة الخلافة ببلاد المغرب

كانت الخلافة الفاطمية تتأصب العداء للخلافة العباسية وتتافسها على خلافة المسلمين وتختلف مذهبياً معها <sup>(٢)</sup>، وبسبب ذلك قطعت الخطبة في أفريقية ودويلات المغرب الأقصى للعباسيين حتى أعيدت مرة ثانية سنة (٤٣٥هـ/١٠٤٣م) على يد المعز بن باديس <sup>(٣)</sup> (ت ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) <sup>(٤)</sup>، الذي أمر أن يخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله الذي رد عليه

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ١٢٠-١٢١. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٦١٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ١٢٠-١٢١. سرور، محمد جمال الدين، الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٢١-٢٣.

(٣) المعز بن باديس: هو من ملوك الدولة الصنهاجية بأفريقيا ولد بالمنصورية، ولي بعد وفاة أبيه سنة (٦٠٤هـ)، وأقره الحاكم الفاطمي صاحب مصر والمغرب ولقبه بشرف الدولة، وكان ولاؤه وخطبته للفاطميين، إلا أنه قطعها سنة (٤٤٠هـ)، وجعلها للعباسيين، الزركلي، الأعلام، ج٨، ص ١٨٦.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ١٢٠-١٢١.



بالخلع وقلده أفريقية وكل ما يفتحه في المستقبل<sup>(١)</sup>، كما أخذ المغرب الإسلامي يعتمد على نفسه منذ أن أعلن المعز بن باديس الانفصال السياسي والمذهبي عن الدولة الفاطمية<sup>(٢)</sup>.

وقد امتد نفوذ العباسيين الروحي إلى المغرب الأقصى والأندلس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ذلك أن الفقهاء أشاروا على يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م)<sup>(٣)</sup> أن يتصل بالخلافة العباسية لكي تكون ولايته شرعية؛ حيث كان يوسف بن تاشفين يتحلى بصفات جعلته يطبق الشريعة الإسلامية، ولم يرضَ بتعدد الخلافة، ورفض أن يسمى بالخليفة حفاظاً على وحدة المسلمين وجمع كلمتهم<sup>(٤)</sup>، فأرسل عبدالله بن محمد العربي الأشبيلي رسولاً إلى الخليفة المستظهر بالله الذي قلده ما تحت يده من البلاد في المغرب والأندلس، وما يفتحه في المستقبل بسيف أمير المؤمنين، ولقبه بأمرير المسلمين وناصر الدين<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٥٢١-٥٢٢. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٢٣٩-٢٤٠، ويشير ابن عذاري أن الخطبة أقيمت سنة (٤٤٣هـ/ ١٠٥١م). ابن عذاري المراكشي (ت بعد سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ح. س. كولان و. إ. ليفين بروفسال، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٩م ج١، ص ٢٨٨.

(٢) سالم، السيد عبدالعزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ٦٠٤.

(٣) يوسف بن تاشفين: هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تومرت، أبو يعقوب أمير المسلمين ومالك الملمثين، ولد في صحراء المغرب (٤١٠هـ/ ١٠١٩م)، وهو بربري، كان له دور في ظهور الحركة المرابطية في المغرب وتثبيت أقدامها، واستطاع أن يجعل حكمة شرعياً عن طريق: أولاً كسب ود الخليفة العباسي، بإرسال الخلع والتشريف، وثانياً عن طريق حجة الإسلام الغزالي الذي كان معاصراً له الذي أصدر فتوى بشرعيته في الحكم والخروج عليه خروج على الدين، محيي الدين بن حسين عبدالله، يوسف بن تاشفين والأندلس (٤٧٩-٥٠٠هـ/ ١٠٨٦-١١٠٦م)، رسالة ماجستير، إشراف الأب الدكتور لويس بوزيه، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٢، ٣، ٧٨-٨١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٤٩. حسين عبدالرحيم مصطفى، دور عبدالمؤمن بن علي الكوفي بنشر دعوة ابن تومرت وإقامة دولة الموحدين (٥١٠-٥٥٨هـ)، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣م، ص ١٩٦.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٨-١٨٩. لسان الدين الخطيب، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٣م)، الحلل الموشية في ذكر أخبار المراكشية المكتبة الوطنية. الجزائر، ١٩، ص ١٧-١٨. ابن علي المراكشي، محيي الدين عبدالواحد بن علي التميمي (٥٨١-٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجان، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٦٤. حسين أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٣٢٣-٣٢٣. الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد المدعو حماد بن محمد (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج١، ص ١٢٢. مصطفى، دور عبدالمؤمن، رسالة ماجستير، ص ١٩٦-١٩٧.

إلا أن الملاحظ أن هذه الحالة تغيرت بمجيء الموحدين<sup>(١)</sup> الذين كانوا قد دخلوا الأندلس

سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م)، وكانوا<sup>(٢)</sup> على نقيض المرابطين في علاقتهم بالخليفة العباسي وعدم الاعتراف به، وتلقب زعماءهم بلقب أمير المؤمنين<sup>(٣)</sup> ابتداءً من عبدالمؤمن بن علي (٥٢٤هـ/١٢٩م-٥٥٨هـ/١١٦٢م) ومن جاءوا بعده<sup>(٤)</sup>، ولقد جرت محاولات أخرى لمد النفوذ العباسي إلى المغرب عندما قام بعض مماليك الأيوبيين في مصر بالاتجاه غرباً لاستكشاف البلاد ومعرفة إمكانية اتخاذها مقاماً للأيوبيين، وكان قراقوش مملوك تقي الدين عمر الأيوبي أول من اتجه إلى المغرب سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) فاحتل طرابلس، ثم دخل قابس وجعلها مركزاً لها<sup>(٥)</sup>.

وفي سنتي (٥٧١هـ/١١٧٥م-٥٧٢هـ/١١٧٦م) احتل بعض القلاع الداخلية، ولم يلق معارضة بل رحب به أمراء البلاد طالبين منه الحماية من العرب مقابل نصيب من الخراج، وكان من نتيجة ذلك أن أقيمت الخطبة العباسية في هذه النواحي، كما اتصل به بعض الأمراء الخارجين عن طاعة الموحدين ومنهم بقايا المرابطين الذين أعلنوا الثورة على الموحدين<sup>(٦)</sup>. وفي سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) أرسل الأمير ناصر الدين إبراهيم سلاحدار تقي الدين كتاباً يذكر فيه ما فتحه من البلاد الواسعة وإقامته للخطبة وضرب للسكة<sup>(٧)</sup>.

- (١) قامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية، أخلاقية، طابعها التجديد والعظمة وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة، ومؤسس هذه الدعوة هو الفقيه أبو عبدالله محمد بن تومرت الهرغي السوسي، العبادي، أحمد مختار، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص ١٠٤.
- (٢) رائدة احمد علي موسى، الثغر الأدنى الأندلسي من الفتح حتى السقوط (٩٢-٦٢٧هـ/٧١٠-١٢٣٠م)، رسالة ماجستير، إشراف محمد حتاملة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م، ص ١٣٩.
- (٣) وكذلك تلقبوا بالخليفة، الإمام، ويقول المراكشي أن عبدالمؤمن اتخذ لقب أمير المؤمنين في حياة المهدي لما بعثه على رأس الجيش يوم البحيرة (٥٢٤هـ/١١١٣م)، عز الدين عمر موسى، تنظيمات الموحدين ونظمهم في المغرب، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، ١٩٦٩م، ص ١٤٤.
- (٤) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٣٢٨-٣٢٩. الناصري، الاستقصاء، ج٢، ص ١٠٩. سليمان، أحمد السعيد، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، القاهرة، ١٩٦٩م، ج١، ص ٥٣-٥٤. مصطفى، دور عبد المؤمن بن علي، ص ١٦٨.
- (٥) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٥، ص ٢٧٤-٢٧٥. المقرئ، السلوك، ج١، ص ١٧١، ١٧٣-١٧٤.
- (٦) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ٢١٩، أبو شامة، الروضتين، ج١، ص ٥٥، ص ٢٧٤-٢٧٥ المقرئ، السلوك، ج١، ص ١٧١-١٧٤. القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٩١.
- (٧) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص ٢، ص ٥٤. المقرئ، السلوك، ج١، ص ١٨٥-١٨٨.

وبقي الحال في المغرب تحت سيطرتهم، حتى مجيء ابن هود الجذامي الذي سيطر على المغرب والأندلس وأخذه من بني عبدالمؤمن وخطب للخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (٦٢٧هـ/١١٢٩م)، إضافة إلى نقش اسم الخليفة المستنصر بالله وألقابه على نقوده، وبذلك عادت العلاقة بالخلافة العباسية طيبة من جديد<sup>(١)</sup>.

كان أبو حفص عمر المرتضي قانعاً بلقب أمير وكان ابنه المستنصر يتلقب بالخليفة وأمير المؤمنين، ولما دمّرت الخلافة العباسية على يد هولاءكو أصدر شريف مكة براءة للمستنصر بقرار فيها أنه (أي المستنصر) يدير تلك الخلافة<sup>(٢)</sup>.

### ب- علاقة الخلافة ببلاد الأندلس:

كانت الانقسامات التي نشبت بين أمراء الموحدين قد أضعفتهم وفسحت المجال لبعض الثوار والمتمردين عليهم بالثورة والاستقلال في الأندلس، ومن هؤلاء الثوار محمد بن يوسف بن هود الجذامي الذي خرج على إدريس الموحدي في التاسع من رجب سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م)<sup>(٣)</sup>، ودعا إلى آل العباس فمال إليه الناس<sup>(٤)</sup> في الأندلس وملك مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية والجزيرة الخضراء وجبل الفتح من أيدي الموحدين سنة (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) وتلقب بالمتوكل على الله<sup>(٥)</sup>، وأظهر منذ البداية ولاءه للخلافة العباسية واستظل بظلمها، ودعا للخليفة المستنصر بالله العباسي<sup>(٦)</sup>.

وكان قد بعث رسولاً إلى بغداد سنة (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) يطلب المرسوم والخلع للخلافة<sup>(٧)</sup>، فرد عليه الخليفة العباسي بالهدايا والرسوم التي وصلت إلى ابن هود في سنة

(١) الغساني، المسجد المسبوك، ص ٤٤٢. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥-١٦. القزاز، في العصر

العباسي الأخير، ص ٢٩٣. فهد، تاريخ العراق، ص ١٢-١٤.

(٢) سليمان، تاريخ الدولة الإسلامية، ج١، ص ٥٦.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٤٣. ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر البلبلي

(ت٦٥٨هـ/١٢٥٧م)، الحلة السيرة، ج٢، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ج٢، ص ٣٠٨،

كما أشار لسان الدين ابن الخطيب، في اللحة البدرية في الدولة الناصرية، دار الأفاق الجديدة، بيروت،

١٩٨٠، ص ٣٢ أن خروجه على الموحدين كان في سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

(٤) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٣٧. الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ٩٤. ابن العماد، شذرات الذهب،

ج٥، ص ٩٥.

(٥) لسان الدين ابن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام، ط٢، تحقيق ليفي بروفنسال، دار

المكشوف، بيروت، ١٩٥٦، ق ٢، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٦) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٤٦.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥-١٦.

(٦٣١هـ/١٢٣٣م) (١)، مع مبعوث الخليفة أبي علي حسن الكردي الملقب بـ (الكمال) (٢). وهو يومئذ بغرناطة، فقرأ مرسوم التولية على الناس بمصلى العيد، فظهر ابن هود وهو يرتدي السواد شعار العباسيين حاملاً رايتهم السوداء بين يديه، فحياه الناس واستبشروا به خيراً (٣). هذا وقد خطب للخليفة العباسي في الأندلس زعيم آخر هو جميل زيان ابن مردنيش الذي سكن قصر (أبذة) في بلنسية وأخذ البيعة لنفسه في صفر سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ودعا للخليفة العباسي في بغداد (٤).

## ٢- علاقة الخلافة ببلاد الحجاز [مكة والمدينة] واليمن:

### أ- علاقة الخلافة ببلاد الحجاز (مكة والمدينة):

نظراً لما تمتلكه هاتان المدينتان من قدسيه وقيمة روحية لدى المسلمين، ظل اهتمام الخلفاء العباسيين بهما كثيراً؛ فقد سعوا من خلال ذلك إلى فرض السلطان الروحي والفعلي أحياناً أو الاكتفاء بالسلطان الأسمي عليهما فقط، وظهور الخليفة بمظهر حامي الحرمين الشريفين أمام المسلمين وأمام رعيته، وكانت الخلافة حريصة في كل مناسبة على أن تظل سيادتها قائمة على الحرمين الشريفين، وكان يسرها وصول المكيين مع الحاج يحملون إليها خرق دم الأضاحي حسب العادة فيستقبلون بضرب الطبول (٥). ولم تكن إمارة مكة والمدينة وراثية، إنما كانت محصورة في أبناء الأسرة الحاكمة من آل البيت، وكان النزاع كثيراً ما ينشب بين أمراء مكة والمدينة فيلحق الأضرار بالحاج، فكانت الخلافة تتدخل لإعادة الأمن، ويقوم أمير الحاج باستخدام القوة لعزل الأمير المعتدي وتنصيب أخيه أو ابنه (٦)، وذلك مثل النزاع الذي حصل سنة (٦٠١هـ/١٢٠٣م) بين الإماراتين (٧).

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق٢، ص ٢٨٠.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ١٦٩. عنان، محمد عبدالله، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٦٤م، ق ٢ ص ٤٢٢.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٨٠.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٧٧، فهد، تاريخ العراق، ص ١٥. عنان، عصر المرابطين، ص ٤١٤.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص ٢٠٥، ٢٣٠، ٢٤٠، ٢٥٩. ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٢٠٥، ٤٠١، ٤١٣.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص ٢٠٥، ٢٦٠. ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٢٠٥، ٢٦، ٢٧، ١٣٧، ٢٣٩، ٣٠٥، ٣٤٥-٣٤٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٢٠. القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٢٠٥، أبي الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٣٢.

وكانت الخلافة العباسية شديدة الاهتمام بطريق الحجاج وبعمارته وتزويده بالمرافق والخدمات كالآبار والحصون، وتمهيد المناطق الجبلية وتعيين من يتفقد معالم الطريق<sup>(١)</sup>، وتحرص في مواسم الحج على أن تشرح سياستها وتتلى أوامرها ومراسيمها فينقلها الحجاج إلى بلادهم بعد عودتهم إليها<sup>(٢)</sup>، وأصبحت وظيفة أمير الحج من الوظائف المهمة عند الخليفة، فكان يختار لها من عرف من الأمراء بالحزم ورعاية مصالح المسلمين ليستطيع تمثيل الخليفة في الحج، وفرض هيبة الخلافة على الناس، حتى استقرت إمرة الحج في بيوت بعينها يتوارثها الأبناء عن الآباء، وكان الأمير يتمتع بمكانه خاصة عند الخليفة، بل كان اسمه يذكر في الحج بعد اسم الخليفة<sup>(٣)</sup>.

ونستطيع القول إن أمور الحجاج بمكة كانت مستقره حتى سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)؛ حيث عزل الملك المنصور بن رسول، أمير الحاج فخر الدين بن السلاج، وعين مكانه محمد بن أحمد بن المسيب اليمني<sup>(٤)</sup>.

وكان المستعصم بالله شديد الحرص على استتباب الأمن في وقت الحج؛ ففي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) حدثت فتنة في مكة بين الركب العراقي في الحج وأهل مكة، فركب أمير الحج العراقي بمن معه من عسكر الخليفة وكادت تقع بينهم ملحمة عظيمة، فقام الملك الناصر داوود بالإصلاح بينهم واجتمع بالشريف قتادة أمير مكة؛ حيث قضى الناس مناسك الحج، ورجعوا إلى أوطانهم<sup>(٥)</sup>.

وكذلك اهتم المستعصم بالله بعمارة الجانب الشمالي من المسجد الحرام ومسجد الراية بأعلى مكة<sup>(٦)</sup>.

(١) مالك خياط، السيدة زبيدة ودورها السياسي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠١م، ص ٤٢. أبو شامة، الروضتين، م ٢، ج ٣، ص ١٣٨.

(٢) الديبشي، جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد، تحقيق بشار عواد معروف، دار السلام، بغداد، ١٩٧٤م ص ١٣٠.

(٣) عائشة مانع العبدلي، إمارة الحج في عصر الدولة المملوكية وأثرها على الأوضاع الداخلية بمكة المكرمة (٦٤٨هـ-٩٢٣هـ) رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٩٩، ص ٢٠-٢٢، من أشهر أمراء الحاج في هذه الفترة الأمير طاشتكين الذي تولاهما قرابة عشرين عاماً، ثم الأمير وجه السبع ومجاهد الدين ياقوت، ثم ابنه محمد بالرغم من صغر سنة. القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٨٧، ص ١٥.

(٤) عائشة العبدلي، إمارة الحج، ص ١٥.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ٣٨٠، فادي موسى مبيضين، الملك الناصر داود (ملك الكرك) شاعراً، رسالة ماجستير، إشراف شفيق الرقب، جامعة مؤتة، ٢٠٠٥، ص ١١.

(٦) الفاسي، تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد (٨٣٢هـ/١٤٢٩م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج ٧، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج ٥، ص ٢٩٠.

وقد بقيت العلاقة ودية والخطبة مستمرة في مكة حتى بعد خضوع مكة لبني قنادة<sup>(١)</sup> الذين استمر حكمهم فيها إلى سنة (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) فأصبحت بعد ذلك تحت ملك صاحب اليمن الملك المسعود الملقب أطسيس بن الملك الكامل صاحب مصر<sup>(٢)</sup>، وهنا حصل تغيير في مسار العلاقة مع الخلافة العباسية؛ حيث أستولى المسعود على مكة وقتل جماعة الأشراف وقدم رايته على راية الخلافة<sup>(٣)</sup>، ومنع عسكر الخليفة أن يتقدم<sup>(٤)</sup>، مما أغضب عمله هذا الخليفة الناصر لدين الله وشكا إلى والده الكامل الذي غضب بدوره وكتب إليه " برئت يا أفسز<sup>(٥)</sup> من ظهر العادل أن لم أقطع يمينك، فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك"<sup>(٦)</sup>، واستمرت العلاقة على هذا النحو المشين حتى وفاة المسعود سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، ومجيء حكم بني رسول<sup>(٧)</sup>؛ حيث أصبحت العلاقة بهم جيدة وبخاصة مع عمر بن علي الملقب بس المنصور (ت ٦٤٨هـ/١٢٥٠م) الذي أعاد الخطبة لبني العباس من جديد<sup>(٨)</sup> واستمرت هذه العلاقة الجيدة في زمن المستعصم بالله الذي اعترف بإمارة غانم بن راجح ابن قنادة على مكة<sup>(٩)</sup>، وعندما زالت

(١) قنادة: نسبة إلى قنادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالحكم بن موسى بن عيسى بن عباد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عباد الله بن حسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٧٢.

(٢) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٦م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٨، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت. مج ٥، ص ٧٥-٧٦. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٩، ج٧، ص ٣٦٤.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٢٣٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٢٤. العسقلاني، عز الدين أبو البركات أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحه الشراقوي، مطبعة الثقافة الدينية، مصر، ١٩٩٦م، ص ٣٢٦.

(٤) العسقلاني، شفاء القلوب، ص ٣٢٦.

(٥) أفسز: كلمة تركية ومعناها ماله اسم، العسقلاني، شفاء القلوب، ص ٣٦٢.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٧٧.

(٧) حينما ورد توران شاه مؤسس أيوبية اليمن على اليمن سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) كان في معيته رجل يدعى محمد بن هارون، ولما كان الخليفة العباسي قد أرسل هارون مرات كثيرة في بعض المهمات فقد قيل له (الرسول) ثم صار اللقب علماً على أسرته، سليمان، تاريخ الدولة الإسلامية، ص ٢٠٦.

(٨) اليماني، تاج الدين عبد الباقي بن عبدالمجيد المخزومي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤١م)، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار العودة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٨٥-٨٦. الخزرجي، موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن الزبيدي، (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)، كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق، محمد بن علي الأكوغ، مصر، ١٩١١. ج١، ص ٥١. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٩. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٣.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث، ص ٢٧٣-٢٧٤. فهد، تاريخ العراق، ص ١٨.

الخلافة من بغداد كانت إمارة مكة بيد أبي نمي ابن أبي سعيد ابن قتادة، بينما كانت إمارة المدينة بيد الشريف منيف بن شيحة (١).

تميزت علاقة الخلافة بالمدينة بأنها كانت ودية، وذلك نظراً لاعتراف الخليفة العباسي بأمير المدينة والخطبة له بالمقابل، وهذه العلاقة كانت قائمة قبل عهد المستعصم بالله؛ حيث كان الخلفاء العباسيون كالمستضيء، والناصر لدين الله، يبعثون بكسوة الحجر الشريفة، والصدقات في موسم الحج إلى المدينة.

ويذكر القلقشندي (٢) أن الخليفة الناصر كان يتصدق في كل سنة عليها، ويرسل أربعة آلاف دينار للصدقات وألفاً وخمسمائة ذراع قطن لتكفين من يموت من الفقراء هناك، وكذلك إرساله القناديل والشيوخ والشمع والند والعود لتبخير المسجد الحرام، وكان الخليفة المستعصم بالله شديد الاهتمام بالحرمين، ففي سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وقع حريق بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بلغ الخبر الخليفة المستعصم بالله، أرسل قاضي القضاة سراج الدين النهرقلي ومعه جماعة وأعطاهم مالاً لعمارة ما احترق من المسجد، فتمكنوا من إعادته إلى أحسن ما كان (٣).

كذلك كانت هناك ظاهرة الزيارات التي تدل على حسن النوايا وتوثق العلاقات وتوطدها، ففي سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) وصل منيف بن الأمير شيحة، أمير المدينة في جماعة من العرب صحبة الحاج العراقي، وخرج لاستقباله موكب الديوان الشريف، وأسكن في الجانب الغربي من بغداد ثم شرفوه بلباس الفتوة عن الخليفة المستعصم بالله وخلع عليه وأكرم وعاد إلى بلاده (٤).

ومن الأمراء الذين تولوا إمارة المدينة في هذه الفترة هو شيحة بن سالم بن قاسم (٥) الذي عاصر المستعصم بالله إلى أن قتل سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) فولى ابنه عيسى مكانه (٦)، وجميعهم كانت علاقتهم حسنة بالخلافة.

من خلال هذه المظاهر الإيجابية يتبين لنا طبيعة العلاقة الودية الطيبة بين الجانبين، وقد استمرت كذلك حتى احتلال المغول لبغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

- 
- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١١. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧٦-٢٧٨. المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٤٨٦، ٤٩٢، ٤٠١، ٤١٢. حسين، جميل حرب محمود، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ط ١، تهامه، ١٩٨٥، ص ٤٧-٤٩.
  - (٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠٨.
  - (٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١٦.
  - (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٢٦. المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٤١٥-٤١٦.
  - (٥) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج ٢، ص ٨٦.
  - (٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠٤-٣٠٥.

إن العلاقة بين اليمن والخلافة العباسية تبدأ بمجيء عائلة آل رسول وزوال حكم الأيوبيين الذين كان آخرهم الملك المسعود<sup>(١)</sup>، المتوفي سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، حيث توفي بمكة على إثر مرض مزمن، وكان قد خرج عندما سمع بموت عمه الملك المعظم عيسى، فخرج طامعاً بدمشق، وعندما مات كان معه من الأموال الشيء الكثير، وكان ظالماً جباراً سفاحاً للدماء قتل باليمن خلائق كثيرة واستولى على أموالهم، وكان أبوه الملك الكامل يكرهه ويخافه، فعندما سمع بموته، سرّب بذلك واستولى على جميع أمواله<sup>(٢)</sup>. الذي لم تكن له علاقة حسنة بالخلافة حتى وفاته<sup>(٣)</sup>، وكان آخر الأيوبيين الذين حكموا بلاد اليمن<sup>(٤)</sup>.

وقد اختلف في تاريخ قدوم بني رسول إلى اليمن، لكن ما هو مقطوع به أنهم جاؤوا ضمن الحملات الأيوبية بقيادة توران شاه<sup>(٥)</sup> سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م)<sup>(٦)</sup>؛ حيث سيره صلاح الدين الأيوبي ومعه بنو رسول، فأخضع عصاتها، وعاد منها<sup>(٧)</sup>.

ثم تحسنت هذه العلاقة بعدئذٍ وبخاصة مع نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي استقل باليمن ولقب نفسه الملك المنصور نور الدين، وضرب السكة باسمه وخطب لنفسه دون

(١) المسعود الأيوبي، وهو أكبر أبناء الملك الكامل أبو المعالي محمد بن الملك العادل الأيوبي وآخر ملوك بني أيوب في اليمن، دخل اليمن وتولى الحكم فيها سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) حتى سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م)، وكان، يثق ببني رسول، وولاهم الولايات، خرج من اليمن في المرة الأولى قاصداً مصر وعين عمر بن رسول نائباً له على اليمن، لكنه عاد سريعاً خوفاً على حكمه من أن يستحوذ عليه بنو رسول، وجلس في اليمن مدة من الزمن حتى نبأ تعيينه حاكماً لدمشق، خلفاً للملك المعظم عيسى بن الملك العادل، فسافر قاصداً الشام إلا أن المرض لم يمهله طويلاً، فاستبد به، وأنزله مكة ليموت فيها سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ١٨.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٧٦. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٤٢.

(٣) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ج١، ص ١٣٨. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٧٧ المقريزي، السلوك، ج١، ص ٣٥٧-٣٥٨.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٢-١٣. المقريزي، السلوك، ج١، ص ٣٥٨. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٦٦. العرامشي، عبدالحكيم محمد، الدولة الرسولية في عهد السلطان المظفر

الأول يوسف بن عمر (٦٤٧هـ-٦٩٤هـ)، رسالة ماجستير، جامعة عدن، ٢٠٠٦م، ص ١١.

(٥) توران شاه: هو أخو صلاح الدين الأيوبي لأبيه، نشأ في دمشق، وبعد أن اخضع عصاة اليمن، سار إلى مصر سنة (٥٧٤هـ/١١٧٨م). فأقام مدة وتوفي فيها. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ١٤٨.

(٦) الأصبحي، آلاء أحمد، المدرسة الأشرفية بتغر زمن الدولة الرسولية في اليمن (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤م)، جامعة اليرموك، ٢٠٠٢م، ص ١.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ١٤٨. الياضي، مرآة الجنان، ج٨، ص ٣٦٢.



ذكر الأيوبيين<sup>(١)</sup>، كما أنه أراد أن يجعل حكمة شرعياً في اليمن فأرسل رسولاً إلى بغداد طالباً من الخليفة المستنصر تقليده حكم اليمن، إلا أن الخليفة ربما امتنع عن ذلك في بداية الأمر حتى وفاة الملك الكامل الأيوبي احتراماً لمشاعره وللعلاقة الطيبة بينهما<sup>(٢)</sup>، لكن الخلافة بعد وفاة الكامل استجابت لأمراء اليمن فقلدتهم السلطنة وأرسلت إليهم الهدايا والخلع<sup>(٣)</sup>.

وكان أمير اليمن حريصاً على الاتصال بالخلافة وإخبارها بما يستجد من الأحداث رغباً في إظهار تعلقه بها وطاعته لها، ومن مظاهر العلاقة الإيجابية كثرة الزيارات والهدايا، ففي سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م)، أرسل السلطان نور الدين هدية عظيمة إلى الخليفة العباسي طالباً تجديد تشريفه على اليمن. فعاد جواب الخليفة بالقبول ووعدته بأنها ستصل إليه في عرفة مع الحاج، وبالفعل أرسلت له التشريفية والتقليد الخلافي مع الحاج، إلا أنها لم تصل إليه بسبب رجوع الحاج من منتصف الطريق بسبب الأعراب، مما حال دون وصول الركب العراقي إلى الحجاز فتأصل التجديد وأرسل له في السنة القادمة أي في سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) مع كسوة الكعبة، ولما وصل الركب العراقي مكة، وضعوا الكسوة في مكانها وتوجهوا إلى اليمن حاملين تجديد شرعيته بالحكم<sup>(٤)</sup>.

وكذلك وصل رسول صاحب اليمن إلى بغداد في نفسه السنة ومعه التحف والهدايا فاستقبل بها بالإجلال والتقدير والاحترام<sup>(٥)</sup>. وفي سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) بعث عمر بن رسول رسولاً إلى بغداد يحمل تحفاً وهدايا، وأخبر هذا الرسول بوصول رجل هاشمي إلى اليمن أدعى أنه رسول من خلافة بغداد إلى صاحب اليمن، وكانت معه خلعة، فقال له السلطان: من عادة الديوان إذا شرف السلطان بخلعة يبعث معه تقليداً بالبلاد ليكون حكمه شرعياً، فأجاب بأن ذلك

(١) اليماني، تاريخ اليمن، ص ٨٥-٨٦. الخرزجي، كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج١، ص ٥١. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٣٠-٣١. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٣. سليمان، محمود حسن، تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، بغداد، ١٩٦٩م، ص ٢٥٦. النور، عبدالله بن أحمد، مختصر من تاريخ اليمن، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٧٨. التكريتي، محمود ياسين، الأيوبيين في اليمن، تاريخهم السياسي من (٥٦٩-٦٢٦هـ)، آداب الرافدين، ع ١٢، الموصل، ١٩٨٠م، ص ١٤١-١٤٢.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٣. القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٨٦. فضل محمد صالح محمد، الحياة العلمية في اليمن في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي (عصر الدولة الرسولية)، رسالة ماجستير، جامعة عدن، عام ٢٠٠٦م، ص ٩-١٠.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٣-٤٦٤.

(٤) الخرزجي، موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن الزبيدي (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج٢، د.ط، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ١٩١١م، ج١، ص ٥٤-٥٥.

(٥) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٦٤.

يحتاج إلى طلب، فكتب السلطان الطلب وسلمه إلى الرسول الذي أخذه وادعى أنه سيوصله إلى الديوان، إلا أنه اختفى ولم يعثر عليه، مما أثار الدهشة والتعجب، فأكرموا الرسول وخلعوا عليه ثم أذنوا له بالعودة إلى بلاده<sup>(١)</sup>.

وقد استمر الملك المنصور عمر في الحكم حتى مات قتيلاً في عهد المستعصم بالله سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، وتولى السلطنة ابنه يوسف ابن عمر المظفر الأول سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م-٦٩٤هـ/١٢٩٦م)، الذي سار على سياسة أبيه من التقرب إلى الخلافة<sup>(٢)</sup>، وكان الملك المظفر حريصاً على توطيد علاقته بمركز الخلافة العباسية ببغداد لإضفاء الصفة الشرعية على حكمه، كما أن الخليفة العباسي المستعصم بالله زاد له في عادة اليمن السنوية من عشرة آلاف دينار إلى أربعين ألف دينار<sup>(٣)</sup>، وقد أظهر السلطان المظفر الولاء والطاعة للخليفة العباسي المستعصم بالله من خلال ضرب السكة باسمه والخطبة له على المنابر<sup>(٤)</sup>، حتى إن الخليفة المستعصم بالله أرسل في سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) بالخلع والتقليد بولاية اليمن إلى ملك اليمن الجديد يوسف بن عمر بن رسول<sup>(٥)</sup>.

إن هذه الزيارات وتبادل الهدايا بين الطرفين يدل على حسن العلاقة في عصر الخليفة المستعصم بالله؛ حيث بقي الوضع كذلك إلى أن دخل المغول بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(٦)</sup>، ويتضح أن الدعاء للخليفة العباسي المستعصم بالله ظل مستمراً في اليمن، كما لو كان حياً يرزق إلى أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

كما أن الشيء اللافت للنظر هو استمرار السلطان المظفر وسلطين بني رسول من بعده في ضرب اسم الخليفة المستعصم بالله على السكة، والدعاء له في خطبة الجمعة على الرغم من مقتله في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وتبين الدراهم الرسولية أن اسم الخليفة المستعصم بالله ظل

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٢٢. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٨٩-٤٩٠.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٥٨. أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٢٢١-٢٢٢. ابن كثير،

البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٦٨-١٦٩. العرامشي، الدولة الرسولية، ص ١١.

(٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج١، ص ٢٢٩. ابن القاسم، يحيى بن الحسين بن الإمام (١٠٣٥-

١٠٩٩هـ-)، غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتابة العربي،

القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٤٤٥.

(٤) ابن القاسم، غاية الأمان، ج١، ص ٤٧٤.

(٥) ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج٢، ص ١١١. يحيى، المستعصم بالله العباسي، ص ٨٦-٨٧.

(٦) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج١، ص ٦٩.

يضرب عليها إلى سنة (٨١٤هـ/١٤١٢م)، على الأقل، وهو تاريخ أحدث قطعة نقدية رسولية معروفة حتى الآن<sup>(١)</sup>.

وهذا الشيء يدل على تعلق السلطان المظفر ومن تلاه بالخلفاء العباسيين الذين كان لهم الفضل في الاعتراف بالرسولية كحكام لليمن، ومن المحتمل أن السلطان المظفر أراد من وراء ذلك النهج تأكيد شرعية حكمة والدولة الرسولية ككل، ورداً على إحياء الخلافة العباسية في مصر<sup>(٢)</sup>.

### ٣- علاقة الخلافة بالأيوبيين في بلاد الشام ومصر.

بقيت الخلافة العباسية محتفظة بهيبتها عند ملوك الأيوبيين، وذلك لأن الدولة الأيوبية سنية المذاهب قامت على أنقاض الخلافة الفاطمية الشيعية، لذلك حرص ملوك الأيوبيين على إبقاء نوع من العلاقة الطيبة مع الخلافة في بغداد، فوجد نور الدين محمد بن زكي كان يحرص على كسب رضى الخلافة، وإظهار طاعته إيماناً منه بقدسية الخلافة، ورغبة في الفوز بتأييدها في صراعه مع الصليبيين<sup>(٣)</sup> ومع بعض الأمراء المسلمين الذين كانوا لا يسهمون في الجهاد فحسب بل يخلقون له المشكلات ويعتدون على بعض حلفائه من الأمراء، إن لم يتحالفوا مع العدو عليه<sup>(٤)</sup>.

وعندما أسهم جيش الموصل في حصار بغداد سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) متعاوناً مع السلاجقة، أرسل نور الدين إلى أخيه مودود يعتب عليه الوقوف في وجه الخلافة ويلزمه التكفير عن ذلك والاعتذار إليها<sup>(٥)</sup>، فكان نور الدين حريصاً على اطلاع الخلافة على كل عمل يقوم به، فمثلاً أرسل العماد الأصبهاني في سفارة من قبل نور الدين إلى دار الخلافة لتسوية مشكلات

(١) Balafier, Mohamed, Tresors et collections des Monnaies Islamiques du Musées Du Yemen, Thes de Doctorat, Universite de paris-sorbonne, paris, 1994, tome II, P.273.

(٢) الزيلعي، أحمد عمر، "دراهم رسولية مظفرية نقش عليها اسم الخليفة المستعصم بالله بعد وفاته، دراسة في مغزاها السياسي وطرز سكها"، مجلة اليرموك للمسكوكات، مج ٥، ١٩٩٣، ص ٣١.

(٣) جاءت الحملات الصليبية من مختلف أصقاع أوروبا، تدفعهم دوافع شتى، قاصدين الشرق بهدف تحرير الأرض المقدسة، حيث تمت تحت هذا الهدف ارتكاب أشنع الجرائم، واستخدام أسوء الأساليب مع قلة الاكتراث بالجوانب الأخلاقية في الحروب. العاصي، محمد سلامة، التوافق التاريخي بين الحركتين الصليبية والصيبيونية، ط ١، عمان، ٢٠١٠م، ص ١٢٢.

(٤) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبدالقادر أحمد ظليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، بغداد، ١٩٦٣م، ص ١٦٠. أبي الفداء، المختصر ج ٣، ص ٦٩. عاشور، سعيد عبدالفتاح، الحركة الصليبية، ج ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م، ج ٢، ص ٦٦٨-٧٢٠.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٠، ص ١٧١، ١٧٥. ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ١١٤.

أبناء أخيه مودود المتوفي سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م) وطلب منه أن يمضي إلى الديوان العزيز، وقال له: "وخذلي أذنأ فإني أعد كل جارحة لما أخاطب به أذنأ، وأمثل ما يصلني من المثال لدفع كل مكروه ركنأ" <sup>(١)</sup>، وكانت الخلافة تقدر هذه الطاعة فتستجيب لطلباته وتصله بالهدايا والخلع. وفي سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) توفي نور الدين محمد بن زنكي في دمشق، وكان له السلطان الأكبر على القلوب؛ تحبه الرعية، ويخافه أعداؤه ويحترمونه؛ حيث وحد كلمة الشام والجزيرة ومصر <sup>(٢)</sup>، فضلاً أن وفاة نور الدين بداية لتبوء صلاح الدين مركز الصدارة في العالم الإسلامي، ووراثه المكانة التي سما إليها نور الدين، وقد شجع الفراغ السياسي والعسكري الذي نشأ بوفاة نور الدين نائبه في مصر على ملء هذا الفراغ خوفاً، على البلاد من الصليبيين الذين كانوا قد تشجعوا بوفاته <sup>(٣)</sup>.

كما أن الخلافة العباسية قد كرمت صلاح الدين على إقامته الخطبة العباسية؛ حيث أرسلت إليه الخلع والتشريفات، فكانت أول خلعة عباسية تدخل مصر بعد انقراض الحكم الفاطمي فيها <sup>(٤)</sup>.

وبعد أن استقرت أمور صلاح الدين، قدم تقريراً إلى الخلافة في رسالة يحملها إلى الديوان الخطيب شمس الدين بن الوزير فصل فيها جهاده وجهاد أسرته في خدمتها وأسباب خروجه إلى الشام وأفضليته على القاعدين فيها <sup>(٥)</sup>، وقد استجابت الخلافة لطلب صلاح الدين فأقرت الوضع الجديد وأنعمت عليه بالسلطنة على مصر والشام، ووصله رسولها في شوال سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م) <sup>(٦)</sup>. وبالرغم من أن صلاح الدين كان يملك قوة عسكرية كبيرة في البر والبحر، فإنه كان بحاجة إلى مساندة الخلافة وتأييدها وتدخّلها في كثير من الأمور التي يراها ضرورية <sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ١٥٤، أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ١١٠-١١١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٩٦. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١٦. القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) الكناني، محمود بن عقلة، أشراف الزمان في تاريخ الأعيان، ط ١، عمان، ٢٠١٠م، ص ٤٨-٤٩.

(٣) القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٢٠. أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٦٦-٦٧. سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٢٢.

(٥) أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٢٢٢، ٢١٩. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٤١-٧٤٢.

(٦) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٢٣٤-٢٣٨. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٤٦.

(٧) أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ١٢٣-١٢٤.

أما الخلافة فقد كان موقفها في هذه الفترة غير واضح من صلاح الدين، وقد يكون ذلك لأن ضعف مركز الخليفة المستضيء وعجزه من وقف الصراع الدائر بين وزيره وصاحب مخزنه جعله يظهر بمظهر من لا يسمع ولا يرى، هذا بالإضافة إلى أن مركز الخلافة ونفوذها على أمراء الأطراف كان ضعيفاً لضعف الخليفة نفسه، إلا أن موقف الخلافة تبدل في السنوات الأخيرة من حكمة؛ إذ وصلت رسلها تحمل كل أسباب الود والعطف الأمر الذي سر له صلاح الدين<sup>(١)</sup>.

كما أن العلاقة بين الخلافة العباسية والأسر الحاكمة من البيت الأيوبي في مصر وبلاد الشام في عهدي الناصر لدين الله ومن بعده الظاهر بأمر الله لم تكن حسنة وإيجابية بالمستوى المطلوب، وإنما كانت علاقة يشوبها الجمود والبرود أحياناً، ولم تصل إلى مستوى التعاون العسكري في الظروف الصعبة من قبل الخلافة وبخاصة عندما تعرض الأيوبيين للخطر الصليبي على دمياط سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م)<sup>(٢)</sup>، وربما يعزى ذلك إلى الهموم والمشكلات الداخلية للخليفة الناصر لدين الله وبخاصة في أيام حكمة الأخيرة، ومن بعده الظاهر بأمر الله الذي لم تتجاوز فترة حكمة سنة حتى مجيء المستنصر بالله سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م).

لكن الخليفة الناصر لدين الله عندما بلغه الخبر، أرسل الرسائل إلى ملوك الشام يطلب منهم الإسراع إلى نجدة الكامل بن العادل في مصر<sup>(٣)</sup>، وقد ترك هذا الموقف أثراً في نفوس الأيوبيين.

ومع ذلك نستطيع القول إنه كان هناك نوع من العلاقات بين الطرفين كالعلاقات الثقافية والعلمية، فنجد أن الخليفة الناصر لدين الله أرسل كتاب (روح العارفين)<sup>(٤)</sup>، إلى الشام مع شهاب الدين أبو حفص السهروردي<sup>(٥)</sup> ليقرأه الظاهر على أمرائه وليسمع في البلاد كلها<sup>(٦)</sup>.

(١) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص ١٢٠-١٢١، ١٣٢-١٣٣، ج٢، ص ٦.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢١٢-٢١٣.

(٤) القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٩م)، أخبار العلماء بأخبار

الحكماء. عني بتصحيحه محمد أمين، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٦هـ، ص ١٧٧.

(٥) أبو حفص السهروردي: كان فقيهاً، فيلسوفاً، ساحراً، بارعاً في علوم الأوائل، تونس في سنة ٥٧٨هـ. ابن

الوردى، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٣٧. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٢١٣-٢١٤.

(٦) ابن القفطي، أخبار العلماء، ص ١٧٧. أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص ١٤٣-١٤٤. ابن الفرات،

ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) تاريخ ابن الفرات، بغداد، تحقيق حسن الشماح،

١٩٧٠م، مج ٥، ج١، ص ١٦٧-١٦٨.

وكذلك احتلت الخلافة في نفوس الأيوبيين مكانة كبيرة، وكانت كلمتها نافذة، ومن شدة

احترامهم للخليفة الناصر لدين الله، أنه إذا ذكر في مجالسهم خفضوا أصواتهم هيبية وإجلالاً<sup>(١)</sup>، بل إن الملك الظاهر كان إذا ذكر اسم الخليفة في مجلسه يقف احتراماً<sup>(٢)</sup>.

وكانت رسل العادل إلى ديوان الخلافة لا تنقطع حاملة الهدايا، فتقابل بالترحاب والتقدير، وكان شفاعة الخليفة عندهم مقبولة<sup>(٣)</sup>.

فبعد وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله وخلافة المستنصر سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) جاءت وفود الأيوبيين تقدم التعزية بالظاهر والتهنئة بالمستنصر، فبعث الكامل في تلك المناسبة رسالة حملها معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية<sup>(٤)</sup> نيابة عنه، ولما وصل إلى بغداد وصار بين يدي نائب الوزارة مؤيد الدين ابن القمي قدم نيابة عن الكامل عبارات الولاء الكبيرة<sup>(٥)</sup>.

وبقيت العلاقة بين الخلافة العباسية والأيوبيين حتى سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) قائمة على الاحترام والمودة وتبادل الوفود والزيارات والخلع والهدايا، بالإضافة إلى ذكر الأيوبيين اسم الخليفة وألقابه على نفودهم<sup>(٦)</sup>.

ويمكن إن نقول أن فترة الخليفة المستنصر بالله لم تقل أهمية عن سبقها، وإن دور الخلافة كان واضحاً وامتجلاً في عدد من الحوادث التاريخية، وحيث إن رأي الخلافة متمثلة بالمستنصر بالله كان فيصلاً في عدد من الحوادث؛ إذ إن الصالح أيوب أبعد ابنه تورانشاه إلى

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٦٠.

(٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ١٦٨.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٥٨١. ابن الساعي، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، ١٩٤٣م، ج ٩، ص ٢٥٩.

(٤) ابن حموية: هو يوسف بن محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حموية، عاش في الفترة (٥٨٢هـ/١١٨٦م-٦٤٧هـ/١٢٥٠م)، وكان من الأدياء من أسرة أصلها من نيسابور. ابن الأثير، الكامل ج ١٢، ص ١٦٤. الذهبي، دول الإسلام ج ٢، ص ١١٤، ابن عماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٣٨.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٣٤٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤١. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٠١٠-١٠١١.

(٦) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٦٨٠. ابن العبري، تاريخ مختصر للدول، ص ٢٢٦ - ٢٢٨. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٨٧. ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج ٤، ق ٣، ص ٩٩، ٥٠٣-٥٠٤. الذهبي، مختصر تاريخ الإسلام، ص ٢٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، ص ١٥٣-١٥٤. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٢٤٢. المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٣٦٧.

حصن كيفاً لعدم صلاحيته للحكم فلم يعهد له بها، بل أوصى أن تسلم البلاد إلى الخليفة بعد وفاته<sup>(١)</sup>. وهذا دليل على قوة العلاقة التي كانت بينه وبين الخلافة العباسية.

ففي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) بعث المستعصم بالله خلع السلطنة والتقليد بمصر والشام وما معهما للملك الصالح نجم الدين أيوب<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) عقد صلح بين السلطان الصالح أيوب والملك الناصر يوسف في بغداد بحضور الخليفة العباسي المستعصم بالله، وكان قد خرجت عساكر الملك الناصر يوسف صاحب حلب بقيادة شمس الدين لؤلؤ والملك الصالح إسماعيل لأخذ حمص، التي كان صاحبها الملك المنصور قد توفي، وصارت في ولاية ابنه الأشرف، وقام الأشرف بتسليم حمص للناصر يوسف الذي منحه تل باشر عوضاً عنها، فذهب الصالح أيوب إلى دمشق فأرسل الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلى حمص فحاصرها ورمأها بالمنجنيق، ولكن بعد الصلح الذي حصل رحل فخر الدين عنها<sup>(٣)</sup>.

وبعد انتقال الحكم إلى المماليك في مصر سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) نجدهم قد تخطوا في حكم البلاد أول الأمر، بعد أن أصبحوا أصحاب الكلمة فيها. ثم أقاموا أرملة سيدهم الصالح أيوب شجر الدر<sup>(٤)</sup> حاكمة على البلاد لتحمل اسم "المستعصميه الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين"<sup>(٥)</sup>، وعندما أحس باستنكار الخليفة المستعصم بالله لحكم النساء، على الرغم من إظهارها الخضوع لسلطة الخليفة المستعصم بالله في الدعاء له على المنابر، وضربها السكة، وعليها اسم الخليفة<sup>(٦)</sup>، وكان المستعصم بالله قد عرض عليهم إرسال "رجل

(١) المقرئزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٤٢. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، طبعة ١٩٣٦م، ج٦، ص ٢٨٨-٢٩١، ٣٣٠-٣٣١.

(٢) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤. الدواداري، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٦.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث، ص ٢٠١. المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٥١٤-٥١٥.

(٤) شجر الدر: كانت تركية الجنس، وقيل أرمنية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحظيت عنده بحيث كان لا يقارقتها، وولدت منه ابناً اسمه خليل، مات وهو صغير، وهي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك. المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٤٥٩.

(٥) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٦٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٠-١٧١. المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٣٦١-٣٦٢. عاشور، سعيد عبدالفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٢-١٣.

(٦) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٦٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٠-١٧١. المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٤٦٣-٤٦٤. عاشور، العصر المماليكي، ص ١٢-١٣.

يتولى الحكم إن كانت الرجال قد عدت عندكم " (١)، اضطروا إلى إقامة مدير العسكر وقائده الأتابك عز الدين أيبك أحد المماليك الصالحية ملكاً على البلاد وزوجاً لشجر الدر التي كانت قد انفردت بحكم البلاد زهاء ثمانين يوماً (٢)، ثم نجد المماليك قرروا تحمل المسؤولية وحدهم فأعلنوا في القاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم بالله وأن الملك المعز عز الدين أيبك نائبه بها، وذلك في يوم الأحد ٦ جمادى الآخرة سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) (٣)، وهذا دليل على نفوذ الخليفة المستعصم بالله على الرغم من عدم وقوع المنطقة في دائرة حكمة المباشر.

كما أن الخلافة بقيادة الخليفة المستعصم بالله كانت دائماً تتدخل من أجل إصلاح ذات البين وتحسين العلاقات، فنجد أن الأمراء الأيوبيون سعوا إلى استرجاع مصر فحزموا أمرهم وزحفوا بقيادة الملك الناصر يوسف صاحب الشام، ولكنهم فشلوا أمام مماليكهم في المعركة وسقط بعضهم أسيراً، بينما هرب الناصر ناجياً بنفسه إلى الشام، عند ذلك تدخلت الخلافة في سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، وأرسلت رسوله نجم الدين البادرائي الذي استطاع أن يوقع الصلح بينهما (٤)، إلا أن هذا الصلح لم يستمر طويلاً؛ إذ عاد الخلاف ثانية بسبب هروب بعض المماليك البحرية إلى الشام بعد أن استبد المعز بالحكم وقتل زعيمهم أقطاي، فالتجؤوا إلى الملك الناصر صلاح الدين يشجعونه على معاودة التفكير في استرجاع مصر، عندما تدخل الخليفة المستعصم بالله ثانية وأمر رسوله الشيخ نجم الدين البادرائي أن يبثي الملك الناصر عن قصد مصر بعد أن كانت جيوشه قد وصلت إلى غزة، فأجاب إلى الصلح الذي تم سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) (٥).

- 
- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٧. المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٤٦٣. ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٥م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، المكتبة الفلكية العلمية، بيروت، ١٩٦٠م، ج١، ق ١، ص ٨٩.
- (٢) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٤٦٣. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٣٣٠. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٥. عاشور، العصر المماليكي، ص ١٦.
- (٣) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٦٥-٢٦٦. المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٤٦٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٥. ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٢٨٦.
- (٤) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٢٢٥-٢٢٦. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٧٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٥. المقرئزي، السلوك، ج١، ق ١، ص ٣٨٤-٣٨٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٣. العبادي، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١٢١-١٢٢.
- (٥) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ١٢. المقرئزي، السلوك، ج١، ق ١، ص ٣٩٨-٣٩٩. العبادي، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٢٢.



وعندما وصلت رسلي الطرفين إلى الخليفة تلتبس الخلع كالعادة لم يستطع أن يمنح الاثنين في وقت واحد، فاكتمى بالإنعام على رسول المعز بينما أعطى سكينه خاصة لابن العديم رسول الملك الناصر علامة على أن له خلة عند الخليفة، وقد أرسلها فعلاً بعد سنة من هذا التاريخ<sup>(١)</sup>.

وكانت الدولة الأيوبية لا تتوانى لحظة واحدة عن تقديم المساعدات للخلافة العباسية إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فبالرغم مما جرى بين الملك الناصر داود والمستعصم بالله - بخصوص الوديعة - فإنّ الناصر داود بقي على ولائه للخلافة، فعندما زحفت جيوش المغول على بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وطلب المستعصم بالله المساعدة من أمراء الأطراف، نجد الناصر داود قد تحمس للمساعدة حيث خرج وأقام بالبويضاء<sup>(٢)</sup>، استعداداً للسفر، ولكن الأخبار جاءت به بأن المغول تمكنوا من بغداد، وأن المستعصم بالله فرّ من وجه المغول، فأراد اللحاق به والاستنصار له فقال: " إن له في عنقي بيعة "، وبقي الناصر داود مرابطاً مستعداً للجهاد، حتى توفي بالطاعون سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(٣)</sup>.

ونجد أن السكة ضربت في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي وعليها اسم الخليفة المستعصم بالله باعتباره أميراً للمؤمنين، ففي سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) ضرب دينار في القاهرة في فترة السلطان عز الدين أيك<sup>(٤)</sup>.

وأيضاً في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وصل من الخليفة، الطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف بن العزيز<sup>(٥)</sup>.

على أن نهاية الخلافة العباسية ببغداد كانت نهاية للأيوبيين بالشام؛ إذ إن الذعر الذي سيطر عليهم جعل بعضهم يفر أمام المغول من غير قتال، كما فعل الملك الناصر نفسه والملك المنصور صاحب حماة، بينما استسلم بعضهم الآخر للمغول، كالأشرف موسى والملك السعيد، وساروا تحت لوائهم لمقاتلة إخوانهم<sup>(٦)</sup>.

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ١٢-٥٢. المقرئزي، السلوك، ج١، ق١، ص ٣٩٩، ٤٠٨.

(٢) البويضاء: قرية قبلي دمشق، كانت لعم الناصر داود مجير الدين ابن العادل، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، م١، ص١٧٤. غوانمة، يوسف، إمارة الكرك الأيوبية، منشورات بلدية الكرك، الكرك، ١٩٨٠م، ص٢٧٩.

(٣) ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، ١١ ج، حققه وقدم له سهيل زكار، د.ت. دمشق، ١٩٨٨م، ج٧، ص ٣٤٥.

(٤) إسماعيل، غالب، تقويم مسكوكات سلجوقية، معهد الدراسات التاريخية، أنقرة، ١٩٧١م، ص ٩٨.

(٥) ابن الوردي. تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٨٦.

(٦) عاشور، العصر المماليكي، ص٢٨-٢٩؛ الحركة الصليبية، ج٢، ص١١١٨-١١٢٥، ١١٢٨-١١٢٨.

أما في مصر، فقد ذهب المعز ضحيةً غيرة زوجته شجر الدر وطمعها في السلطة سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، بينما لم يقدر ابنه الطفل على مقاومة دسائس الطامعين في الملك من زعماء المماليك، فتتحي عن الحكم للمظفر قطز الذي قاد المماليك للدفاع عن البلاد، واستطاع وقف زحف المغول في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) واسترجاع الشام وإنقاذها من حكمهم<sup>(١)</sup>.

وتبين لنا من الأخبار السابقة متابعة المستعصم بالله لأحوال المسلمين وسعيه إلى الإصلاح بين حكام المناطق، وانصياع أولئك الحكام لحكمه، ولا شك في أن ذلك الموقف يعد من المواقف الجليلة للمستعصم بالله؛ حيث تمكن رسوله من حقن الدماء بين المسلمين ووقف النزاع بين الحاكمين.

#### ٤- علاقة الخلافة بإمارة الموصل:

كانت إمارة الموصل من الأتابكيات<sup>(٢)</sup> التابعة للخلافة العباسية زمن الخليفة الناصر لدين الله<sup>(٣)</sup>، وقد استمرت في ولائها كذلك زمن المستنصر بالله، وبخاصة في عهد بدر الدين لؤلؤ<sup>(٤)</sup> الذي سار على سياسة خارجية واضحة المعالم مع الخلفاء العباسيين الأربعة المتأخرين، كما أنه طور هذه العلاقة بعد أن أصبح ملكاً مستقلاً بعد وفاة آخر ملك أتابكي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م)<sup>(٥)</sup>، وذلك نتيجة شجاعته ودهائه وتدبيره<sup>(٦)</sup>، مما جعل الخليفة المستنصر

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٤٤. عاشور، العصر المماليكي، ص ٢١-٢٥، ٣١-٣٥؛ الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٣٣-١١٣٧.

(٢) الأتابكية: كلمة مشتقة من أتابك وهو لفظ تركي مركب من مقطعين (أتا) ومعناه (أب) و(بك) ومعناه (أمير)، فهي بذلك تعني (الوالد الأمير) وكان هذا اللقب يطلق على من يتولى تربية أولاد السلاطين السلاجقة لحدائه سنهم، وأول من تلقب به الوزير (نظام الملك)، وذلك منذ أن فوض إليه السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان تدبير المملكة سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م). الجميلي رشيد، دولة الأتابكية في الموصل بعد عماد الدين زنكي (٥٢١-٦٣١هـ)، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٧. الباشا، حسن، الانقلاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ١٢٢-١٢٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ٤٦٠.

(٤) بدر الدين لؤلؤ: هو المولى الأمير الأسفهلار الكبير العادل، الكامل الأسعد الملقب بدر الدين لؤلؤ عضد الإسلام وسيد الأمراء حسام أمير المؤمنين، صاحب الموصل (٥٨٩-٦٠٧هـ/١١٩٣-١٢١٠). سوادي، عبد محمد الرويشدي، إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ، ط١، مطبعة الرشاد، بغداد، ١٩٧١م، ص ٢٤-٢٥.

(٥) أبو شامة، الروضتين، ص ١١٤. سوادي، إمارة الموصل، ص ٢٧.

(٦) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٢٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٩.

بأنه يعلن موافقته على توليته حكم إمارة الموصل سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) وأذن له أن يذكر اسمه على منابر إمارته وينقش اسمه على سكتة ويلقب بـ " الملك المسعود " (١).

أما عن العلاقة بالخلافة العباسية، فمن الملاحظ من خلال الأحداث أن بدر الدين لؤلؤ نجح في كسب ود الخلفاء العباسيين الناصر ومن بعده، وأفاد بدر الدين لؤلؤ من هذه العلاقة بالحصول على نتائج إيجابية له ولبلاده (٢).

وكان أتابكة الموصل يقرون السيادة العليا للخليفة العباسي وبأنه يمثل أعلى سلطة دينية في العالم الإسلامي، فتنصيب أتابك جديد لا بد أن يقترن بموافقة الخليفة العباسي (٣).

وفي يوم ٨ جمادى الآخرة سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) أرسل بدر الدين لؤلؤ ابنه ركن الدين إسماعيل ممثلاً رسمياً له إلى بغداد لتقديم التعازي بوفاة المستنصر بالله مهناً بخلافة المستنصر بالله، فوصل إلى بغداد مرتدياً ثياب الحداد فاستقبله الأمراء وعارض الجيش خارج بغداد باحتفال مهيب، فقبل عتبه باب النوبي (٤)، ودخل دار الوزارة وأدى مراسيم العزاء والتهنئة ثم توجه إلى دار خصصت لإقامته في بغداد (٥).

وكذلك في ١٤ جمادى الآخرة سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) بعث بدر الدين لؤلؤ رسولاً آخر إلى بغداد ومعه تعزية وتهنئة للمستنصر بالله وهدية تتضمن ثوبين أطلس وألف دينار (٦).

كما قيل إن بدر الدين لؤلؤ أهدى إلى مؤيد الدين محمد بن العلقمي وزير المستنصر بالله هدية تشتمل على كتب وثياب ولطائف قيمتها عشرة آلاف دينار، وقد حملها الوزير إلى الخليفة المستنصر بالله، وأخبره أن صاحب الموصل قدم إليه هذه الهدايا، فلم يمانع المستنصر بالله في قبولها (٧).

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٨. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٥٢. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٥٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م، ج٤، ص ١٩٨-٢٠٠. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٣٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ١٣٧.

(٤) باب النوبي، باب كبير من أبواب دار الخلافة في بغداد الشرقية، وقيل له باب العنبة؛ لأن الملوك والأمراء يقبلونها عند دخولهم دار الخلافة، ابن المعمار، أبو عبدالله محمد بن أبي المكارم (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، كتاب الفتوة، ط١، تحقيق مصطفى جواد وآخرون، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٥٨م، ص ٥٩.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٥.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٥.

(٧) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٨.

غير أن هذه العلاقات أصبح يشوبها الجفاء والفئور وخاصة بعد أن هدد الانحلال السياسي مملكة الخليفة وكان المغول يؤلفون أعظم خطر يتهدد سلامة جميع البلدان الإسلامية. وخاصة الخليفة المستعصم بالله لم يكن على استعداد تام للدفاع عن الخلافة (١).

ويذكر أن ابن العلقمي وزير الخليفة المستعصم بالله طلب إلى بدر الدين لؤلؤ ألا يهدي إليه شيئاً، ولعل الخليفة هو الذي أوعز إلى وزيره بذلك (٢)، وقد وصلت العلاقات إلى حد راح معه بدر الدين لؤلؤ يرأسل الخليفة المستعصم بالله سراً ويحذره من الخطر المغولي، ويسدي النصح للخليفة بالاستعداد العسكري لمواجهة هذا الخطر الذي أخذ يتعاظم (٣).

ونجد أن بدر الدين لؤلؤ قد دخل في طاعة المغول بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، كما أمدهم بالسلاح، وكان بدر الدين لؤلؤ قد توجه إلى هولاءكو بناء على أمره فشملة بالإعزاز والتكريم لكبر سنه وأقره على ولاية الموصل (٤)، ولكن بدر الدين لؤلؤ مرض بعد عودته إلى الموصل ومات سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)؛ حيث كان عمره ثمانين سنة، وقد فوض هولاءكو ولاية الموصل إلى ابن بدر الدين لؤلؤ الملك الصالح إسماعيل (٥)، الذي أعلن الثورة على المغول (٦).

#### ٥ - علاقة الخلافة مع سلاجقة الروم:

كان الموطن الأصلي للسلاجقة في بلاد تركستان (٧)، وهم من قبائل الغز (٨) وقيل في ابتداء أمرهم إنهم أخلاط من الترك، كانوا يصيفون في بلاد البلغار (٩)، ويشتون في

(١) خصباك، جعفر حسين، العراق في عهد المغول الأيلخانيين (٦٥٦-٧٣٦هـ)، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٨م، ص ١٦-٢٥.

(٢) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٣٠٠-٣٠١. سوادي، إمارة الموصل، ص ٦٥-٦٦.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٥.

(٤) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٧. الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٣٢٧.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٧، ٣٤٧.

(٧) الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (ت ٥٧٥هـ/١١٨٠م)، كتاب أخبار الدولة السلجوقية، عني بتصحيحه محمد إقبال، مراجعة لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٢. البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، تاريخ دول آل سلجوق، ط ٢، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٧، المقريري، السلوك، ج ١، ص ١٣٦.

(٨) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢٣٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٢٦٧.

(٩) بلغار: بالضم والعين مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال شديدة البروده، لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفاً ولا شتاءً. ياقوت الحموي. معجم البلدان، مج ١، ص ٤٨٥.

تركستان<sup>(١)</sup>. ويُنهبون ما طرفوه<sup>(٢)</sup>. وترجع تسميتهم إلى سلجوق بن دقاق جدّهم المؤسس، الذي طغى اسمه عليهم فأصبحوا يعرفون باسم السلاجقة<sup>(٣)</sup>، وبهم زالت دولة بني بويه عن بغداد وأعمال الخلافة<sup>(٤)</sup>.

وبسبب ازدحام ديار السلاجقة وضيق مراعيهم<sup>(٥)</sup>، تحركوا من تركستان إلى بلاد ما وراء النهر؛ حيث استقروا في الشتاء في نور بخارى وفي الصيف في صغد سمرقند<sup>(٦)</sup>. وقد استند السلاجقة في موطنهم الجديد إلى قوتهم، إلا أنهم وثقوا علاقتهم مع السامانيين؛ للتقارب المذهبي باعتبارهم مسلمين سنة، ولدورهم في الدفاع عن الأراضي الإسلامية من غارات الأتراك الوثنيين<sup>(٧)</sup>.

ونستطيع القول إن الفضل يعود إلى الخليفة الناصر لدين الله سنة (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م) في إنهاء النفوذ السلجوقي<sup>(٨)</sup> في العراق سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م)، وكما أنه أعاد نفوذ الخلافة السياسي والإداري على الأقاليم التي اغتصبها السلاجقة في فترة الضعف والانحلال، وذلك عندما ضرب خوارزمشاه تكش زعيم الخوارزمية بطغرل الثالث سلطان

- (١) تركستان: هو اسم جامع لجميع بلاد الترك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٢٣.
- (٢) المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ١٣٦. أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ٢٣٤-٢٣٥.
- (٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢٣٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٢٦٩. بارتولد، فلاديمير، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨١م، ص ٣٩٣.
- (٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤١٧.
- (٥) الرواندي، محمد بن علي بن سليمان (ت ٦٠١هـ/١٢٠٤م)، راحة الصدور وأية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله من الفارسية أمين الشواربي وعبدالنعم محمد حسنين وفؤاد عبدالمعطي الصياد، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٤٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٦٤. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٩٢.
- (٦) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٢. البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ق ٢، ص ٧. الرواندي، راحة الصدور، ص ١٤٥.
- (٧) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٩٢. المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٣١. براون، أدوارد، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة إبراهيم الشواربي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ١٢٠.
- (٨) تعتبر دولة السلاجقة من أكثر الدول الإسلامية التي كانت تعاني من انقساماتها الداخلية، وفرضت من ثم تبعات هذا الانقسام على مناطق الشرق الإسلامي بما حل عليها من ضعف وتفكك، وغدّ المؤرخون أن نهاية حكم السلطان ملكشاه هي بداية ظهور الإنقسام والصراع الداخلي، لذا فإن فترة الوحدة لم تكن طويلة، فتحي، أبو يوسف، الدولة العباسية والمشرق الإسلامي، ط ١، دار المؤيد، الرياض، ٢٠٠٧م، ص ٣٣٩.

السلاجقة واشتبك الطرفان في معركة كانت نتيجتها نهاية النفوذ السلجوقي بالعراق، ثم تصدى للخوارزمية الذين عدوا أنفسهم الورثة الشرعيين للسلاجقة، فمنعهم من تحقيق أهدافهم وهددهم بالغوريين وغيرهم من أمراء المشرق، فكانت لعبة سياسية عسكرية دقيقة نجح فيها الناصر، كما أن الناصر لم يدخر وسعاً في استغلال صراعات السلاجقة في ما بينهم أو السلاجقة والخوارزمية وأمد بعضهم بقوات عسكرية ضد بعضهم الآخر، ففي سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) جاء رسول من طرف طغرل الثالث يطلب من الخليفة الناصر بالله أن يقوم الديوان بعمارة دار السلطنة<sup>(١)</sup>، ليسكنها إذا وصل بغداد، لكن رد الخليفة كان صارماً. بهدم " دار السلطنة " (٢)؛ في بغداد وهي رمز الهيمنة السلجوقية سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)؛ حيث لم يجرؤ أحد من الخلفاء على ذلك قبله، ورغم أن عدداً من خلفاء بني العباس تصدوا للسلاجقة وتحذوا نفوذهم مثل المسترشد والراشد والمقتفي، لكن إجراءات الناصر كانت أكثر دقة وتأثيراً<sup>(٣)</sup>.

إن سلاجقة الروم<sup>(٤)</sup> فرع من السلاجقة الذين ينتسبون إلى جدهم الأعلى سلجوق بن دقاق أحد زعماء الأتراك الذين سكنوا بلاد ما وراء النهر قرب بخارى، وكانوا يتصفون بالخشونة وغلظ العيش وصعوبة المراس وعدم الانقياد لسلطة سلطان، وإذا قصدهم عدو وليس لديهم قدرة على قتاله يختفون ويتخذون ويتحصنون بالرمال والتلال حتى لا يصل إليهم عدوهم<sup>(٥)</sup>، إلا إنهم مع ذلك أصبح لهم في ما بعد شأن عظيم في التاريخ وأسسوا إمبراطورية كبيرة سيطرت على آسيا الصغرى وبلاد الشام وإيران فضلاً عن الخلافة العباسية في بغداد<sup>(٦)</sup>.

تعرض السلاجقة في بلاد الروم لبعض المتاعب نتيجة الصحوّة السياسية والعسكرية التي صارت إليها أحوال الإمبراطورية البيزنطية باعتراف الإمبراطور اليكسيوس كوفينوس سنة (٤٧٣هـ/١٠٨١م)<sup>(٧)</sup>. كما أن السلاجقة؛ سلاجقة الروم اقموا أنفسهم في صراعات مع أبناء

(١) دار السلطنة: هي الدار التي كان يقيم بها سلاطين السلاجقة في بغداد وتقع في محلة المحزم، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ٧١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ٥٦٠.

(٣) فوزي، الخلافة العباسية (السقوط والانهايار)، ج٢، ص ٢٠٣.

(٤) يُعدّ سليمان بن قنلمش المؤسس الحقيقي لهذا الفرع، أحمد، كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٥م، ص ٣٩.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ٦٣-٦٤. البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٧-١١. حسنين، عبدالنعيم محمد، سلاجقة إيران والعراق، ط٢، مطبعة السعادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١٦-١٧.

(٦) فتحي أبو يوسف، الدولة العباسية والمشرق الإسلامي، ص ٣٤٠-٣٤١.

(٧) Runciman, A history of the crusades, At the university press, 1988, V.1. p.p. 73.

عمومهم سلاجقة العراق، وكان ذلك زمن السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه سنة (٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٤-١١١٧م)، ورغم أن سلاجقة الروم هُزموا في سنة (٥٠٠هـ/١١٠٧م) فإن النزاع بين الجانبين استمر ولم يتوقف<sup>(١)</sup>.

إن الخلافة العباسية لم تستطع القيام بأي دور فعال في الدفاع عن مدن الشام والجزيرة التي أخذت تتهاجر واحدة تلو الأخرى تحت ضربات الصليبيين<sup>(٢)</sup>، على أن هذا لا يعني بقاء الخلافة العباسية في موقع المتفرج من الأحداث التي كانت تجري، بل أنها قامت بإحالة طلبات الاستغاثة التي كانت تجيئها نتيجة استتجاد المسلمين بها ضد الصليبيين إلى السلطان السلجوقي<sup>(٣)</sup>.

والسلاجقة لهم أفرع كثيرة إلا إنها جميعاً انقرضت قبل عصر الخليفة المستعصم بالله، ولم يبقَ منها سوى سلاجقة الروم<sup>(٤)</sup> الذين عاصره زمن حكم علاء الدين كيقباز الأول سنة (٦٢٠هـ/١٢٢٢م-٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، الذي مد نفوذه بسيطرته على بلاد أرمينية الصغرى، وفتح لقلع كثيرة من بلاد الكرج والأنجاز؛ حيث اتسعت البلاد في عهده اتساعاً كبيراً. أما والدة غياث الدين كيخسرو الثاني سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م-٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، فقد كانت السلطنة السلجوقية تحيا أعلى سلطاتها العسكرية وامتدادها الجغرافي، وقد اختلفت رقعة البلاد التي حكمها سلاجقة الروم باختلاف الأزمنة والظروف<sup>(٥)</sup>.

- (١) ابن الأثير، تاريخ الباهر، ص ١٠١؛ الكامل، ج ١٠، ص ١٣٧. ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميمي الموصلية (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، سيرة صلاح الدين الأيوبي المسمي بالنوانر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفكر، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٨٩.
- (٢) الغامدي، مسفر بن سالم، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر (٤٩١-٥٦٩هـ/١٠٩٧-١١٧٣م)، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ١٩٨٦م، ص ١٠٥، ١٠٦.
- (٣) خرج أهل الشام وبيت المقدس إلى بغداد على إثر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لشرح الموقف للخليفة العباسي المستظهر بالله، فعرض الأمر على السلطان بركياروق ابن ملكشاه، فلم يعمل على دفع الخطر ولا حتى إرسال تجدة إلى الشام، ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٤.
- (٤) نسبت بلاد الروم إلى الروم لأنها كانت بلادهم في القديم، ولما فتحها المسلمون ظلت تحت سلطانهم، حتى ورثها السلاجقة الأتراك فنسبوا إليها، وأطلق عليهم (سلاجقة الروم) وبعد سقوط سلطنتهم عرفت المنطقة باسم بلاد الأتراك أو الدربندات. ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى بن شهاب الدين (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبي، الأردن، ١٩٩٢م، ص ٥١. ابن بطوطة، محمد بن عبدالله أبو عبدالله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجاب الأسفار، المسمى برحلة ابن بطوطة، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب الأكاديمية، زمير، ٢٠٠٠م، ص ١.
- (٥) القرمانلي، محمد بن يوسف أحمد الدمشقي، أبو العباس (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م)، آثار الأول وأخبار الدول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبّي، القاهرة، د.ت، ص ٢٩٣. كوبرلي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٥م، مج ١٨، ص ٩٥٦. سلمان، تاريخ الدولة الإسلامية، ص ٦٥-٦٦، ٩٤. حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ٤، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٧م، ج ٤، ص ٨٩-٩٠.

وأما عن العلاقة بينهم وبين الخلافة في زمن المستعصم بالله فإنها لم تكن علاقة واضحة للعيان، فضلاً عن عدم توافر المصادر حولها، كما أن معرفة تاريخ السلاجقة الروم يزداد غموضاً بعد وفاة السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، وما بعدها، ولعل غموض هذه المرحلة من حكم سلاجقة الروم يعود إلى أن النقود التي ضربوها منذ تولي السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني عرش السلطان سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) جاءت تواريخها مضروبة بالخط الديواني؛ وهو حروف ترمز إلى أرقام معينه تصعب قراءتها لأول وهلة، بعد أن كان التاريخ يدون بالحروف العربية<sup>(١)</sup>. إلا أننا من خلال تحليل الأحداث التاريخية بينهم وبين الخلافة العباسية في زمن المستعصم بالله نستطيع أن نحدد طبيعة العلاقة بين الطرفين، وذلك من خلال المراسلات التي كانت تتم بين الطرفين ففي سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) أرسل الخليفة محيي الدين يوسف بن الجوزي رسولاً إلى سلطانهم كيخسرو بن كيقباز<sup>(٢)</sup>.

كما أن الخليفة المستعصم بالله أرسل إلى السلطان غياث الدين كيخسرو يطالبه بوقف الحرب مع الأرتاقه في ميفارقين، والتوجه بقواته لمحاربة جيوش المغول التي غدت تهدد أمن العباسيين<sup>(٣)</sup>.

وهكذا استطاع غياث الدين كيخسرو الثاني بسط سيطرته رغم ظهور المغول على سمسياط وديار بكر وميا فارفين، وأدخل في طاعته بعض الأمراء المجاورين، وأرغم الأيوبيين في حلب على الاعتراف بسطاته<sup>(٤)</sup>.

ويمكننا هنا أن نستنتج دليلاً آخر فضلاً عما ذكر على حسن العلاقة والولاء للخلافة من قبل سلاجقة الروم، وذلك من خلال ذكر اسم الخليفة المستعصم بالله وألقابه على نقودهم ومن بعده المستعصم بالله<sup>(٥)</sup>، كذلك حتى بعد تغيير الظروف واحتلال المغول بغداد؛ حيث ظل اسمه يضرب على النقود<sup>(٦)</sup> الفضية لأحد سلاطين سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ركن الدين

(١) الربيدي، فاطمة يحيى زكريا، سلطنة سلاجقة الروم في الأناضول منذ الغزو المغولي وحتى سقوطها (٦٤٠-٧٠٨هـ/١٢٤٢-١٣٠٨م)، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، ٢٠٠٤م، ص ١.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨٥٠.

(٣) منجم باشي، أحمد بن لطف الله (ت ١١١٣هـ/١٧٠٢م). جامع الدول، الجلد الثاني، تحقيق علي اونكول، نشریات دار الكتب الأكاديمية، إزمير، ٢٠٠٠م، ص ٧٦-٧٧.

(٤) كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ص ٦٧.

(٥) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٣٣٣. الحسيني، محمد باقر، تطور النقود العربية الإسلامية، مطبعة دار الجاحظ، بغداد، ١٩٦٩م، ص ٥٩-٦٠.

(٦) والشيء نفسه يقال بالنسبة للسلطان غياث الدين بلبان، سلطان دولة المماليك في دلهي بالهند الذي ظل ينقش اسم الخليفة المستعصم بالله على نقوده ويذكر اسمه في الخطبة على المنابر طوال عهده (٦٦٣هـ/١٢٦٥م - ٦٨٥هـ/١٢٨٧م)، Arnold Thomas w, The caliphate. p, 87.



إسماعيل قلع أرسلان الرابع (٦٥٥هـ/١٢٥٧م-٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وذلك من أجل الاحتفاظ بشرعية حقهم في الحكم<sup>(١)</sup>.

## ٦- علاقة الخلافة بالدولة الخوارزمية:

بدأت العلاقات السياسية بين الخلافة العباسية والخوارزميين لأول مرة في عهد الخليفة المسترشد بالله (٥١٣-٥٢٩هـ/١١١٩-١١٣٤م) عندما بعث هذا الخليفة في سنة (٥٢٨هـ/١١٣٣م) خلعاً إلى خوارزم شاه أئسز بن محمد ابن انوشكين<sup>(٢)</sup>، ويدل إرسال هذه الخلع على رغبة الخليفة المسترشد بالله في إقامة علاقة ودية مع الخوارزميين وإن كانوا لم يستقلوا بعد عن السلاجقة، في هذا التاريخ، ويحتل أن الخليفة المسترشد بالله الذي كان يعمل على التخلص من السلاجقة، أراد أن يستغل قوة الخوارزميين في مناهضتهم، وربما يُعدّ إرساله الخلع لخوارزم شاه أئسز تشجيعاً له على التمرد ضد السلطان سنجر السلجوقي<sup>(٣)</sup>، وقد شهد النصف الأول من القرن السادس الهجري صراعاً عنيفاً بين الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة، بسبب رغبة الخلفاء في التخلص من السيطرة السلجوقية، وقد ذهب ضحية ذلك الصراع كل من الخليفة المسترشد بالله، وابنه الخليفة الراشد بالله<sup>(٤)</sup>.

ونجد أن الخليفة الناصر لدين الله، استعان بالخوارزميين في القضاء على السلطان طغرل السلجوقي<sup>(٥)</sup>، فسار خوارزم علاء الدين تكش بجيشة للقاء طغرل وانتهى الأمر بقتل الأخير في سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م)، فسر الخليفة الناصر لدين الله بذلك وسير الخلع السلطانية إلى خوارزم شاه تكش مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب<sup>(٦)</sup>، بعدما اعتقد الناصر لدين الله أن مصلحة الخلافة العباسية اتفقت مع مصلحة الخوارزميين في القضاء على نفوذ السلاجقة، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً؛ إذ سرعان ما تكشفت له الحقيقة، وهي أن للخوارزميين مطامع، وأنهم لا يقلون خطراً على الخلافة من السلاجقة؛ حيث أخذ حكام الدولة الخوارزمية يطلبون إقامة الخطبة لهم في بغداد وذكر أسمائهم إلى جانب اسم الخليفة، فاشتد الخلاف بين الخلافة العباسية والخوارزميين، وبقيت العلاقة في عهد الناصر لدين الله مع الخوارزميين متأرجحة تارة تسوء

(١) الحسيني، تطور النقود، ص ٥٩-٦٠.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٠، ص ٣٥.

(٣) ابن دحية، النبراس، ص ١٥١. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٣٣.

(٤) العبود، نافع توفيق، الدولة الخوارزمية، ط ١، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٨م، ص ٧١.

(٥) صبري سليم، الأتراك الخوارزميون في الشرق الأدنى الإسلامي (٦٢٨-٦٤٤هـ)، مكتبة الثقافة الدينية،

القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢١.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ١٠٨.

وتارة تتحسن تبعاً للظروف التاريخية<sup>(١)</sup> والشيء نفسه يقال لمن جاء بعده من الخلفاء، فهذا الخليفة الظاهر بأمر الله سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) أراد أن يضع حداً للعلاقات العدائية بين الخلافة العباسية والخورازميين؛ حيث ارتأى مصالحة السلطان جلال الدين، وقد وافق السلطان على الصلح، وتبادلا الوفود والخلع والهدايا، وحاولا حل الخلافات وتجاوز المشكلات بينهما لمصلحة الطرفين، إلا أن وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله قد تغير نية السلطان<sup>(٢)</sup>، فعادت الخلافات في عهد الخليفة المستنصر بالله إلى التدهور من جديد بعد أن تحسنت فترة قصيرة في عهد الخليفة الظاهر بأمر الله؛ حيث كان المستنصر بالله سنة (٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٥-١٢٤٢م) غير واثق من جلال الدين ونواياه إزاء الخلافة، ولذلك حاول أن يستخدم كل الوسائل التي من شأنها إضعافه والحد من قوته، ومن هذه الوسائل؛ مساعدة أخيه غياث الدين الذي كان في حالة خلاف مع أخيه جلال الدين، فأكرم رسوله وأعطاه ثلاثين ألف دينار مع وعود بمساعدته<sup>(٣)</sup>.

وهكذا ظلت حالة العداء مستمره بين جلال الدين والخلافة حتى سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) عند حصار جلال الدين لمدينة خِلاط<sup>(٤)</sup>؛ حيث تدخل المستنصر بالله وأرسل له وفداً بهذا الخصوص ليعرض له الصلح مع الأيوبيين ويرفع الحصار عن خِلاط<sup>(٥)</sup>، كما أن هذا الصلح كان مشروطاً بشرطين :

أولاً : أن لا يتعرض جلال الدين لبعض الأمراء المسلمين الذين هم من أتباع الخليفة، مثل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ومظفر الدين كوكبرى صاحب أربل، وعماد الدين بهلوان بن هزار أسب ملك الجبال<sup>(٦)</sup>.

ثانياً: أن تعاد الخطبة إلى الخليفة المستنصر بعد قطعها بسبب الخلافات، وقد وافق جلال الدين على شروط الخليفة وإعادة الخطبة على سائر منابر الدولة الخوارزمية ما عدا شرط

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ١٠٨. النسوي، محمد بن أحمد بن شهاب الدين (ت ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٥٣م، ج٢، ص ٤٩-٥١. الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ١٨٣. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ١٩٨-١٩٩.

(٢) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٢٨٠.

(٣) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٢٤٢. ابن واصل. مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٩٤.

(٤) خِلاط: مدينة كبيرة مشهورة قسبة بلاد أرمينية، ذات خيرات واسعة وثمرات يانعة، بها المياه الغزيرة والأشجار الكثيرة، وأهلها مسلمون ونصارى، وكلام أهلها العجمية والأرمنية والتركية. القزويني، آثار البلاد، ص ٥٢٤.

(٥) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٤-٢١٥. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤-٥.

(٦) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٣٠٤-٣٠٥.

خِلاط الذي تغل بقرّب فتحها، وأرسل من قبله بدر الدين طوطق بن إينانج خان رسولاً

إلى دار الخلافة في بغداد، فوصل واستقبل وخلع عليه وأكرم (١).

لا ننسى أن هذه الفترة ولغاية سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) كان هناك مشكلات بين الخوارزمية من جهة وسلاجقة الروم من جهة ثانية؛ حيث استنزفت حروبهم عوائد مادية وبشرية، كانوا بحاجة إليها للتصدي لجموع المغول الزاحفة صوب البلاد (٢)، لذا نستطيع القول إن الخوارزميين قد تهاونوا بعض الشيء وحاولوا تحسين علاقاتهم مع الخلافة العباسية، والملاحظ هنا أن العلاقة تحسنت بين الخلافة العباسية والخوارزميين، فأصبحت أفضل مما كانت عليه سابقاً، كما تطور جلال الدين في رسائله تجاه الخليفة وأخذ يظهر بمظهر الاحترام والطاعة ويبدأ رسائله "عبده المطوع منكبرتي بن السلطان سنجر"، و "سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، وإمام المسلمين وخليفة رسول رب العالمين إمام المشارق والمغرب والمنيف على الذروة العليا من لؤي بن غالب" (٣).

لقد كان من الممكن أن يكون الصلح بين الخلافة وجلال الدين عاملاً على تقوية الجبهة الإسلامية أمام المغول لو أن جلال الدين تخلى عن مطامعه وأتانيته وتمسك بطاعة الخلافة، إلا أن رغبته غير المشروعة في غزو بغداد وإخضاع الأمراء المسلمين لزعامته وغروره وطمعه دفعه إلى أن يحارب هؤلاء الأمراء ويهزم إمامهم مما أثر في قوته ومعنويته ومكانته بين الأمراء المسلمين (٤).

كما أحس جلال الدين آخر الأمر بأن عليه أن يستعين بالخليفة وبالأشراف وبغيره من أمراء المسلمين الذين لم يترك في قلوبهم بقية من رحمة تنفعه في تلك الأيام التي تعقبه فيها المغول (٥)، أينما رحل للقضاء عليه، ولم يستطع جلال الدين أن يثبت أمام المغول بعد أن تفرق عنه أصحابه وجنوده وقد كان يفكر في الوصول إلى دار الخلافة مستجيراً بها بعد أن ينس من

(١) ابن خلدون، العبر، ج٥، ص ١٣٥. العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١١٤. ناجي، معروف، تاريخ علماء المستنصرية، ط٢، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٥م، ج٢، ص ١٦١.

(٢) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله القاسم (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، نشره سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٨م، ج٣، ص ٩٦٥. ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٥٤.

(٣) النسوي، سير السلطان جلال الدين، ص ٣٨٤.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٤٨٩-٤٩٠، ٤٩٥-٤٩٦. ابن واصل، المفرج، ج٤، ص ٣١٦، ٣٢٠-٣٢١. الذهبي، مختصر تاريخ الإسلام، ص ٣٤٠. فوزي، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة، دم، ١٩٨٣م، ص ١٠٥، ١٢٠.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٦٦٦-٦٧٠. ابن العميد، أخبار الأيوبيين، مج ١٥، ص ١٣٩. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٢٦. القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٧٨. المقرئ، السلوك، ج١، ص ٣٥٤.

مساعدة الأيوبيين<sup>(١)</sup>، ولكنه لقي مصرعه وحيداً قرب ديار بكر<sup>(٢)</sup>؛ إذ قُتل بعض الأكراد انتقاماً لثأر قديم، فانتَهت بذلك دولة الخوارزميين.

## ٧- علاقة الخلافة مع الإسماعيلية:

استخدم الفاطميون بعد سقوط حلفائهم البويهيين في العراق سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) فئة جديدة ناشطة وقدموا لها المال والإعداد والسلاح، لتكون الأداة الفعالة التي تذهب أعداء الفاطميين عن طريق الاغتيالات السياسية، وعرفت هذه الفئة بالإسماعيلية والفاووية والباطنية والحشاشين<sup>(٣)</sup>.

وكانت الدعوة الإسماعيلية قد انتشرت في العراق على يد حسين الأهوازي داعية العراق، وحمدان قرمط<sup>(٤)</sup>، الذي دخل في المذهب الإسماعيلي سنة (٢٦١هـ/٨٧٤م) على يد الداعي حسين الأهوازي<sup>(٥)</sup>.

وكان من أنشط دعاة الإسماعيلية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، الحسن بن الصباح، الذي جاء من فارس، والتقى الخليفة المستنصر بالله في القاهرة، فأكرمه وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته، ولابنه نزار من بعده، وبعد وفاة المستنصر بالله انقسم الإسماعيلية بين ولديه؛ المستعلي، وسمي أتباعه بالمستعلية، ونزار، وسمي أتباعه بالنزارية<sup>(٦)</sup>.

(١) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٣٧٢-٣٧٨.

(٢) ديار بكر: ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق، وبها دجلة والفرات. القزويني، آثار البلاد، ص ٣٦٨.

(٣) الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبدالكريم أحمد (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٤م، ج١، ص ١٦٨، ١٩١-١٩٧. الشيزري، عبدالرحمن بن عبدالله بن نصر بن عبدالرحمن (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)، المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق ودراسة علي عبدالله الموسى، ط١، مطبعة المنار، الأردن، ١٩٨٧م، ص ٤٤-٤٦. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٤٩٤هـ)، ص ٢٨.

(٤) حمدان بن الأشعث قرمط من سواد الكوفة وقد قيل له قرمط لأنه كان قصيراً، ورجلاه قصيرتان وخطاه متقاربة، فسمي لذلك قرمطاً، المقرئ، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج٣، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١م، ج١، ص ٢١٦. جمالية، نهاوند محمد، التربية والتعليم عند الفاطميين في مصر، عمان، ٢٠١٠م، ص ٢٨.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص ١٩٥. المقرئ، إتعاظ الحنفا، ج١، ص ٢١٦-٢١٩. سيد، أيمن فؤاد، المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، أعدّه للنشر عبدالعظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٢٨.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٦٣. حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص ٢٦٨.

وكان الحسن من أتباع نزار، ودافع عنه بشدة، وأفلح في تكوين نظام جديد، وأنشأ دولة إسماعيلية خاصة تضم عشرات القلاع والحصون المنيعة، التي انتشرت في بلاد فارس والشام<sup>(١)</sup>.

ومن أشهر هذه القلاع والحصون قلعة الموت<sup>(٢)</sup> في نواحي قزوين وتعني: عش العقاب، وقد احتلها الحسن الصباح سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، وقد بقيت بأيدي الإسماعيلية حتى سقطت بيد هولاء سنة (٦٥٤هـ/١٠٩٠م)، ولا تزال أطلالها قائمة إلى اليوم<sup>(٣)</sup>.

أصبحت هذه الحركة ديناً قائماً بذاته لا علاقة له بالإسلام إلا الاسم فقط؛ حيث عطلوا الشعائر الدينية ولم يكن لهم صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة؛ إذ إنهم يؤمنون بنظرية الإمام (المستور) والتأويل؛ حيث أولوا الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تأويلاً غير ما يدل عليه ظاهرها لتتنسج مع دعوتهم<sup>(٤)</sup>.

وكان أبرز مبادئهم، أن يطيحوا بالدولة العباسية وخلفائها، وأن يحل محلها الأئمة الشيعة، ثم إزالة المظالم التي كان يرتكبها الخلفاء والأمراء من بني العباس، وتوزيع العدل بين الناس<sup>(٥)</sup>.

ولتعارض هذه المبادئ والأفكار مع مبادئ الدين الإسلامي؛ لأن فيها خروجاً على الإسلام فضلاً عن إشاعتها الفوضى والاعتقال وخطورتها على الدولة العباسية، التي اضطرت إلى دعوة العلماء للرد على أفكارها وتطبيق نشاطها<sup>(٦)</sup>، فانبأ لها الإمام أبو حامد الغزالي

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ٣٣.

(٢) قلعة الموت: وهي من نواحي قزوين، كما أنها أشهر وأمنع قلعة من قلاع الحشاشين المحصنة التي لا يمكن وصول الشباب والمنجنيق إليها، ويقال معنى الموت (عش العقاب) بلسان أهل طبرستان، وهي تبعد حوالي ستة فراسخ عن بحر قزوين وصارت في حوزة الحسن بن الصباح الملقب بشيخ الجبل سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م) وظلت (١٧١) سنة تابعة للإسماعيلية حتى استولى عليها هولاء المغولي، ويقال إن آثارها لا زالت ماثلة للعيان في الجبال شمال قزوين، ابن الأثير، الكامل، ج١، ص ٣١٦. لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة فرنيسي وكوركوس عواد، بغداد، ١٩٥٤م، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١، ص ٣١٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٣٥. الموسوعة الإسلامية، ج٢، ص ٩٠، ٥٩٧.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص ٣٠-٣١، ٤٣-٤٨. حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص ٢٦٨. الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٧٤. زكار، سهيل، تاريخ العرب السياسي من فجر الإسلام حتى سقوط بغداد، دم، ١٩٧٤م، ص ٣٠٣. لباد، ميشيل، الإسماعيليون والدولة الإسماعيلية بمصياف (دم)، ١٩٦٢م، ص ٢٥-٣٠.

(٥) الشيزري، المنهج المسلوك، ص ٤٥.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص ١٣٢. حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص ٢٧١.

الذي فضح هذه الدعوة وأفكارها في كتابه (فضائح الباطنية)<sup>(١)</sup>، كما تصدى لها عسكرياً الأمراء والسلاطين المسلمون؛ إذ أخذوا يطاردون دعايتها واتباعها كلما أحسوا بنشاط وجودهم فحاصروا قلاعهم وفتحوا بعضها وهدموها وضيقوا الخناق عليهم أينما وجدوا وكلما سنحت الفرصة لهم في ذلك<sup>(٢)</sup>.

وكان الحسن الصباح يذكر لمن يدعوهم ما حلَّ بآل البيت من النكبات ويدعوهم إلى نصرتهم. وقد أصبح بفضل هذه الطريقة يتولى توجيه (٢٠,٠٠٠) من الفداوية الذين كانوا على أتم الاستعداد لتنفيذ إرادته أياً كانت<sup>(٣)</sup>.

وغالبا ما يلبسون لباس الصوفية والمتسولين، ثم يندسون في خدمة من جاؤوا لاغتياله، ثم ينقضون عليه وهو غافل عنهم تماماً، وبذلك نشروا الرعب والهلع في الشرق والمغرب<sup>(٤)</sup>، حتى إن من يتأخر عن داره بعد العشاء يظن أهله أن الفداوية قتلوه، ونادراً ما كانت تخيب رميتهم أو ينجو من ابتلي بهم<sup>(٥)</sup>.

وربما بقيت الحالة معهم ولم يتبدل موقفهم من الإسلام وموقف الخلافة تجاههم حتى سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م). عندما توفي سيد الموت الثاني تولى زعامتهم ابنه جلال الدين حسن الذي نبذ ديانته الإسماعيلية وأمر أصحابه في إيران والشام بالرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وأرسل والدته للحج، كما بعث رسلاً إلى كل من الخليفة الناصر وملوك الإسلام يبشرون بالعودة إلى الإسلام، فاستراح المسلمون من شرورهم واعتداءاتهم<sup>(٦)</sup>.

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد (ت ٥٠٥هـ/١١١٠م)، فضائح الباطنية، ط ٢، تحقيق

عبدالكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٢٨-٣٦، ١٠٣-١٠٨.

(٢) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة

الأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص ١٥١. الشيزري، المنهج السلوك، ص ٤٥. ابن الجوزي، المنتظم، ج ٩، ص ١٢٠. ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣١٣، ٤٣٠-٤٣٤.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص ٦٣، ٦٤.

(٤) حسن، الدولة الفاطمية، ص ٣٦٩.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص ٦٣. ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣١٥.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٢٩٨. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٥٥٥. أبي

الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٤٢. ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م ٥، ج ١، ص ١٢٠. النياضي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٥.

ثم بعث إلى أتباعه في حصون الشام يلزمهم أن يفعلوا ما فعلوا في بلادهم، فأعلنوا الطاعة<sup>(١)</sup>، كما أعلنوا التزامهم بمذهب الإمام الشافعي<sup>(٢)</sup>، وطلب جلال الدين من الخليفة أن يبعث له القضاة والفقهاء؛ ليفقهوهم، ويقضوا بينهم<sup>(٣)</sup>.

وقد أصدر الخليفة مرسوماً ببغداد يؤكد عودتهم إلى الإسلام؛ إذ كانت فرحة الخليفة الناصر بهولاء المسلمين الجدد عظيمة؛ حيث وجد في دخولهم في طاعته ما يزيدهم قوة على قوة، كما وجد في زعيمهم حليفاً يساعده في تنفيذ سياسته، ويدفعه في وجه خصومة<sup>(٤)</sup>، ولكي يثبت جلال الدين صحة إدعائه الإسلام فإنه دعا الفقهاء وأحرق أمامهم كل ما تركه أبائهم وأجداده من كتب تحوي تعاليم دعوتهم الباطنية الملحدة، حتى تضاربت الآراء حول جدية إسلامه وحسن نيته في ذلك، فمنهم من يرى أن سبب إسلامه راجع إلى شعوره بضعف الدعوة الإسماعيلية أمام الرأي الإسلامي العام، فضلاً عن مجاورته للدولة الخوارزمية وقوتها المتعاضمة ودولة الأتابكة المجاورة له، ففكر بأفضل طريقة لإرضاء هذه القوى، فكان رجوعه إلى الإسلام وإقامة شعائره في كل القلاع التابعة له<sup>(٥)</sup>.

ومنهم من يرى أن إسلامه كان حقيقياً وليس خطة خداع لمصلحة معينة أو خاصة حتى سمي بـ المسلم الجديد وجماعته المسلمون الجدد<sup>(٦)</sup>، وذلك لأعماله وإنجازاته الدينية، فضلاً عن إمامته للصلاة يوم الجمعة وبنائه المساجد<sup>(٧)</sup>، مما يمكن أن تتم عن الإيمان الحقيقي، إلا أن ذلك لا يكفي لإثبات إيمانه، وصدق إسلامه بدليل أن ابنة الوحيد علاء الدين الثالث لم يربه على الإيمان، وذلك فإنه بعد موت أبيه جلال الدين على يد جماعة من الفدائية سنة (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)<sup>(٨)</sup>، انقلب على عقبيه ورجع إلى الإلحاد وباطنية أجداده، وعدائه للإسلام والخلافة العباسية نهاية حكم الناصر، وطيلة فترة حكم المستنصر بالله، فضلاً عن تعاونهم مع أعداء الخلافة المغول<sup>(٩)</sup>.

(١) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٢، ص ٢٩٨.

(٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مج ٢، ج ١، ص ١٢٠.

(٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٨١.

(٤) القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٤٣.

(٥) حمدي، حافظ أحمد، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٥٠م، ص ٨٦.

(٦) لويس، برنارد، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ترجمة سهيل زكار، بيروت، ١٩٧١م، ص ٩٣-٩٥.

(٧) اليافي، عمر أبو نصر، قلعة الموت، لجنة النشر العربية، بيروت، ١٩٤٥م، ص ١٤٥-١٤٦.

(٨) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٢، ص ٤٠٥، ٤٧٠.

(٩) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٢، ص ٤٠٥. النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٢٦٥. فهد، تاريخ

العراق، ص ٨٧.

وهكذا كانت حياتهم تارة يغلبون وتارة ينغلبون، وكان زعيمهم سنان بن سلمان المعروف بـراشد الدين البصري من أشهر رجال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وكانت له صولات وجولات في بلاد الشام<sup>(١)</sup>، ثم تراجع أمرهم في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وبقيت حصونهم في أيديهم مصياف وسلمية والقدموس وما حولها من القرى، ويوجدون اليوم في إيران ونيروبي ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكونغوا والهند وكراشي والشام<sup>(٢)</sup>.

عندما كان المغول يفكرون في إزالة الدولة العباسية، أدركوا أن طائفة الإسماعيلية ستكون شوكة في ظهورهم، لهذا كان لا بُدَّ من القضاء عليهم قبل التوجه إلى بغداد<sup>(٣)</sup>، فحدثت جملة مراسلات بين المغول وملك الإسماعيلية من جهة<sup>(٤)</sup>، وبين المغول والخليفة العباسي المستعصم بالله من جهة ثانية، لكن الخليفة المستعصم بالله رفض التعاون مع المغول في عام (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م) من أجل القضاء على الإسماعيلية؛ حيث عدَّ أن في الأمر خديعة واحتيالاً<sup>(٥)</sup>.

ومع ذلك فقد كانت نهاية دولتهم على يد المغول الذين اكتسحوا قلاعهم واحدة بعد الأخرى، حتى سقطت الموت سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) قبل قضائهم على الخلافة العباسية<sup>(٦)</sup>.

#### ٨- علاقة الخلافة مع المغول:

المغول هم اتحاد من عدة قبائل، وهي من أصول متعددة كالترك والمغول والتتار، وقد شكلت القبائل جميعها في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي نواة الشعب المغولي<sup>(٧)</sup>. وقد سكنت في بيئة صحراوية قاسية المناخ شديدة البرودة تعرف بهضبة منغوليا الواقعة في الشمال الشرقي من آسيا، وهي منطقة مجدبة جرداء، قليلة الكلاء، مما دفعهم ضيق العيش فيها

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ٤٦٣.

(٢) الموسوعة الإسلامية، جـ ٢، ص ٣٢.

(٣) Von Hammer, Histoire de order des Assassins, p. 257.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١٩، ص ٤٣٥.

(٥) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦، الرفيعي، العراق، ص ١٠٩.

(٦) الفزاز، الحياة السياسية، ص ٢٤٤. فهد، تاريخ العراق، ص ١٨.

(٧) المستوفى، حمد الله القزويني (ت ٧٣٠هـ/ ١٣٣١م)، تاريخ كزيدة، جاب أول، مؤسسة انتشارات، تهران،

١٣٦٢م، ص ٥٦٤. ولز، هربرت جورج، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبدالعزيز جاويد، مطبعة لجنة

التأليف، القاهرة، ١٩٥٦م، جـ ٣، ص ٧٥٤، ٩٢٣، شبر، حسن، خلفاء بني العباس والمغول اسقطوا

بغداد، دار الملاك، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٤٢٣، الصياد، المغول في التاريخ، جـ ١، ص ٢١-٣١.



إلى الخروج إلى المناطق المجاورة لها ونهبها وإشاعة الخراب فيها<sup>(١)</sup>. فانطبعت عاداتهم وعيشتهم بهذه الحياة الهمجية التي تعتمد على السلب والنهب في كسب لقمة العيش، فكانت حياتهم تعتمد على الرعي والصيد، والانتقال في سرعة هائلة على ظهور الخيل، حتى تبدو حركاتهم وراء الرزق زحفاً حربياً سريعاً. وكانوا يربون البقر الوحشي والضباع وغيرهما من أنواع الوحوش، كما كانوا يحلبونها ويشربون ألبانها، وكان لباسهم من جلود الوحوش<sup>(٢)</sup>، أما نظامهم فقد كان قبلياً بحثاً وديانتهم وثنية<sup>(٣)</sup>.

أما الدور السياسي لهم وبروزهم على مسرح الأحداث، فيبدأ بظهور زعيمهم جنكيزخان الذي تميز بعفريته العسكرية، ونجح بفضل ذكائه ومهارته في أن يستقطب جميع المغول، فبرز كمشرع منظم للأمة المغولية<sup>(٤)</sup> يربطهم بقوانين وتنظيمات سياسية كانت تسمى اليساق<sup>(٥)</sup>، وقد استمرت في الوجود والبقاء بعد مماته، كما أصبحت لهم إمبراطورية مترامية الأطراف احتلت أجزاء كثيرة من العالم<sup>(٦)</sup>.

ويرجع احتكاكهم بالعالم الإسلامي<sup>(٧)</sup> إلى مطلع القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر الميلادي؛ حيث بدأت تسقط الدول التي أمامهم الواحدة تلو الأخرى، فكانت الدولة الخوارزمية فاتحة الانقراض للدولة الإسلامية فاسقطوها سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) وبسقوطها أنهار السد الذي كان أمام الخلافة العباسية وأصبحوا مجاورين لها.

(١) ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر (ت ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م)، تاريخ ابن سباط المعروف بصدق الأخبار، ج٢، حققه عمر عبدالسلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٣م، ج١، ص ٢٥٧. الخالدي، إسماعيل عبدالعزيز، العالم الإسلامي والغزو المغولي، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٤م، ص ١٩. القزاز، في العصر العباسي الأخير، ص ٢٩٧، مؤنس، حسين، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٣٨، الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٣١.

Hartog, leo. de, Genghiskhan, conqueror of the world, London, 1989, P.1

(٢) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة (ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م)، التاريخ الغازاني، الدار الثقافية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ق ١، ص ٢٧.

(٣) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٣٠، الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٣٢-٣٣، Rupen, Mongolia, the land, the Encyclopedia of Americana, vol, 19, p,359

(٤) الرفيعي، العراق، ص ٩٣.

(٥) اليساق أو السياسة: هو مجموعة أنظمة وضعها جنكيزخان للمغول؛ حيث أصبح لديهم بمنزلة الكتاب الديني. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣١٠-٣١٢.

(٦) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، مج ١٥، ص ١٢٩-١٣٠. المكي، سمط النجوم العوالي، ج٣، ص ٥٢٢-٥٢٤. الأمين، حسن، الغزو المغولي، بيروت، ١٩٧٦م، ص ٣٠-٣١. فوزي، حكام بلاد فارس والعدوان على العراق، بغداد، ١٩٨٨م، ص ٣٦. كلود، كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(٧) للمزيد عن بداية احتكاكهم بالخلافة العباسية، راجع الفصل الخامس، ص ٢٥٢-٢٥٧.

وتعود جذور علاقات المغول مع العباسيين إلى عهد الخليفة الناصر لدين الله وكيفية تصديده لهجمات المغول الأولى، وأيضاً نجد المستنصر بالله يتحسب لخطر المغول ويتخذ التدابير اللازمة لذلك، مثل بناء سور أمني محكم حول بغداد، وذلك لتسهيل عملية الدفاع عنها في حالة هجوم مباغت للمغول، وقد تكامل بناء هذا السور سنة (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) (١).

وكذلك كان الخليفة المستنصر بالله قد بدأ عهده بالاستعداد لمواجهة المغول، ففي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وصل الخبر أن طائفة من المغول خرجوا من همدان وقصدوا جبل خانتين (٢) وبعقوبة (٣)، فأمر الخليفة بخروج جيش الخلافة إلى ظاهر البلد وأمر بتفريق السلاح واستفار الأعراب من البوادي، ثم التقى الفريقان واقتتلوا، فراجع المغول من غير أن يتبعهم أحد من جيش الخلافة (٤)، بالرغم من وصول الخبر أنهم وصلوا إلى طريق خراسان وبعقوبة وأسروا أهلها، بل دخل جيش الخلافة إلى بغداد دخول المنتصر، وخرج الفقهاء والقادة والمدرسون وسائر الولاة وحاشية الديوان والحجاب في استقبال القائد شرف الدين أقبال الشرايبي في بغداد؛ حيث دخل إلى المدينة كمنتصر على الرغم من استمرار المغول في نهبهم وسلبهم المدن العراقية، وكان مهمة جيش الخلافة هنا اقتصرت على مواجهة جيش المغول ودفعهم عن بغداد فقط، من غير اللحاق بهم لتأديبهم، وكان باقي البلاد وحماتها خارج نطاق مسؤوليتهم (٥).

كان لأخبار انتصار المستنصر بالله على المغول، لدى أمراء الأطراف الأثر العظيم في نفوس المسلمين، فهذا الناصر داود يفرح عندما تصله أخبار انتصار المستنصر بالله على المغول في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، فيبعث إلى الخليفة بقصيدة جاء مطلعها:

(بحر الطويل)  
 كذا فليقم لله من قام بالأمر      وجاهد فيه بالردينية السمر  
 تهن أمير المؤمنين بنصرة      أتتك من الله القدير على قدر

- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦، ١١١. الغساني، العسجد المسبوك، جـ ٢، ص ٤٨٠. سوسة، أحمد، الفيضانات وغرق بغداد في العصر العباسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ١٠، بغداد ١٩٦٢م، ص ٦٦.
- (٢) خانتين: بلدة من نواحي السواد بطريق همدان من بغداد، ياقوت ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٤٠.
- (٣) بعقوبة: قرية كبيرة كالمدينة، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، وهي من أعمال طريق خراسان. ياقوت الحمودي، معجم البلدان، مج ١، ص ٤٥٣.
- (٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٣. ابي الفداء، المختصر، جـ ٣، ص ٢١١.
- (٥) الغساني، العسجد المسبوك، جـ ٢، ص ٤٧٩، ٤٨٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ١٦٨.

وقال أيضاً:

(بحر الطويل)

هنيئاً لمن أصلي لواقع حرها  
فيا ليتني لو كنت بين صفوفها  
أصول وخير الناس ينظر جرأتي  
لألقي بنحري المشرفية دونه  
أروح بجمر الدماء مخرجاً  
وإن يك في العمر المنغص بقية  
رفعت إلى الباب الكريم قصيدة  
ليأمن يوم العرض من لهب الحر  
لينبين في الهيجاء ممن خبري خبري  
على الصف في الإقدام والكرّ والفرّ  
وأطعم صدر السمهرية في الصدر  
لأعدر في الفردوس في حلّ خضر  
أرد متون البيض في قرب حمر  
تنوب مناب العبد في الحمد والشكر<sup>(١)</sup>

وفي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) وصل الخبر إلى بغداد بوصول طائفة من المغول إلى إيوان خانقين وما يجاورها، فقتلوا ونهبوا، فجفل الناس عن طريق خراسان والخالص ودخلوا بغداد، فخاف أهل بغداد وانزعجوا فصدرت الأوامر إلى الأمراء الكبار والجند بقيادة أقبال الشرابي بالخروج إلى ظاهر البلد، وإلى أهل البلد كافة برمي النشاب، والاستعداد وتعليق السلاح بالأسواق والخانات والدكاكين، والمبيت في الأسواق وإشعال الأضواء، ونفدت الطلائع ومعهم الطيور وجليبوا الأخبار، فأخبروا بتراجع المغول إلى الدربند<sup>(٢)</sup>، ودخلت العساكر العباسية إلى بغداد من غير أن يتبعوهم وكان مهمتهم انتهت هنا<sup>(٣)</sup>.

وكان المغول قد أرسلوا جملة مراسلات إلى الخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله؛ حيث أرسلوا سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، رسولاً إلى الخليفة، والذي قد صحبه في عودته القاضي ابن عبد الرشيد فخر الدين أبو منصور نصر الله قاضي الجانب الغربي ونهر عيسى ومعه فلك الدين بكتمر أمير أخور حاجب علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٥٤-٣٥٧.

(٢) الدربند: هو باب الأبواب، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص ٤٤٩.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤١، ٢٤٢. معروف، حياة إقبال، ص ٨٧. الغامدي، سقوط

الخلافة العباسية، ص ١٩٧. فوزي، النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية

الأخيرة (٢٣٧-٦٥٦هـ)، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، ١٩٨٩م، ص ٢٥٦.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٠.

وأيضاً كانت هناك مراسلات في عام (٦٤٩هـ/١٢٥١م) عن طريق التاجر أحمد بن الخردادي الذي كان على اتصال بملوك المغول، وقد تحدث مع السلطان كيوك خان في الصلح مع الخليفة وقدم بغداد مع رسوله ثم عاد ومعه الهدايا والتحف (١).

ونجد أن المراسلات مع الخليفة العباسي المستعصم بالله قد انتظمت، وذلك بعد أن اتضحت أهداف المغول التي خرج من أجلها هولالكو (٢).

وكانت الرسائل تصدر عن هولالكو نفسه باعتباره قائداً للحملة العسكرية الزاحفة، وبدأ مراسلاته بعد أن استقر بمعسكره في كش الواقعة جنوب غربي سمرقند في أواخر سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، وقد طلب من المستعصم بالله التعاون معه في القضاء على قلاع الملاحدة (الإسماعيلية) (٣).

لكن أتباع المستعصم بالله حذروه من أن يقدم على هذا العمل، وأدخلوا في روعه أن هولالكو يريد بهذه الوسيلة أن تخلوا بغداد من الجيش حتى يتيسر له الاستيلاء عليها (٤).

وإزاء الهجمات المغولية المتلاحقة، كان الأمر يقتضي مزيد من العناية والاهتمام بالجيش وزيادة عدد أفراده وتحسين عدده، إلا أن المروي أن كبار رجال الدولة المستبدين (٥) بالخليفة كانوا يحسّون له تخفيض عدد أفراد الجيش وتوفير المال ومداراة المغول، فيقال إن الخليفة فعل ذلك (٦).

إذن، جاء المغول في عهد المستعصم بالله إلى العراق عدة مرات؛ حيث حدثت مناوشات بينهم وبين جيوش الخليفة لكنهم لم يوفقوا في الاستيلاء على بغداد، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على استعداد الخليفة والجيش في الدفاع عن بغداد، وبدل من جهة أخرى على قوة جيش الخلافة.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٥٩.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٧. القزاز، الحياة السياسية، ص ٣٢٩.

(٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦. القزاز، الحياة السياسية، ص ٣٢٩.

(٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦. الرفيعي، العراق، ص ١٠٩.

(٥) حول هذا الموضوع، انظر الفصل الثالث، ص ١٤٤-١٤٨.

(٦) أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٣٣. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٨٢.

## الفصل الثالث

### إدارة الدولة في عهد الخليفة المستعصم بالله

أولاً: الوزارة:

- وزراء الخليفة المستعصم بالله

ثانياً: الجيش:

- الجيش في عهد المستعصم بالله

١- عناصر الجيش:

أ- العرب.

ب- الأتراك.

ج- الأكراد.

د- الروم والأرمن.

هـ- الأقباش.

و- التركمان.

ز- عناصر أخرى.

٢- فئات الجيش

أ- الفرق النظامية (العسكرية الديوانية).

١. حرس الخليفة (السلحدارية).

٢. فرقة المشاة.

٣. فرقة الطلائع.

٤. فرقة الفرسان.

٥. النفاطون والمنجنيقيون.

ب- المتطوعة.

١. أهل بغداد.

٢. العيارون والشطّار.

٣. جند الولايات.

٤. الأعراب.

٣- أصناف الجيش المساعدة:

أ- الاستخبارات العسكرية.

ب- الخدمات الطبية.

ج- الأصناف الأخرى.

٤- تسلسل مراتب الجند.

٥- نفقات الجند

ثالثاً: الدواوين

رابعاً: الشرطة

خامساً: البريد

سادساً: القضاء

سابعاً: الحسبة

## إدارة الدولة في عهد المستعصم بالله:

بما أن عصر الخليفة المستعصم بالله امتداد للعصر العباسي بكل نواحيه ومظاهره، ومنها الإدارة المراد دراستها في هذا الفصل (متمثلة في الوزارة، والجيش، والدواوين، والبريد، والقضاء، والحسبة)، وهي - كما هو معروف من ناحية إنشائها - تُعدّ استمراراً لما قبلها من العصور؛ إذ يرجع بعضها إلى صدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي الأول، ولا فارق فيها إلا من ناحية التطور والشخصيات التي أدارتها؛ مما لا يستوجب هنا الإعادة والتكرار في نشأتها مرة أخرى، إلا بشيء من الإيجاز للتعريف بها، مع تأكيد التطورات التي حصلت لبعضها وللأشخاص البارزين في إدارتها، مثل: الوزارة والقضاء وقادة الجيش وبقية موظفي الدولة. ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أنّ الباحثة لم تتمكن من تعرّف كل أسماء الشخصيات وموظفي دولة الخليفة المستعصم بالله، لكل الوظائف الإدارية وحسب تسلسل السنوات، مما جعل ذكرها يقتصر على أهمها، ومن بعد لا تكون هذه المعلومات المتواضعة في هذا الفصل نقطة الخاتمة للإدارة في عصر المستعصم بالله، بل تبقى في حاجة إلى المزيد من البحث والدراسة لمن أراد الاستزادة والتوسع فيها.

### أولاً: الوزارة

تُعدّ الوزارة من أهم الوظائف الإدارية بعد الخلافة في العصر العباسي الأول<sup>(١)</sup>، إلا أنه قد أصابها شيء من الضعف في أثناء فترة التدخل الأجنبي البويهبي والسلجوقي<sup>(٢)</sup>.

والوزارة كلمة عربية استخدمت منذ صدر الإسلام عند المسلمين بمعناها العام، وإن لم تكن تميزت وتقررت قواعدها؛ حيث وردت في معاجم اللغة وفي القرآن الكريم، فقيل: لفظ الوزارة مأخوذ من (الوزر)<sup>(٣)</sup> بكسر الواو وسكون الزاي، بمعنى النقل لأن الوزير يحمل أعباء الدولة ويقوم بإدارة شؤونها كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾<sup>(٤)</sup> الَّذِي أَنْقَضَ

ظَهْرَكَ ﴿٢﴾ ﴿٤﴾.

- (١) البيوزيكي، توفيق سلطان، الوزارة نشأتها وتطورها، ط ٢، مؤسسة دار الكتب، الموصل، ١٩٧٦م، ص ٥.
- (٢) أمين، حسين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٥م، ص ١٨٩-١٩١.
- (٣) ابن منظور، لسان العرب، مج ٩، ص ٢٨٩-٢٩٠. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، أشرف على طباعته حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، ج ١-٢، ص ١٠٧١.
- (٤) سورة الشرح، الآية (٢-٣).

وقيل إنها مأخوذة من الوزر<sup>(١)</sup> بفتح الواو والزاي، وهو بمعنى الملجأ والمعتمصم؛ لأن الخليفة يلجأ إلى رأيه وتدبيره ومعونته عند نزول الشدائد، ووقوع النوائب؛ ليدبر الوزير له الأمور بثاقب فكره؛ فيرتب أمور الدولة كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ اتَّسَقَرُ (١٢)﴾<sup>(٢)</sup>، وقال سبحانه وتعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَأَجْعَلِ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ (١٩) هَرُونَ أَخِي (٢٠) أَشُدُّ بِهِ أَزْرِي (٢١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٢٢)﴾<sup>(٣)</sup>.

كما أن لفظة الوزارة وردت في خطاب الخليفة أبي بكر الصديق في اجتماع السقيفة؛ حيث قال للأَنْصار: "تحن الأمراء وأنتم الوزراء"<sup>(٤)</sup>.

إذن، نستنتج أن لفظة الوزارة كانت معروفة منذ صدر الإسلام، وهي ليست غريبة أو جديدة على المسلمين. غير أن استخدامها لم يكن محدداً.

وقد استخدمت لفظة الوزارة في العصر العباسي لتدل على منصب رسمي، وذلك كضرورة إدارية تطلبها الحكم المركزي للدولة؛ لمساعدة الخليفة على ذلك، وكان أحد كبار المستشارين أو الكتاب يقوم بهذه المهمة في العهدين الراشدي والأموي<sup>(٥)</sup>. وقد استعادت الوزارة مكانتها مع تحرر الخلافة، ولكن الوزارة شأنها شأن الخلافة لم تصل إلى المستوى الذي كانت عليه في العصر الأول من الخلافة العباسية؛ وذلك لطبيعة الأوضاع السياسية التي تحكمت في الخلافة في هذه المدّة<sup>(٦)</sup>.

ويعدّ منصب الوزير من مناصب الدولة العباسية المهمة، ومما لا شك فيه أن تطور نظام الوزارة صحبته أحداث تاريخية عظيمة، ولكن الباحثة ليس بصدد الحديث عن تتبع تاريخ الوزارة في العصر العباسي؛ حيث تطرق إلى دراستها كثيرون، وإنما تهدف إلى كتابة نبذة موجزة عن الوزارة في العصر العباسي الأخير، ثم الحديث عن الوزارة في زمن الخليفة المستعصم بالله. وذلك حتى يتسنى للقارئ الوقوف على صورة متكاملة وواضحة عن الوزارة في هذه الفترة.

(١) الماوردي، أدب الوزير، ص ٩. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٢١-٤٢٢. إبراهيم أنيس

وأخرون، المعجم الوسيط، ج ١-٢، ص ١٠٧١. فريد وجدي، مادة (وزر) دائرة المعارف، ص ٧٧٤.

(٢) سورة القيامة، الآية (١١-١٢).

(٣) سورة طه، الآية (٢٩-٣٢).

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٥) البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٩٨٢م)، أنساب الأشراف، ط ٣، تحقيق محمد

حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٥٨٢. ابن خلدون، العبر، ج ١، ص ٤٣٥.

(٦) القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص ١٠٤.

ففي المدّة الزمنية (٥٧٥هـ/١١٧٩م-٦٥٦هـ/١٢٥٨م) شغل منصب الوزارة خمسة عشر وزيراً<sup>(١)</sup>، لم يكن منهم في منصب الوزارة الكاملة إلا أربعة؛ اثنان عيّنا وزراء منذ البداية، وهما: أبو المظفر عبيد الله بن يونس. ومكث في منصبه عدة شهور فقط<sup>(٢)</sup>، والآخر أبو المعالي ابن حديدة<sup>(٣)</sup>، ومكث في منصبه قرابة سنة<sup>(٤)</sup>. وآخران رُقيا من منصب نائب وزير إلى وزير، وهما: ابن القصاب<sup>(٥)</sup> وأبو الحسن بن مهدي العلوي<sup>(٦)</sup>، ومكث كل منهما في منصبه وزيراً مدة سنتين<sup>(٧)</sup>، وهذا يعني أن منصب الوزارة قد شُغل بوزير مدةً تبلغ ست سنوات، ما يشير إلى إن الخلفاء أرادوا أن يجعلوا كل شيء في أيديهم وليس في يد الوزير؛ حتى يتمكنوا من تحقيق ما يريدون من إحياء الخلافة وإعادة قوتها<sup>(٨)</sup>.

ولم يعد منصب الوزارة كما كان في العصور السابقة مقصوراً على بيوت معينة، كالبرامكة وآل سهل وآل الفرات. بل أصبحت الثقافة والعلم، إضافة إلى القدرات الإدارية هي العوامل المهمة لأجل الترقى في وظائف الدولة كالوزارة، فبعضهم بدأ بوظيفة متواضعة كأحد الشهود العدول<sup>(٩)</sup>، ثم أثبت أهليته فترقى في سلك الوظيفة إلى منصب الوزراء؛ فجلال الدين أبو عبدالله أول وزراء الناصر لدين الله بعد ابن العطار، كان أحد الشهود العدول، تقلبت به الأحوال حتى صار وزيراً<sup>(١٠)</sup>، وكذلك ابن القصاب، كان أبوه يبيع اللحم على رأس درب البصريين ببغداد<sup>(١١)</sup>.

- (١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٤٩-٢٥١.
- (٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٦١٥.
- (٣) هو سعيد بن علي بن أحمد بن حديدة أبو المعالي، من كرخ سامراء، سكن بغداد وكان أحد الموسرين ذوي الجاه والمكانة، ولي الوزارة سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م)، وتوفي سنة (٦١٠هـ/١٢١٢م). ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٦٣٧.
- (٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٦٣٧. ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٥٠.
- (٥) الغساني، العسجد المسبوك، ص ٣٣٨-٣٣٩.
- (٦) هو الوزير ناصر بن مهدي بن حمزة، قدم بغداد سنة (٥٩٢هـ) وقلد الوزارة سنة (٦٠٢هـ)، وتوفي سنة (٦١٧هـ). الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ٦٢، ٣٤٨.
- (٧) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٣٤٣. ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ١٦٨-١٦٩. ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٥٠.
- (٨) Abdal-Munim Rashad, The Abasid caliphate, p177.
- (٩) الشهود والعدول: من الوظائف الدينية التابعة للقضاء وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس في ما لهم وعليهم من حقوق محملاً عند الأشهاد وأداء عند التنازع وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأمواهم. الأنباري، عبدالرزاق، النظام القضائي، بحث منشور ضمن موسوعة حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٤م، ص ٢٨٤.
- (١٠) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٣. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص ٣١٣.
- (١١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٤٨٤-٤٨٥. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٤.



ويُضح أن الوزراء العباسيين في هذه المدة كانوا على درجة كبيرة من المعرفة والثقافة والاطلاع في الشؤون العلمية والأدبية، إضافة إلى اختصاصهم السياسي والإداري؛ فالوزير مؤيد الدين ابن القصاب نشأ مشغلاً بالعلم والأدب، وبرع في العلوم والحساب والمساحات<sup>(١)</sup>، وكذلك الوزير السيد نصير الدين بن ناصر بن مهدي العلوي، اشتغل بالأدب في حياته، ثم تبصر بأمور الدواوين<sup>(٢)</sup>. وبرع بعضهم بالشعر وحفظه، ورواية الطرائف من الأخبار كالوزير مؤيد الدين ابن القمي<sup>(٣)</sup>. واشتغل الوزير مؤيد الدين بن أبي طالب بن العلقمي أيضاً بالأدب في صباه، وكتب خطأً مليحاً<sup>(٤)</sup>.

لكن لا بد من الإشارة إلى أن الوزير في هذه المدة لم تكن له الصلاحيات التي كانت في العصر العباسي الأول؛ فكان يُعين ويُعزل بهدوء من غير أي ضجة أو احتجاج من مؤيد أو مناقش. كما نجد أن الخلفاء حرصوا على مباشرة الأمور بأنفسهم؛ فاطلعوا على الرسائل، وكتبوا التواقيع وصرفوا الأمور. ولم يكن للوزير إلا مهمة التنفيذ لما يريده الخليفة، وليس أدل على ذلك مما وصف به ابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٦م) حال الوزارة فقال: "وليس له اليوم وزير"، إنما له خديم يعرف بنائب الوزارة. يحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور"<sup>(٥)</sup>. وكذلك وصف الحموي صاحب التاريخ المنصوري حال الوزير نصير الدين بن المهدي العلوي: "وفي كل الأحوال هو نائب وزارة لا مطلق الوزارة"<sup>(٦)</sup>.

ومع ذلك نستطيع القول إنه من المهام التي كان الوزير يتولاها إدارة شؤون المؤسسة العسكرية، وقد ظهر ذلك على نحو واضح زمن الناصر؛ حيث كان الوزير يقود الجيوش في المعارك، كما فعل أبو المظفر عبيد الله بن يونس<sup>(٧)</sup>، ومؤيد الدين أبو الفضل محمد بن علي

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٤.

(٢) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٥. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٢٣٧، ٢٨٣.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٧.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص ١٨١.

(٦) الحموي، محمد بن علي (ت ٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، التاريخ المنصوري، المسمى تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١م، ص ٧٠.

(٧) ابن يونس: كان فقيهاً حنبلياً، حافظاً للقرآن، كما كان عالماً بالنحو والحساب والسنة والأخبار. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٢. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٩، ص ٤٢١. ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٣٣٠.

القصاب (١)، وأبو الفتح ناصر بن مهدي (٢)، وفخر الدين أبو البدر بن محمد بن أمسينا (٣) ومكين الدين محمد بن بدر القمي (٤). ولكن، في زمن المستنصر بالله والمستعصم بالله أصبح أمراء الخليفة هم الذين يشرفون على أمور المؤسسة العسكرية، وقد برز في هذا الميدان الشرايبي والدويدار الصغير، وفي زمن خلافة المستعصم بالله ظهر تنافس شديد بين أمراء الخليفة من جهة، والوزير ابن العلقمي من جهة أخرى (٥)، وقد كان لذلك أثر سيء في الوضع الداخلي للخلافة.

### وزراء الخليفة المستعصم بالله.

١- نصر الدين أحمد بن الناقد؛ حيث تقلد النيابة في عام (٦٢٩هـ/١٢٣١م) في عهد الخليفة المستنصر بالله، واستمر في عهد المستعصم بالله؛ حيث توفي في سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م). وكان قد استُدعي وُخِّع عليه الخلع الجميلة المؤلفة من دراعة أطلس سوداء، وعمامة قصب كحلية بذهب مغربي، وقلده سيفاً كبيراً محلى بالذهب، وقدم له مركوباً بمركب ذهباً، ثم ركب ومعه جميع أرباب الدولة، وبعد أن جلس في الموضع الذي جرت عادة نواب الوزارة الجلوس فيه، كتب إنهاء تضمن شكر الإنعام عليه، وكانت نسخته " بسم الله الرحمن الرحيم، المملوك أحمد بن الناقد، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، يقبل الأرض عبودية وطاعة، وبعض الحذاء استكانة وضراعة، وينهي تشرفه بالديوان العزيزي النبوي، أصبغ الله تعالى على البسيطة ظلال معدلته وإحسانه، وأرسل على أكباد الزمان قواعد ملكه وسلطانه، وأتباعه عادة أمثاله، فمن تصدق عليه بالخدمة، فانتعش بعد عطبه، واستعصم من صدق الولاء بالعبودية قديماً وحديثاً

(١) ابن القصاب: كان ذا رأي وحزم وشجاعة وهمة عالية، كما كان شاعراً، ناب في الوزارة في عهد الناصر لدين الله، وقد توفي في سنة (٦٩٢هـ/١٢٩٣م). ابن الأثير، الكامل، جـ ٩، ص ٤٨٤-٤٨٥. أبي الفداء، مفرج الكروب، جـ ٣، ص ١١٤.

(٢) ابن مهدي: وكان الخليفة الناصر لدين الله قد استوزره، وقد توفي سنة (٦١٧هـ/١٢١٩م). ابن الساعي، الجامع المختصر، جـ ٩، ص ٤٧. الغساني، العسجد المسبوك، جـ ٢، ص ٢٣٨، ٣٨٣.

(٣) ابن أمسينا: ولد سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م)، وخدم في عدة خدمات ديوانية، وقد خدم مع الأمراء واختص بخدمة الأمير طغرل صاحب البصرة، واستناب في الوزارة سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) وعزل سنة (٦٠٦هـ/١٢٠٩م). ابن الديبشي، تاريخ ابن الديبشي، جـ ١، ص ١٤٧-١٤٨. ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، جـ ٤، ق ١، ص ٣٠٤-٣٠٥. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٢، ص ١٠٩.

(٤) ابن القمي: كان كاتباً، أديباً، بليغاً، متمكناً من أدوات الكتابة، خبيراً بالحساب، وقد توفي سنة (٦٣١هـ/١٢٣٢م)، ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٢٦-٣٢٧. الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث سنة (٦٢٠-٦٣٠هـ)، ص ٤٠٨-٤٠٩؛ سير أعلام النبلاء، جـ ٢٢، ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٤-٢٩٨. الذهبي، العبر، جـ ٣، ص ٢٨٤.

ثمانين سنة، وهو يستودع الله تعالى شكر الإنعام عليه، ويضرع إليه في الامتتان بحسن توفيقه مما تزلف لديه، إنه ولي ذلك والقادر عليه. أنهى المملوك ما ضرع به والأمر لمالكة، والحمد لله وحده وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله الطاهرين الأكرمين" (١). وجاء الجواب على رأس هذه الإنهاء بخط الخليفة المستنصر بالله ﷺ: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴿١٠﴾ (٢)، وقف على ما انهيته من شكر النعمة التي أفيضت جلابيبها عليك، وأسديت منايحها إليك، ولك المزيد منها اقتداء بقوله تعالى: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴿٧﴾ (٣)، فائق الله سرّاً ومعلناً، واعمل بكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وبسنة نبيه عليه السلام، الذي ما ضل ولا غوى وما ينطق عن الهوى، وابتسط العدل في الرعايا الذين هم ودائع الله عندنا، ودير الدولة واحرس النظام، وثق من الله بالعسوان والتوفيق والإرشاد إلى أوضح منهج طريق" (٤).

عرف عن نصير الدين بأنه كان حافظاً للقرآن، فجوّده وأتقنه، كما كان يكثر من تلاوته في المشاهد والمزارات ليالي الجمع، وربما قرأ القرآن كله وهو قائم من أول الليل إلى السحر (٥)، وقد اهتم بتحصيل الأدب، فحصل طرفاً صالحاً منه. وتعلم الكتابة والبلاغة، كما أخذ النحو عن ابن شبيب الواسطي النحوي حيث برع فيه (٦). وقد تميز بخطه الجميل وعبارته الرشيقة؛ فكان يقول الشعر وينشئ الرسائل (٧). وكان مهتماً بالعلم والعلماء، يظهر ذلك من خلال استقباله عبد الله بن عبدالرحمن بن رافع الأسدي حينما قدم رسولاً من الشام، وكان ذا معرفة

(١) الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٤٤٨-٤٤٩.

(٢) سورة النحل، الآية (٩٠).

(٣) سورة إبراهيم، الآية (٧).

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣-٣٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٨، ص ٦٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٢، ص ١٤٣. الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٤٤٨-٤٤٩.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩١. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٨، ص ٦٤. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ١٥٧. الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٢٨.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٣، ص ١٠٨؛ تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤٠-٦٥٠هـ)، ص ١١٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ١٧٧. الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٢٨. السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق خليل المنصور، بيروت، ١٩٩٧م، جـ٢، ص ١٢٨.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٨، ص ٦٥. الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٢٨.

حسنة بالحديث والأدب، فأكرم مورده وجمع له فقهاء مدينة السلام بدار الوزارة، فتكلم معهم وناظرهم (١).

ونستطيع القول إن ابن الناقد كان مقرباً من دار الخلافة؛ لأنه كان أخاً للخليفة الظاهر في الرضاة (٢)، وكان وثيق الصلة بالظاهر منذ كان ولياً للعهد؛ حيث إنه لما خلع الخليفة الناصر لدين الله ابنه الظاهر عن ولاية العهد، حبسه في دار مبيضة الأرجاء، فضعف بصر الظاهر حتى كاد يعمى، فتحنل ابن الناقد. ودخل عليه ومعه سروال أخضر وأوضح أنه يحتاج إلى المستراح، فدخل وترك السروال في المستراح، وفطن الظاهر، فدخل المستراح ولبس السروال ولم يزل يتعلل به حتى تراجع بصره (٣).

كما كان ابن الناقد عفيف النفس، وقوراً ورعاً، يتصف برأي صائب رزين (٤). طريقته في النيابة كانت محمودة وأموره مرضية (٥). لكن عرض له ألم المفاصل فعجز عن الركوب والحركة، فاستولى عليه الهرم حتى إنه كان يبخ في مسنده (٦). إلا أن ذلك لم يغير منزلته عند الخليفة (٧)؛ فبقي في غاية الاحترام والتقدير (٨).

وتقديراً لجهوده، خلع عليه الخليفة سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) وعلى الأمراء كافة وسائر أرباب الدولة حتى بلغ عدد الخلع ثلاث عشرة ألف خلعة ما بين قميص أطلس وأقبيه غزلي وعتابي وبقاير مغربي وقطن حريري وشرابيش (٩) شاهية وزركش وأطلس (١٠).

حينما توفي المستنصر بالله سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) كتم ابن الناقد الأمر إلى أن حضر شرف الدين إقبال الشرابي، فبادر إلى إخراج المستعصم بالله والبيعة له بالخلافة، ثم استدعي ابن الناقد نائب الوزارة وأستاذ الدار ابن العلقمي، فحضر ابن الناقد ليلاً إلى دار الخلافة في محفة

(١) الديمياطي، احمد بن ايبيك الحسامي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م). المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، تحقيق محمد مولود خلف، مؤسسة الرسالة، دم، ١٩٨٦م، ص ٢٦٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٢٣، ص ١٠٨.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٢، ص ٩٧.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، جـ ٢، ص ٥٢٨.

(٥) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٨، ص ٦٥.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٤٦.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٢٣، ص ١٠٩.

(٨) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤٠-٦٥٠هـ)، ص ١١. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ١٥٧.

(٩) شرابيش: من مشربشاه، الشربوش، وهو لباس الرأس يشبه التاج مثلث الشكل، يوضع على الرأس بغير عمامة، فعندما يمنح أي مملوك رتبة فارس كان من المألوف أن يمنحه الخليفة أو السلطان خلعة تتناسب ومرتبة الفروسية ثم يضع على رأسه شربوشاً، غوانمة، إمارة الكرك، ص ٢٣٩.

(١٠) الغساني، العسجد المسبوك، جـ ٢، ص ٤٩١-٤٩٢.

لعجزه عن المشي وبيع هو وأستاذ الدار وأولاد الخلفاء<sup>(١)</sup>، وأقرّ المستعصم بالله ابن الناقد بالنيابة على رتبته<sup>(٢)</sup>. وبعد ذلك تم أمور البيعة العامة<sup>(٣)</sup>.

وعندما تولى المستعصم بالله الخلافة، قام بالإشهاد على نفسه أنه قد وكل إلى وزيره ابن الناقد وكالة جامعة<sup>(٤)</sup>. ورغم عجزه عن الحركة، وعدم استطاعته المشاركة في بعض المناسبات العامة<sup>(٥)</sup>، بقي ابن الناقد يصرف أمور الدولة، وقد توفي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) بسبب إسهال عرض له، وتولى غسلة الإمام نجم الدين عبدالله البادراني مدرس النظامية، ودفن في مشهد موسى بن جعفر في تربة اتخذها لنفسه<sup>(٦)</sup>.

وقيل إنه عندما فتحت تركته وجد فيها صندوق فيه نيف وتسعون ألف دينار، وورقة يذكر فيها أن ذلك من فواضل معيشته، وما أنعم عليه به الإمام المستعصم بالله والمستعصم بالله، وأن ذلك حق من حقوق بيت مال المسلمين، ولا تستحق ورثته منه شيئاً، فحمل إلى دار التّشريفات وأنعم على ورثته وأجريت لهم جرايات من المخزن<sup>(٧)</sup>.

٢- الشيخ شمس الدين أبو المظفر علي بن النيار<sup>(٨)</sup>. فبعد وفاة ابن الناقد سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، اتجه الخليفة المستعصم بالله إلى اختيار الشيخ شمس الدين أبي المظفر علي بن النيار للوزارة، وكان مختصاً بالخليفة منذ صغره، لكن الشيخ شمس الدين اعتذر ورفض أن يغير لباس الصوفية، فقبل الخليفة المستعصم بالله عذره<sup>(٩)</sup>.

٣- مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي. حيث استوزرة الخليفة المستعصم بالله سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٥م)، وقد رقي ابن العلقمي<sup>(١٠)</sup> من منصب أستاذية الدار إلى منصب وزير<sup>(١١)</sup>.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٠٦.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٩.

(٣) حول بيعة المستعصم بالله انظر الفصل الأول، ص ٤٢.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٠.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩١. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٥٦.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤٠-٦٥٠هـ)، ص ١١٠.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٢-٢٩٣. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٨-٥٢٩.

(٨) انظر الفصل الأول، ص ٦١-٦٢، حيث سبق الحديث عنه.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٤-٢٨٥. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٧.

(١٠) سمي العلقمي بهذا الاسم نسبة إلى جدة العلقمي الذي حفر النهر المعروف بهذا الاسم. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣١٢. شبر، خلفاء بني العباس، ص ٦٠٢.

(١١) السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٢٦٢-٢٦٣. المقرئ، السلوك، ج١، ق ١، ص ٣٢٠.

وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على أن الخلفاء أرادوا أن يجعلوا مقاليد الأمور في أيديهم وليس في أيدي الوزراء؛ حتى يتمكنوا من تحقيق مشروعهم في إحياء الخلافة وإعادة قوتها.

وعندما قرر الخليفة المستعصم بالله استيزاره، ركب من داره، ومعه جمع عظيم من حاشية دار الخليفة، وبعد المثول أمام الخليفة شافهه بالوزارة، ثم خرج، ولما وصل إلى دار الوزارة، خرج لاستقباله، جميع الحجاب الذين قبلوا ومشوا بين يديه، وبعد أن جلس في الديوان، استدعي أرباب الدولة والزمعاه كافة إليه، باستثناء الدويدار الكبير والصغير، فإنهما لم يحضرا جرياً على عادتتهما مع من كان قبله. وكتب إنهاء إلى الخليفة صورته " ربّ قد أتيتي من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض، أنت وليّ في الدنيا والآخرة، مثل الملوك، بخدمة الديوان العزيز، ظاهر الله تعالى جلاله، وأسدل على الإسلام وأهله أروقة ظلاله..."<sup>(١)</sup>، وقد برز الجواب على رأس الإنهاء؛ حيث قرأ على الجماعة، وكانت صورته "وقف على خدمتك المشتملة على دعاء تواليه، وإنهاء تعيد الإخلاص فيه وتبديده، وعلم ما ذكرته وعرف ما أردته، رزقك الله تعالى توفيقاً بالتمسك بحبله وهداية إلى طريق الإرشاد وسبله بكرمه وفضله"<sup>(٢)</sup>. وبعد ذلك أنشده الشعراء المدائح والتّهاني، ثم تقدم إليه الخليفة أن يعرض مطالباته في كيس إبريسم أسود مختوم، ويبرز الجواب إليه كذلك، وأذن لمملوكه المنفذ بالمطالعات، أن يدخل باب الحرم ركباً<sup>(٣)</sup>.

وتتلمذ ابن العلقمي بالحلة على عميد الرؤساء أبي منصور هبة الله بن حامد الحلبي اللغوي الفقيه، وأبي البقاء العكبري<sup>(٤)</sup><sup>(٥)</sup>، وعلى رضي الدين علي بن طاووس<sup>(٦)</sup>. وكان كاتباً، كتب خطأ مليحاً وترسل ترسلًا فصيحاً، وضبط ضبطاً صحيحاً<sup>(٧)</sup>، عليمًا بالفلسفة والمنطق وفنون الشعر والنثر<sup>(٨)</sup>، فوصف بأنه ذا فضيلة في الإنشاء وصاحب منظوم

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٩-٢٨١. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٨.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٩-٢٨١.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٩-٢٨١.

(٤) هو الشيخ محب الدين أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن أبي البقاء عبدالله بن الحسين، وقد كان ضريراً، ولد سنة (٥٢٨هـ/١١٣٣م)، كان ثقة، حسن الأخلاق، متواضعاً، توفي سنة (٦١٦هـ/١٢١٨م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص ٩١-٩٣.

(٥) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٤٠. القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص ٢٨٤. الساعدي، محمد الشيخ حسن، مؤيد الدين بن العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٢م، ص ٢٥.

(٦) الكتبي، فوات، ج٣، ص ٢٥٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٤٠.

(٧) الساعدي، مؤيد الدين ابن العلقمي، ص ٢٦.

(٨) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٧. القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص ٢٨٤.

ومنتور<sup>(١)</sup>، وكان قد اشتغل في صباه بالنحو وعلم الأدب، كما عرف بأنه سمع الحديث من الشيخ محمد بن أبي البركات الصغاني وأجازه<sup>(٢)</sup>. وعرف أيضاً باهتماماته العلمية، فأنشأ داراً للكتب بدار الوزارة، ووضع فيها من الكتب النفيسة والنافعة الشيء الكثير حتى بلغ عددها عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب<sup>(٣)</sup>.

وكان له الفضل في بناء المدرسة المستنصرية في أثناء توليه أستاذية الدار، التي تكامل بناؤها سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) وجعلت على المذاهب الأربعة. ولاهتمامه بها، أحضر مدرسيها سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) إلى دار الوزارة وطلب منهم أن لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم، ولا يلزموا الفقهاء حفظها، بل يذكروا كلام المشايخ تأديباً معهم وتبركاً بهم. فاستجاب لطلبه جمال الدين بن عبدالرحمن بن الجوزي مدرس الحنابلة، وسراج الدين عبدالله الشرماعي مدرس المالكية، لكن طلبه قوبل بالرفض من شهاب الدين الزنجاني<sup>(٤)</sup> مدرس الشافعية، وعبدالرحمن بن اللمغاني مدرس الحنفية<sup>(٥)</sup>، اللذين قالوا إن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال، لكن الخليفة ألزم الجميع بذكر كلام المشايخ<sup>(٦)</sup>. كما حاول بناء مدرسة للرافضة؛ لينشروا من خلالها علمهم وعلمهم، لكنه لم يبلغ أمله<sup>(٧)</sup>. وصنف له عبدالحميد بن داود بن أبي الحديد الكاتب شرحاً لكتاب نهج البلاغة في عشرين مجلداً، فأطلق له الوزير مائة دينار وخلعة وفرساً لأنه كان شيعياً معتزلياً<sup>(٨)</sup>، وقد احتوى الكتاب على ما لم يحتو عليه كتاب من جنسه، ولما فرغ من تصنيفه أنفذه على يد أخيه موفق الدين وكتب إلى الوزير:

- (١) خواندمير، المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين بن همام الدين (٩٤٢هـ/١٥٣٩م)، دستور الوزراء، طهران، ترجمة وتعليق حربي أمين سلیمان، تقديم فؤاد عبد المعطي العياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، ١٩٨٠م، ص ٢٠٤.
- (٢) نظمي زاده، مرتضى أفندي، كلشن خلفاء (ت ١١٣٦هـ/١٧٢٣م)، ترجمة موسى كاظم نورس، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٧١م، ص ١٣٧.
- (٣) الساعدي، مؤيد الدين ابن العلقمي، ص ٢٧.
- (٤) هو شيخ الشافعية أبو المناقب محمود بن أحمد بن بختيار الزنجاني، ولي قضاء القضاة في بغداد، كما ولي نظر الأوقاف وغيرها من المناصب، درس في المدرسة المستنصرية سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، وقد توفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ٣٤٥-٣٣٦.
- (٥) هو أبو الفضل عبدالرحمن بن عبدالسلام اللمغاني، تولى منصب أفضى القضاة في عهد المستنصر وبقي حتى عهد المستعصم بالله، توفي سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وكان عمره ثمانين سنة. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٨٤، ٢١٨. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١٠، ٥٨٤-٥٨٥.
- (٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٦-٢١٧.
- (٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٦-٢١٧. ابن كثير، البداية، ج ١٣، ص ١٩٧-١٩٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ١٨٣.
- (٨) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٧. ابن كثير، البداية، ج ١٣، ص ١٩٧-١٩٨. القمي، الكنى والألقاب، ج ٣، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(البحر الوافر)

أيا ربَّ العبادِ رفعتَ صنُعي  
وزيغ الأشعري كشفت عني  
وطلتُ بمنكبي وبللتَ ريقِي  
فلم أسلك بنيات الطَّريقِ  
أحب الاعتزال وناصره  
ذوي الألباب والنَّظر الدقيق (١)

كما صنّف له أبو الفضائل الحسن الصغاني (٢) كتاب العباب الزاخر واللباب الفاخر، وكتاب مجمع البحرين وهما كتابان عظيمان في لغة العرب والآداب (٣)، ولثقافته وصف بأنسه يفاوض كل من يدخل عليه من العلماء، رغم أنه لم يكن له ملكة بالعلوم (٤).

وابن العلقمي وثيق الصلة بالعديد من العلماء، أمثال أحمد بن محمد بن أبي العباس بن أبي طاهر حتى خلع عليه الخليفة المستعصم بالله خلة سوداء لشدة عنايته بابن العلقمي؛ لأنه كان من خواصه (٥)، وفخر الدين أبي جعفر أحمد الأمدي الذي كان مدرساً بمدرسة السعادة، والمدرسة المستنصرية، وكان كثير الحضور لمجالس الوزير (٦)، وابن أبي الحديد الشاعر الذي كان أحد الكتاب والشعراء بديوان الخليفة، وكان حظياً عند ابن العلقمي؛ لما كان بينهما من المناسبة والمقاربة والمشابهة في التشيع والأدب والفضيلة (٧)، وأحمد ابن هبة الله بن محمد أبي المعالي المدائني (٨) الفقيه الأديب الشاعر، الذي قدم من حلب وكتب الإنشاء في ديوان الخليفة، وكان كثير الجلوس في مجلس الوزير ابن العلقمي (٩)، الشيخ أبي الفضائل الحسن الصغاني،

- (١) الخونساري، محمد بن سعيد بن محمد (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)، روضات الجنان في أحوال العلماء والسادات، تحقيق أسد الله إسماعيليان، عني بنشرة مكتبة إسماعيليان، د.ت، ج٥، ص ٢١-٢٢.
- (٢) ولد الصغاني سنة (٥٧٧هـ / ١١٨١م) في الهند، كان زاهداً عابداً، كثير الصمت، صدوقاً، قدم بغداد سنة (٦١٥هـ / ١٢١٧م)، توفي سنة (٦٥٠هـ / ١٢٥٢م)، حيث دفن بمكة، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٢-٢٦٣.
- (٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨٩-٥٩٠. القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص ٢٨٤-٢٨٥.
- (٤) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٨.
- (٥) المقرئزي، المقفى الكبير، ج١، ص ٦١٢.
- (٦) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ١، ص ٨٩.
- (٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٧-١٩٨.
- (٨) ولد هبة الله أبي المعالي بالمدائن، ونشأ ببغداد، ثم سافر إلى الشام وقد كان فاضلاً، غزير العلم سريع الإدراك، توفي سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٧٢. الغساني العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٤١.
- (٩) ابن العديم، بغية الطلب، ج١١، حققه وقدمه له سهيل زكار، د.ن، دمشق، ١٩٨٨م، ج٣، ص ١٢١٤.



مقدم أهل زمانه في علم اللغة، والأدب مع معرفة بعلم الحديث والتفسير والفقه، وكان يتردد كثيراً على دار ابن العلقمي من أجل تعليم ابنه عز الدين الأدب<sup>(١)</sup>، أما عماد الدين أبو العباس البغدادي فقد رتبته ابن العلقمي شاعراً بالديوان، حيث كان من أفاضل الزمان في علمي المعاني والبيان،<sup>(٢)</sup>.

وكان ابن العلقمي قد قدم بغداد وهو صغير، وأنظم إلى خاله عضد الدين أبي نصر المبارك بن الضحّاك، أستاذ دار الخلافة الذي استنابه في ديوان الأبنية كاتباً، وبعد وفاة خاله انقطع ولزم داره<sup>(٣)</sup>، ثم استدعى من قبل ابن الناقد أستاذ دار وجعله مشرفاً بدار التشریفات، مشاركاً للنواب بها<sup>(٤)</sup>، وبعد نقل أستاذ دار ابن الناقد إلى الوزارة، جعل ابن العلقمي مكانه في أستاذية الدار، وبعد وفاة ابن الناقد<sup>(٥)</sup>، اختار الخليفة لوزارته مؤيد الدين أبا طالب محمد بن العلقمي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، وقيل لجده العلقمي لأنه حفر النهر المسمى بالعلقمي بعد أن برز الأمر السلطاني بحفره وسمى القازاني<sup>(٦)</sup>. وكان ابن العلقمي مرتبطاً بدار الخلافة مطلعاً على أحوالها منذ خلافة الناصر، حتى ذكر أن الماء الذي يشربه الناصر كانت تأتي به الدواب من بعد سبعة فراسخ من بغداد، ويغلى سبع غليات ثم يحفظ في أوعية سبعة أيام ليشرّب منه<sup>(٧)</sup>. وازداد اتصالاً بالخلافة بعد تقلده أستاذية الدار، فلما توفيت حظية الإمام الظاهر باب جوهر تولى ابن العلقمي الصلاة عليها ودفنها بالرصافة<sup>(٨)</sup>، كما كان لابن العلقمي دور في كتم وفاة الخليفة المستنصر بالله، والبيعة للخليفة المستعصم بالله<sup>(٩)</sup>. واختيار الخليفة المستعصم بالله لابن العلقمي للوزارة كان موفقاً؛ لأنه كان رجلاً فاضلاً نبياً كريماً وقوراً محباً للرياسة، متمسكاً

- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٢-٢٦٣.
- (٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ٢، ص ٦٦٧.
- (٣) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٤٠-٦٤١.
- (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٣. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٢٠-٦٣٠هـ)، ص ٤٦.
- (٥) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٢٠-٦٣٠هـ)، ص ٤٧.
- (٦) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٧. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤٠-٦٥٠هـ)، ص ١٤؛ دول الإسلام، ج٢، ص ١٤٨. المقرئ، السلوك، ج١، ق ٢، ص ٣٢٠. القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص ٣٨٤.
- (٧) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٢٠-٦٣٠هـ)، ص ٩١.
- (٨) ابن الساعي، نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، ط٢، حققه وعلق عليه مصطفى جواد، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ١٢٤.
- (٩) الأربلي، خلاصة، ص ٢٩٠. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٦٧؛ تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٣٠-٦٤٠هـ)، ص ٤٥٥.

بقوانين الرياسة، خبيراً بأدوات السياسة فمدحه العديد من الشعراء<sup>(١)</sup>، فحينما قُلب ابن العلقمي، وصل إلى بغداد الأمير فخر الدين أبو نصر إبراهيم بن أيوب الأربلي الذي دخل عليه وأنشده:

(البحر الطويل)

ولا زال يلقاك الحسود وطرفه      عليك وفي طيّ الضمير غليل<sup>(٢)</sup>

وكان في الوزارة ناصحاً لسيده<sup>(٣)</sup>، وله فضائل<sup>(٤)</sup>، ويوصف بأنه كان كاتباً خبيراً بتدبير الملك، رفيع الهممة<sup>(٥)</sup> عالماً فاضلاً، حسن المحاضرة، دمث الأخلاق، كريم الطباع، خيّر النفس، كارهاً للظلم<sup>(٦)</sup>. كما أن الخليفة كان يشركه دائماً معه في وقت جدّه ولهوه بالليل أو النهار، ولذلك كان صاحب التصرف في أمور الملك والمال في بغداد، وكان أمامي المذهب، فلم يقدم على ارتكاب أية بدعة في أي وقت من الأوقات<sup>(٧)</sup>. وقد عرف عنه العفة، بدليل أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل أهدى إليه هدية تشتمل على كتب وثياب ولطائف قيمتها عشرة آلاف دينار، فقام ابن العلقمي بحملها إلى الخليفة، وقال إن صاحب الموصل قد أهدى إليه ذلك، فقبل الخليفة هديته، ثم بادر ابن العلقمي بإهداء صاحب الموصل عوض هديته أشياء من لطائف بغداد قيمتها اثنا عشر ألف دينار، وطلب منه أن لا يهدى إليه شيئاً بعد ذلك<sup>(٨)</sup> وكان وثيق الصلة بالخليفة حيث لما بعث إليه الخليفة شدة أقلام، كتب إليه ابن العلقمي "قبّل المملوك الأرض شكراً للإنعام عليه، بإقلام قلمت أظافر الحدثان، وقامت له في حرب الزمان مقام عوالي المرات، وأجنته ثمار الأوطار من أغصانها، وحازت له قصبات المفاخر يوم رهانها.."<sup>(٩)</sup> وأنشده:

- (١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ١٢٣. ابن الطقطقي، الفخري في الأداب السلطانية، ص ٣٣٧. القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص ٢٨٤.
- (٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الأداب، ج٤، ق ١، ص ٥٤.
- (٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٨٤.
- (٤) خواندمير، دستور الوزراء، ص ٢٠٤.
- (٥) القمي، الكنى والألقاب، ج١، ص ٣٦٢، ج٣، ص ٢٨٤.
- (٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٤٠.
- (٧) خواندمير، دستور الوزراء، ص ٢٠٤-٢٠٥.
- (٨) ابن الطقطقي، الفخري في الأداب السلطانية، ص ٣٣٧-٣٣٨. القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص ٢٨٥.
- (٩) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٨٥.

## (البحر البسيط)

لم يبق لي أملٌ إلا وقد بلغت      نفسي أقاصيه برأ وانعاما  
لأفتحن بها والله يقدر لي      مصاعباً أعجزت من قبل بهراما  
تعطى الأقاليم من لم تبد مسئلة      له فلا عجب أن يعط أقالما<sup>(١)</sup>

ويذكر أن حصل له من التعظيم والوجاهة من الخليفة ما لم يحصل لغيره من الوزراء<sup>(٢)</sup>، كما ارتفع شأن ولده فرتب صدرأ بالمخزن<sup>(٣)</sup>. ومن باب الحرص على مركزه لدى الخليفة سعى جاهداً لمنع أي اتصال بين الخليفة ونصير الدين الطوسي<sup>(٤)</sup>. وتقديراً من الخليفة لجهوده قام سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) بتقديم هدية إليه، وكانت دواة فضة مذهبة في حونه، بعد أن خلع عليه<sup>(٥)</sup>.

وكان ابن العلقمي يحرص على تأكيد الولاء للخليفة، فعندما توفيت والدته الخليفة خرج ابن العلقمي ومعه أرباب الدولة كافة، وذوو المناصب، ماشياً في جنازتها، وكذلك خرج في عيد النحر الموكب والعسكر مشاة من غير أن يضرب طبلأ أو ينفخ بوقاً، وفي الوقت نفسه لم يجلس الوزير للهناء، ولا مد سماطاً لأجل العزاء<sup>(٦)</sup>.

ويبدو أن بؤادر العمل ضد الوزير بدأت سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، حيث ذكر أنه لم يحج الناس من بغداد بسبب اضطراب الأمور، فاضطر الوفد العراقي إلى الذهاب مع عرب البصرة لضعف الخلافة وخبث الوزير<sup>(٧)</sup>. وفي العام ذاته ظهر اختلال بالمخزن وقل حاصله، حتى صارت مهام الخليفة تتعذر عليه في أكثر الأوقات، ويعود السبب في ذلك إلى مزارعة أرباب الجاهات، وارتفاع حساب الديوان ببقاء الأموال في ذمة المزارعين من أرباب الجاهات، وعجز صاحب الديوان عن تحصيلها، والشرابي هو الذي تولى التحقيق في الموضوع؛ حيث بادر إلى إحضار الكاتب، وسأله عن سبب تأخير الاستيفاء، فعرض للوزير ابن العلقمي وابنه وأخيه وجماعة من الخدم والرؤساء وأرباب المناصب، فبادر إقبال الشرابي بإخراج الأموال منهم، ومنع أرباب الجاهات من المزارعة منعاً كلياً، الأمر الذي أدى إلى توفر الأموال بالديوان<sup>(٨)</sup>.

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٨٥. الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٧-١٩٨.

(٣) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ١، ص ٣٣٣.

(٤) الخوانساري، روضات الجنان، ج٦، ص ٣١٥.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٩-٢٢٠. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٦٢.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٥٥.

(٧) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤٠هـ-٦٤٠هـ)، ص ٦٣-٦٤.

(٨) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٧٧.

وبالرغم من كل الذي حصل فإن علاقة الوزير بالخليفة لم تتأثر، ففي سنة (١٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) أهدى الخليفة لابن العلقمي بغلة، على يد عمر بن جلدك<sup>(١)</sup> الذي كان يقوم بوظيفة نقل المطالعات من الخليفة<sup>(٢)</sup> إلى الوزير<sup>(٣)</sup> وقد استمر ابن العلقمي في سياسة الدولة، رغم ما يبدو من تحركات الحاشية وموظفي الإدارة ضده، فلما فتح رباط أم الخليفة سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)، حضر الافتتاح ابن العلقمي وأرباب الدولة كافة<sup>(٤)</sup>.

كما نفذ مطالب زوجة الخليفة بوقف المدرسة المستجدة<sup>(٥)</sup>، ودار القرآن<sup>(٦)</sup>. ونشط الوزير أيضاً في تصريف شؤون الدولة؛ فلما زادت دجلة زيادة عظيمة في سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) نزل ابن العلقمي ومعه الأمراء لسد البثوق، حتى إنه حمل الحطب وقصد القورج<sup>(٧)</sup> لسده<sup>(٨)</sup>، وأيضاً عندما زادت دجلة مرة أخرى في سنة (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، سعى ابن العلقمي ومعه الولاة كافة لسده، حتى إن ابن العلقمي حمل الشوك لسده<sup>(٩)</sup>. وفي المرة الثالثة زادت دجلة سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) حتى أشرفت بغداد على الغرق، قام ابن العلقمي ومعه الناس كافة بالعمل على سده<sup>(١٠)</sup>.

وسعى ابن العلقمي إلى توثيق علاقته بالأمراء الكبار. ففي سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) استدعى كشلوخان ابن الأمير مجاهد الدين أبيك الدويدار الصغير إلى دار الوزارة، وشرقه ابن العلقمي بالإمارة وخلع عليه قباء أطلس بقطي، وشربوش كبير شاهي، وفرس بمركب ذهب،

- 
- (١) كان عمر بن جلدك مقدم الفراشين بالسدة الشريفة، وقد تولى نقل المطالعات من الخليفة سواء أكانت بيده أم مشافهة بلسانه، واتصف بأنه كان عاقلاً مواظباً على خدمته فقد خدم في عهد الخلفاء الناصر، الظاهر، المستنصر بالله ثم المستعصم بالله، وقد توفي سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، حيث كان عمره تسعين سنة. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٠. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٢١-٦٢٢.
- (٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٥٩-٣٠٠. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨١-٥٨٢.
- (٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٠.
- (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦١.
- (٥) تقع المدرسة المستجدة بسوق العجم بالشارع الأعظم بالقرب من عقد سور السلطان مقابل درب الملاحين، وقد بناها مقدم العسكر الأمير شرف الدين إقبال الشرايبي. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤.
- (٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٢، ٦٠٣.
- (٧) القورج: نهر بين القاطول وبغداد ومنه يكون غرق بغداد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، طهران، ١٩٦٥، مج٤، ص ١٩٨.
- (٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٦٥.
- (٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٩.
- (١٠) الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص ٨٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦١٥-٦١٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٥.

و غالبية حمراء، ورفع وراءه سيفان أحضرا من المخزن، سوى ما أحضر له من دار أبيه من السيوف والدرابشات<sup>(١)</sup>. واستدعى ابن العلقمي ولدي الأمير علاء الدين الطيرس الظاهري، وخلع عليهما بالإمارة، وألقا بالزعماء، وأعطيا فرسين بعدتين كاملتين، ورفعت وراءهما الأسلحة<sup>(٢)</sup>. وتقديراً من الخليفة له أصدر سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) أوامره برد أملاك الوزير القمي على ورثته، وذلك بسبب زواج ابن العلقمي من إحدى بنات الوزير القمي، وزواج ابنه عز الدين أبو الفضل محمد من أختها<sup>(٣)</sup>. وقد بلغ من جاه الوزير ابن العلقمي أن قام بالخلع على حاشيته وخدامه مائة وسبعين خلعة<sup>(٤)</sup>. وفي هذا دليل على مدى النفوذ والوجاهة التي بلغها في الدولة.

وعلى أية حال يبدو أن الوزير لقي استحسان الخليفة، لذلك أرسل إليه سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م). فرس عربي وثلاثة كتابيش<sup>(٥)</sup> إبريسم<sup>(٦)</sup>، وطلب منه أن يغير الكنبوش الصوف بالإبريسم<sup>(٧)</sup>. وأيضاً حينما خرج الركاب المستعصي سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) قاصداً زيارة الحسين رضي الله عنه ومتصيذاً، أرسل الخليفة بعد عودته الكثير من الصيود إلى الوزير ابن العلقمي وأرباب الدولة<sup>(٨)</sup>.

وابن العلقمي كان المسؤول الأول عن الأمور المالية، وله دور في تعيين الموظفين والخلع عليه؛ فنجده قد عين فخر الدين أبا طالب أحمد بن الدامغاني صدراً بديوان الزمام وخلع عليه بدار الوزارة، وبعد جلوسه بالديوان كتب إنهاء جرياً على العادة وابتدأه بقوله تعالى<sup>(٩)</sup>:

﴿ وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾<sup>(١٠)</sup>. كما عين عماد الدين يحيى بن المرتضى صدر المخزن، وخلع عليه، ولما جلس بالديوان كتب إنهاء

(١) الدرباشات: هي الرماح الصغيرة من الحديد، فهد، تاريخ العراق، ص ٢٤٩.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨٧-٥٨٨.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٦.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٤.

(٥) الكنبوش: هي الصوف المختلط مع بعضه. الفيروز آبادي، طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم

الشيذري (ت٨١٧هـ/١٤١٥م)، القاموس المحيط، بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٤م، ص ١٥٣٠، وذكر

القلقشندي بأن الكنبوش ما يستر به مؤخرة ظهر الفرس، وبه يركب القضاة وأهل العلم، صبح الأعشى،

ج٢، ص ١٤٤.

(٦) الإبريسم: هو أجود أنواع الحرير. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٠٧.

(٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٦٣.

(٨) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٦٣.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٢.

(١٠) سورة الإسراء، الآية (٨٠).

وصدره بقوله تعالى<sup>(١)</sup>: ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ إِنَّهُ لَغَنِيٌّ ۗ ﴾<sup>(٢)</sup>، وعين الوزير عماد الدين أبا المعالي النيلي الحلي ناظر الحلة، ولما عزل ناظر الكوفة أضيف منصبه إليه، ولما ظهرت كفايته رتب صدرأ بالمخزن بعد الخلع عليه في دار الوزارة، وتقليده سيفاً محلي بالذهب، كما عين ناظرأ في المدرسة المستنصرية<sup>(٣)</sup>. وعين أيضاً علي بن عثمان ابن عبدالقادر خازناً بدار ابن العلقمي<sup>(٤)</sup>، ومحبي الدين يوسف بن الجوزي أستاذ دار، وقدم إلى دار الوزارة في جمع عظيم، وتمت مشافهته بالولاية<sup>(٥)</sup>. وقلد أبا علي تاج الدين الحسن بن المختار نقابة الطالبين سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م)، فاستدعي إلى دار الوزارة ثم شرف بالنقابة بحضور القضاة وأستاذ الدار وحاجب الباب والعارضين والمحاسب، وخلع عليه خلع النقابة وهي قميص أسود أطلس بطراز ذهب عريض سعة كمة ثلاثة أشبار وأربع أصابع، وعمامة وثوب خز، وعلم بطراز ذهب وطيلساناً، كما قلد سيفاً ولساناً، وقدم له حصاناً عربياً أشقر بمركب وسيف ركابي، وبعد قراءة عهده توجه إلى داره<sup>(٦)</sup>. وفي سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) قلد نقابة الطالبين إسماعيل بن الحسن بن المختار عوض والده وخلع عليه خلعة النقابة<sup>(٧)</sup>. وقلد شمس الدين علي ابن النسابة نقابة العباسيين<sup>(٨)</sup>، وجلس له الوزير متأهباً مع أرباب الدولة كافة، وبعد أن خلعت عليه خلعة النقابة، قرئ بعض عهده في المجلس، ثم سلم إليه<sup>(٩)</sup>. وقلد تاج الدين محمد نقابة العباسيين بواسطة بدل ابن الدارنج<sup>(١٠)</sup><sup>(١١)</sup>. وتولى الوزير عزل الموظفين، ففي سنة

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٣.

(٢) سورة النمل، الآية (٤٠).

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٢.

(٤) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص ٢٣١.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٢.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٥٠.

(٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٤.

(٨) هي منظمة ظهرت من أجل حماية ورعاية مصالح العباسيين (الهاشميين)، وهي على نوعين: خاصة

وعامة، ففي الأولى ليس له إلا رعاية الأشراف دون تجاوز على ذلك، أما العامة، فبالإضافة إلى حقوق

الولاية الخاصة، فله الحكم بينهم، والولاية على أيتامهم، وإقامة الحدود وتزويج الأيتام، وإيقاع الحجر

على من سفه. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٥٤-١٥٥.

(٩) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٤.

(١٠) ابن الدارنج: كان أحد حجاب الديوان ثم عارضاً للجيش إلى أن تقلد النيابة سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م)،

وعرف عنه الولاء للخلافة والشهامة، عزل من النيابة في سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، فلزم بيته إلى أن

توفي سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م)، الأيوبي، مضمار الحقائق، ص ٢١٠-٢١١. الذهبي، تاريخ الإسلام،

حوادث سنة (٥٨٠-٥٩٠هـ)، ص ٢٥١.

(١١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٩.

(٦٤٣هـ/١٢٤٥م) استدعى الوزير جمال الدين علي المخزومي، أخو قمر الدين أبي سعد المبارك بن المخزومي صاحب الديوان، وقبض عليه وأنفذ إلى أخيه من شافهه بالعزل<sup>(١)</sup>.

ومن مهام الوزير تقليد صاحب الحسبة؛ حيث إن الوزير ابن العلقمي استدعى عبدالله بن يوسف ابن الجوزي إلى دار الوزارة، وقلده الحسبة وخلع عليه، ورفع بين يديه غاشية على الأصابع، ثم توجه إلى باب بدر، وجلس على دكة الدلوية، فأحضر جماعة من المتعيشين وهددهم على البخس إن وجد في ميزان أحدهم، وكان يفحص فحص المكايل ويتشدد بها<sup>(٢)</sup>.

وأيضاً كان للوزير ابن العلقمي مهمة الإشراف على القضاء، فعين السراج عمر بن بركة معيد النظامية قاضياً للقضاء، بعد أن شافهه بالولاية، وخلع عليه<sup>(٣)</sup>، وقلد العدل نجم الدين عبدالله بن البادراني قاضياً رغم استعفاء البادراني لأنه كان مريضاً، إلا أنه لم يعف؛ حيث أحضر بين غلمانته، وهو ضعيف عن الحركة والكلام، فخلع عليه وشرف بالقضاء<sup>(٤)</sup>.

ومن وظائف الوزير استقبال رسل الأطراف القادمين إلى دار الخلافة، فالوزير ابن العلقمي استقبل بعد تولية المستعصم بالله الخلافة في سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) عبدالله بن عصفور رسولاً من الملك الصالح أيوب صاحب مصر؛ حيث حضر من أجل التعزية بالمستعصم بالله، والتهنئة بخلافة المستعصم بالله<sup>(٥)</sup>. وفي العام ذاته قدم كل من ركن الدين إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ونور الدين أرسلان شاه صاحب شهرزور، فدخل بغداد وعليهما ثياب العزاء، وبعد خروج الموكب لاستقبالهما، دخل كل واحد منهما دار الوزارة مهنيين بخلافة المستعصم بالله، وبعد انتهاء العزاء وقبل أن يتوجهوا إلى بلادهم خلع على الجميع<sup>(٦)</sup>.

جاء رسول بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى بغداد في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، وبعد خروج الموكب لتلقيه، دخل دار الوزارة وأدى رسالته، وعرض ما بصحبته من الهدايا، فقبلت وخلع عليه، وأرفق في حراسته جماعة من الأجناد الديوانية<sup>(٧)</sup>. وفي عام (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) وصل رسول ملك الروم وهو الفريد الرومي إلى بغداد، وقد خرج الموكب لتلقيه، وبعد وصوله، استدعى إلى دار الوزارة وأدى رسالته ومضمونها وفاة السلطان كيخسرو بعد هزيمته،

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٦.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٢. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨٣.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٢.

(٥) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٦٣.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٥.

(٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٣.

واجتماع العسكر والرعية على ولده الصغير، وسأل إقراره، وتمت الإجابة عن سؤاله (١). وفي العام ذاته وصل إلى بغداد الأمير يعقوب بن شيركوه صاحب حمص بأهله وأولاده، وبعد تقبيل العتب دخل دار الوزارة فقبل بالإكرام وخلع عليه (٢). وفي سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) جاء رسول ملك الروم إلى بغداد، وقد خرج الموكب لتلقيه، وبعد تقبيل العتبة، دخل دار الوزارة وأدى رسالته وما بصحبته من الهدايا فقبلت منه (٣). وفي سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) وصل الكمال عمر بن أبي جرادة الحلبي رئيس الحنفية إلى بغداد رسولاً من الملك العزيز صلاح الدين يوسف صاحب حلب لما استولى على دمشق، وقد خرج الموكب لتلقيه، وبعد تقبيل العتبة، حضر دار الوزارة وألقى خطبة بليغة من إنشائه، وثم أدى رسالته وما بصحبته من هدايا (٤).

وصل أسعد بن إبراهيم الأربلي رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي في سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٦م)؛ حيث دخل الوزارة وقابل الوزير ابن العلقمي، وأنشد أمامه قصيدة في مدح الخليفة المستعصم بالله (٥). وفي العام نفسه قدم كمال الدين المعروف بابن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم بالله، طالباً خلعة من الخليفة لسيدته، وفي الوقت ذاته وصل رسول آخر من المعز أيبك صاحب مصر وسعى إلى تعطيل خلعة الملك الناصر، ونتيجة لذلك احتار الخليفة وأخيراً أعطى وزيره ابن العلقمي سكيناً وطلب تسليمها إلى رسول الملك الناصر دليلاً على أن له الخلعة في وقت آخر، فأخذ كمال الدين ابن العديم السكين وعاد إلى الملك الناصر (٦).

وبالرغم من أن ابن العلقمي كان شيعياً، فإنه أظهر الاعتدال تجاه أهل الذمة؛ فلما حصل خلاف بين نسيبه حسين بن تاج الدين بن العلقمي وبين يهودي، وأهان اليهودي نسيبه، طلبه ابن العلقمي، فخاف حسين بن تاج الدين منه وصلب نفسه (٧).

إذن، ما سبق يدل على صلاحيات ابن العلقمي الواسعة سواء أكان ذلك في التعيين أم العزل، أم استقبال الوفود أم الخلع وغيرها. كما يدل على الثقة العالية للخليفة المستعصم بالله بابن العلقمي.

(١) الغساني، المسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٤٢.

(٢) الغساني، المسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٤٢.

(٣) الغساني، المسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٥١.

(٤) النويري، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٧١-٣٧٣. الغساني، المسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٧٨.

(٥) ابن العديم، بغية الطلب، جـ٥، ص ١٥٥٩-١٥٦٠.

(٦) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، جـ١، ص ١٢-١٣. ابن الوردي، تنمة المختصر، جـ٢، ص ٢٧٦.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٨.



وقد توفي ابن العلقمي بعد ثلاثة أشهر من دخول المغول مدينة بغداد؛ حيث كان عمره ستاً وستين سنة (١).

ثانياً : الجيش (٢)

إن الحديث عن قوة الجيش في العصر العباسي، يجب أن تكون مقرونة بالظروف والعوامل التي أخذت تظهر وتؤثر في قوة الجيش وتعمل - نوعاً ما - على إضعافه. والخلافة العباسية كانت لا تتردد إذا دعت الحاجة إلى طلب المساعدة، فنجد الخليفة القائم بأمر الله (ت ٤٦٧هـ/١٠٤٧م) يستنجد بقوة السلاجقة من أجل صد البويهيين الشيعة، الذين كانوا قد وصلوا إلى أطراف الخلافة العباسية، ومن أجل الحد من نفوذهم ونشاطهم الديني والسياسي في بغداد (٣)، وهذا الأمر فتح المجال أمام السلاجقة للطلول محل البويهيين في حكم بغداد والسيطرة الفعلية على جميع الأمور السياسية والعسكرية فيها (٤)، لكن قوة السلاجقة أخذت بالضعف أمام قوة الخوارزميين التي بدأت في الظهور في عهد الخليفة الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، وقد عرف عن الخليفة الناصر بأنه كان قد بذل جهداً في تقوية جيش الخلافة والاهتمام به واستخدامه في قمع الأعداء والاستظهار على الملوك، فما خرج عليه خارجي إلا قمعه، ولا مخالف إلا دفعه، وكل من أضمر له سوء أرضاه الله بالخذلان (٥). فعظمت في أيامه حشمة الخلافة وقوي شأنها وزاد نفوذها عند ملوك الأطراف، فشرّبوا كأس الفتوة للخليفة الناصر ولبسوا سراويلها (٦)، ففي سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) أرسل الخليفة الناصر

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٢٣، ص ٣٦١-٣٦٢. أما ابن كثير فقد قال: كان له من العمر حينما توفي ثلاث وستون سنة، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ١٩٨.

(٢) وللمزيد عن الجيش وتطوره وأسلحته وتنظيماته، انظر: الجناحي، خالد جاسم، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤م، بطاينة، محمد ضيف الله، الجيش الإسلامي نشأته وتطوره، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٣ السنة ١٣، بغداد ١٩٨٧م. فوزي، نشأة الجيش النظامي في الإسلام وتطوره حتى منتصف القرن الثالث للهجري. وقائع ندوة النظم الإسلامية، جـ ٢، أبو ظبي، ١٩٨٤م.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ٦٦.

(٤) فوزي، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية (١-٦٥٦هـ/٦٢٢-١٢٥٨م)، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٨م، ص ٢٣١.

(٥) الصفي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٦٩٦-٧٦٤هـ)، نكت الهميان في نكت العميان، دار الصمعي، الرياض، ١٩١١م، ص ٩٤. السيوطي، مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفاء، دن، ١٨٥٩م، القاهرة، ص ٣٨١.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٢٠٦. أبو الفداء، المختصر، جـ ٣، ص ١٦٩.

سراويل الفتوة إلى الملك العادل وأولاده في دمشق فلبسها وألبسها أولاده وتقبل الخلع إكراماً وتبئية لطلب الخليفة<sup>(١)</sup>. كما أحيى الناصر نظام الفتوة وتنظيم الشباب في هيئات دينية لما كان له من أثار دينية ودنيوية<sup>(٢)</sup>، وكون من هؤلاء فرقة عسكرية عرفت بفرقة الرماية، فجعل لها زياً خاصاً<sup>(٣)</sup>، وأكثر من إنفاق المال على تنظيم الجيش وفرقه وأسلحته<sup>(٤)</sup>. كما اهتم برمي البندق واللعب بالحمام<sup>(٥)</sup>.

وعمل الناصر على استخدام جيش الخلافة في مواجهة المغول وهجماتهم على أراضي الخلافة، وبلغت قوة جيش الخلافة في عهد الناصر أن تمكن من توسيع أملاك الخلافة العباسية، فأخضعت تكريت سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م)<sup>(٦)</sup>، كما أخضع الري وهمذان وخوزستان سنة (٥٩١هـ/١١٩٤م)<sup>(٧)</sup>، واسترد جيش الخلافة أملاك السلاجقة من الخوارزميين، وتشمل خراسان وأصفهان وكيلان<sup>(٨)</sup> ومازندران<sup>(٩)</sup> سنة (٥٩٢هـ/١١٩٥م)، وكان الخليفة الناصر قد رأى ضرورة الاتصال - في وقت سابق - مع الخوارزميين لمساعدته<sup>(١٠)</sup>، لكن الاتفاق بين الخليفة والخوارزميين لم يستمر طويلاً بسبب تعارض المصالح بينهما، وكان للوزير مجد الدين بن القصاب فضل كبير في هذه الفتوحات<sup>(١١)</sup>، وقد عرف بهمته العالية وقيادته الحكيمة للجيش فجمع بين رئاستي السيف والقلم، فتمكن من فتح الفتوح وإخضاع العديد من البلاد لحكم الخلافة العباسية، وقد توفي سنة (٥٩٢هـ/١١٩٥م)<sup>(١٢)</sup>.

- (١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٣٣٠.
- (٢) ابن المعمار، كتاب الفتوة، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣.
- (٣) فرج، محمد، المدرسة العسكرية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٣٥١.
- (٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٧٦.
- (٥) ابن الشحنة أبو الفضل محمد (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، هامش كتاب الكامل في التاريخ، ج٧-٩، مطبعة بولاق، ١٢٩٥هـ، ج٩، ص ٨٢. السيوطي، مناهل الصفا، ص ٣٨٤.
- (٦) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٤٣٨-٤٤٠، ٤٥٦. الصفي، نكت الهميان، ص ٢٣٩. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ١٤٧.
- (٧) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٤١٨. الأربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٨١.
- (٨) كيلان، قرية تابعة للري على ستة فراسخ منها، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩٨.
- (٩) مازندران: اسم لولاية طبرستان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ٤١.
- (١٠) العبود، الدولة الخوارزمية (٤٩٠هـ-١٠٩٧م/٦٢٨هـ-١٢٣١م)، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٨م، ص ٨٠.
- (١١) نظمي زادة، كلشن خلفا، ص ١٢٣.
- (١٢) ابن الطقطقي، الفخري في الأداب السلطانية، ص ٣٢٤.

وقد جرت محاولات لإعادة هبة الخلافة العباسية عن طريق تكوين جيش خاص بالخلافة<sup>(١)</sup>.

وبعد وفاة الناصر لدين الله سنة (٦٢٢٣هـ/١٢٢٦م) تولى الخلافة ابنه الظاهر بأمر الله سنة (٦٢٣-٦٢٤هـ/١٢٢٦-١٢٢٧م) الذي باشر الحكم بنفسه ووجه عنايته إلى الأمور الداخلية، فمنع الظلم ورد المظالم وألغى العديد من الضرائب وأعتق خمسين جارية وزاد المماليك في معاشهم، وقدر لكل واحد منهم في السنة زيادة مائة دينار، وتقدم إلى أرباب الدولة بالعدل والإنصاف، لكنه توفي بعد مدة بسيطة من حكمه<sup>(٢)</sup>.

ولم ترد الإشارات التي تضيف شيئاً جديداً عن الجيش في عهده، وعندما تولى بعده ابنه المستنصر بالله سنة (٦٢٤-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م)، وجه عناية كبيرة إلى الأمور العسكرية، فاهتم بالجيش وزيادة عدده؛ حيث يصل العدد في بعض الروايات إلى مائة ألف فارس استخدمها للتصدي للمغول والدفاع عن أراضي الخلافة<sup>(٣)</sup>، وخاصة أن هجمات المغول قد زادت على أراضي الخلافة العباسية بعد سقوط الدولة الخوارزمية سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) بمقتل السلطان جلال الدين منكبرتي على يد المغول<sup>(٤)</sup>، وكان المستنصر بالله يستنفر في أوقات الشدة الأعراب من البوادي والرجالة من جميع الأعمال، ويفرق الأموال والسلاح عليهم<sup>(٥)</sup>.

#### الجيش في عهد الخليفة المستنصر بالله.

كان الخليفة المستنصر بالله قد بدأ عهده بالاستعداد لمواجهة المغول، ففي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وصل الخبر أن طائفة من المغول خرجوا من همدان وقصدوا جبل خانقين وبعقوبة، فأمر الخليفة بخروج جيش الخلافة إلى ظاهر البلد وأمر بتفريق السلاح واستنفر الأعراب من البوادي، ثم التقى الفريقان واقتتلوا، فترجع المغول من غير أن يتبعهم أحد من جيش الخلافة<sup>(٦)</sup>، وبالرغم من وصول الخبر فإنهم وصلوا إلى طريق خراسان وبعقوبة وأسروا أهلها، بل دخل جيش الخلافة إلى بغداد دخول المنتصر. وخرج الفقهاء والقادة والمدرسون وسائر الولاة وحاشية الديوان والحجاب في استقبال القائد شرف الدين إقبال الشرابي في بغداد؛ حيث دخل المدينة كمنتصر على الرغم من استمرار المغول في نهبهم وسلبهم المدن العراقية،

- (١) الأعظمي، علي ظريف، مختصر تاريخ بغداد، مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٢٦م، ص ٧٥.
- (٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٥٥-٢٥٦.
- (٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٨٦. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٨٠.
- (٤) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ١٠٨-١٢٠.
- (٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٧٠٦.
- (٦) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٢١١-٢١٢.

وكان مهمة جيش الخلافة هنا اقتصرت على مواجهة جيش المغول ودفعهم عن بغداد فقط، من غير اللحاق بهم لتأديبهم ، وكان باقي البلاد وحماتها خارج نطاق مسؤوليتهم (١).

وفي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) وصل الخبر إلى بغداد بوصول طائفة من المغول إلى ديوان خاتنين وما يجاورها، فقتلوا ونهبوا، فجفل الناس عن طريق خراسان والخالص ودخلوا بغداد، فخاف أهل بغداد وانزعجوا فصدرت الأوامر إلى الأمراء والكبار والجند بقيادة إقبال الشرابي بالخروج إلى ظاهر البلد. وإلى أهل البلد كافة برمي النشاب، والاستعداد وتعليق السلاح بالأسواق والخانات والدكاكين والمبیت في الأسواق وإشعال الأضواء، ونفذت الطلائع ومعهم الطيور وجبلوا الأخبار، فأخبروا بتراجع المغول إلى الدربند، ودخلت العساكر العباسية إلى بغداد من غير أن يتبعوهم وكان مهمتهم انتهت هنا (٢).

وإزاء الهجمات المغولية المتلاحقة، كان الأمر يقتضي مزيداً من العناية والاهتمام بالجيش وزيادة عدد أفرادهِ وتحسين عدده، إلا أن المروي أن كبار رجال الدولة المستبدین بالخليفة كانوا يحسبوا له تخفيض عدد أفراد الجيش وتوفير المال ومدارة المغول، فيقال إن الخليفة فعل ذلك (٣).

وروي عن الخليفة أنه كان خلي الرأي، بمعنى أنه لم يكن عنده خطة لمواجهة الأخطار المحدقة، ووافق ذلك وجود رجال الدولة الذين لم يكونوا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة (٤). ففي سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) حضر جماعة من المماليك الظاهرية والمستنصرية عند شرف الدين إقبال الشرابي الذي كان أمير الجيوش في عهد المستنصر بالله، واستمر في عهد المستنصر بالله - وقد كان شرف الدين إقبال الشرابي (٥) حبشي الأصل؛ حيث أخذه المستنصر من والده بداية الأمر وجعله شرابياً عنده فأحببه وقربه (٦) إليه ثم ولاه قيادة الجيش (٧) وسرخيل العسكر (٨) فأصبحت له مكانة كبيرة في دولة المستنصر بالله، وصار يحضر عنده الأمراء وكبار زوار الخلافة ويخلع عليهم. وكان له دور كبير في خلافة المستنصر بالله؛ حيث أشغل منصبه

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص ١٦٨. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٧٩، ٤٨٠.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤١، ٢٤٢. معروف، حياة إقبال الشرابي، ص ٨٧.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٢٠٨. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٨٣.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٢٤-٦٢٥م.

(٥) الشرابي، وظيفة خدمية جاءت تسميتها من تقديم الشراب بأنواعه، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٨، ٩، ١٠، ٢١، ٢٢-٢٥، ج٥، ص ٤٤٠.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٨-٣٠٩. معروف، حياة إقبال الشرابي، ص ٣٣-٣٥.

(٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٢١.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٩. معروف، حياة إقبال الشرابي، ص ٧٥. حاشية رقم (١).

كقائد أعلى في الجيش، وطالبوا بزيادة معاشهم وألحوا في الطلب، فرفض إقبال الشرابي طلبهم فنفروا وخرجوا إلى ظاهر السور وأعلنوا التذمر، فقبض على اثنين منهم، فحدثت الاضطرابات بسبب ذلك، ثم قرروا الخروج من البلد، إلا أن علماء الإسلام شعروا بخطورة خروج الجند من البلد في وقت تعرضه لغزو المغول؛ فخلوا إلى الجند وأخبروهم بالإثم الذي قد يلحقهم إذا خرجوا من البلد فاستجابوا واعتذروا<sup>(١)</sup>.

وهناك حالات مماثلة من تدمير الجند قد حدثت وترجع إلى عدم دفع رواتبهم، مما أدى إلى خروجهم إلى بلاد الشام؛ حيث يقول ابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/١٢٣٢م): "إن كثيراً من الجند فارقوا بغداد سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)؛ لانقطاع أرزاقهم ولحقوا ببلاد الشام؛ لأن الخليفة أهمل حالهم وقطع أرزاقهم وأسقط أكثرهم من دساتير ديوان العرض"<sup>(٢)</sup>.

كما أن الجند ثاروا أيضاً في سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ويعود ذلك إلى قطع أرزاقهم من قبل الوزير ابن العلقمي<sup>(٣)</sup>، وتتهم بعض الروايات الوزير ابن العلقمي وتجعله مسؤولاً عن قطع أرزاق الجند، وترجع السبب في ذلك إلى كونه شيعياً، في قلبه غل على الإسلام<sup>(٤)</sup>.

ما ذكر ليس من شأنه أن يقلل من هيبة الخليفة المستعصم بالله، كما أن كثيراً من الأمور قد لا تكون واضحة للخليفة؛ حيث إن قادة الجيش قد تمكنوا من أمور الدولة المختلفة، بما فيها الأمور السياسية والعسكرية والمالية، فاستبدوا بأموال الجيش ونفقاته، وأصبحوا مسؤولين عن رواتب الجند وزيادتها ونقصانها<sup>(٥)</sup>، في حين تمتع هؤلاء القادة بامتيازات مالية وإقطاعات وثراء فاحش، ففي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) خلع الخليفة على الأمير فتح الدين حسن ابن الكردي الأربلي، وقلده سيفاً كبيراً محلى بالذهب، وأعطى من الأعلام والرايات والطبول ما يناسب ذلك، وزيد في معيشته ألفاً دينار وسلّم إليه إقطاع بهذه المعيشة<sup>(٦)</sup>، وفي سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) خلع على إقبال الشرابي وقلد سيفان، ونثر إقبال ألف دينار وثياباً قيمتها خمسمائة دينار، ثم حضر باب البدرية خلق كثير من المغنيين وغيرهم، فأنعم عليهم بعشرة آلاف درهم<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٧-١٦٩. القزاز، الحياة السياسية، ص ١١٨.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٦.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٨.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٥٣٣. المقرئ، السلوك، ج ١، قسم ٢، ص ٤١٢. العيني، عقد الجمان،

ج ١، ص ١٧٠، ١٧١. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٥. ابن القرماني، أخبار الدول، ص ١٨٠.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٨-١٦٩.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٣٧.

(٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٤٤.

كما أن الخليفة المستعصم بالله وصف بالاستبداد بالمال وجميعه، وبخله في الإنفاق على الجيش<sup>(١)</sup>، في الوقت الذي كانت تتعرض فيه الخلافة العباسية لخطر المغول، يذكر أن الخليفة كان يقول: "بغداد تكفيني ولا يستكثرونها علي إذا تنازلت لهم عن باقي البلاد، ولا يهجمون عليها وأتابها وهي بيتي ودار مقامي"<sup>(٢)</sup>.

ويتضح لنا من خلال الدراسة أن قضية عدم صرف رواتب للجند أو تخفيضها يتناقض مع حرص الدولة على جندها لحماية البلاد والدفاع عنها، وقد يترك آثاراً سلبية على الجيش؛ لذا لا بد من تناول قلة موارد الدولة العباسية، ويعود السبب إلى أن العديد من الولاة في الولايات التابعة للخلافة العباسية استغلوا الفوضى والاضطرابات في البلاد، التي نجمت عن الهجمات المغولية على أراضي الخلافة، وأخذوا بالانفصال عن الخلافة وتكوين جيوش خاصة بهم، وتوقفوا عن إرسال الأموال إلى خزينة الدولة العباسية، مما أدى إلى قلة الموارد المالية وعجزها عن القيام بما يترتب عليها من نفقات بسبب اعتمادها على هذه الولايات في التمويل وخزيتها<sup>(٣)</sup>.

كما كان لعملية القتل والسلب والنهب بسبب الهجمات المتوالية على أراضي الخلافة العباسية، دور كبير جداً في قلة الموارد المالية للدولة وإضعافها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً؛ حيث أصبحت الدولة أمام أزمة مالية عجزت فيها عن القيام بما عليها من نفقات بما فيها نفقات الجند ورواتبهم، وخاصة أن واردات بغداد في هذه الظروف العصيبة لم تعد قادرة على سد نفقات الجيش. وتستننتج الباحثة مما سبق أن قطع رواتب الجند أو إيقافها لم يكن من فعل شخص معين، وإنما يرجع إلى الأوضاع العامة؛ حيث كانت تمر بأزمة مالية، ولكن هناك من المؤرخين من ألقى اللوم على قادة الجيش، ومنهم من ألقى اللوم على الخليفة.

#### ١- عناصر الجيش:

كان جيش الخلافة العباسية يتكون من عناصر مختلفة اتحدت مع بعضها في ظل الخلافة وأصبحت تدين بالطاعة والولاء للخليفة، وأبرز هذه العناصر:

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٣٧، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٢٣.

(٣) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ١٧١.

## أ- العرب:

سعى الخلفاء العباسيون إلى إظهار هذا العنصر وزيادة نفوذه بالاعتماد عليه في تقوية جيش الخلافة، وبخاصة في ظل المعارضة السلجوقية، فكان العرب من أهل بغداد والقبائل العربية في البوادي، الملجأ الوحيد أمام الخلفاء للدفاع عن بغداد ضد العدوان السلجوقي<sup>(١)</sup>. حيث كان الجيش في عهد المستعصم بالله خليطاً من عدة عناصر إلى جانب العنصر العربي الذي يعود وجوده إلى العهد الأموي عندما نقل زياد بن أبيه خمسين ألفاً من المقاتلة العرب مع عائلاتهم من البصرة والكوفة وأسكنهم في خراسان<sup>(٢)</sup>، وفي عهد القائد العربي قتيبة بن مسلم اتخذ العرب من مدينة سمرقند في بلاد ما وراء النهر قاعدة لتحركاتهم العسكرية<sup>(٣)</sup>، كما اتخذ القائد الأموي مسلمة بن عبد الملك في بلاد أرمينية مدينة باب الأبواب قاعدة عسكرية للمقاتلة العرب<sup>(٤)</sup>، وبذلك كثرة الجيوش فيما بعد وتضخمت أعدادها فلم تعد الحاجة ماسة إلى إغراء الناس بالتجنيد<sup>(٥)</sup>، ولكن حينما ضعفت الدولة العباسية وظهرت الدويلات المستقلة أصبح لكل منها جيشه الخاص بها، وتطلب تأمين مرتباتهم أساليب وطرق جديدة، لذا عمد الخلفاء والحكام إلى منح أقاليم ومقاطعات كاملة إلى الأمراء شرط أن يقدموا جنوداً مجهزين بالأسلحة وقت الحاجة<sup>(٦)</sup>.

وبالنسبة للعصر العباسي الأخير وخاصة فترة المستعصم بالله فشيء طبيعي أن يستمر وجود العنصر العربي، ولكنني لم أعثر على إشارات واضحة تدل على نسبتهم في الجيش، وخاصة أن قادة الجيش في عهد المستعصم بالله كانوا من عناصر غير عربية.

## ب- الأتراك:

العنصر التركي من أكثر العناصر ظهوراً في جيش الخلافة العباسية، وبخاصة أن وجود الأتراك في الدولة العباسية يرجع إلى عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-

(١) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)، الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، المعهد الهولندي للأثار المصرية، لايدن، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٢١٢، ٢١٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٣٠-٦٣١.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٢٦.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١١.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٤، ٢٤، فلهاوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية وسقوطها، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٦٨م، كلكتا ١٩٢٢م، ص ٢٠٤.

(٥) الهاشمي، الحضارة العربية، ص ٨٣.

(٦) الهاشمي، الحضارة العربية، ص ٨٣-٨٤.

٨٤٢م). في العصر العباسي الأول<sup>(١)</sup>؛ حيث تحملت الدول مسؤولية تدريبهم وتجهيزهم وفرضت لهم العطاء على نحو مستمر<sup>(٢)</sup>، وسمح لهم الخلفاء بالمشاركة في السلطة، ولكن في حدود الولاء والطاعة للخلافة العباسية بما يحقق لدولتهم الاستمرار<sup>(٣)</sup>، واستمرت قوة الأتراك في الفترات التالية، وقد استبدوا بأمور الدولة السياسية والعسكرية؛ حيث أصبح لهم النفوذ الأكبر على الخليفة نفسه، وخاصة في خلافة المستعصم بالله الذي عرف بقلّة المعرفة والتدبير؛ حيث تمكن الأمير مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير التركي، مقدم جيش الخلافة من التدخل في شؤون الخلافة والتحكم بآراء الخليفة وأمور الدولة المركزية، وقد أدى دوراً بارزاً في الدفاع عن بغداد ضد الغزو المغولي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)؛ حيث قتل في هذه الموقعة<sup>(٤)</sup>، وكان مجاهد الدين مغرماً بالكيمياء، وكان في داره عدة رجال يعملون في هذه الصنعة، وقد أُنْف على ذلك الكثير من الأموال لكنه لم ينجح، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً جواداً<sup>(٥)</sup>.

### ج- الأكراد:

أُتِصف الأكراد بالشجاعة والنجدة، وهم متعصبون لبعضهم، وليس فيهم حيل ولا مكر، وقد انتشر الإسلام بينهم في القرن السابع الميلادي ومنهم طائفة مشهورة وهم ملوك بني أيوب في مصر<sup>(٦)</sup>.

وفي عهد المستعصم الله تمتع الأكراد بنفوذ واسع في الجيش ووصلوا إلى المناصب القيادية العليا، فالأمير فتح الدين أبو المظفر الحسن بن محمد عز الدين بن الكر الكردي، كان من الأمراء والملوك الأكارب في جيش الخلافة، وخلع عليه سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) القباء الأسود والعمامة الكحلوية المذهبة تكريماً له، وزيد في معاشه ألفاً دينار حتى أصبح معاشه في السنة

(١) فوزي، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية (٢٤٧-٣٣٤هـ)، ط٢، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٦٠-٦١.

(٢) فوزي، الجند الأموي والجيش العباسي، مجلة آفاق عربية، بغداد، العدد ٢، ١٩٧٩-١٩٩٨م، ص ٢٩. الكعبي، علياء سالم، الجيش العباسي تطوره وتنظيماته (٢١٨-٢٨٩هـ/٨٣٣-٨٩٤م)، جامعة الشارقة، رسالة ماجستير، ٢٠٠٧م، ص ٢٨.

(٣) الدوري، الجذور التاريخية للشعبوية، ط٤، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٣٠-٣١.

(٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٠-٢٣٢. الهمذاني، جامع التواريخ، مج٢، ج١، ص ٢٧١.

(٥) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص ١٢٨.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٤٢٣.



أربعة عشر ألف دينار<sup>(١)</sup>، فأعطى إقطاعاً بهذا المعاش ليستغله، وقدم له سيفاً محلياً وخلع عليه بالأعلام والطبول والرايات<sup>(٢)</sup>.

وقد كان قائد للفرقة الكردية في جيش الخلافة، وانظم تحت رئاسته أعداد كبيرة من الأكراد الهاربين من الزحف المغولي إلى بغداد<sup>(٣)</sup>، وعندما تعرضت بغداد لهجوم المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) كان للأكراد بقيادة مقدمهم عز الدين بن كر دور بارز في الدفاع عن بغداد ضمن جيش الخلافة العباسية؛ حيث تمكنوا في البداية من الانتصار، وكان عز الدين الكروي قد عرف بحنكته الحربية ومعرفته وخبراته العسكرية<sup>(٤)</sup>، فأشار على قائد جيش الخلافة الدويدار الصغير التركي بالعودة إلى بغداد للراحة وإعادة الاستعداد التام لمتابعة القتال، إلا أن الدويدار تكبر عليه ورفض رأيه لشيخوخته مما أدى إلى هزيمة القوات العباسية المنهكة وغرقها في مياه دجلة، وقتل القائد الكردي ابن كر في هذه الموقعة<sup>(٥)</sup>.

#### د- الروم والأرمن:

لقد اقتنى الخلفاء في فترة الحكم السلجوقي المماليك وجعلوهم عناصر في الجيش وولوهم الرتب العالية، ووصل بعض من القادة الأرمن والروم إلى رتب عالية ومنزلة رفيعة لدى الخلفاء وسلموا الولايات<sup>(٦)</sup>. علماً بأن الباحثة لم تجد في أثناء بحثها إشارات حقيقية إلى وجود الروم والأرمن في جيش المستعصم بالله، باستثناء بعض الأخبار التي ترد على نحو عام؛ حيث كان لعنصري الروم والأرمن دور كبير في الحروب والمعارك التي خاضها جيش الخلافة ضد الأعداء، سواء كانوا السلاجقة أو المغول، وآخر تصريح كان في عهد الخليفة المستنصر بالله عندما ولي الأمير أرغش الرومي الناصري إمارة البصرة، فخلع عليه فتوجه إليها سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م)<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ٣، ص ٣٤.

(٢) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٧.

(٣) الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٢٢٥.

(٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، نقله للعربية الأب إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩١م، نظمي زادة، كلشن خلفاء، ص ١٤٢.

(٥) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٣٠٧. الهمذاني، جامع التواريخ، مج٢، ج١، ص ٢٨٥. الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٢٢٤.

(٦) الأيوبي، مضممار الحقائق، ص ١١٨.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٥٠.

## هـ - الأحباش:

هم أشفق أصناف السودان وأحسنهم، وفيهم أمانة وشجاعة نادرة، وهم أهل جد وصبر<sup>(١)</sup>، وصلوا إلى الخلافة العباسية عن طريق الشراء كعبيد وموال للخلفاء، ثم تدرجوا في المناصب حتى وصلوا إلى الجيش وأصبحوا من أكبر قادته وأمرائه<sup>(٢)</sup>.

وقد اعتمد الخلفاء على الأحباش في دار الخلافة كحاشية أولاً ثم أوكلوا لهم المهام العسكرية؛ فأقبال الشرابي كان من الأحباش، وهو كان زعيم جيش الخلافة العباسية منذ سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م)<sup>(٣)</sup>؛ حيث عُرف بالشجاعة والكرم والإقدام<sup>(٤)</sup>، وقد وصل إقبال الشرابي إلى درجة عالية من النفوذ والاستبداد لدرجة قيامه بتتصيب الخليفة المستعصم بالله سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)؛ حيث أخفى موت الخليفة المستعصم بالله، وعمل على مبايعة المستعصم بالله<sup>(٥)</sup>، وقد زادت منزلة الشرابي لدى الخليفة المستعصم بالله وأصبح من أكبر الملوك والأمراء عنده، بخاصة عندما تمكن من الانتصار على المغول في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)<sup>(٦)</sup>؛ فخلع عليه الخليفة وقلده سيفين سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)؛ فنشر الشرابي ألف دينار وثياباً قيمتها خمسمائة دينار، لكنه مات مسموماً سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)<sup>(٧)</sup>، وبذلك فقد كان للأحباش نفوذ كبير وقوي في جيش الخلافة.

## و- التركمان:

ينتمون في أصولهم إلى البدو الأتراك الرحل الذين هاجروا إلى الجنوب الغربي من القارة الآسيوية وأخذوا لهم موطناً في الأراضي الفارسية وخراسان وأراضي خوارزم وبخاري إلى الشرق من أملاك الدولة العباسية<sup>(٨)</sup>، وكان لأمراء التركمان دور في مساندة جيش الخلافة العباسية، وقد قلت أعمال الفساد والعبث من قبل التركمان على إثر الزحف المغولي على أراضي الخلافة العباسية، وسار العديد منهم هرباً إلى بغداد تاركين مناطقهم في تركستان وبلاد

(١) الحسن عبدالله بن محاسن بن العباس (ت ٧٠٨هـ/١٣٠١م)، آثار الأول في ترتيب الدول، طبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٥م، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) عبدالفتاح، صفاء حافظ، نظم الحكم في الدولة العباسية من أوائل القرن الثالث الهجري إلى دخول بني بويه بغداد، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت، ص ١٨٦.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٧.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٤٦٤.

(٥) حول مبايعة المستعصم بالله. انظر الفصل الأول، ص ٤٢-٤٣.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ١٦٧.

(٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٤٤.

(٨) الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٢٢٤.

فارس وحوارزم وأراضي الخلافة العباسية فانضموا إلى العناصر التركمانية الموجودة في بغداد، وجندت أعداد منهم في جيش الخلافة<sup>(١)</sup>.

وقد ألت قيادة هؤلاء التركمان في جيش الخلافة إلى الأمير التركماني شهاب الدين سليمان شاه بن برجم الأيواني الذي عُرف بالشجاعة والإقدام، فكان من مشجعي الخليفة المستعصم بالله على مقاومة المغول وعدم إرسال الهدايا والتحف لاسترضائهم<sup>(٢)</sup>.

وحينما وصل التركمان إلى بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) أدوا بقيادة سليمان شاه التركماني دوراً بارزاً في الدفاع عن بغداد من الداخل؛ حيث بقيت التركمانية في بغداد للدفاع عنها، في حين خرجت بقية القوات إلى الخارج لمحاربة المغول<sup>(٣)</sup>.

#### ز- عناصر أخرى:

ضم جيش الخلافة عناصر أخرى إلى جانب العناصر السابقة، كان لها الدور الملحوظ في دعم الجيش وتقويته.

وكان الخليفة المستعصم بالله قد فتح باب التطوع والتجنيد للعناصر الموجودة في بغداد عند تعرضها للهجوم المغولي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)؛ فكون جيشاً من المرتزقة أغلبه من الفرس المقيمين في العراق إلى جانب الأتراك والعناصر الأخرى<sup>(٤)</sup>.

#### ٢- فئات الجيش:

##### أ- الفرق النظامية (العسكرية الديوانية)

تعدّ القوات النظامية في جيش الخلافة من أهم أقسامه، وتتمثل في الجند المدوّنين بديوان العرض (الجيش)، الذين كانوا يحصلون على الرواتب الثابتة وعلى نحوٍ منتظم من خزينة الدولة، وبمواعيد محددة<sup>(٥)</sup>، وقد تكون هذه الرواتب نقداً أو على شكل إقطاعات بمقدار الرواتب<sup>(٦)</sup>، وتتألف هذه الفرق من:

(١) الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٢٢٥.

(٢) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ١، ج ١، ص ٢٧٣، ٢٧٤. الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٢٢٤.

(٣) الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٤) عاشور، التاريخ العباسي والأندلسي، مكتب كريدية إخوان، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٢٥٨.

(٥) البيوزيكي، توفيق سلطان، دراسات في النظم العربية والإسلامية، جامعة الموصل، وزارة التعليم العالي

والبحث العلمي، ١٩٨٨م، ص ١٥٨.

(٦) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ج ٤، ص ٣٦٠.

## ١. حرس الخليفة (السلحدارية) (١)

كان الخلفاء العباسيون يعتمدون في أكثر الأحيان على حرس خاص بهم، ويتخذونهم من المماليك الذين كانوا يُشتررون بالمال من مناطق مختلفة وأغلبهم من الأتراك، إلى جانب العناصر الأخرى، كالروم والأرمن، ويقوم هؤلاء المماليك الخليفة في حلّه وترحالهِ، كحرس خاص به (٢)، ولحمايته وتأييده، وقد يطلق على هؤلاء اسم الخواص (٣)، وكان هؤلاء الخواص يحصلون على مرتبات عالية من خزينة الدولة، ويرتدون الملابس المميزة؛ وبذا كانوا أكثر تميزاً عن سواهم من الفرق من حيث المرتب والمظهر والسلاح (٤).

وقد يطلق على جيش الخلافة الجديد اسم حرس الخليفة (السلحدارية) لأنه خاص بالخليفة، ومهمته الدفاع عنه، ولأنه أيضاً القوة الوحيدة القائمة على الدولة، في الدولة ويضم القوات التي تحت إمرة الخليفة، وتدفع رواتبهم من الدولة (٥)، وعند شراء هؤلاء المماليك كانوا يدرّبون على الفنون القتالية والحربية العنيفة، ويتلقون علومهم في بلاط الخلافة منذ الصغر، ثم تُحدّد لهم الأماكن التي سيعيشون فيها، التي تكون خاصة بالجند، ثم يعينون حرساً خاصاً بالخليفة ويُفصلون عن الجيش العباسي في بداية الأمر، وقد يلحقون به في أوقات الحرب والقتال، وتصبح مهامهم الحربية كالجند في جيش الخلافة العباسية؛ لأنهم يعدون من القوات النظامية في الجيش (٦).

ويبدو أنه في بعض الأحيان كان المملوك يقوم بخدمة خليفتين، لذلك ينسب إليهما معاً؛ فالقائد إقبال الشرايبي عرف المستنصري والمستعصي؛ لأنه كان من خواص الخليفة المستنصر بالله، ثم من خواص الخليفة المستعصم بالله، وقد توفي سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) (٧).

(١) سلاح دار، هو لقب أطلق على الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير، وهي كلمة مركبة من لفظين: أحدهما عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار، ومعناه يكون "ممسك السلاح"، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٣٤.

(٢) ماجد، عبدالمنعم، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٦١-٦٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩. ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٦١-٦٢.

(٤) علي، مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦١م، ص ٣٦٨.

(٥) Terncewise, The wars of the crusades, osprey No. date, P. 42

(٦) علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٦٨.

(٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٩.

## ٢. فرقة المشاة

هم الذين يقاتلون وهم راجلون ويأتون بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد الفرسان في الجيش<sup>(١)</sup>، وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذه الفرقة أيضاً إلى جانب الفرسان في جيش الخلافة، فأصبح المشاة يؤلفون القسم الأكثر تحملاً، ويسيرون في مختلف الأماكن؛ جبالها وسهولها وتحت مختلف الظروف<sup>(٢)</sup>، كما شاركت الرجالة وعلى نحوٍ كبير في الحروب التي خاضها الخلفاء العباسيون ضد أعدائهم من السلاجقة وغيرهم<sup>(٣)</sup>.

لقد عمل الخلفاء على زيادة أعداد هذه الفرقة نظراً لأهميتها؛ ففي أثناء القتال كان يتصدى المشاة لفرسان العدو؛ فيضعفون قوتهم الهجومية، ويدخلون الرعب في صفوفهم<sup>(٤)</sup>، ويحرس المشاة أيضاً بالحراسة للمعسكرات والطرق إلى جانب فرقة الفرسان<sup>(٥)</sup>.

وللمشاة أسلحة متعددة كالسيوف والرماح والقسي والسهام والحراب، ويلبسون القمصان المحبوكة والدروع لحماية أجسامهم من ضربات العدو، بالإضافة إلى الخوذ والدروع والبيضة والمغافر لحماية رؤوسهم، ويعلقون السيوف على الأكتاف اليمنى<sup>(٦)</sup>.

ولم تجد الباحثة إشارات صريحة عن كيف كانت فرقة المشاة في عهد المستعصم بالله باستثناء بعض الإشارات على نحوٍ عام.

## ٣. فرقة الطلائع

هي فرقة ذات أهمية كبيرة في وضع الخطط العسكرية لسير الجيش وخوضه المعارك، وتكون هذه الفرقة من الفرسان والخيالة التي تتقدم الجيش لاستطلاع الأخبار عن العدو وجلب المعلومات الكافية عنهم، وسُميت بالطلائع لاطلاعها على أخبار العدو؛ ليعلم الجيش بذلك حال عدوه<sup>(٧)</sup>، كما يعمل الطلائع على استكشاف أرض المعركة وطبيعتها ورسم الخرائط للمناطق التي يتقدم فيها الجيش<sup>(٨)</sup>؛ لأن الأمر ذو أهمية في عملية وضع الخطة القتالية والتخطيط لتعبئة

(١) جهادية القرغولي، العقلية العربية، ص ١٦٣.

(٢) الجنابي، تظيمات الجيش، ص ٣٦.

(٣) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢١٢، ٢١٣.

(٤) ثابت، العسكرية، ص ١٢٢.

(٥) الجنابي، الجيش والشرطة، حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥م، ج٦، ص ٢٤٧.

(٦) جهادية القرغولي، العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ص ١٦٣. علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٦٨.

(٧) الأوسي الأنصاري، تفريغ الكروب في تدبير الحروب، ص ٥٠.

(٨) عواد، محمود، الجيش والقتال في صدر الإسلام، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٧م، ص ٥٤.

Ternwise, The wars of the crusades, P. 43

الجيش في أثناء القتال؛ لذا يشترط في الطلائع أن يكونوا من الفرسان وأصحاب الخيول والسبق والرمي، والخفة في الطراد (١)، والأمانة والمقدرة العسكرية العالية (٢)، ومن أهل النصيحة والنجدة وذوي الشجاعة والقوة، والصبر والتحمل (٣)، وكان يتولى الطليعة مسؤول يُسمى (مقدم الطليعة)؛ حيث يُختارون في استعراض عسكري، يتم تحت إشراف قائد الجيش وصاحب ديوان العرض، وبعد ذلك يتم تدريبهم على السرعة وخفة الحركة، والاستعداد التام لنقل المعلومات بأسرع وقت ممكن. إلى جانب الدقة في نقل المعلومات الصحيحة (٤).

ويستخدم الطلائع في مهمتهم الحمام لإرسال المعلومات بسرعة إلى جيش الخلافة؛ لأنه الأسرع في نقل الأخبار، وفي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) أرسل الخليفة المستعصم بالله الطلائع ومعهم الطيور ليخبروا بالمعلومات عن المغول الذين وصلوا إلى خانقين (٥). وكانت أسلحة الطلائع السيوف والسهام، ويلبسون الدروع الخفيفة التي لا تعيق حركتهم أحياناً، وقد لا يكون على أحد منهم درع ولا معه ترس لكي لا يكون معه شيء يثقله، ويأخذون معهم بعض المؤن والأموال الكافية لرحلتهم الاستطلاعية، وإذا ما قبض العدو على هؤلاء الطلائع في أثناء أدائهم مهمتهم، فإنهم غالباً ما يتعرضون للقتل، فعندما أرسل الخليفة المستعصم بالله سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) فرقة من الطلائع مكونة من مائة فارس إلى منطقة الدربند لاستطلاع أخبار المغول بسرية تامة، علم أكراد تلك المنطقة بوجودهم وأخبروا المغول عن موقعهم فقتلهم جميعاً (٦)، ولكن قد يستغل المغول فرصة وجود طلائع جيش الخلافة لأسرهم ويحاولون اتخاذهم عوناً لهم، وإجبارهم على إعطاء المعلومات عن جيش الخلافة كما فعلوا مع قائدي فرقة الطلائع أيبك الحلبي، وسيف الدين قيلج، عندما وقعوا في أسر المغول في أثناء استطلاعهم أخبار المغول للخليفة المستعصم بالله، حيث أعطى قائد المغول هولكو أيبك الحلبي الأمان مقابل قوله الصدق وإمداده بالمعلومات عن بغداد وجيش الخلافة فيها، كما جعل طلائع جيش الخلافة مرشدين لطلائع قوات المغول (٧).

(١) الحسن، آثار الأول، ص ١٧٥.

(٢) عبدالغني عارف، نظم الاستخبارات عند العرب والمسلمين، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١م، ص ٥٤.

(٣) ابن الأرق، بدائع السلك في طباع الملك، ص ١.

(٤) جهادية القرغولي، العقلية العربية، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧، ٢٨.

(٦) السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٢٧٠. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤١-٢٤٢. الغساني،

العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٢٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٤٦.

(٧) الهمداني، جامع التواريخ، مج٢، ج١، ص ٢٨٢.

ومن أجل الحصول على أسرار الجيش الداخلية، وتعرّف الأحوال الداخلية لمدينة بغداد قد يستخدم العدو وسيلة الإغراء لاستمالة طلائع جيش الخلافة؛ لذا يجب أن يشترط بالجند في فرقة الطلائع الأمانة التامة على أسرار البلاد والجيوش الإسلامية وعدم إخراجها للعدو في جميع الأحوال، سواء تحت الضغط والإجبار أو تحت الإغراء، فعندما تعرضت بغداد للهجوم المغولي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) أرسل سلطان جوقة الخوارزمي أحد أفراد طلائع المغول يطلب من قائد طلائع جيش الخلافة قبجاق المعروف بقرأسنقر، الانضمام إلى المغول من أجل النجاة والأمان، ويحرضه على ذلك بقوله إنهم من عنصر واحد، ولا بد من التقارب بالاتجاهات، إلا أن قبجاق رفض مطلب جوق الخوارزمي حرصاً منه على المحافظة على أسرار بلده وجيشه<sup>(١)</sup>.

ومن ثمّ فإن فرقة الطلائع في جيش الخلافة العباسية تعدّ ذات أهمية وخطورة في الوقت نفسه؛ لما تحمله من معلومات عن أسرار الجيش، ولما تجلبه من معلومات عن العدو.

#### ٤. فرقة الفرسان

الخيالة هم الذين يقاثلون على ظهر الخيل، وقد وجه الخلفاء العباسيون إلى هذه الفرقة عناية كبيرة، واهتموا بها، وميزوها عن الفرق الأخرى؛ حيث غلب الفرسان على الجيش حتى لا نكاد نجد ذكراً للمشاة إلا عند الإشارة إلى المتطوعة<sup>(٢)</sup>، وقد سعى الخلفاء إلى رفع المستوى القتالي لدى أفراد هذه الفرقة، خاصة وأن أعداد الجيش في هذه المدة كانت تتأرجح بين الزيادة والنقصان؛ بسبب المعارضة العنيفة التي أبدتها السلاطين السلاجقة عند محاولة الخلفاء استعادة هبة الخلافة، وتكوين جيش خاص بها، فعمل الخلفاء على تقوية جيوشهم برفع الجند إلى مستوى الفروسية<sup>(٣)</sup>.

وبسبب اعتماد الفرسان في فروسيتهم وقاتلهم على الخيل، فإنه يشار إلى الفرسان بكلمة الخيل؛ فقد أشار ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) إلى خروج الخيل في جيش الخلافة إلى مهاجمة السلطان مسعود سنة (٥٣٠هـ/١١٣٥م) قاصداً بالخيال الفرسان على ظهور الخيل<sup>(٤)</sup>.

كما زادت أهمية الفرسان بسبب اعتماد العباسيين على الأتراك؛ وذلك لأن الأتراك كانوا بطبيعتهم فرساناً ماهرين، كما يشير الجاحظ (٢٥٥هـ/٨٢٨م) إلى أهمية ذلك في رسالته فيقول: لم تشغلهم الصناعات والتجارات والفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان، ولم يكن همهم غير

(١) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ص ٣٠، ٤٥، ١٥٢-١٥٨. ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٣١٨، ٣٤٧-٣٤٨.

(٣) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٤٦.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص ٣٠٨.

الغزو والصيد وركوب الخيل، فالتركي هو الرائص والبيطار وهو الفارس" (١)، ولذلك فقد كان الفرسان العمود الفقري لجيش الخلافة والقوة الرئيسة التي تؤدي الدور الكبير في تقرير نتائج المعارك، وعليها الاعتماد الكلي (٢).

عند بدء المعركة، كان الفرسان يهجمون على العدو، ويغيرون على أفراده، ومن ثم يطاردونه إذا ما هُزم في المعركة، ويخرجونه من أراضي الخلافة العباسية، مع اتخاذ جوانب الحذر والحيلة خشية انخداعهم ووقوعهم في كائن قد ينصبها العدو للإيقاع بهم (٣). ومن مهام الفرسان في أوقات الحرب أيضاً، الاستطلاع لمعرفة أخبار العدو؛ حيث يُنظمون في طلائع سنتحدث عنها في ما بعد.

أما في فترات السلم والتأهب والاستعداد للقتال، فعلى الفرسان حراسة الدروب والطرق والأماكن المهمة للجيش، وحماية المعسكرات من المخاطر المحيطة، وأخذ الحذر من أي اعتداء مفاجيء من العدو، وإيصال الأخبار المستجدة في هذه الأماكن إلى القائد العام للجيش (٤)، وقد يُطلق على هذه الفرسان اسم (الربايا) لحمايتهم المعسكر ليلاً ونهاراً، وقد يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير (٥). ففي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) حرص القائد إقبال الشراي على حراسة الدروب، وحفظها من قبل الفرسان لمنع أي اعتداء خارجي في أثناء حصار جيش الخلافة لأربل (٦)، كما أن جيش الخلافة لا يكون سوى من هذه الفرقة؛ بسبب اهتمام الخلفاء الشديد بها؛ لرفع المستوى القتالي للجيش وتقويته، ورفع مكانة الدولة بين الدول المحيطة (٧).

وكان الفرسان يستخدمون العديد من الأسلحة إلى جانب السلاح الراكب وهو الخيل؛ فاستخدموا السيوف والرماح والحراب، وكانوا يلبسون الدروع والزرود، ويضعون المغافر والخوذ على رؤوسهم التي كانت تصنع من الصُّلب لتكون قوية التحمل وممتينة، وكانت هذه الخوذ تُزين أحياناً بربيش النسور لمكانة الفرسان (٨).

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص ٤٩٨-٥٠١.

(٢) جهادية القرغولي، العقلية العربية، ص ١٦١.

(٣) الجنابي، خالد، تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩م، ص ٣٦.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ١٩٥.

(٥) جهادية القرغولي، العقلية العربية، ص ١٧٢.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤٦.

(٧) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٨٣. الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص ٢٨٨.

(٨) ثابت، نعمان، العسكرية في عصر العباسيين، راجعه وعلق عليه حامد أحمد الورد، مديرية المطابع

العسكرية، بغداد، ١٩٨٧م، ص ١١٩، ١٦٥.



## ٥. النفاطون والمنجنيقيون

وهذه فرق نظامية لكنها تتعلق بطبيعة السلاح المستخدم واختلافه، فالنفاطون الذين كانوا يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء ويلبسون الملابس المقاومة للذيران، فكانوا يفتحون الحصون من غير أن يصيبهم أذى<sup>(١)</sup>، كما وجد المنجنيقيون الذين يرمون المنجنيق، ويطلق على رئيسهم اسم أمير المنجنيق<sup>(٢)</sup>، وقد ظهر دور النفاطون والمنجنيقيون واضحاً في أحداث سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(٣)</sup>.

### ب- المتطوعة

كان يعلن النفير العام عندما تتعرض بغداد أو أراضي الخلافة العباسية لأي اعتداء خارجي<sup>(٤)</sup>؛ من أجل حشد جميع القادرين على حمل السلاح للاشتراك في القتال<sup>(٥)</sup>، ويُؤمر الخطباء بالحض على الجهد في خطبهم، فيأتي الكثير من المتطوعة الذين يلحقون بالجيش من البوادي وأهل البلاد، ويُجنّدون في وقت الحرب فقط؛ حيث يعودون إلى أعمالهم اليومية بعد انتهاء القتال<sup>(٦)</sup>، ويحصلون على الإعاشة والأموال في أثناء تواجدهم في الميادين، وأوقات الحروب فقط، وكذلك الأرزاق لعوائلهم<sup>(٧)</sup>؛ وبذا فقد كان للمتطوعة دور بارز في حروب الجيش العباسي، ونذكر منهم:

#### ١. أهل بغداد

كان أهل بغداد يقفون إلى جانب جيش الخلافة في أغلب حروبها ومعاركها، سواء كانت ضد السلاجقة، أو المغول، أو أمراء الأطراف<sup>(٨)</sup>.

واستخدام المتطوعة في بغداد في قتالهم العديد من الأسلحة كالمقاليع والبندق والنشاب الذي كانت توزعه عليهم القيادة العسكرية في الجيش، وتأمّرهم برميّه على العدو، ليكونوا على

(١) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٤٥. علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٦٨. عاشور، التاريخ العباسي،

ص ٣٠٠. Ternwise, the wars of the crusades, p, 42

(٢) الجنابي، تنظيمات الجيش، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧١-٢٧٢. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٦٣٠-٦٣١.

(٥) خلفات، جمال يوسف وبهاء الدين محمد أسعد، العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، ط١، مطبعة المنار، الأردن، ١٩٦١م، ص ٤٩.

(٦) خلفات، العسكرية الإسلامية، ص ٤٨.

(٧) Ternwise, The wars of the crusades, P. 42

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٧٧.

أتم الاستعداد لمواجهة العدو، وقد يطلب من الأهالي في بغداد تعليق السلاح في الأسواق والخانات والدكاكين، ففي عهد المستعصم بالله؛ أي في سنة (٦٤٧هـ/١٢٥٠م) أمر الناس بالاستعداد وتعليق السلاح بالأسواق والخانات والدكاكين، وأعلن النفير في بغداد، فجمعت المتطوعة وخرج الجيش بقسميه النظامي والمتطوعة لمحاربة المغول عند وصولهم إلى خانقين، وما يجاورها (١)، وفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) تطوع العامة في جيش الخلافة ودافعوا بشدة عن بغداد، وكان لهم دورٌ فعال قبل سقوط الخلافة بيد المغول (٢).

## ٢. العيارون والشطار

العيار لغة، الشخص كثير المجي والذهاب في الأرض، والشاطر من أعيا أهله خبثاً، وفي الاصطلاح: هم الفقراء والجياع العاطلون عن العمل (٣). هم فئة من العاطلين عن العمل، وتضم هذه الفئة المتمردين على واقعهم الاجتماعي من المتشردين، وقد أطلق عليهم أسماء مختلفة، منها: الحرافيش، والدّعار، والعياق، والزعار (٤)، ومن الملحوظ تاريخياً أن لا تكاد تمر سنة إلا وللعيارين والنظار حدث فيها؛ وذلك لاعتقادهم بأن غبناً قد لحق بهم من قبل السلطات الأجنبية (٥).

وقد عمل الخلفاء العباسيون على تشجيع العيارين والشطار في المجتمع البغدادي على الانخراط في الجيش العباسي الجديد، مستغلين الروح الوطنية عند هذه الفئة، ولإبعادهم عن أعمال الشغب والفساد التي كانوا يقومون بها في أراضي الخلافة العباسية، وخاصة مدينة بغداد بسبب سوء الأوضاع المعيشية والفوضى السياسية (٦)، وغالباً ما كانوا يقفون مع جيش الخلافة ضد عساكر السلاجقة في السنوات (٤٩٢-٤٩٧هـ)، (١٠٩٨-١١٠٣م) (٧).

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤١.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩.

(٣) العزي، محمد فياض محمد، الخلافة بين الجيش والدولة في ظل العباسيين خلال الفترة (٢٤٧-٣٣٤هـ/٨٦١-٩٤٥م)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠١م، ص ٢٩.

(٤) العقيلي، محمد ارشيد، دور العيارين والشطار في حرب الأمين والمأمون، مجلة دراسات تاريخية، ع(٤٩-٥٠)، دمشق، ١٩٩٤م، ص ٩٣.

(٥) القزاز، عبدالسلام محمد يونس، الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣-١٧٤م)، رسالة ماجستير، إشراف عبدالمنعم رشاد، جامعة الموصل، ١٩٨٨م، ص ٩٩.

(٦) عبدالمولى، محمد أحمد، العيارون والشطار والبغداد في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ١٤٨.

(٧) فوري، النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية الأخيرة (٤٤٧-٦٥٦هـ)، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، سلسلة بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٩م.

وقد نظمت هذه الفئة في هيئات خاصة بها، وتقاليد خاصة مستمدة من تقاليد الفتوة الحقه؛

حيث ينسب إلى الخليفة الناصر إصلاح منظمات الفتوة والعيارين والشطار وإعادة تنظيمها وتوحيدها لتخدم توجهات الخلافة<sup>(١)</sup>، وقد استمرت حتى عهد المستعصم بالله الذي اهتم بها كثيراً، ولكن ليس بنفس درجة اهتمام والده، ومن الإشارات التي تدل على اهتمامه بالفتوة تلك الروايات التي تبين أنه سار على طريق والده في منح سراويل الفتوة للذين يقدمون إلى بغداد من الأمراء والسفراء والضيوف، فعندما جاء القاضي عبدالعزيز بن أبي البركات<sup>(٢)</sup>، رسولاً من الملك الصالح نجم الدين أيوب<sup>(٣)</sup>، حاكم مصر، منحه المستعصم بالله سراويل الفتوة وسقاه شربة الفتوة<sup>(٤)</sup>.

ومن مبادئ الفتوة أن الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الرّحم، فالعفة وعدم المجون من الصفات الأساسية عند الفتيان، وهم يؤكدون الأمانة، ويُعرفون بالكرم والصبر الشديد على احتمال الأذى، والرفق بالفقراء والضعفاء، وبخاصة وأن العيارين اقتصرُوا في نهيبهم وسلبيهم على الأغنياء والأثرياء، فركزوا هجماتهم على التجار والأسواق، في حين لم يتعرضوا للفقراء والضعفاء وأصحاب البضائع القليلة<sup>(٥)</sup>.

كان لباس الفتوة خاصاً، وهو ما كان معروفاً بسراويل الفتوة الذي اتخذته الجماعات الإسلامية في ما بعد تقليداً لها، فلبست الملابس المميزة كالقمصان الزرقاء والسوداء

(١) الجالودي، عليان عبدالفتاح محمد، تطور السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي (٤٤٧هـ/

١٠٥٥م-٥٩٠هـ/١١٩٣م)، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٩٩٦م، ص ١٤٠.

(٢) هو عز الدين أبو الفضائل عبدالعزيز بن أبي البركات عبدالرحمن بن عبدالله بن أبي عصرون التميمي

الموصلّي الحديثي الحلبي، ولد بحماة سنة (٥٩٧هـ/١١٩٨م)، ودرس الفقه بطلب، وسافر إلى دمشق، ثم إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بمصر، ولما توفي المستنصر بالله واستخلف ولده المستعصم بالله بعثه رسولاً إلى بغداد، توفي في بيت المقدس سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م). ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤١.

(٣) هو الملك الصالح السلطان نجم الدين أبو الفتح أيوب ابن السلطان الملك الكامل محمد بن العادل، وهو من

كبار الملوك الأيوبيين في مصر، كان حازماً مهيباً معظماً، ولد سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م) وتوفي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٧٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٨٧-١٩٢.

(٤) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج١٤، ص ٢١٥.

(٥) الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان، بغداد، ١٩٤٥م، ص ٢٨٢، ٢٨٥-

والخضراء<sup>(١)</sup>، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد لبس لباس الفتوة وأرسل إلى أمراء الأطراف ليشرّبوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها<sup>(٢)</sup>.

ومما يدل على اهتمام المستعصم بالله بالفتوة تشجيعه للألعاب الرياضية ونشرها على نحو كبير، فمثلاً عمل على نشر رياضة العدو والركض على نحو واسع، يقول ابن الفوطي<sup>(٣)</sup> في حوادث سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) وفيها أغري الناس بعدو السعاة في سائر المحال<sup>(٤)</sup>. إن الدارس لتطور الفتوة بعد فترة الناصر يجد أنها بدأت تتراجع شيئاً فشيئاً عن الأهداف التي من أجلها سعى الناصر إلى تبني الفتوة، وبلغ هذا التراجع أوجه زمن المستعصم بالله؛ حيث غلب على الفتوة في زمنه الاهتمام بالنواحي الترفيهية واللعب واللهو أكثر بكثير من الاهتمام بالنواحي التربوية التي حرص الناصر على تحقيقها. هذا الأمر أدى إلى ظهور الجوانب السلبية في الفتوة، التي حرص الناصر على القضاء عليها، ولكن بالرغم من ذلك فإن ابن المعمار يذكر أن نظام الفتوة نشط من جديد في مصر بعد انتقال الخلافة العباسية إليها<sup>(٥)</sup>.

### ٣. جند الولايات

كان يضم جيش الخلافة العباسية في صفوفه أحياناً قوات من جند الإمارات المستقلة، وبخاصة في حالات الحرب والقتال، وذلك عند تعرض بغداد لهجوم خارجي سواء من قبل السلاجقة أو المغول أو الأمراء المعارضين للخلافة؛ وذلك بسبب الحاجة التي كانت تضطر الخليفة لطلب المساعدة العسكرية من ولاة الأطراف والإمارات المستقلة، وهذا يدل على أن الصلة بين الخلافة العباسية وأمراء الأطراف والولايات لم تكن مقطوعة تماماً؛ بسبب الولاء الديني والاحترام القائم للخلافة.

والخليفة العباسي لم يعد قادراً على إجبار الأمراء والولاة في ولاياتهم المستقلة على تنفيذ أوامره، فغالباً ما يمتنع هؤلاء الأمراء عن إرسال المساعدات العسكرية للدفاع عن بغداد؛ وذلك بسبب انشغالهم بمصالحهم الخاصة ومشكلاتهم الداخلية، في وقت أصبحت فيه الخلافة بحاجة إلى دعمهم الحربي ومساندتهم العسكرية، فعندما تعرضت بغداد لهجوم المغول سنة (٦٥٦هـ/

(١) الهلالي، محمد مصطفى، الفتوة والفروسية العربية والإسلامية، المورد، ع٤، مج١٢، وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، ١٩٨٣م، ص ٣٢.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ص٢٢٢. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٢٢. الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٦٧.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٤.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٤.

(٥) ابن المعمار، الفتوة، ص ٢٤٩.

١٢٥٨م) أرسل الخليفة المستعصم بالله إلى الولاة وإلى الأيوبيين في بلاد الشام طالباً مساعدتهم في الدفاع عن بغداد، إلا أنهم امتنعوا عن إرسال قواتهم إلى بغداد بسبب انشغالهم بمصالحهم الخاصة، وحروب الأيوبيين مع المماليك، وفي نهاية الأمر أرسل الأيوبيون نجدة عسكرية صغيرة وبسيطة، وأجبروا الملك الناصر داود صاحب الكرك على قيادتها مقابل إخراجهم من السجن، لكن هذه النجدة لم تصل إلى بغداد بسبب تأخرها وسقوط بغداد في يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(١)</sup>. وعندما علم الناصر داود بسقوط بغداد حاول الهرب؛ خشية العودة إلى السجن، لكنه مات في السنة نفسها (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(٢)</sup>.

فلو افترضنا أن هذه القوة العسكرية الصغيرة وصلت إلى بغداد، فماذا يمكن أن تفعل إزاء الجيوش المغولية؟

#### ٤. الأعراب

هم البدو والقبائل العربية التي تقطن البوادي العراقية وأراضي الخلافة العباسية، وكانوا يتطوعون في جيش الخلافة في حالات الحرب<sup>(٣)</sup>.

والقبائل العربية في هذه الفترة عرفت بالولاء المنتقل من طرف إلى آخر، فلم يكن لها ولاء دائم وثابت نحو جهة معينة في العراق؛ لأن الميول والمصالح هي التي كانت تحكمها، وحتى الخلافة العباسية لم تتمكن من الحصول على الولاء الدائم والكامل من هذه القبائل<sup>(٤)</sup>.

ونظراً إلى حاجة الخلافة إلى هؤلاء المتطوعة الذين تقع على عاتقهم المهمة العظيمة في الدفاع عن أراضي الخلافة إلى جانب جيش الخلافة، فقد اتبع الخليفة المستعصم بالله سياسة الاستنفار للقبائل العربية للدفاع عن بغداد وأراضي الخلافة؛ فعندما وصل المغول إلى منطقة بعقوبة وشهزور سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) أرسل الخليفة إلى البوادي من ينادي بالتطوع في جيش الخلافة من القبائل العربية، فتجمع الكثير من الأعراب، وسار جيش الخلافة بقيادة القائد إقبال الشرايبي بعد مناوشات، انسحب المغول، وعادت قوات الخلافة إلى بغداد، ورجع المتطوعة من الأعراب إلى أعمالهم<sup>(٥)</sup>.

(١) الدواداري، كنز الدرر، جـ٨، ق١، ص ٣٧. ابن الشحنة، روضة المناظر، بهامش كتاب الكامل، جـ٩، ص ١١٤.

(٢) الدواداري، كنز الدرر، جـ٨، ق١، ص ٣٧.

(٣) الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص ١١١.

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٣، ص ١٣١-١٣٢.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٩-٢٠٠.

### ٣- أصناف الجيش المساعدة:

كان الجيش يحتاج إلى خدمات تعينه على أداء مهمته في القتال والحرب، ومن أهم هذه

الخدمات:

#### أ- الاستخبارات العسكرية

اهتم الخلفاء العباسيون باستخدام الاستخبارات العسكرية كي لا يصيبهم الضعف والغفلة، فيقوى العدو والخصوم عليهم، وقد انتشرت العصبية والمذاهب بين سكان بغداد؛ وذلك لأنها متعددة الأجناس والعناصر، لذا كان لا بد من التجسس داخل البلاد وخارجها لمعرفة ما يحدث للمحافظة على الملك<sup>(١)</sup>، وخاصة في أوقات القتال؛ لأنه من آداب الحرب إنفاذ العيون والجواسيس وأصحاب الأخبار، من أجل جلب المعلومات<sup>(٢)</sup>، وقد كان العباسيون أشد اهتماماً بأمر المخابرة وتأسيس المواصلات بين وحدات الجيش والمحاربين ومقرّ الخلافة<sup>(٣)</sup>، وعند اختيارهم للجاسوس ينبغي على الخليفة أو قائد الجيش أن يصدق عليه الأموال والمكافآت، ويبعد عنه المشكلات؛ ليكون هدفه خدمة الدولة فقط، وعليه أن يظهر له الود والمصافاة ويتحفه بالإحسان، ويعدّه بالمزيد، ويتعهد وأهله بالبر في حضوره وغيابه<sup>(٤)</sup>، وأمر الجواسيس بيقى سراً لا يعرفه سوى قائد الجيش؛ لأن ذلك يؤدي إلى انتشار الخبر وظهوره، وعليه أن يتحرز أن لا يعرف جواسيسه بعضهم؛ فإنهم إذا عرفوا بعضهم ربما اتفقوا على أمر ورتبوه وأخبروه به إذا رجعوا، أو اتفقوا على ممالاة العدو والميل إليه والتعاون معه<sup>(٥)</sup>، لذلك فقد كان الخلفاء والقادة العسكريون يعملون على لقاء الجواسيس وأحدأً وأحدأً في الخفاء لكي لا يكشف أمرهم<sup>(٦)</sup>.

وقد استخدم الحَمَام الزاجل في نقل المعلومات والمخابرات العسكرية<sup>(٧)</sup>؛ ففي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وصلت الأخبار من جواسيس الخلافة العباسية بوصول المغول إلى خانقين وقربهم من بعقوبة؛ حيث نهبوا وقتلوا، وأن عدتهم سنة عشر ألفاً، فأمر الخليفة المستعصم بالله

- (١) عبدالغني، نظم الاستخبارات، ص ١٠٤، ١٠٥.
- (٢) الخوارزمي، مفيد العلوم ومبيد الهموم، ص ٥١٢.
- (٣) ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٦٣.
- (٤) الأوسي الأنصاري، تفريخ الكروب، ص ١٨.
- (٥) الأوسي الأنصاري، تفريخ الكروب، ص ١٩.
- (٦) محفوظ، جمال، فن الحذب في الجاهلية والإسلام، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دم، ١٩٨٧م، ج٣، ص ٨٧.
- (٧) الحسن، أثار الأول، ص ٨٣، ٩٤. ثابت، العسكرية، ص ٣٨.

بالاستنفار للأعراب من البوادي والرجالة من الأعمال، وأمر العسكر بالظهور إلى ظاهر البلد استعداداً لمواجهة العدو حيث حصنت بغداد (١).

إن، فإن للاستخبارات العسكرية أهمية لا غنى عنها للجيش والقيادة العسكرية؛ لأنها تجعلها على إطلاع تام بتحركات الأعداء، وتضع بين أيديهم معلومات مهمة للافادة منها، وذلك حتى لا يؤخذوا على حين غفلة.

## ب- الخدمات الطبية

كان الخلفاء العباسيون يحرصون على أن يرافق الجيش الأطباء والخدمات الطبية والمرضين وغيرهم من أجل معالجة المرضى والجرحى وإخلاء ساحات القتال منهم ونقلهم إلى المستشفيات الميدانية في أثناء الحروب بوساطة نقالات خاصة تُحمل على البغال والجمال (٢). ويذكر سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) أن طبيباً نصرانياً، يكنى بأبي الفتح كان يرافق الخليفة المسترشد العباسي في حروبه، إلى جانب العديد من الأطباء والخدمات الطبية (٣).

وكان يخصص للأطباء في جيش الخلافة أماكن في المعسكرات لإقامة خيامهم (٤)، ووضع معداتهم وأجهزتهم من نقالات وغيرها، التي تستخدم لمعالجة المرضى والجرحى من الجند (٥). وكان الطبيب عند معالجته المرضى والجرحى في أثناء القتال يوصي بأن يكون عارفاً أولاً بحقيقة المرض وعلاماته، وأن يصف الدواء المناسب للصالح للمرض، وفي حالة الكسر أو الجرح، عليه أن يعرف ما يحتاج إليه جبر الكسور وإخاطة الجروح، وليعمل على حفظ الأعصاب، وشد الأعضاء حتى يتمكن من معالجة المصاب، وليحمل معه ما يكون ويفيد لإخراج النصال في أوقات الحرب؛ لأن السهام تغوص في الجسد مما يصعب إخراجها ومعالجتها (٦). وقد يرافق الجيش جماعة متخصصة بأمراض الخيل، كالأطباء البيطرة (٧).

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٠، ١٩٩.

(٢) ثابت، العسكرية، ص ١٣٢. الجنابي، تنظيمات الجيش، ص ٤٢.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ١١٢.

(٤) محفوظ، فن الحرب في الجاهلية والإسلام، ج ٣، ص ٦٥.

(٥) علي، مختصر، تاريخ العرب، ص ٣٦٩. الرفاعي، الإسلام في حضارتين، ص ١٩٠، الجنابي، الجيش والشرطة، حضارة العراق، ج ٦، ص ٢٧٣.

(٦) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصلح الشروف، ص ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩.

(٧) جهادية القرغولي، العقلية العربية، ص ١٧٦.

## ج- الأصناف الأخرى

لقد عرف في العصر العباسي أصناف مساعدة أخرى مثل: الأدلاء والمهندسون والمؤذنين والقضاة والمترجمين وغيرهم<sup>(١)</sup>، التي لا غنى للجيوش الإسلامية عنها، لكن الباحثة لم تعثر على معلومات واضحة عن وجودهم في عهد المستعصم بالله، باستثناء الأشخاص الذين قاموا بدور التفاوض مع المغول أثناء حصار بغداد<sup>(٢)</sup>.

### ٤- تسلسل مراتب الجند

لقب القادة العسكريين في جيش الخلافة، في هذه الفترة، بالأمير والزعيم والعريف والملك والدويدار وأمير الجيوش، وغيرها من الألقاب التي تدل على الرتب القيادية في الجيش، وقد زاد الاهتمام بقيادة الجيوش، والرتب القيادية في العصر العباسي، فدخلت العديد من الألقاب والرتب العسكرية إلى الجيش، ومنها:

أ- الأمير: ويكون تحت قيادته عشرة آلاف رجل<sup>(٣)</sup>، وهو القائد العسكري للجيش والمقدم عليه، ويعينه الخليفة<sup>(٤)</sup>؛ حيث تنقاد إليه الجند، فينتقمون لتقدمه ويتأخرون لتأخره، وهو أمير اللواء، وقد قتل الكثير من الأمراء البغداديين وأعيان العسكر في موقعة بغداد سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)<sup>(٥)</sup>.

ب- أمير الجيوش: وهي رتبة عسكرية رمزية، ظهرت مع مرور الوقت، ومع ذلك بقي الخليفة القائد الأعلى للجيش<sup>(٦)</sup>، ففي سنة (٥٢٨هـ / ١١٣٣م) خلع المسترشد على قائد الجيش الأمير إقبال الشرابي الخادم خلع الملوك ولقب ملك العرب، سيف الدولة ملك الجيوش، فركب بالخلع ونُثرت عليه الدنانير في الديوان العزيز<sup>(٧)</sup>.

ج- أمير الخليفة: وهي رتبة عسكرية رمزية، ويتصف صاحبها بالتدين والعقل والشجاعة والحزم بمواقع الأمور، وهو يصحب الخليفة في السفر، فيركب بركوبه وينزل لنزوله

(١) الهاشمي، الحضارة العربية، ص ٨٥. المناصير، محمد عبدالحفيظ، الجيش في العصر العباسي الأول، ط١، دار مجدلاوي للنشر، عمان، ٢٠٠٠م، ص ١٥٧-١٦٩.

(٢) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٣) Terncwise, The war of the crurades, P. 43

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٢٢. الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٨١.

(٥) العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٠.

(٦) ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٦٢.

(٧) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص ٢٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٠٦.



كالحرس الخاص، ويراقبه ولا ينفرد عنه ولا يُمكن أحداً من الاجتماع به خشية أن يقر بالمعاهدة لغير الخليفة، وليس عليه السفر إلا ملازماً للخليفة<sup>(١)</sup>.

د- الزعيم: وهي من الرتب القيادية العالية في الإمارة، وهو منصب كبير ومميز، وصاحب هذه الرتبة يلبس العمائم وتحمل الكوسات<sup>(٢)</sup> معهم إذا ساروا كما تحمل الدريشات بين أيديهم<sup>(٣)</sup>، والأمير عادة يرقى إلى رتبة زعيم لعلو قدرها وأهميتها، ويزاد في معاشه أو إقطاعه، ففي سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) استدعى الأمير فخر الدين أبو المظفر تكلات بن عبدالله التركي الناصري إلى دار الوزير، فألحقه بالزعماء وجعل معيشته ألف دينار، وكان حسن الأخلاق والصورة<sup>(٤)</sup>. وفي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٥م) خلع على الأمير فلك الدين محمد بن سنقر، وقلد زعامة شهرزور<sup>(٥)</sup>، وخلع على ولده فخر الدين البهلوان وألحق بالزعماء وقرر له كل سنة ألف دينار، فلما توفي والده سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، خلع على الأمير فخر الدين وزيد في معيشته ألفا دينار، فكمل له ثلاثة آلاف دينار في السنة<sup>(٦)</sup>، والأمير الكبير الذكر الناصري هو أيضاً من كبار الأمراء ومن ذوي العمائم، وتوفي سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م)<sup>(٧)</sup>، والأمير قيران أبو بكر بن عبدالله بن شمس الدين قيران بن عبدالله البغدادي الناصري، وقد أمّر بعد موت أبيه، وجعلت معيشته ألف دينار وعدته خمسون فارساً، ثم رغب في زيادة معيشته ورفع منزلته، فخلع عليه في دار الوزارة وأعطى الدريشات والحراب وجعلت معيشته أربعة آلاف في كل سنة، وقد توفي سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)<sup>(٨)</sup>. وخلع المستعصم بالله أيضاً على الأمير عماد الدين أبي الفوارس طغرل بن عبدالله المستعصمي، وجعله زعيماً وجعل له خمسون فارساً تحت قيادته وجعلت معيشته ألف دينار في السنة، وكان أميراً شجاعاً توفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(٩)</sup>.

- (١) ابن كنان، حقائق الياسمين، ش ١٣٣.
- (٢) الكوسات: صنوجات من نحاس، شبة الترس الصغيرة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٨.
- (٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص ٥٢. فهد، تاريخ العراق، ص ٢٤٩.
- (٤) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ٣، ص ٤٩٣.
- (٥) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين أربل وهمدان، القزويني، آثار البلاد، ص ٣٩٧.
- (٦) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ٣، ص ١٣٦-١٣٧.
- (٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٥١.
- (٨) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ٢، ص ٢٤، ١٠٠.
- (٩) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ٢، ص ٧٤٥.

هـ- أمير علم: وهو الذي يحمل الأعلام ويهتم بها في الحروب والمعارك ويحرص على عدم وقوعها على الأرض في أثناء القتال (١)، وقد كان سليمان بن برجم أمير علم الخليفة في موقعة بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)؛ حيث رافق الجيش في محاربة المغول وقتل في أثناء القتال (٢).

و- أمير السلاح: وهو المقدم على السلاح والمتولي حمل السلاح للخليفة في المجمع والاحتفالات، وهو المتحدث في خزانة السلاح، وله الحق في الإشراف عليها، ويكون أحد الأمراء المقدمين (٣). وقد ذكر الأمير أبو الفوارس ابن عبدالله التركي الظاهري، وهو أحد من تولوا هذا العمل؛ إذ كان مقدماً في الأيام المستنصرية، فكان برتبة أمير السلاح، وأرسل في صحبة صاحب الديوان أحمد بن الدامغاني إلى الشام، فلم تحمد صحبته وعزل واعتقل، ولما ولي المستعصم بالله أطلقه ورتبه شحنة بغداد وقتل في الغزو المغولي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) (٤).

و- المقدم: يكون في العسكر على ألف من الفرسان عند القتال والسفر ومضافة مائة، لذلك يقال: (مقدم ألف ربما زاد في مضافاته العشرة والعشرين) (٥)، ففي وقعة بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، قتل مجاهد الدين أيبك الدويدار وولده أسد الدين وكان مقدماً على خمسة آلاف فارس (٦).

ح- النقيب أو العريف: النقيب لغة: الأمين أو العريف (٧)، وهو القائم على الجند في عرضهم وإحضار ما يطلب منهم، ويتكلم عن الجند في المحاكمات والخصومات (٨). ويقوم القائد بتعيين العرفاء والنقباء ليعرف منهم أحوال الجند (٩)؛ لأن العريف متمكن من مخاطبته مع الجند (١٠).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٢٨.

(٢) العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٢٨. المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ٢٢٢.

(٤) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص ٣٦.

(٥) ابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٠٧.

(٦) العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٢٨.

(٨) ابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٣٤.

(٩) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٤٤، ٤٥.

(١٠) الحسن، أثار الأول، ص ٣٨.

ولم يكن يستغنى عن هذه الرتبة - نظراً لأهميتها - في الحروب؛ حيث كان العريف يرافق قائد الجيش دائماً، فكان كل مقدم معه ألف عريف (نقيب)، وتحت رتبة هذا النقيب نقباء صغار (١).

ي- الملك: لقد أطلقت على الأمراء الكبار في جيش الخلافة العباسية (٢)؛ حيث كانوا يكرمون بالخلع الخاصة من القباء الأسود والعمامة الكحلية، ففي سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) خلع على الأمير أبي المظفر الحسن بن محمد بن كر بن محمد بن أبي الهيجاء الشيباني الكردي الملك، وكان من الأمراء الأكابر، بل من الملوك الأكارم، وخلع عليه القباء الأسود والعمامة الكحلية المذهبة وهي خلع السلطنة، وأنعم عليه بمركوب خاص، وأذن له بضرب النوبة الملكية، وزيد في معيشته ألفاً ديناراً، فصار كل سنة أربعة عشر ألف ديناراً وتوفي سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) (٣). ويصف المؤرخ ابن الكازروني حال الملوك في جيش الخلافة: "ولقد كان الملوك كالأسود الضواري أو كالعقبان على ظهور المهاري" (٤). وقد لقب مجاهد الدين الدويدار الصغير بالملك، لكونه كان مقدماً على جيش الخلافة العباسية بعد وفاة القائد إقبال الشرايبي سنة (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، فكان الدويدار آخر ملوك بغداد؛ حيث لم يعين بعده بسبب سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، ووفاته في السنة نفسها (٥).

ك- الدويدار أو الدوادار: هو لقب يطلق على الشخص الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيرهما، ويتولى أمرهما، وهي كلمة مكونة من لفظين إحداهما عربي، وهو الدواة والمداد التي يكتب منها، والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك، فيكون المعنى ممسك الدواة (٦)، وأيضاً هو الشخص الذي كان يتسلم الرسالة وعامة الأمور عن الخليفة ويناوله العلامة ويشاوره في الأمور المهمة، كما يكتب إشارته بخطه بقلم دقيق على عهود وقصص الإقطاعات والنزولات قبل الكشف، فيكتب بإخراج التواقيع الشريفة والمراسيم، فكان من أوسع الأمراء باعاً وأمكنهم سفراً وأكثرهم تصرفاً بباب الخليفة (٧)، بقي هذا اللقب عالقاً بأسمائهم كالأمير علاء الدين الطبرسي الظاهري المعروف

(١) الحسن، آثار الأول، ص ٣٩.

(٢) البيهقي، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٨٧.

(٣) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، قسم ٣، ص ٣٤.

(٤) ابن الكازروني، مقامه في قواعد بغداد، ص ٥٣.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٦-٣٣٧. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص ١٢٨.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٣٤.

(٧) ابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١١٧.

بالدويدار الكبير؛ حيث كان الخليفة الظاهر قد استأراه من أحد المماليك، ثم استخلف المستنصر بالله فقدمه وقربه وأقطع قوسان، وقد توفي سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، وقد انتقل العديد ممن تولى هذه المهمة إلى الجيش وأصبحوا من أكابر القادة العسكريين<sup>(١)</sup>، وكذلك الأمير مجاهد الدين أبو الميامين أيبك المعروف بالدويدار الصغير، وقد ذكر أنه ملك جزيل الأموال والرقيق والدواب والعقار والبساتين والضياع، فكان يصل إليه من إقطاعه أكثر من مليون دينار سنوياً، كما كان يترفع على وزير الدولة، وعلى مقدم العساكر شرف الدين إقبال الشرابي، فلم يركب إلى أحد سوى الخليفة، وكان الأمراء والزعماء يقصدونه في داره تقرباً إليه<sup>(٢)</sup>.

#### ٥- نفقات الجند

كان ينبغي على الخليفة النظر في حالة جيشه وأرزاقه وإغداق الأموال على الجند، وتوسيع النفقات عليهم وبحسن إليهم بما يقوم بمصالح شأنهم ونفقاتهم ونفقات عيالهم ودواليهم والقيام بمصالح خدمهم وأتباعهم وسلاحهم<sup>(٣)</sup>؛ حيث اهتمت الخلافة العباسية بالإنفاق على الجيش من أجل تقويته ليقدم الخلافة، ويقوم بتحقيق أغراضها، فتنوعت أوجه الإنفاق على الجيش وتعددت أشكالها، فهناك الرواتب والإقطاعات وشراء الأسلحة وإقامة التحصينات الدفاعية وتمهيد الطرق، وإقامة الجسور وغيرها لخدمة الأغراض العسكرية<sup>(٤)</sup>.

كان الراتب يدفع نقداً من قبل خزينة الدولة؛ حيث يتناسب مقداره وموعد صرفه مع أهمية الجند عند الخليفة، وحسب الكفاءة والرتب العسكرية والقدرة على القتال<sup>(٥)</sup>، أما المتطوعة في جيش الخلافة، فكانوا يتقاضون راتباً مؤقتاً في فترات الحرب فقط، وتكون أدنى من رواتب الجند<sup>(٦)</sup>، فيحصلون على نفقاتهم من أموال الصدقات<sup>(٧)</sup>.

وفي المناسبات الخاصة كالزواج، والعمامة للدولة كالأعياد، كانت تقدم الأموال العينية لكبار الأمراء والأجناد<sup>(٨)</sup>.

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٩٠، ٥٩١.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٦. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٧٦، ٤٧٧.

(٣) الحسن، آثار الأول، ص ١٦٨.

(٤) ابن الجوزي، مرآة الزمان، مج ٨، ق ١، ص ٥٢٣. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٦.

(٥) الصابي، الوزراء وتحفة الأمراء، ص ١٥، ١٧.

(٦) كاهن، تاريخ العرب، ص ١٦٦.

(٧) عبدالفتاح، نظام الحكم في الدولة العباسية، ص ١٩٦.

(٨) حول الخلع، انظر الفصل الرابع، ص ٢٤٦-٢٤٧.

ونظراً لاعتماد صرف الأرزاق في الديوان على نظام الجباية والخراج ومواعيده، ومدى انتظام ورود الأموال إلى خزينة الدولة، أو تبعاً لرغبات القائمين على الرواتب، فقد كانت أحياناً تتعرض للتأخير أو الانخفاض، وعندها يتمرد الجند مطالبين بمعاشهم، ففي سنة (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) شغب الجند مطالبين بالزيادة في معاشهم وصرفها في موعدها، وبالغوا في القول وألحو في الطلب، فرفض إقبال الشرابي قائد الجيش طلبهم، فنفروا وخرجوا على فورهم إلى ظاهر السور، وأعلنوا تذرهم<sup>(١)</sup>. وقد تحدث كثير من العلماء في هذا الأمر من حيث عدم تأخير الرواتب وضرورة صرفها في موعدها، فقال القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٧م): " يجب تقدير العطاء وما يستحقه كل واحد في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه إليهم في وقت معلوم لا تأخير فيه ولا تقديم "<sup>(٢)</sup>. وهذا يدل على أهمية صرف الرواتب في وقتها وذلك لحاجة الجنود إليها في حياتهم اليومية، وكذلك ليأمن الخليفة شرهم، ويضمن وقوفهم إلى جانبه، وعدم التمرد.

كما أن قضية الأجناد ومنع رواتبهم لتوفير أموال في خزانة الدولة، فيها خطورة كبيرة على مستقبل الخلافة، فعندما أشار الوزير ابن العلقمي على الخليفة المستعصم بالله بإسقاط الجند من الديوان ليوفر أرزاقهم، وبالمقابل فرض أرزاق على البياعات والأسواق، وفي المعاش، فاضطرب الناس وضاعت الأحوال وعظم الحرج في بغداد<sup>(٣)</sup>، في حين كان فيه المغول على مسافات قصيرة من بغداد، فاضطر الجند إلى سؤال الناس بدافع العوز، وبذل وجوههم في الأسواق والجوامع<sup>(٤)</sup>، فترك بعضهم العراق إلى الشام، والتحق آخرون بمناطق أخرى<sup>(٥)</sup>. ولكن ليس من المعقول أن يكون المغول على الأبواب والخليفة المستعصم بالله يمنع الرواتب ويؤخرها، ولا يحسب حساب للجيش الذي أساساً يعتمد عليه في الدفاع عن الخلافة، ولو كان الأمر كذلك، لما حصن الخليفة المستعصم بالله بغداد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) على إثر وصول المغول إلى مشارفها، ونصبت المنجنيقات والعرادات على الأسوار، واستخدم النشاب للدفاع عنها، كما خرج الجيش العباسي لمحاربة العدو خارج المدينة<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ص ١٦٨، ١٦٩.

(٢) القلقشندي، مآثر الأنفة، ج ١، ص ٦٠.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٥٣٣.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٨٧. الكتبي، عيون التواريخ، ج ٢، ص ١٢٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٥٧.

(٥) السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٤٩-١٢٥٨م)، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٨م، ص ٣٦٠.

(٦) الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٣٠.

### ثالثاً: الدواوين

تتباين المصادر حول الأصل اللغوي لكلمة الديوان، فبعضهم يرجعها إلى جذور أعجمية، ويقال عن أصل هذه التسمية إن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يرددون بصوت منخفض ما يدوتونه كأنهم يتحادثون فقال: (ديوانه)؛ أي مجانيين، فسمي موضعهم بهذا الاسم وحذف الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً، فقيل ديوان<sup>(١)</sup>، وفي رواية أخرى قيل إنه اسم للشياطين بالفارسية<sup>(٢)</sup>؛ حيث سُموا بذلك لحذقهم بالأمر ووقوفهم على الجلي منها والخفي<sup>(٣)</sup>.

وترجع مصادر أخرى أصل الكلمة إلى العربية؛ فقد وردت في الحديث للدلالة على الدفتر أو الكتاب، يدل على ذلك ما روته عائشة - رضي الله عنها - عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبا الله به، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله"<sup>(٤)</sup>، كما ورد في حديث "لا يجمعهم ديوان حافظ"<sup>(٥)</sup>، بمعنى الجمع وبمعنى كتاب أو سجل تدون فيه الأشياء<sup>(٦)</sup>.

ويقول الماوردي: "والديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال"<sup>(٧)</sup>.

وكذلك يرد الديوان بمعنى مجموعة قصائد من الشعر حُفظت أو سُجّلت، ومنه قول ابن عباس (ت ٦٨هـ/٦٩٢م): "إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب"<sup>(٨)</sup>.

إذن نستنتج أن كلمة ديوان عربية؛ حيث استخدمت منذ وقت مبكر في الأحاديث النبوية والأشعار والأقوال.

- (١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، مج ٦-٨، ج ٨، ص ١٤٨.
- (٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٢٤. الرفاعي، الإسلام، ص ١٣١.
- (٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٢٤.
- (٤) أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد الشيباني (ت ٢٤١هـ/٨٥٣م)، المسند، المطبعة اليمنية، القاهرة، ١٣١٣هـ، ج ٦، ص ٢٤٠.
- (٥) البخاري، صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٣٠.
- (٦) ابن منظور، لسان العرب، مج ٣، ص ٤٥٨.
- (٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٩٩.
- (٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٢٤. الناطور، شحادة وآخرون، النظم الإسلامية التشريعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والدفاعية، ط ١، دار الأمل للنشر، إربد، ١٩٩٢م، ص ٨٨.

وفي العصر العباسي اتسعت الدواوين عما كانت عليه في العهد الأموي؛ وذلك بسبب

اتساع نفوذ الخلافة في بلاد الشرق حتى وصل إلى بلاد ما وراء النهر وبلاد الهند<sup>(١)</sup>، وقيل إن العباسيين وضعوا منذ عهد أبي العباس نظاماً إدارياً محكماً، وكانت دواوينهم المتعددة تشرف إشرافاً تاماً على هذا النظام<sup>(٢)</sup>، كما أن ظهور الدواوين كبقية المؤسسات كان نتيجة لحاجة العرب إلى التنظيم العسكري والإداري والمالي<sup>(٣)</sup>، وقد تطورت جميع الدواوين وفقاً لاحتياجات الدولة أولاً، وتطور الأوضاع فيها ثانياً، فالدواوين التي كانت موجودة قبل عصر الخليفة المستعصم بالله استمرت في وجودها وإدارتها في عهده، وأهمها:

#### أ- ديوان الإنشاء:

إن ديوان الإنشاء من أقدم الدواوين في الإسلام، بل أول ديوان وضع في الإسلام، ذلك إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يكتب أمراءه وقادة سراياه من الصحابة، وكذلك يكتب ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وأيضاً كانوا يكتبون له العهود والإقطاعات والأمانات<sup>(٤)</sup>، وفي ذلك قال الرسول، صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup>: "إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، ، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية أو قال السريانية"، وذلك في معرض حديثه لزيد بن ثابت حيث تعلمها في سبع عشر ليلة.

ومهنة صاحب الإنشاء شاقة يحتاج صاحبها إلى اللباقة والبلاغة في الكلام؛ لأن كلامه موجه في غالب الأحيان إلى أصحاب الجاه والسلطان، لما يستوجب منه التأني في الكتابة ويتذكر دائماً أن لكل مقام مقالاً على خلاف غيره من الكتاب<sup>(٦)</sup>، كما تقع عليه مهمة ترتيب المعاني حول المكاتبات التي تخص أعمال الدولة الداخلية كمراسلات الخليفة لأمرائه وأرباب دولته أو

(١) خفاجي، محمد توفيق، تطور النظم الإدارية والمالية في بلاد العراق والفرس من مستهل العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، إشراف محمد جمال الدين سرور، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١١٢.

(٢) Khashab, Yahya-El. "The Islamic concept of state", in: Bulletin of the faculty of Arts, cairo faculty of Arts. Vol. 18, 1956, pp1-7.

(٣) الدوري، النظم الإسلامية، ط١، مطبعة نجيب، بغداد، ١٩٩٠م، ص ١٣٩.

(٤) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٩٥-٩٦. النبراوي، فتحة عبدالفتاح، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ط٧، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٠٠. المعايطه، زريف مرزوق، نشأة وتطور الدواوين في صدر الإسلام، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٨٥م، ص ٤٦.

(٥) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٩٦.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ١٦٥-١٦٦.

مع البلدان الأجنبية كتبادل الرسائل والاتفاقيات والهدن<sup>(١)</sup> وختمها بخاتم الخليفة بعد اطلاعه عليها<sup>(٢)</sup>.

وفي العصر العباسي الأخير تطور هذا الديوان وأصبح لصاحبه أهمية خاصة إلى الحد الذي تسند إليه الوزارة أو نيابة الوزارة<sup>(٣)</sup>؛ حيث كان يقوم به بنفسه إلى أن رتب بين يديه كاتباً هو العدل أبو المعالي القاسم ابن أبي الحديد المدائني<sup>(٤)</sup> وهو الذي كتب قصيدة<sup>(٥)</sup> يمدح بها الخليفة المستعصم بالله، وذلك عندما وصلت الطيور الحمام سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)<sup>(٦)</sup>، وأيضاً محمد بن عبداللطيف التعاويذي الذي توفي في السنة نفسها التي تولى فيها المستعصم بالله الخلافة؛ أي (٦٤٠هـ/١٢٤٢م). وكان كاتباً جيداً، متواضعاً، ذا فضل<sup>(٧)</sup>، وأيضاً الكاتب والأديب عز الدين بن أبي الحديد الذي تولى الكتابة في هذا الديوان منذ عهد الخليفة المستعصم بالله، واستمر حتى نهاية عهد الخليفة المستعصم بالله<sup>(٨)</sup>.

#### ب- ديوان الزمام

يُرجع نشأة هذا الديوان إلى عهد الخليفة المهدي (ت ١٥٨هـ/٧٨٥م)<sup>(٩)</sup> الذي قسم جهاز الدواوين قسمين: الأصل والزمام؛ أي الإدارة والمال، فجعل لكل ديوان زماماً ورجلاً يضبطه، وقد سُمي بديوان الأزمة في العاصمة، وبديوان الزمام في الولايات، وصاحب هذا الديوان يشبه ديوان المحاسبة اليوم<sup>(١٠)</sup>، ولهذا الديوان عدة تسميات منها السديوان أو ديوان

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج١، ص ٢٤٦. سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٠١.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٢٨٦. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٧.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٢-٢١٣.

(٥) حول القصيدة، انظر الفصل الأول، ص ٥٤.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٢-٢١٣.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٨.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٩) الجشيري، أبي عبدالله محمد بن عيوس (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م)، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ط١، مطبعة مصطفى الباني، القاهرة، ١٩٣٨م، ص ١٤٦.

(١٠) الجشيري، الوزراء والكتاب، ص ١٤٦. حسن، النظم الإسلامية، ص ١٥٩. الرفاعي، الإنسان والحضارة العربية. دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٢٢٧.



الخلافة أو الديوان العزيز<sup>(١)</sup> في المكاتبات الرسمية، كما يتميز بأنه أكثر هيبة واحتراماً من بقية الدواوين الأخرى<sup>(٢)</sup>، وتصل مكانة صاحبه إلى درجة نائب الوزارة<sup>(٣)</sup>.

ومن أشهر موظفي ديوان الزمام<sup>(٤)</sup>:

أ- صدر الديوان:

هو رئيس ديوان الزمام حيث يقوم بالإشراف عليه ومتابعة أعماله، ومن أشهر

الأشخاص الذين تولوا صدرية ديوان الزمام:

- فخر الدين أبي سعيد المبارك بن يحيى المخزومي، الذي نقل إلى صدرية الزمام

سنة (٦٣٣هـ/١٣٣٥م)<sup>(٥)</sup>.

- أبو عبدالله محمد بن أبي البقاء أحمد بن أبي عيسى الشهراباني؛ حيث تولى

صدرية المخزن أكثر من مرة إلى أن توفي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)<sup>(٦)</sup>.

ب- المشرفون به:

هم الأشخاص الذين يساعدون صدر الديوان ويشرفون على ديوان الزمام،

وأشهرهم:

- عميد الدين منصور بن عباس، الذي رتب لهذه الوظيفة في سنة (٦٤٣هـ/

١٢٤٥م) بدلاً من فخر الدين محمد بن أبي عيسى<sup>(٧)</sup>.

- فخر الدين أبو طالب أحمد الدامغاني، الذي تولى إشراف الديوان سنة

(٦٣٠هـ/١٢٣٢م)<sup>(٨)</sup> وفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) نقل الدامغاني إلى صدرية

الديوان عوضاً عن فخر الدين المخزومي<sup>(٩)</sup>.

(١) فهد، تاريخ العراق، ص ١٤١. الرفاعي، الإسلام، ص ١٣٨.

(٢) الأيوبي، مضممار الحقائق، ص ٢٠٧.

(٣) الأيوبي، مضممار الحقائق، ص ٢٠٥. فهد، تاريخ العراق، ص ١٥٥.

(٤) معروف، تاريخ علماء المستنصرية، ج٢، ص ١٥٧-١٥٩.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٨٢؛ مجمع الآداب، ق٤، ج٢، ص ٢٩٢. القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٧.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٧٤.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٧، ٢٨٧.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤٣.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٢. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٦٣.

## ج- ديوان العرض (الجند):

وكان يطلق على هذا الديوان في صدر الإسلام ديوان الجند، ثم أصبح يطلق عليه في ما بعد باسم ديوان العرض، وقيل: " إن أول من صيّر ديوان العرض هو المأمون " (١)، إذن هو يختص بالجيش والأمور العسكرية (٢)، وكذلك أطلق على الشخص الذي يقوم عليه بالعارض (٣)، ويشترط بالعارض أن يكون ذكياً واسع الصدر ذا فكر سليم يمكن الاعتماد عليه في الأمور المهمة وذا خبرة كبيرة بالأمور العسكرية وذاكرة واعية ليتمكن من معرفة رجال جيشه ورتب موقعهم؛ لأنه هو الأساس في انتظام أمر الجيش (٤) في أثناء الحرب والتدريب وتوفير المسيرة لهم، وقد حصل تطور على هذا الديوان سنة (٦٣٥هـ / ١٢٣٧م)؛ حيث أصبح له عارضان أحدهما يختص بالجند الغرباء، وقد تولاه العدل فخر الدين أبو طالب أحمد بن الدامغاني، والآخر يختص بالعساكر البغدادية وتولاه الحسن بن المختار العلوي (٥)، وقد صادف أن أصبح لديوان المجلس حاجبان، فقبل في ذلك:

(البحر الخفيف)

هذه دولة حوت كل حسن وجهها مشرف بديع المعاني

قلها حاجبان زيدا جمالا ولها من جمالها عارضان (١)

وأبرز الذين تولوا ديوان العرض في عهد المستعصم بالله العارضان تاج الدين الحسن بن المختار العلوي، وفخر الدين أحمد بن الدامغاني (٧).

وكانت هنالك عادة متبعة لاستعراض الجيش في أواخر العصر العباسي؛ حيث يستعرض الخليفة أو نائب الوزارة الجيش في المناسبات وأيام الأعياد (٨)، فتمر القطعات من

(١) اليعقوبي، أحمد أبو يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، مشكلة الناس لزمانهم،

تحقيق وليم فلورد، دار الكتاب الجديد، ط٢، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣١.

(٢) فهد، تاريخ العراق، ص ٢٤٤.

(٣) السمعاني، أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منظور التميمي (٥٠٦-٥٦٢هـ)، الأنساب، تحقيق

عبدالرحمن بن يحيى اليماني، ط٢. نشر محمد أمين دمج، بيروت، ١٩٨٠م، ج٨، ص ٣١٢. ابن

الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٤) الحسن، آثار الأول، ص ٦٩-٧٠.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٠٣-١٠٤.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٠٣-١٠٤؛ مجمع الآداب، ق ٣، ج٤، ص ٩٩.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦١. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٥.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤.

أمامه ويتفقد أسلحته وعدته وخبوله وتدريبه، فيوجه القادة والأمراء ويحاسبهم إذا لاحظ أي نقص أو خلل يؤثر في قوة الجيش وهيئته (١).

#### د- ديوان المخزن:

في البداية كان المخزن تابعاً لبيت المال (٢) أو لديوان الخراج، إلا أنه أصبح في الفترة الأخيرة من العصر العباسي ديواناً مستقلاً يُسمى بديوان المخزن (٣)، وصاحبه يُعرف بالخازن (٤) أو بصاحب المخزن أو صدر المخزن (٥)، وكان له أهمية كبيرة في الدولة؛ فلذلك كان يختار من ذوي الكفاءة والخبرة بالشؤون المالية، ويخلع عليه من قبل الوزير والخليفة، ويعطي مركوباً كاملة ومبلغاً من المال يصل إلى ألف دينار وداراً مجاورة للديوان (٦).

وموظفو ديوان المخزن هم الرئيس أو الصدر والمشرف والكاتب والخازن (٧) وعدد من الموظفين الذين لهم خبرة باستيفاء الأموال والضرائب، وكان أبرز موظفي صدر المخزن في عهد المستعصم بالله أبا منصور معلى بن علوان الدباهي الفخري؛ حيث كان موجوداً في سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) (٨)، وأيضاً فخر الدين محمد بن أبي عيسى الشهرستاني (٩)، وفي سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، أضيفت صدرية المخزن إلى صاحب الديوان فخر الدين بن الدامغاني لكنه لم يمكث طويلاً، وبعد ذلك وفي السنة نفسها (٦٥١هـ/١٢٥٣م) رتب بالمخزن أبو الفضل محمد

- (١) ثابت، نعمان، الجندية في الدولة العباسية، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٥٦م، ص ٢٦٦.
- (٢) الخوارزمي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م)، مفاتيح العلوم، ط ١، مصر، ١٩٢٣م، ص ٤١.
- (٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، المقدمة، ذكر مصطفى جواد أن ديوان الخراج يسمى المخزن وصدر المخزن كوزير المالية اليوم.
- (٤) الخازن: هو متولي قبض الغلات وخبزها وإخراجها، ويلزمه تقديم الحساب عن ذلك، ابن ممتي، قوانين الدواوين، ص ٣٠٦.
- (٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٠، ص ١٥٠.
- (٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٨٢.
- (٧) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٩، ص ٨٢، ج ١٠، ص ١٥٠، ١٩٠، ٢٣٣.
- (٨) الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٥٩.
- (٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٢٤. القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٧.

بن الوزير بن العلقمي<sup>(١)</sup>. كما عين صدرأ بديوان المخزن عماد الدين يحيى بن المرتضى في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)<sup>(٢)</sup>.

أما أبرز مشرفي المخزن فكان عميد الدين منصور بن عباس؛ حيث كان في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) في الوظيفة<sup>(٣)</sup>.

وبالنسبة للخزان على الديوان، فإن الباحثة لم تتمكن من العثور على شخص قد تولى هذه الوظيفة.

#### هـ- ديوان المواريث الحشرية:

وتُسمى نفسها بديوان التركات، وهي التركات التي يموت صاحبها ولا وارث لها من قريب يستحقها شرعاً. فتصبح قانوناً ملكاً للدولة، وقد اهتمت الدولة بهذا الديوان وخصصت له ناظراً يشرف عليه ويدير شؤونه<sup>(٤)</sup>، ومنهم هبة الله بن الحسن البغدادي المقرئ المعروف بالأشقر، المتوفى سنة (٦٤٣هـ/١٢٣٦م)<sup>(٥)</sup>. الذي ولاه الخليفة الظاهر في خلافته، ثم تولى بعده محمد بن صليجان الذي كان يقدم باستمرار تقارير إلى الديوان<sup>(٦)</sup>.

#### و- ديوان الجوالي:

الجوالي، جمع جالية، وأصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطناً آخر، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب عن جزيرة العرب (جالية)، ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزية التي أخذ منها، ثم استعملت من كل ضريبة تؤخذ وأن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه<sup>(٧)</sup>.

وهذا الديوان يختص بشؤون الجزية أو ما يُسمى بضريبة الرأس، وهي التي كانت مفروضة على أهل الذمة في كل عام<sup>(٨)</sup>، وتؤخذ الجزية من أهل الكتاب، وتجب على الرجال

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٧.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٣.

(٣) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٤.

(٤) الخالدي، فاضل عبداللطيف، النظم في العراق في أواخر العصر العباسي من (٤٤٧-٦٥٦هـ)، جامعة القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٢٠٧.

(٥) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص ٢١١.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٩، ٢٦٩.

(٧) أبو يوسف، الخراج، ص ٥.

(٨) الكتاني، محمد عبدالحى، التراتيب الإدارية، ط٢، تحقيق عبدالله الغامدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٣٩٢. ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٣١٧-٣١٨. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٦٤.

الأحرار العقلاء، ولا تجب على امرأة ولا صبي أو مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذراري<sup>(١)</sup>،  
فاختلف الفقهاء في قدر الجزية<sup>(٢)</sup>، وفي جميع الأحوال يأتي الذمي المشمول بها إلى الديوان  
ويقف أمام صاحب الديوان حتى توزن جزيته ويعطى وصلاً بذلك<sup>(٣)</sup>. ويقع على عاتق صاحب  
ديوان الجوالي الاهتمام بمتابعة شؤون أهل الذمة من وفيات وولادات وهجرة ودخول في  
الإسلام، كما أنه يستعين برؤوساء طوائفهم الذين يتولون مهمة جمع الجزية من أتباعهم حتى  
يتمكن من ضبط شؤون حسابهم فيها<sup>(٤)</sup>، وكانت تجبى مرة واحدة في السنة<sup>(٥)</sup>.

ومن تولى هذا الديوان الشيخ الفاضل عضد الدين أبو نصر بن المبارك بن السضحاك  
الذي توفي سنة (٦٢٧هـ/١٢٢٩م)<sup>(٦)</sup>. فرتب في السنة نفسها القاضي محيي الدين بن فضلان،  
الذي وصف بأنه كان شديد في استيفاء الجزية<sup>(٧)</sup>.

واعتقد أن هذا الديوان استمر في عهد المستعصم بالله، مع أنني لم أجد إشارة إلى  
شخص آخر تولى الديوان مع محيي الدين بن فضلان، ولكن ابن الفوطي يشير إلى أن الديوان  
بقي مستمراً حتى سقوط الدولة العباسية، فيقول " ... بأن الجزية تجبى في هذه المدة بالدينار  
الذهبي، وكانت فئاتها ديناراً على الفقير، ودينارين على المتوسط، وأربعة دنانير على الغني، ولا  
يجوز أن ينقص أحد من هذه المقادير، ويتولى ديوان الجوالي الذي بقي إلى سقوط الدولة  
العباسية جمع هذه الضريبة، وكانت تجمع في المحرم من كل سنة؛ حيث استمر الحال إلى نهاية  
العصر العباسي"<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن ممتي، قوانين الدواوين، ص ٣١٧-٣١٨.

(٢) فذهب أبو حنيفة إلى تصنيف من تجب عليهم الجزية إلى ثلاث أصناف هم الأغنياء وأواسط وفقراء،  
فيؤخذ من الأغنياء ثمانية وأربعون درهماً ومن الأوسط أربعة وعشرون درهماً ومن الفقراء اثنا عشر  
درهماً، بينما يرى الإمام مالك أنها لا تقدر بأكثرها ولا أقلها، ويترك ذلك للولاة. أما الشافعي، فيقول إنها  
مقدرة، الأقل بدينار، أما الأكثر فغير مقدر ويترك لاجتهاد الولاة. الهاشمي، الحضارة العربية، ص ٤٨.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٣.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ١٧٦-١٧٩.

(٥) ابن الأخوة، المغبة والرغبة في معرفة أحكام الحسبة، نسخة مايكروفلم في مركز الوثائق والمخطوطات  
في جامعة اليرموك، رقم الشريط ١٠٤، عدد الأوراق ٩٩، ص ٢١. ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي  
(ت ق ٤هـ/١٠م)، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢١١.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٣.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٧، ٨، ١٣، ١٤٥.

## ز- ديوان الجهبذة<sup>(١)</sup>؛

وهو من الدواوين التي ظهرت في العصر العباسي، وكانت مهمته المحافظة على مصالح أهل الذمة<sup>(٢)</sup>. ولم تعثر الباحثة في عصر المستعصم بالله على ما يشير إلى وجودها مع تدينه وعدله، كما لا نعرف السبب الحقيقي لإهمالها، هل هو من الخليفة أم تقصير من المصادر؟

### ح- ديوان الطبق:

يقول ابن خلكان<sup>(٣)</sup> في تعريف الطبق: " إن أهل بغداد يحضرون سماط الخليفة عند الوزير، وهم يُسمون السماط طبقاً، غير أن الطبق في الاصطلاح هو الأراضي الموقوفة للفقراء في أيام الحج وشهر رمضان<sup>(٤)</sup>، كما أنه كان أيضاً يشرف على دور الضيافة الموجودة في بغداد التي تفتح أبوابها في المناسبة الدينية، التي أمر الخليفة المستعصم بالله بزيادتها سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) بفتح أربع دور، هي: دار بالمشهد الكاظمي؛ لأجل إفطار العلويين والمقيمين به، وداران بالجانبين الغربي والشرقي من بغداد للفقراء من العباسيين، ودار بصحن السلام من دار الخلافة لأجل الساكنين بدار الشجرة من أولاد الخلفاء. فأصبح بها داران لإفطار أولاد الخلفاء<sup>(٥)</sup>، ويُقدّر عدد الذين كانوا يفطرون في هذه الدور بأكثر من عشرة آلاف شخص إذا علمنا بأنه كان يقدم في كل دار من الدور في كل يوم خمسمائة قدح من الطعام<sup>(٦)</sup>.

### رابعاً: الشرطة:

كانت الشرطة في البداية تابعة للقضاء؛ لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاء، ولكن حينما جاء العهد العباسي ازدادت سلطته وخاصة بعد انفصال الشرطة عن القضاء؛ فأصبح له الحق في النظر في الجرائم وإيقاع العقوبات<sup>(٧)</sup>، ومن ثم أصبح قسم من أقسام الجيش تتحصر

(١) الجهبذ، كلمة معربة تعني لغة: الخبير بغوامض الأمور، البارع العارف بطرق النقد، واصطلاحاً هي الوظيفة الحكومية التي تسند إلى موظف خبير بشؤون الصرف والعملات. الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، ١٩٦٦م، مج ٢، ص ٥٥٨.

(٢) الرفاعي، الإسلام في حضارته، ص ١٤٠. الهاشمي، الحضارة العربية الإسلامية، ص ٤٩.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٣٥.

(٤) ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج ٤، ق ١، ص ٣٠٦. حاشية رقم ٢.

(٥) الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١٨.

(٦) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ٢٣٠. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٧) أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣م، ص ١٤٩-١٥٠.

واجباتهم في العمل داخل الدولة، وليس لها تأثير ملموس في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية<sup>(١)</sup>؛ أي أن صاحب الشرطة يشرف على الأمن الداخلي في بغداد، ويكافح الجريمة، ويستعين بعدد من الأعوان الذين ينتشرون في الأسواق والدروب والمحلات لمراقبة الناس وملاحقة اللصوص في كل مكان<sup>(٢)</sup>، على أن يقدموا صباح كل يوم تقريراً إلى دار الخلافة<sup>(٣)</sup>. وفي حالة حدوث اضطراب في البلد، كانت قوات الشرطة تتضم إلى قوات الشحنة للسيطرة على الوضع وإقرار الأمن في البلاد، مثل الذي حصل في سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، عندما حاول نائب الشرطة إطفاء نار الفتنة، فتعذر ذلك عليه<sup>(٤)</sup>، بالإضافة إلى مسؤولية صاحب الشرطة في المحافظة على أمن الناس وحياتهم، وتعاونه مع صاحب الديوان وإطلاعه على كل ما يخل بالأمن في بغداد<sup>(٥)</sup>، ومن أشهر الأشخاص الذين تولوا هذه الوظيفة في عهد المستعصم بالله عز الدين بن الموسوي العلوي، الذي كان له دوراً واضح في تتبع اللصوص<sup>(٦)</sup>.

كما نجد أن الخلافة كثيراً ما كانت تستعين بنقباء العباسيين والعلويين عندما يعجز الشحنة والشرطة عن القضاء على الفوضى والاضطراب<sup>(٧)</sup>.

وفي أواخر العهد العباسي كان يقوم بوظيفة نائب الشرطة موظف يُسمى حاجب باب النوبي، إلا أنه زال بزوال الدولة العباسية في بغداد، أما الشحنة فقد كانت وظيفته شائعة في البلاد الإسلامية، وهي أقرب ما تكون إلى وظيفة حاكم عسكري<sup>(٨)</sup>، وقد ظهرت بعد أن تراجعت مكانة الشرطة نتيجة لقيام السلاجقة باستحداث منصب الشحنة الذي أوكلت إليه معظم مهام مناصب الشرطة<sup>(٩)</sup>.

(١) نوري، دريد عبدالقادر، الشرطة في العراق خلال العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، ٢٩٤،

الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٨٦م، ص ٢١٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ٢٦٥. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٨. الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٦١٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ٣٦٢.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤٠٣-٤٠٤. الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٦١١.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٣.

(٧) ابن الجوزي، المنتظم، جـ٩، ص ١٣٧.

(٨) خصباك، العراق، ص ٧٥-٧٦.

(٩) ابن الموصلايا، أمين الدولة العلاء بن الموصلايا (ت ٤٩٧هـ/١١٠٤م)، رسائل أمين الدولة، دار الكتب

الوطنية، تونس، رقم ١٤٧١٢. صورة عن المخطوطة في جامعة اليرموك، ق ١٧٧-١٧٨.

وعلى العموم فلا يوجد فروق واضحة بين عمل الشحنة وصاحب الشرطة، وإن كان الغالب أن عمل الشحنة مقصور على مكافحة الفوضى والتصدي للفتن التي كانت كثيرة الحدوث في بغداد، غير أننا نجد في بعض الأحيان يؤدون عمل الشرطة في حوادث الإجرام الفردية<sup>(١)</sup>. ونظراً لأهمية منصب صاحب الشرطة فقد كان لهم لباس خاصة يتميزون به عن الآخرين<sup>(٢)</sup>، كما كانوا يُختارون من أهل القوة لأنهم بمثابة رئيس الجند الذين يساعدون السوالي على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين<sup>(٣)</sup>.

#### خامساً : البريد

اختلفت الآراء حول معنى كلمة البريد لدى العلماء واللغويين والكتّاب والمؤرخين، فقال ابن منظور البريد هو الرسول على دواب البريد، والجمع برد، وبرد بريداً: أي أرسله، وقال بعض العرب الحمى بريد الموت، أراد أنها رسول الموت تُنذر به<sup>(٤)</sup> ثم سُمّي الرسول الذي يقوم بإيصال الأخبار على الدواب بريداً، ثم أطلق على المسافة بين السكنين بريداً<sup>(٥)</sup>. وهي اثنا عشر ميلاً، وقد قدرها الفقهاء وأصحاب المسالك والممالك بأربعة فراسخ<sup>(٦)</sup>، إذن في اللغة مسافة معلومة مقدرة بأثني عشر ميلاً<sup>(٧)</sup>.

وأما البريد في الاصطلاح، فهو أن يجعل خيلاً مضمرات في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها، وقد تعب فرسه، ركب غيره فرساً مستريحة، وكذلك كان يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة<sup>(٨)</sup>.

وللكلمة أصل في الحديث النبوي، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم؛ " أي أنفذتم رسولا<sup>(٩)</sup>.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٥، ٢٢٢، ٢٥٤.

(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١١٧-١١٨.

(٣) حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص ٢٧٢.

(٤) الأزهري، تهذيب اللغة، ج ١٤، ص ١٠٦. ابن منظور، لسان العرب، مج ١، ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٥) الجوهري، الصحاح، ج٢، ص ٤٧٤. الفيروز آبادي، مجد الدين أبو الطاهر بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٥م)، القاموس المحيط، رتبه إحسان عبدالمنان، بيت الأفكار الدولية، ص ١١٧.

(٦) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٦٥.

(٧) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٠٦-١٠٧. حسن، النظم الإسلامية، ص ١٨٣.

(٨) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٠٦-١٠٧.

(٩) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص ١١٦-١١٧. حسن، النظم الإسلامية، ص ١٨٣.



وظيفة البريد كانت أول الوظائف الإدارية التي لاقَت اهتماماً كبيراً من جانب الرسول، صلى الله عليه وسلم؛ فلما رتب حكومته كانت وظيفة البريد قد اتسعت فشملت الجاسوسية واتخذ من مكة نفسها عيناً يكتب بأخبار قريش إليه، وهذا العين هو أبو العباس ابن عبدالمطلب، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله، فكتب إليه مرة " إن مقامك بمكة خير " (١).

ومن مظاهر اهتمام الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالبريد، أنه أراد مكاتبه من جاورة من الملوك والأمراء والحكام ليدعوهم إلى الإسلام، فقليل له إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه " محمد رسول الله "، وكان يختم به الكتب التي كان يبعث بها إلى الملوك والأمراء، وختم الخلفاء من بعده بنفس الخاتم حتى سقط من يد الخليفة عثمان بن عفان في بئر أريس (٢)، فصنع عثمان خاتماً آخر مثله (٣).

وصاحب البريد يجب أن يتصف بجملة من الصفات كما ذكر الماوردي، مثل: "الأمانة ورجاحة العقل" (٤) لأن ما ينقله من أخبار تكون أساساً في سير سياسة الدولة (٥)، ولم تكن واجباته مقصورة على نقل الأخبار فقط بل تعدى ذلك إلى مراقبة بقية أجهزة الدولة السياسية والاقتصادية وإيصالها إلى دار الخلافة على صورة تقارير (٦). حيث كان صاحب البريد عوناً للخلفاء على اكتشاف حركات التمرد أو الثورة في مهدها؛ إذ كان عمال البريد يبعثون بأخبارها على جناح السرعة إلى الخلافة فتبادر إلى إجراء اللازم ضدها في الوقت المناسب (٧).

وللبريد ديوان، ويُعد من الدواوين المهمة في العصر العباسي؛ حيث اعتمد الخلفاء العباسيون عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم (٨)، ورئيسه يُسمى صاحب البريد أو صاحب الخبر (٩)، وقد كان بمثابة عين الخليفة. كما أن الخلفاء العباسيون عملوا على تطويره

- 
- (١) الكتاني، التراتيب الإدارية، جـ ١، ص ٢٤٦-٢٤٧. المعاينة، نشأة الدواوين، ص ١٣٢.
  - (٢) بئر أريس: موضع يقع على بعد ميلين من المدينة المنورة، وكانت من أقل تلك الآبار ماء. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٢.
  - (٣) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧م، ص ٦٤٦. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١٤، ص ٤١٢-٤١٣. الكتاني، التراتيب الإدارية، ص ١٧٦-١٧٩، ٢٦١. الناطور، النظم الإسلامية، ص ٩٣-٩٤.
  - (٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٦. السامرائي، نعمان عبدالرزاق، النظام السياسي في الإسلام، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٩م، جـ ١٠، ص ١٤٨.
  - (٥) الحسن، آثار الأوائل، ص ٨٣.
  - (٦) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٩.
  - (٧) الخفاجي، تطور النظم الإدارية، ص ١٣٣.
  - (٨) الريس، محمد ضياء الدين، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص ١٣٨.
  - (٩) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص ٢٠٧. الحموي، معجم الأدباء، جـ ١٢، ص ٢٠٢.

حتى بلغ درجة عالية من الكمال، ويرجع سبب اهتمامهم بهذا الديوان لأنه مختصّ بنقل كتب الخليفة أو الوزير إلى الولاة والعمال في الولايات وما يرد منهم من كتب إلى دار الخلافة، وتزويدها بتقارير دقيقة وصادقة عن جميع أصحاب السلطات في أجزاء الدولة، ومدى استقرارها وأمنها (١).

واستخدم الخلفاء العباسيون بما فيهم الخليفة المستعصم بالله الحمام الزاجل في نقل الأخبار (٢) العسكرية وقد تجلت فائدة استخدامه زمن الخليفة المستعصم بالله في معرفة تحركات المغول ونقل أخبارهم، كما حصل في سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) عندما حاصرت قوات المغول أربل وضايقت أهلها، فأنهم طلبوا الاستغاثة من الخلافة بوساطة الحمام الزاجل (٣)، وكذلك بلغ أهمية الحمام الزاجل أن قام بإبلاغ الخلافة ببغداد في سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) بفتح أربل من قبل الجيش العباسي؛ فوصل الخبر في اليوم نفسه عن طريق الحمام الزاجل (٤).

#### سادساً: القضاء

القضاء في اللغة معناه الفصل في الأمور والحكم فيها، ومنه القاضي الذي يحكم بين الناس (٥)، وقد وردت في القرآن الكريم آيات بحق العدالة مما يعطي أهمية عظيمة لها، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (١). ويقول الرسول، صلى الله عليه وسلم (إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم في أهلهم وما ولوا) (٢). والقضاء مؤسسة حكومية رسمية كان اختيار من يليها من اختصاصات الخليفة، كما أنه من الوظائف الرئيسية في الدولة، ولأنه يفصل بأعمال الناس في مختلف الطبقات (٣). ويعد منصب القاضي من المناصب المهمة الحساسة في الدولة الإسلامية؛ لارتباطها بحياة الناس وقضاياهم ومعاملاتهم ومشكلاتهم، ومن واجبات القاضي الفصل في المنازعات

(١) الدوري، النظم الإسلامية، ص ١٥٦-١٥٨. الخفاجي، تطور النظم الإدارية والمالية، ص ١٣٢.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٨.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٩٨-٩٩.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، مج ٧، ص ٣٩٨.

(٦) سورة النساء، الآية (٥٨).

(٧) النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف (٦٧٧هـ/١٢٧٨م)، رياض الصالحين من كلام سيد

المرسلين، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٦٠م، ص ٣٤٨.

(٨) صالح أحمد العلي. قضاة بغداد في العصر العباسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، ع ١٨، سنة ١٩٦٩م،

ص ١٥٦-١٥٥.

وقطع الشاجر والخصومات<sup>(١)</sup>، والخلفاء على نحو عام اهتموا بالقضاء نظراً لأهميته في تأكيد دعوتهم بالسير على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، ولأنه كما عرفه ابن الجوزي "عمود السلطان وقوام الأديان"<sup>(٢)</sup>. والرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يتولى وحده الفصل بين المسلمين، واعتبر حكمه ملزماً حين نزلت الآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>، لذا؛ يعد الرسول صلى الله عليه وسلم أول قاضي في الإسلام يحكم بين الناس بما ينزل عليه من الوحي.

وبعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، أصبح تعيين القضاة من اختصاص الخليفة<sup>(٤)</sup>، لذا فقد كانوا يتحرون عند اختيار القضاة أن يكون من أهل العلم والعدالة، إلى جانب غيرها من الشروط التي استقوها من الشواهد القرآنية والنبوية<sup>(٥)</sup>، وكذلك كانت مسألة الاهتمام بالقضاة وحصانتهم وعزلهم واستقضائهم من اختصاصات الخليفة، والتي بقيت طيلة العصر العباسي، وبقي الخلفاء العباسيون يمارسون مهمتهم في تعيين القضاة حتى في الأدوار الذي تسلط فيها الأجانب على الحكم؛ حيث يقول الدوري<sup>(٦)</sup> تعيين القضاة كان من امتيازات الخليفة حتى أضعف حالاته، ولا يجوز للقاضي الحكم إذا لم يفوضه الخليفة. على أنه يجب أن تتوافر في القاضي شروط معينة أشار إليها الماوردي، وهي: أن يكون رجلاً، مسلماً، سليم الحواس، سليم العقل والرأي، وأن يكون حراً، وأن يكون عالماً بأحكام الشريعة الإسلامية<sup>(٧)</sup>. كما كان من مستلزمات القاضي في هذه الفترة أن تُخصص له دار يجلس فيها للنظر في أمور القضاء<sup>(٨)</sup>.

وبدأ اهتمام العباسيين بالقضاء ابتداءً من زمن الخليفة المنصور الذي جعل أمر تعيينهم وعزلهم من صلاحيته فقط، حتى يتحاشى تدخل الأمراء في شؤونهم والتأثير في عملهم<sup>(٩)</sup>،

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ج ٧٠. الهاشمي، الحضارة العربية، ص ٥٦.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٦، ص ٩٧.

(٣) سورة النساء، الآية (٦٥).

(٤) حسن، النظم الإسلامية، ص ٢٣٧.

(٥) البطانية، محمد ضيف الله، القضاء في الإسلام، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٢، السنة ١٣، ١٩٨٧م، ص ١٩٩.

(٦) الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ٢٥٦.

(٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٦٦.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٨٤.

(٩) الخطيب البغدادي، أبي بكر احمد بن علي الخطيب (٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧م، بيروت ١٩٨٠م، ج ١٤، ص ١٠٨-١٠٩.

ويتبلور هذا الاهتمام في مخاطبة الرشيد لأحد قضائه في أثناء تعيينه " قد رأيت أن أشرك في أمانتي " (١)، وهذا أن دل على شيء إنما يدل على مدى الثقة التي كانت بين الخليفة والقاضي. كما أنه كان على القاضي أن يصدر حكمه باسم الخليفة وألا يعد حكمه ملغياً وغير نافذ، وهذا دليل على الحكم المركزي لدى العباسيين (٢)، وحتى يكون الإشراف على القضاء أكثر مركزية قسمت مناصب القضاء ثلاث رتب؛ حيث استمرت هذه الرتب حتى نهاية الخلافة العباسية. وأهم هذه المناصب القضائية، وأبرز من تولاها في عصر الخليفة المستعصم بالله هي:

- ١- قاضي القضاة: ويعدّ هذا المنصب أعلى المناصب في المؤسسة القضائية للخلافة، ومهمته الإشراف على سير القضاء في الدولة (٣)، أما من تولاه في هذه المدّة فيتمثل في عبدالمنعم البندنجي الذي حضر عند هولاكو عندما تم احتلال بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) فأمر أن يقرّ على القضاة، أي أن تكون له صلاحيات قاضي القضاة؛ فأشغل منصبه باسم أقضى القضاة (٤)، وقد توفي في سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) (٥).
- وقد عين السراج عمر بن بركة معيد النظامية قاضياً للقضاة، بعد أن شافهه ابن العلمي الوزير بالولاية، وخلع عليه (٦).
- ٢- أقضى القضاة : وهذه الرتبة دون رتبة قاضي القضاة (٧). وظهرت سنة (٤٢٩هـ/١٠٢٩م)؛ حيث لقب بهذا اللقب أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي المتوفي سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) (٨)، وقد استمرت هذه الرتبة زمن الخليفة المستعصم بالله، وممن تولاها في حكمة أبو الفضل عبدالرحمن بن عبدالسلام اللمغاني الذي ولي هذا المنصب سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) (٩)، وبقي فيه إلى أن توفي في سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وفي

- 
- (١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٩، ص ٤٢٣-٤٢٤.
  - (٢) الأنباري، النظام القضائي في بغداد، ص ١٠١.
  - (٣) الماوردي، أدب القاضي، ج١، ص ٧٢. الأنباري، النظام القضائي، ص ١٠١. الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٧م، ج٢، ص ٨٦٧.
  - (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٢.
  - (٥) خصباك، العراق، ص ٧١.
  - (٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨٣.
  - (٧) ابن الديلمي، المختصر المحتاج إليه، ج١، ص ١٩٨. حاشية رقم ٣.
  - (٨) الماوردي، أدب القاضي، ص ٣٨-٣٩.
  - (٩) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٥. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٨٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٠.

سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) تولى منصب قاضي القضاة<sup>(١)</sup>، وبقي كذلك إلى أن توفي سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م)؛ حيث كان عمره ثمانين سنة<sup>(٢)</sup>. وأيضاً سراج الدين النهركلي، والذي كان إلى جانب منصب أفضى القضاة مدرس بالمدرسة البشيرية؛ حيث استدعي لذلك سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م)<sup>(٣)</sup>.

٣- القاضي: وهي الرتبة الثالثة من رتب القضاة<sup>(٤)</sup>، وقد يرقى صاحبها في الرتب حتى يصل إلى رتبة قاضي القضاة، ومن هؤلاء القضاة في هذه المدة القاضي سراج الدين عمر ابن بركة النهركلي نسبة إلى محلة مجاورة بالكرخ بالجانب الغربي تعرف بنهر القلائين إلى أن حمل إلى المدينة الشريفة لعمارة الحرم الشريف بعد احتراقه وذلك سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)؛ حيث توفي فيها<sup>(٥)</sup>، وجاء بعده نجم الدين عبدالله بن محمد بن الحسن البادرائي، وذلك في عام (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وكان قد تولى القضاة ثم توفي بعد توليه بخمسة عشر يوماً لأنه كان مريضاً<sup>(٦)</sup>، وكان عمره إحدى وستين سنة<sup>(٧)</sup>، وكان للبادرائي دور مشهود في حياة المستعصم بالله؛ حيث أرسله الخليفة من أجل الصلح بين صاحب الشام وصاحب مصر. وكانت الحرب قد نشبت بينهم<sup>(٨)</sup>. وبذا، فإن مسألة تعيين القضاة وعزلهم ظلت مركزية وبيد الخليفة طيلة العصر العباسي.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٨. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨٤-٥٨٥.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٢.

(٤) فيد، تاريخ العراق، ص ١٨٤.

(٥) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٨.

(٦) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٨-٢٧٩. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٢.

المقريزي، السلوك، ق ١، ج ١، ص ٤٠٧.

(٧) المقريزي، السلوك، ق ١، ج ١، ص ٤٠٧.

(٨) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٧٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٥. المقريزي،

السلوك، ق ١، ج ١، ص ٣٨٥.

## سابعاً: الحسبة

قبل الخوض في الحسبة لا بد من معرفة معانيها:

الحسبة لغة : تحتمل لغة عدد من المعاني أبرزها : طلب الأجر والثواب من الله تعالى (١)، والإنكار (٢)، والإحصاء والعد وحسن التدبير (٣).

أما اصطلاحاً فقد عرف الفقهاء الحسبة بأنها: " أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إلى ظهر فعله " (٤)، وهذا القول له سند في نصوص القرآن الكريم، فقد قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٦)، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٧).

وهي وظيفة إدارية يعرف صاحبها بالمحتسب ، ثم اكتسب معنى خاصاً فأصبحت تدل على الشرطة المسؤولة عن مراقبة الأسواق والأداب العامة (٨).  
والرسول، صلى الله عليه وسلم، أكد تفعيل الحسبة والتشديد على التهاون بها؛ حيث قال " لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم " (٩).

- (١) ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٩٨هـ/٤٥٨م)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ج٣، ص ٢٧. ابن منظور، لسان العرب، مج٢، ص ٤٣٧-٤٣٨.
- (٢) الأزهرى، تهذيب اللغة، ج٤، ص ٣٣٣. ابن سيدة، المحكم، مج٣، ص ٤٣٧-٤٣٨. ابن منظور، لسان العرب، مج٢، ص ٤٣٧-٤٣٨.
- (٣) الأزهرى، تهذيب اللغة، ص ١٣٥. ابن منظور، لسان العرب، مج٢، ص ٤٣٧-٤٣٨.
- (٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٤٠. ابن خلدون، العبر، ج١، ص ٢٢٥. النبراوي، تاريخ النظم، ص ١٢٢.
- (٥) سورة آل عمران، الآية (١٠٤).
- (٦) سورة آل عمران، الآية (١١٠).
- (٧) سورة التوبة، الآية (٧١).
- (٨) زامبور، مادة (حسبة)، دائرة المعارف الإسلامية، مج٧، ص ٣٧٩.
- (٩) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب أبواب الفتن، حديث ٢٢٥٩، ج٣، ص ٢١٦.

والمحتسب كان تعيينه من قبل الإمام أو نائبه (١)، وهذا يدل على أهميته لأنه له دوراً في

النظر بأمور الرعية، وللمحتسب شروط معينة فيه؛ فيجب أن تكون قراراته صحيحة ومنسجمة مع الشريعة، ولذلك يجب أن يكون فقيهاً وعالماً ملماً بأحكام الشريعة الإسلامية ليعلم ما يأمر به وينهى عنه (٢)، بالإضافة إلى شرط البلوغ، وكمال العقل والعدالة (٣).

وكانت الحسبة والقضاء يستندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد، مع ما بين العاملين من التباين؛ فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في الفصل (٤)، كما أن الحسبة تكون واسطة بين القضاء وأحكام المظالم، وواجب الحسبة يقتصر على معالجة الظواهر الاجتماعية الظاهرة للعيان، أما القضايا التي فيها إنكار وشهود فإنها تكون من صلاحية القضاء (٥). وللمحتسب صلاحيات واسعة تخوله حق الدخول إلى مجالس القضاة والحكام وتوجيههم ومنعهم من ممارسة القضاء في غير أماكنه المخصصة له، كما يدخل إلى الأمراء والولاة فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحثهم على الرحمة والبر والإحسان في الرعية (٦).

وممن تولى منصب الحسبة في عهد المستعصم بالله الفقيه محيي الدين أبو أحمد يوسف بن عبدالرحمن الجوزي الذي توفي سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، وكان محتسباً في بغداد ومثالاً للعلم والفضيلة (٧)، وكان عمره حينما توفي ست وسبعين سنة (٨)، ونجد المستعصم بالله حينما تولى الخلافة ولاة استاذية الدار (٩)، وعين للحسبة ولده جمال الدين أبا الفرج عبد الرحمن بن يوسف الجوزي، والذي كان شاعراً كما عمل بعلم الوعظ منذ كان صغيراً، وقد أفتى ودرّس في المدرسة المستنصرية، وكان المستعصم بالله يرسله إلى الملوك، وقد قتل على يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)؛ حيث كان عمره بضعا وأربعين سنة (١٠). والمستعصم بالله كان شديد

(١) ابن الأخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، ص ٧ .

(٢) ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٠-١١ . الهاشمي، الحضارة العربية، ص ٦٧ .

(٣) ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٧-٨ . الهاشمي، الحضارة العربية، ص ٦٧ .

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٦١-٧٢ .

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٤١ . ابن الأخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، ص ١٠ .

(٦) الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١١٣-١١٥ .

(٧) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ٢، ص ٥٠٢-٥٠٣، ٧٤٧ . ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦١،

١٨٣ . ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٣، ص ١٤٢ . ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٦ . الغساني،

العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٠ .

(٨) المقرئ، السلوك، ق ١، ج ١، ص ٤١٣ .

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٨ . الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٥ .

(١٠) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٨ . الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٥-٦٣٦ .

الاهتمام بأمور الرعية، حيث قال الغساني: "برز أمر الخليفة المستعصم بالله إلى المحتسب عبدالرحمن ابن الجوزي بتقرير سعر مسترخص للحنطة وغيرها" (١).

وفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٤م) رتب شرف الدين عبدالله بن يوسف الجوزي محتسباً ثانياً وخلع عليه (٢)، كما تولى حسبة بغداد تاج الدين عبدالكريم بن الشيخ محيي الدين بن الجوزي سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) بعد أخيه الذي تركها تزهداً (٣)، وقد كان عالماً بالنحو والفقه، كما كان شاعراً، توفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)؛ وحيث كان عمره بضعاً وعشرين سنة (٤).

علماً بأن الباحثة وجدت في أثناء تتبعها وظيفة الحسبة عبر العصور الإسلامية المختلفة، أنها مختصة بالمهام نفسها، وللمحتسب - نوعاً ما - له الصلاحيات. فتوصف الحسبة بأنها تنظيم اجتماعي واقتصادي يعمل على مراقبة حياة الناس اليومية ويسهر على سلامة الأسواق في المدن.

إذن، الحسبة نوع من أنواع القضاء استحدثت لتطبيق العدالة في المجتمع، وهي من النظم الإسلامية الأساسية التي وضعت أسسها الشريعة الإسلامية وانفردت بتطبيقها الأمة الإسلامية.

© Arabic Digital Library

(١) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٢ .

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٨. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٨ .

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٨١ .

(٤) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣٦ .



## الفصل الرابع

# الحياة الاقتصادية في عهد المستعصم بالله

### أولاً: الزراعة

- الأراضي الزراعية
- البطائح
- الري والقنوات
- ملكية الأرض

### ثانياً: الصناعة

- المهن والحرف
- الصناعات

### ثالثاً: التجارة

- الطرق التجارية
- الصادرات والواردات
- وسائل المعاملات التجارية
- المراكز التجارية

### رابعاً: النظام المالي

- موارد الدولة
- نفقات الدولة

## أولاً: الزراعة

ساعد الأمن والاستقرار على ازدهار الأوضاع الاقتصادية، إلى جانب العديد من العوامل التي كان لها دور في ذلك الإزدهار مثل، خصوبة التربة، والموقع التجاري، حيث إن العراق كان نقطة اتصال بين أواسط آسيا والهند والصين من جهة، والجزيرة والشام ومصر وشمال إفريقيا من جهة ثانية<sup>(١)</sup>، كما كان الدور الأكبر يقع على عاتق الخلفاء؛ حيث شجعوا على نحوٍ دائمٍ على الزراعة والصناعة واهتموا بإنشاء المؤسسات الاقتصادية، كالأسواق المنتشرة في كل ناحية في بغداد؛ فزودوها بالمرافق المهمة مثل الحمامات والمساجد<sup>(٢)</sup>، وكذلك الخانات التي شيدت لخدمة التجارة والتجار منذ بناء بغداد في العصر العباسي الأول<sup>(٣)</sup>.

وقد أصبحت رقعة الخلافة في عهد المستعصم بالله تمتد من قرية المقر<sup>(٤)</sup>، عند حدود أتابكية الموصل شمالاً إلى عبادان جنوباً، ومن القادسية غرباً إلى حلوان<sup>(٥)</sup> شرقاً<sup>(٦)</sup>، فبذلك كانت أقسام العراق الإدارية تضم: أربل، دقوقا، تكريت، الأنبار، طريق خراسان، هيت، الحلة، عانة، الكوفة، واسط، خوزستان، البصرة، بلد اللحف<sup>(٧)</sup>.

### الأراضي الزراعية:

أطلق على أراضي العراق بالسواد لكثرة نخيله وشجره، ولشدة خضرته، حتى إنه أصبح قريباً من اللون الأسود، ولأنه حد الجزيرة التي لا زرع فيها ولا شجر، فكانوا إذا أخرجوا من

- (١) الطبري، تاريخ الطبري، جـ٧، ص ٦١٧. ابن الجوزي، مناقب بغداد، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٣٤٢هـ، ص ٨.
- (٢) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (٢٩٠هـ/١٩٠٢م)، الأعلام النفيسة، ليدن، ١٨٩١م، جـ٧، ص ٢٤٢. علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧. جـ٥، ص ١٧١.
- (٣) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ جـ، دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، جـ١، ص ٥٩. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٣٤١. الخازن، ولیم، الحضارة العباسية، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٢، ص ٧٨.
- (٤) المقر: قرية بين تكريت والموصل، تنزلها القوافل، وهي أول حدود أعمال الموصل من جهة العراق، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٥، ص ١٧٥.
- (٥) حلوان: وهي آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٢٩٠.
- (٦) فهد، تاريخ العراق، ص ٧.
- (٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٨. أبو الفداء، المختصر، جـ٣، ص ١٧٦. القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٢.

أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار، ويسمّون الأخضر سواداً<sup>(١)</sup>، كما أن العرب كانوا يسمّون السهل الرسوبي بأرض السواد<sup>(٢)</sup>، وشمل هذا المصطلح الأراضي الزراعية المحيطة بالمدن، مثل سواد البصرة وسواد الكوفة وسواد سامراء وسواد بغداد<sup>(٣)</sup>، وبعد ذلك أصبح السواد يشمل العراق كله<sup>(٤)</sup>.

إن الأراضي الزراعية المحيطة ببغداد، التي تسمّى سواد بغداد كانت من أفضل الأراضي الزراعية خصوبة وإنتاجاً؛ حيث يصف الرحالة بنيامين التطيلي<sup>(٥)</sup> بغداد ورياضها وحقولها الزراعية وبساتين النخيل فيها بأنه ليس لها مثيل في بقية أنحاء العراق، كما أن الرحالة ابن جبير<sup>(٦)</sup>، وصف كل ما حطّ عليه بصره في الطريق من زراعة وصناعة وعمران؛ حيث بدأ وصفه بالقادسية فوصف كثرة نخيلها وما فيها من مزروعات وحدائق ومحاصيل زراعية متنوعة، أما الكوفة فقد بيّن أن الجانب الغربي منها خراب، وأن سببه يعود إلى قبيلة خفاجة المجاورة لها، بينما ظلّ الجانب الشرقي منها عامراً ومحتفظاً بغابات نخيله الشاسعة التي كانت على حد قوله ليس لها نهاية؛ فهي تمتد امتداد البصر، وكان الفرات على مسافة نصف فرسخ مما يلي الجانب الشرقي، ونخيلها متصل وهي مدينة كثيرة الخير، وفيها قرى عظام متصلة عامرة، ولها ضياع، وحولها بساتين<sup>(٧)</sup>.

وفي الجانب الشرقي منها واسط، وهي من كور السواد<sup>(٨)</sup>، تنتج أراضيها الحبوب والحنطة والشعير بكميات كبيرة<sup>(٩)</sup>، ولكن عيبها أن حاصلها يحمل لغيرها، ولو كان حاصلها يبقى بيد أهلها لفاقت جميع البلاد<sup>(١٠)</sup>. وقد وصف ابن جبير<sup>(١١)</sup> الطريق بين بغداد والحلة والقرى التي على الطريق بأنها أحسن الطرق والأراضي تسقيها سواق وأنهار، وتكثر فيها

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص ٢٧٢. المنجد، صلاح الدين، معجم أماكن الفتوح، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٦٢.

(٢) لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٤١.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص ٢٧٣.

(٤) لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٤١.

(٥) التطيلي، رحلة بنيامين، ص ١٣٩.

(٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٦٧-١٦٩. فهد، العامة في بغداد، بغداد، ١٩٩٧، ص ٩٣. تاريخ العراق، ص ٣٤٠-٣٥٠.

(٧) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٦٧-١٦٩. الحميري، الروض المعطار، ص ٥٠١.

(٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص ٤٦١. القزويني، آثار البلاد، ص ٤٤٦.

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص ٤٦١.

(١٠) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٧٨.

(١١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٩٠. لسترانج، بلدان الخلافة، ص ١٠١-١٠٢.

المزارع والبساتين والنخيل والفواكة والحدائق كأنها بساط أخضر جميل المنظر أضفاف إليها بهاءً وجمالاً.

أما الأراضي الزراعية التي كانت بسواد البصرة، فقد اشتهرت بكثرة البساتين والمزروعات والنخيل، وهي وتمتد من عبداسي إلى عبادان<sup>(١)</sup>، وفي البصرة نهر أبلّة الذي يبلغ طوله أربعة فراسخ<sup>(٢)</sup> ما بين البصرة أبلّة<sup>(٣)</sup>، وعلى ضفتي هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدت على خيط واحد كأن نخيلها غرس في يوم واحد<sup>(٤)</sup>، ومن كثرة أشجارها لا تقع الشمس على كثير من أراضيها ولا تبين القرى من خلال أشجارها، وبها أنواع الأشجار وأجناس الحبوب وأصناف الثمار<sup>(٥)</sup>.

وبالنسبة للأراضي الزراعية في الموصل، فقد اشتهرت بسعتها وخصوبتها الزراعية<sup>(٦)</sup>؛ حيث أفاد أهلها من مياه دجلة بنصب النواعير التي يديرها تيار الماء<sup>(٧)</sup>، ويذكر لسترانج: "أن المنطقة كانت في غاية الخصب، وكان رمانه أجود ما يرى في أسواق بغداد"<sup>(٨)</sup>. إذن، اشتهرت المنطقة بخصوبتها وكثرة بساتينها وشجرها، ما يدل على أن هذه المنطقة المحصورة بين دجيل وأعمالها إلى بغداد منطقة زراعية وذات محاصيل متنوعة. أما أراضي طريق خراسان فكانت من أغنى مناطق العراق الزراعية؛ إذ تكثرت فيها بساتين النخيل والفاكهة، وهي ذات قرى كثيرة، ومن أهم مدنها بعقوبة<sup>(٩)</sup>، التي كانت كثيرة الأنهار والبساتين، وفيها نخل كثير<sup>(١٠)</sup>.

(١) القزويني، آثار البلاد، ص ٣٠٩. أبو الفداء، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م، ص ٥٧.

(٢) الفرسخ: وحدة قياس مساحة تساوي ٣ أميال أو حوالي ٦ كيلو متر، هنتس، فالتر، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العلي، عمان، ١٩٧٠م، ص ٩٤.

(٣) خسرو، ناصر (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م)، سفرنامه، نقله للعربية يحيى الخشاب، ط ١، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ٩٩. الحميري، الروض المعطار، ص ١٠٥.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٧٧. القزويني، آثار البلاد، ص ٢٨٦-٢٨٧. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٠٩.

(٥) القزويني، آثار البلاد، ص ٢٨٦.

(٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٨٦.

(٧) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٢.

(٨) لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٧٤.

(٩) خصبك، العراق في عهد المغول، ص ٩٨.

(١٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٤٥٣.

إنّ، يتّضح لنا أنّ المنطقة المحصورة بين تكريت شمالاً حتّى بغداد مروراً ببغداد

وأعماله، تُعدّ منطقة زراعية جيدة، حافظت على نشاطها الزراعي وحيويتها، ويعود ذلك إلى نشاط أهلها ثم خصوبة أرضها وتوافر مياهها، كما يتّضح أنّ الأراضي الزراعية في السواد كانت تنتشر حول المراكز الرئيسية في المدن، فإذا كانت الدولة تهتمّ بوسائل الري، فإنّ هذه الأراضي سوق تدرّ أرباحاً وفيرة، أما إذا أهملت فسوف يؤثر ذلك في الإنتاج الزراعي، ومن ثمّ يؤدي إلى ضعف الدولة وفساد أحوالها<sup>(١)</sup>، وبعد ذلك سوف ينعكس على الحالة الاقتصادية وعلى الوضع السياسي في البلاد<sup>(٢)</sup>، هذا بالإضافة إلى أنّ العراق كان ينتج أنواع المحاصيل الزراعية المتنوعة، ويعود ذلك إلى تنوّع تضاريسه ومناخه، وتعدّ أراضي العراق من أخصب أراضي الدولة الإسلامية؛ لما يحويه من شبكة واسعة النطاق من المصارف<sup>(٣)</sup>.

#### البطائح<sup>(٤)</sup>:

وتسمّى البطائح أيضاً الأجام<sup>(٥)</sup>، أو الأهوار<sup>(٦)</sup>، وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة<sup>(٧)</sup>، كانت قديماً قرى متصلة وأرضها عامرة<sup>(٨)</sup>. وهذه المنطقة صالحة للزراعة كونها مائية؛ حيث زرع فيها الرز والقصب الذي يستفاد منه في استعمالات منزلية عدّة، كصناعة الحصر والورق، كما تُعدّ خير مصدر لعلف الحيوانات التي تعيش في منطقة البطيحة، وبخاصة قطعان الجاموس، وبذلك تكون البطيحة مصدراً للمنتجات الحيوانية كاللبن والزبد، اللذين تحتاج إليهما كل المدن، وخاصة بغداد لكثافة سكانها<sup>(٩)</sup>، بالإضافة إلى توافر كميات كبيرة من الثروة

(١) ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط٢، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٤٠٤، ص ٩٨.

(٢) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط٤، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٩٦، ٩٩.

(٣) علي، مختصر تاريخ العرب والتحدّث الإسلامي، ترجمة رياض رأفت، مطبعة التآليف، القاهرة، ١٩٣٨م، ص ٣٦٤.

(٤) البطائح، والبطحاء والبطيحة، وتبطح السيل إذا اتسع في الأرض وبذلك سميت بطائح لأن المياه تبطح فيها؛ أي سالت واتسعت من الأرض، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٤٥٠.

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٧٩. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٣.

(٦) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٣.

(٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٤٥٠. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣١٢.

(٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٤٥٠. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٧.

(٩) سترك، مادة البطيحة، دائرة المعارف الإسلامية، مج ٣، ص ٦٨٢-٦٨٥.

السومية<sup>(١)</sup>. كما أن في هذه المنطقة نوعاً من النشاط الاقتصادي بالرغم من أن مناخها رديء وبيئتها موبوءة بمختلف الأمراض التي تجعل منها مناطق غير صالحة للسكن إلا لأصحاب الجواميس وقطاع الطرق والهاربين عن أنظار الحكومة؛ وذلك بسبب تعذر الوصول إليها<sup>(٢)</sup>.

### الري والقنوات:

كانت الزراعة في العراق في العصر العباسي متقدمة ومزدهرة إلى حد ما، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى الاهتمام بنظام الري آنذاك من قبل الخلافة العباسية نتيجة لقلّة الأمطار في أرض السواد، الأمر الذي أدى إلى اهتمام الخلفاء العباسيين بإحياء الأرض للإفادة منها في الزراعة، عن طريق احتفار الأنهر الكثيرة في أرض السواد، حتى قيل إن في رمية السرح الواحدة عدداً من الأنهار<sup>(٣)</sup>، وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام الدولة العباسية بذلك.

قد أولت الدولة العباسية الأراضي الزراعية عناية خاصة؛ إذ حفرت لها الأنهار من أجل إيصال المياه إلى تلك الأراضي<sup>(٤)</sup>، وكان الجانب الشرقي من بغداد تجري فيه عدة أنهار<sup>(٥)</sup>، بالإضافة إلى أنه هناك أنهار حفرت لسقي الأراضي في بغداد<sup>(٦)</sup>. وهذه الأنهار بقيت مستغلة إلى نهاية حكم الدولة العباسية، وذلك عندما قصد المغول بغداد؛ حيث عبر عسكر باجو<sup>(٧)</sup> من تكريت، ثم انحدروا إلى أعمال بغداد فأجفل الناس من دجيل والإسحاق ونهر عيسى، ودخلوا إلى المدينة بنسائهم وأولادهم<sup>(٨)</sup>. ومما يؤكد أيضاً اهتمام الدولة بالأنهار، أنها كانت تراقب حركات الأنهار باستمرار، وتسجل مناسيب المياه وفق مقياس خاص يسجل مدى ارتفاع الماء وانخفاضه<sup>(٩)</sup>.

(١) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط١، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٨٥. القزويني، آثار البلاد، ص ٤٤٦.

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٩٦. ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع، مج ١، ص ٢٠٦.

(٣) الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال، القاهرة، ١٩٦١. ص ٥٧.

(٤) ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، مج ٣، ص ١١٨٥، ١٣٤٣، ١٣٩٩، ١٤٠٠.

(٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٩٠. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٦، ٦٠٨، ٦٠٩.

(٦) ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، مج ١، ص ٢٥٠.

(٧) باجوو يعرف بـ باطو أو باتو وكذلك بركة، ووالده هو جوجي بن جنكيزخان، الذي توفي في حياة أبيه، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣١٢-٣١٣.

(٨) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٥.

(٩) سوسة، الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ١٠، ص ٤٠.

والخليفة المستعصم بالله لا يقل شأناً عن غيره من خلفاء بني العباس؛ فقد اهتم بشؤون الري والزراعة، حتى إنه كان حريصاً على مواجهة الفيضانات التي حصلت في عهده، وكان يشرف بنفسه على سد البثوق<sup>(١)</sup>.

تتمثل أنهار العراق على نحو رئيس في نهري دجلة والفرات؛ إذ لولاهما لأصبحت الأرض قاحلة؛ حيث إن هذين النهرين يسيران من الشمال إلى الجنوب، وينبع نهر دجلة من مرتفعات جنوبي شرقي آسيا الصغرى، ونهر دجلة منبعان في جنوبي شرقي آسيا الصغرى، ويقع هذان المنبعان الرئيسان جنوبي منابع نهر الفرات، ومجاورين لها، وأولهما غربي يسمّى دجلة، وتقع عليه مدينة ديار بكر، فضلاً عن بحيرة كولجك التي تمده بمياه إضافية أيضاً، أما المنبع الثاني الشرقي فيتكون من عدة روافد، منها بطمان صو والهازو وبوتان صو، وبعد اتصال هذين المنبعين بالنهر فإنه يتجه جنوباً ثم إلى الجنوب الشرقي حتى يدخل الأراضي العراقية بعد أن يقطع مسافة (٣٠٠) كيلو متر خارج حدود العراق<sup>(٢)</sup>، وعند مسيره جنوباً تغذيه ويصب فيه من جهة الشرق عدة أنهار، منها: الزاب الأعلى الذي يُسمّى المجنون لسرعة جريانه، ويصب فيه بمسافة فرسخ من مدينة الموصل، والزاب الأسفل الذي يصب فيه عند السن قبل تكريت<sup>(٣)</sup>، ونهر تامرا الذي يصب في دجلة بعد اجتيازه بغداد بأكثر من فرسخ، وتسمّى نهاية مصبه قسم ديالي<sup>(٤)</sup>، ويواصل سيره جنوباً داخل السهل الرسوبي حتى البطائح ثم يلتقي بالفرات بعد خروجه من البطائح في قرية مطارة<sup>(٥)</sup> فيكونان دجلة العوراء أو ما يسمّى بثط العرب حالياً، الذي يصب في الخليج العربي<sup>(٦)</sup>.

ويتفرع عن دجلة في الجانبين الغربي والشرقي في منطقة البصرة بعد خروجه من البطائح أنهار كثيرة، وبخاصة أنهار الجانب الغربي التي تزيد على مئة ألف نهر، أشهرها: المرة، والدير، وبتق وشيرين، والعقل، وأبلة، واليهودي، وأبو الخصيب، والأمير، والقنديل، وأنهار الجانب الشرقي التي أشهرها نهر الأهواز<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٩، ٦٠٨، ٥٦٥.

(٢) الخلف، جاسم محمد، جغرافية العراق الطبيعية، ط ٣، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٨١-١٨٢.

(٣) ابن عبدالحق، مرصد الاطلاع، مج ٢، ص ٦٥٢.

(٤) ابن عبدالحق، مرصد الاطلاع، مج ٢، ص ٦٥٢.

(٥) مطارة: قرية من قرى البصرة يلتقي عندها نهرا دجلة والفرات، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٥، ص ١٤٧.

(٦) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٢٠.

(٧) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٦-٥٧.

## أما الأنهار الكبرى التي تتفرع عن دجلة، فأبرزها:

- ١- نهر القورج: يقع هذا النهر شمال بغداد وعلى الجهة الشرقية من دجلة، وكان له دور كبير في فيضان بغداد قديماً، ولذلك كانوا يراقبون سدته خوفاً من فيضانه الذي يغرق بغداد وما حولها (١).
- ٢- نهر دجيل: يتفرع من الجهة الغربية لدجلة أسفل مدينة القادسية جنوب سامراء، فيسقي قرى ومدناً كثيرة (٢) منها أوانا والحظيرة والصريفين وغيرها (٣). وكان هذا النهر يسقي عدداً كبيراً من القرى والمزارع المثمرة (٤)، وفي أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حفر المستنصر بالله نهر دجيل ووسّعه لإرواء الأراضي التي زال عنها دجلة (٥).
- ٣- نهر الإسحاقي: يخرج هذا النهر من غرب دجلة أسفل مدينة تكريت، ويصب في دجلة مرة أخرى إلى الشمال من مخرج دجيل (٦) فيسقي سبع قرى تحوي أراضي زراعية كثيرة في غرب سامراء (٧).
- ٤- نهر النهروان: يقع في الجهة الشرقية من دجلة (٨)، ويأخذ مياهه من دجلة جنوب سامراء، ويمتد بمحاذاة نهر دجلة من جهة الشرق بمسافة أكثر من مائتي كيلو متر (٩)، وقد اضمحل هذا النهر في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بسبب انهيار السد الذي كان أنشئ على المجرى الرئيس من دجلة (١٠).

(١) ابن عبدالحق، مرصد الاطلاع، مج ٣، ١١٣٢. الفيل، محمد رشيد، الحالة الاقتصادية لمدينة بغداد أثناء الحكم الأيلخاني (١٢٥٨-١٣٣٦)، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٦٤، بغداد، ١٩٦٣، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٤٣. ابن عبد الحق، مرصد الاصلاح، مج ٢، ص ٥١٦.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٤٣. خصبك، العراق في عهد المغول، ص ٩١.

(٤) أبو الغداء، تقويم البلدان، ص ٥٦. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٣٤.

(٥) جواد، مصطفى وأحمد سوسة، دليل خارطة بغداد، بغداد قديماً وحديثاً، ١٩٥٨م، ص ١٨٣.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، مج ٤، ص ٣٢٥.

(٧) سهراب، عاش في النصف الأول من (ق ٤هـ/ ١٠م)، عجائب الأقاليم السبعة، مطبعة أدولف هولز، فيينا،

١٩٢٩م، ص ١٢٨. ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط فينييس،

تطوان، ١٩٥٨م، ص ٩١.

(٨) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٧٢.

(٩) الهييتي، صبري فارس، أنهار بغداد، مجلة المورد، م ٨، ع ٤٤، بغداد، ١٩٧٩، ص ١٧.

(١٠) سوسة، أحمد، تطور الري في العراق، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٦م، ص ٦٢-٦٣.



٥- نهر القاطول<sup>(١)</sup>: موقعه بين الجزيرة والموصل<sup>(٢)</sup>؛ حيث يخرج من شرق دجلة ويمر ب

بجانب قصر الخليفة المتوكل المعروف بالجعفري، ويسير بين القرى والبساتين، ويسقيها، ثم يصب في دجلة من الجانب الشرقي<sup>(٣)</sup>.

إضافة إلى ذلك كان هناك أنهار أخرى مثل نهر جوحا<sup>(٤)</sup> ونهر جلولاء<sup>(٥)</sup>، وكانت الأنهار التي تقع في الجانب الغربي أكثر وأشهر من تلك التي تقع في الجانب الشرقي<sup>(٦)</sup>.

أما نهر الفرات، فإنه ينبع من المرتفعات الواقعة في شرق آسيا الصغرى، التي يزيد ارتفاعها على (٣٠٠٠) متر تقريباً<sup>(٧)</sup>. وعندما يتجاوز كوئي بنسبة فراسخ ينقسم فرعين؛ أحدهما جنوبي غربي يمر إلى الكوفة ومنها إلى البطائح، بينما يمر الآخر وهو أعظمها جنوباً إلى مدينة بابل القديمة، وعندما يتجاوزها يتفرع إلى عدة أنهار، يمر أكبرها بمدينة النيل<sup>(٨)</sup>، ويسمى بعدها بنهر الصراة، ثم يتجاوز النيل ليصب في دجلة<sup>(٩)</sup>.

وأما أهم الأنهار التي تتفرع عن نهر الفرات، فهي:

١- نهر عيسى<sup>(١٠)</sup>: ويخرج من الفرات تحت مدينة الأنبار<sup>(١١)</sup>، وعند خروجه من الفرات كان عليه قنطرة يقال لها دما<sup>(١٢)</sup>، وهي كورة واسعة وقرى كثيرة<sup>(١٣)</sup>، ثم يمر فيسقي

(١) القاطول: اسم نهر كان مقطوعاً من دجلة، وكان في موضع سامراء قبل أن تعمر، وكان الرشيد أول من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصرأ أسماء أبا الجند؛ لكثرة ما كان يسقي من الأراضي، وجعله لأرزاقه وجنده، وهو يصب في النهروان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص ٢٩٧.

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٤٩.

(٣) سهراب، عجائب الأقاليم، ص ١٢٨. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٦.

(٤) ابن عبد الحق، مراصد الإصلاح، مج ١، ص ٣٥٥.

(٥) ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، مج ١، ص ٣٤٣.

(٦) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٦.

(٧) الخلف، جغرافية العراق، ص ١٧٨.

(٨) النيل: بليد في سواد الكوفة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٥، ص ٣٣٤.

(٩) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥١-٥٤.

(١٠) نهر عيسى: سمي بذلك نسبة إلى عيسى بن علي بن عبد الدين عباس عم الخليفة المنصور، الخطيب، تاريخ بغداد، ج ١، ص ١١٢. ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص ١٨. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٨، ص ٣٤٢.

(١١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٢-٥٣.

(١٢) دما: قرية كبيرة عند فم نهر عيسى قرب الفرات، ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، مج ٢، ص ٥٣٥. وأبو الفداء، ذكرها باسم دهما، تقويم البلدان، ص ٥٣.

(١٣) ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، مج ٣، ص ١٤٠٤.

طسوج (١) الأنبار (٢)، وهذا النهر يروي معظم أراضي بغداد والكثير من البساتين والنخيل والضياع، ويشكل نظاماً رائعاً محكماً للري في ضواحي بغداد (٣)، إلا أنه ينقص في فصل الصيف فينقطع جريانه، مما يدفعهم لسقاية البساتين والمزارع التي على الجانبين بنظام الدواليب (٤). وعندما يصل إلى المحول تتفرع منه أنهار تدخل بغداد (٥). ويذكر ابن الفوطي (٦) أن الخليفة المستعصم بالله أمر ببناء سد على فم نهر عيسى مما يلي دجلة ليزداد الماء؛ من أجل الإفادة منه في الزراعة، وكان ذلك في سنة (٦٤٣هـ / ١٢٤٥م).

٢- نهر صرصر (٧): ويخرج من تحت مجرى نهر عيسى (٨)، ويسير النهر في سواد العراق بين بغداد والكوفة يسقي منه بالدوالي (٩) والشوادي (١٠) (١١)، ويصب فوق المدائن بأربعة فراسخ (١٢).

٣- نهر الملك: ويخرج من تحت نهر صرصر، ومصبه في دجلة أسفل المدائن بثلاث فراسخ، وهذا نهر عظيم تتفرع منه أنهار كثير وعليه عدد كبير من القرى (١٣)، ويسقي مزارع كثيرة وبساتين ونخيلاً (١٤).

(١) طسوج: أرض رقيقة قد توالى عليها الخراب، وانغلق أكثرها بالسد والدغل، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ١٣١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٥، ص ٣٢٢. سهراب، عجائب الأقاليم، ص ١٢٣. لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٩٢.

(٣) سوسة، تطور الري في العراق، ص ٥٥. جواد، دليل خارطة بغداد، ص ٦٦.

(٤) الواسطة: وهي ري المزروعات إما سحياً أو بوساطة الآلات الرافعة التي تسحب المياه من الأنهار مثل الدوالي. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٢. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٦٢-٦٣.

(٥) سهراب، عجائب الأقاليم، ص ١٢٣. ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص ١٨.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٨-١٩٩.

(٧) صرصر: قريتان من سواد بغداد؛ صرصر العليا، وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٥، ص ٢٦٤.

(٨) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٢. خصباك، العراق في عهد المغول، ص ٩١، لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٩٣.

(٩) الدوالي: هي الرافعة تسحب من الأنهار، الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٦٢-٦٣.

(١٠) الشوادي من الشادوف، وهو دلو لطيف يدار مثل دلو الدالية، ويحتاج إلى أربعة رجال لتشغيله، ويسقي أربعة أجرة في اليوم، ويرزح عليه في الشتاء (٧٠) جريباً، وفي الصيف (٣٠) جريباً، الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٦٣.

(١١) سهراب، عجائب الأقاليم، ص ١٢٤. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٢.

(١٢) لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٩٣.

(١٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٣٧. ابن عبدالحق، مرآة الاطلاع، مج ٣، ص ١٤٠٦، ١٤٠٧.

(١٤) سهراب، عجائب الأقاليم، ص ١٢٤. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٩٧-٢٩٩.

٤- نهر كوثي: ومخرجه من تحت نهر الملك (١)، ويصب في دجلة أسفل المدائن بعشرة فراسخ، ويسقي هذا النهر سواد العراق (٢)، ونجد أن نهر كوثي في هذا الوقت خرباً (٣). ولما كان في دراسة مجرى الأنهار صعوبة؛ وذلك لاختلاف بعض الجغرافيين في ذكر مسار الأنهار وتغير أسمائها أحياناً، فإن الهدف من ذكرها توضيح أنها كانت تغطي مناطق شاسعة من الأراضي الزراعية في العراق.

كان يعتمد في ري منطقة السواد على نهري دجلة والفرات، ومن هذين النهرين شقت جداول كثيرة لتروي المناطق البعيدة عن شاطئيهما؛ فوجد القنوات قد استخدمت لسقي الأراضي الزراعية، ثم لا يصل الماء إلى داخل المدينة من أجل عدة استعمالات، وتخلت بغداد شبكة متقنة من القنوات تبدأ من سامراء؛ حيث تتفرع من دجلة والفرات فتحمل مياه الفرات إلى دجلة في القسم الأعلى ومياه دجلة إلى الفرات في القسم الأسفل (٤)، بذلك تؤلف طرفاً رئيسة متقنة، وتؤلف نظام نقل بوساطة هذه القنوات (٥)، ومن شط العرب تفرعت قناتان كبيرتان، هما الشمالية الشرقية وتسمى نهل معقل، والغربية الجنوبية وتسمى نهر الأبلّة (٦). وكانت هناك أيضاً قناة تربط دجلة السفلى بدجيل الأحواز، وهي نهر بيان، وتعرف الآن باسم الكارون، وتقوم عبادان عند مدخل هذا النهر (٧)، وكان يقع على عاتق الدولة إنشاء القنوات والسدود (٨)؛ للإفادة من المياه.

وقد استخدمت هذه القنوات زمناً طويلاً، وكان قسم منها عرضة للتخريب بسبب إهمال أنظمة الري. كما أن بعض الأنهار التي ذكرناها قد اندثرت بمرور الزمن؛ بسبب الإهمال وعدم إصلاح خرابها؛ لما ساد من الاضطرابات السياسية في عهد السلاجقة، وكذلك نجد أن الاحتلال المغولي كان له تأثير في الاقتصاد على نحو عام وفي الزراعة على نحو خاص، ولكن بالرغم من اندثار أغلب هذه الأنهار والقنوات فإنها تبقى دليلاً على ازدهار الزراعة في العصر العباسي.

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٣.

(٢) لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٩٤.

(٣) ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع، مج ٣، ص ١٠٢١.

(٤) هارثمان، دجلة، دائرة المعارف الإسلامية، مج ٩، ص ١٥١.

(٥) كوك، بغداد مدينة السلام، ص ٤٧.

(٦) خسرو، سفرنامه، ص ٩٥. القزويني، آثار البلاد، ص ٢٨٦-٢٨٧. الحميري، الروض المعطار، ص ١٠٥.

(٧) هارثمان، دجلة، دائرة المعارف الإسلامية، مج ٩، ص ١٥٣.

(٨) الصالح، صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط ٤، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٣٧٩.

ومما يدل على اهتمام العباسيون بالري وجود ديوان خاص بذلك سُمي بديوان الأثرحة، كانت مهمته الإشراف على قنوات الري<sup>(١)</sup>، ومراقبتها، والإشراف أيضاً على تشييد الجداول وترميمها<sup>(٢)</sup>، وكان بيت المال يتولى الصرف على مشاريع الري، وخاصة الكبيرة.

واستمرت الدولة العباسية بالإنفاق على مشاريع الري وإقامة السدود وإصلاح البثوق<sup>(٣)</sup>؛ حيث إن البثوق كثيرة<sup>(٤)</sup> من جراء الفيضانات التي كانت إحدى المشكلات الاقتصادية العظيمة التي واجهت الخليفة المستعصم بالله، وكان لها أضراراً على الزراعة، وهذه البثوق جلبت النكبات على بغداد لما أحدثته من أضرار في الأراضي الزراعية وتهديم الدور والمحلات<sup>(٥)</sup>، وقد تميّز عهد المستعصم بالله بكثرة الفيضانات؛ نتيجة لانفتاح القورج وحدوث البثوق الكبيرة في الأنهار<sup>(٦)</sup>، التي يُكفَى في معالجتها بوضع التراب ليكون بمثابة سد، لكنه سرعان ما ينهار بسبب شدة تيار المياه واندفاعها<sup>(٧)</sup>، وكذلك أولى المستعصم بالله اهتماماً خاصاً بإصلاح السدود ففي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، أمر ببناء سد على فم نهر عيسى مما يلي دجلة ليزداد ماء النهر<sup>(٨)</sup>، وأمر أيضاً في سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) ببناء سد على شاطئ دجلة في بستان الصراة<sup>(٩)</sup>، للإفادة من المياه في الزراعة.

وبالرغم من جهود الخليفة المستعصم بالله المبذولة في هذا الموضوع، فإن الكوارث الطبيعية كانت أقوى منه؛ فقد توالى النكبات على الخلافة في عهده كالفيضانات المدمرة<sup>(١٠)</sup>، ولضعف الدولة وقلة الأموال لديها أهملت مشاريع الري، مما أدى إلى تراكم الترسبات في

(١) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣١٥.

(٢) علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٥٧.

(٣) البثوق: جمع بثق وهو ما يخرق الماء من جانب النهر. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، الخراج، تحقيق محمد الياسي، ط١، تونس، ١٩٨٤م، ص ١١٤.

(٤) ابن عبدالحق، مرصد الاطلاع، مج ٣، ص ١١٣٢. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٦٥.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣٢، ٣٠٤، ٣١٧-٣١٩. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٦٥، ٦٠٠-٦٠١، ٦١٥.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣٠-٢٣٢، ٢٧٣، ٣١٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٦٥، ٦٠٠-٦٠١، ٦١٥.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣١-٢٣٣. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٦٥.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٨-١٩٩.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٠.

(١٠) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣٠-٢٣١، ٢٧٧، ٢١٧-٢١٨. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٦٥، ٦٠٨، ٦١٤-٦١٥.

مجاريتها وتخريبها، كما خربت السلود، وأدى ذلك إلى إتلاف الأراضي الزراعية<sup>(١)</sup>، بالإضافة إلى سقوط الكثير من الأمطار والثلوج ولعدة أيام، وخاصة في المدة من (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م - ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م)، مما أدى إلى تلف المحاصيل الزراعية، ومن ثم أدى إلى قلة الإنتاج الزراعي<sup>(٢)</sup>، ما أثر في ارتفاع أسعار المواد الغذائية في السنوات (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م)<sup>(٣)</sup>، ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م<sup>(٤)</sup>، ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م<sup>(٥)</sup>، ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م<sup>(٦)</sup>، وقد انعكس هذا الارتفاع في الأسعار سلباً على المستوى المعاشي في تلك المدة. فضلاً عن أن الأسعار تأثرت بالوضع السياسي؛ حيث كان للخطر المغولي الذي يهدد الخلافة أثره في ارتفاع الأسعار<sup>(٧)</sup>، إلى جانب الممارسات غير الشرعية للتجار من احتكار للسلع والمواد الغذائية وخبزها، التي أدت إلى خلق أزمة اقتصادية<sup>(٨)</sup>.

ويرد أن الخليفة المستعصم بالله كان يعاقب بالضرب من يزيد الأسعار<sup>(٩)</sup>، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على متابعة الخليفة حاجات الناس، بحيث تكون في متناول أيدي الجميع.  
ملكية الأرض:

كانت ملكية الأرض في الدولة العباسية تتكون من الأصناف الآتية<sup>(١٠)</sup>:

#### ١- أراضي الإقطاع:

عرف الإقطاع منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم استمر في عهد الخلفاء الراشدين، ومن بعدهم من الأمويين والعباسيين<sup>(١١)</sup>، لكن الإقطاع العسكري شاع منذ العهد

(١) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣٠٥.

(٢) سبط ابن جوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٧٩٣-٧٩٤. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٥، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٧٧، ٢٨٧، ٣٠٣. الذهبي، مختصر تاريخ الإسلام، ص ٣٢٣. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٣٥٧، ٥٤٤، ٥٥٤، ٥٦٤، ٥٦٩-٥٧٠، ٦٠٠-٦٠١.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٦. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٢.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٢. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٥-٥٣٦.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٨.

(٦) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٩.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٢٠.

(٨) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص ٣.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٣.

(١٠) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ٩٩.

(١١) أبو يوسف، يعقوب ابن إبراهيم (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م)، الخراج، تحقيق محمد الباجي، ط١، تونس، ١٩٨٤م، ص ٣٤. ابن سلام، أبو عبيدة القاسم (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م)، الأموال، صححه محمد حامد الفقي،

المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٥٣هـ، ج٢، ص ٢٧٣.

البويهبي<sup>(١)</sup>، وقد استمر طيلة العهد السلجوقي، ولم ينته بزوالهم بل ظل طيلة عهد الناصر، الذي أكثر من اقطاعاته لأمرائه وأرباب دولته، وخاصة من الأراضي الديوانية<sup>(٢)</sup>، واستمر في عهد المستنصر بالله وبعده المستعصم بالله ولم يُلغ<sup>(٣)</sup>، ويُعدّ الإقطاع أحد صيغ استغلال الأرض، وينقسم نوعين هما:

#### أ- إقطاع الاستغلال:

عندما أصبحت الخلافة غير قادرة على دفع رواتب أفراد جيشها من الأمراء والمماليك وبقية موظفيها، لجأت إلى استخدام هذا النظام من الإقطاع، وهو مؤقت، ويؤخذ منه خراج الأرض<sup>(٤)</sup>، ويسترد من الشخص متى أراد الخليفة، أو عند وفاة صاحب الإقطاع، ويعطى كي يستغله صاحبه؛ تعويضاً عن رواتبه وسدّاً لحاجته المعيشية<sup>(٥)</sup>، إلا أن هذا النظام بدأ يتغير ويتجه نحو الوراثة<sup>(٦)</sup>، وبعد انتعاش الخلافة، وتحديدًا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، لم يغيّر الخلفاء شيئاً من هذا النظام؛ حيث اتخذت الخلافة أسلوب الإقطاع في إدارة ولاياتها، فكانت تقطع بلاداً معينة لبعض مماليكها، على أن يُحمل إليها مبلغ معين من المال سنوياً<sup>(٧)</sup>. كما أن نظام الإقطاع لم يكن موحد الصورة، فقد يكون الإقطاع إدارياً؛ أعني أن المقطع يتولى شؤون الإدارة فقط، وقد يكون مالياً فقط؛ أي أن يحصل المقطع الأموال، من غير أن يكون علاقة له بالإدارة، وهو في هذه الحالة أشبه بالضامن<sup>(٨)</sup>.

ومن أمثلة هذا النوع من الإقطاع في عهد الخليفة المستعصم بالله، أنه في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) تم إقطاع منطقة طريق خراسان والخالص<sup>(٩)</sup> والراذان<sup>(١٠)</sup>، إلى عميد الدين منصور بن عباس<sup>(١١)</sup>، وفي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) وصل الخبر من دقوقا أن الأمير

(١) الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٨٧.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ص ٢٧-٢٨. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٦٦.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧.

(٤) الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٩٧-٩٨.

(٥) الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٤١. فهد، تاريخ العراق، ص ٣٢٤.

(٦) الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٩٧-٩٨. القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٥.

(٧) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٤.

(٨) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٤-١٢٥.

(٩) الخالص: كورة عميقة من شرقي بغداد إلى سور بغداد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٣٣٩.

(١٠) الراذان: راذان الأسفل وراذان الأعلى، كورتان بسواد بغداد تشتمل على قرى كثيرة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص ١٢.

(١١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٧.

بليان مملوك شاه أرمن بن سكرمان (١) مقطع دقوقاً قد قتلته المغول مع أعداد كبيرة من أفرادها (٢)، وأيضاً تأخر المستعصم بالله في سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) عن لقاء والدته في أثناء عودتها من الحج وإلى أن تقدم إلى مقطع اللحف (٣). وكذلك نجد الخليفة المستعصم بالله أقطع الأمير قيران الناصري (٤) الكوفة، وتوفي سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) وكان عمره ثمانين سنة (٥)، كما كان لسنجر بن عبدالله الناصري إقطاعات واسعة وأملاك كثيرة تدر عليه أموالاً وفيرة (٦)، وكان علاء الدين الطبرسي الظاهري المعروف بالدويدار الكبير أحد الأمراء الكبار، قد أقطعه الخليفة قوسان (٧)، وكان يحصل منها بحدود ثلاثمائة ألف دينار سنوياً، وقد توفي سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) (٨).

إذ دققنا النظر في ما سبق، نستنتج أن الأراضي الإقطاعية بقيت بأيدي أصحابها زمنياً طويلاً، وبعضهم قد تسلم إقطاع أبيه عند وفاته، مما يدل على إمكانية توريث الإقطاع ما دام ذلك لا يؤثر في دخل الدولة سلباً (٩).

ب- إقطاع التملك:

تكون الأرض في هذا الإقطاع ملكاً لصاحب الإقطاعية، وليس عليه سوى دفع العشر من خراجها، ويمكن أن تكون الأرض أيضاً وراثية، وتعطى عادةً من الأرض التي توفي صاحبها وليس له وريث أو من الأرض الموات لإحيائها (١٠)، والخليفة هو الذي يهب إقطاع التملك ليس للعسكريين أو إلى طبقة معينة من الناس، بل كان مشمولاً به أهله وجواريه، وكان الهدف منها

- (١) هو مملوك شاه أرمن بن سكرمان، وهو الذي ملك خلاط، وسيطر على ملاذكرد وغيرها. الغساني، العسجد المسبوك، جـ٣، ص ٣١٢.
- (٢) الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٧١.
- (٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٣.
- (٤) هو أبو المكارم، كان من كبار الأمراء وجلة الزعماء، وهو من ذوي أرباب العمائم والكوسات، توفي سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م). الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٥١-٥٥٢.
- (٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٧.
- (٦) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٦٦.
- (٧) قوسان: كورة كبيرة ونهر عليه مدن وقرى تقع بين النعمانية وواسط، ونهره الذي عليه يسقي زروعه يقال له الزاب الأعلى، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص ٤١٣.
- (٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٥.
- (٩) ابن الجوزي، المنتظم، جـ١، ص ٢٧٢. ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ٧٦. ابن الطقطقي، انفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٦٠. القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٥.
- (١٠) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٢٨.

أن تكون مورداً مالياً لصاحب الإقطاع في حياته<sup>(١)</sup>. وقد جاءت أغلب هذه الإقطاعات على أنها أقطاعات استغلال وذات فائدة آنية، علماً بأن سيطرة المقطعين كانت محدودة إذا ما قيست بسيطرة الخليفة المركزية<sup>(٢)</sup>؛ إذ كان صاحب الكلمة في الدولة، وكان حكمه في منحه للإقطاعات مركزياً.

## ٢- الضمان<sup>(٣)</sup>:

وهو أن يتقبل شخص منطقة معينة ويتحمل جباية خراجها بعد أن يضمنها بمقدار من المال عند ديوان المقاطعات الذي يتولاه الناظر أو الكاتب، وقد انتعش الضمان في أواخر الدولة العباسية<sup>(٤)</sup>. ففي سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) رتب شرف الدين الشرابي عبدالله بن دينار ناظر ديوان المقاطعات<sup>(٥)</sup>، وهذا الديوان كان يختص بخراج المقاطعات التي كانت بيد الخليفة، وكان الضامنون لهذه الأراضي من الرؤساء وأرباب المناصب والأمرء وذوي النفوذ، وذلك مقابل مبلغ من المال يدفعه المقطعون لهذا الديوان<sup>(٦)</sup>؛ لحاجة الدولة إلى هذا المال من أجل سد نفقاتها ومن ثم دفع رواتب الجنود. وفي سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٤م) ولي الأمير فلك الدين محمد بن الدويدار الكبير<sup>(٧)</sup> إمارة الحاج عوضاً عن سنجر البلكي<sup>(٨)</sup> وضمن قوسان بمائة ألف وعشرين ديناراً، وذلك كل سنة، وشرط على نفسه أن يكون تشريفات العرب من خاصته وجميع ما تحتاج إليه من مال ونفقة<sup>(٩)</sup>.

(١) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١٠١-١٠٢.

(٢) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١٠٢-١٠٣.

(٣) الضمان، من الضمين أي الكفيل، ضمن الشيء به أي كفه، ابن منظور، لسان العرب، مج ٥، ص ٥٣٣.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ٢٨٢. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٨.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٨.

(٦) الخالدي، النظم في العراق، ص ٢٠٩. الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٨٦.

(٧) هو أمير الحاج محمد بن الأمير الطبرسي الظاهري، كان شاباً جميلاً سرياً نجيباً. حج بالناس ثلاث سنين، فحُمدت سيرته، قُتل على يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)؛ حيث كان عمره نيفاً وعشرين سنة، الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٣٤.

(٨) هو الأمير قطب الدين سنجر بن عبدالله البلكي المستصري التركي، وقد عُرف بأنه أمير الحج، ولي شحنة بغداد مدة، وقد حُمدت سيرته، وقُتل وهو في عداد الكهول على يد المغول، سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م). الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٣٤.

(٩) الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٣.



وبما أن الضمان يعقد للأمرء ولذوي النفود، فإن فيه قوة عده الفقهاء من وسائل التملك الفاسد وأكل أموال الناس بالباطل<sup>(١)</sup>.

وفي العادة كانت تحدد المنطقة التي يراد ضمانها، ثم يوضع عليها مقدار ضمانها؛ ففي سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) ألحق قطب الدين سنجر البكاكي بالزعماء وعقد عليه ضمان البندنجين<sup>(٢)</sup> وقد قتله المغول في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(٣)</sup>، وأيضاً عقد ضمان ولاية الجبل على الأمير سراسنقر المستنصري، وخلع عليه قباء وشربوش، وأعطى مركوباً بعدة كاملة؛ حيث كان ذلك في سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)<sup>(٤)</sup>.

وكانت الدولة ترسل مع الضامن كاتباً وناظراً ليكون بمثابة الشهود على كيفية استحصال الضمان<sup>(٥)</sup>، وذلك لأنه في وقت من الأوقات لم يستطيع الضامن استيفاء ما ضمنه من الأرض فبدأ بظلم الفلاحين وإيذائهم<sup>(٦)</sup>.

### ٣- أراضي الوقف:

أوقف المسلمون الوقوف الكثيرة على أماكن التدريس المختلفة، كالمدارس ودور القرآن ودور الحديث والربط والمشاهد وخزانات الكتب، وكذلك الإنفاق على أربابها حفظاً للدين ورعاية للعلم وأهله من الطلبة والمدرسين<sup>(٧)</sup>، والهدف من الوقف قد يكون الغرض منها مساعدة الفقراء والمحتاجين، أو قد يكون لأغراض دينية بحيث تكون وارداتها للأراضي المقدسة في مكة والمدينة، وقد تكون أيضاً لبناء المساجد والمستشفيات والخانات<sup>(٨)</sup>. والوقف يكون إما رسمياً أو خاصاً، وبالنسبة للوقف الرسمي فإنه يبدأ بها الخليفة بصفته حامي الحرمين الشريفين<sup>(٩)</sup>؛ ففي عهد المستعصم بالله سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) أمر بوقف دار سوسيان وما بها من البيسنتين

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ج١، مصر، ١٩٦٦م، ص ١٦٤.

(٢) البندنجين: بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٤٩٩.

(٣) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ٤، ص ٦٤٢.

(٤) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٧٥.

(٥) ابن الساعي، الجامع المختصر، ص ٩، ١٦-١٧.

(٦) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص ١١٨-١١٩.

(٧) معروف، تاريخ علماء المستنصرية، ص ٩١.

(٨) بروي، أدوار وآخرون، تاريخ الحضارات العام، نقله للعربية، يوسف أسعد داغر وفريدوم داغر، ط١، بيروت، ١٩٦٥م، مج ٣، ص ٢٠٥.

(٩) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص ١٦٧-١٦٨. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٩.

وجُعِلت رباطاً للصوفية<sup>(١)</sup>، وكذلك فتحت في السنة نفسها دار القرآن، وكان وقفها على شاطئ  
دجلة بالجانب الغربي، وفي ذلك يقول أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد:

(بحر الكامل)

مَنْ ذَا رَأَى فَصَلَ الرَّبِيعِ وَزَهْرَهُ      رِيَاضُهُ فِي الْعَشْرِ مِنْ تَشْرِيبِنِ  
خَلَعًا مَكْمَلَةً يِقَارُنُ وَشَيْهَهَا      مَا جَاءَ مِنْ مِصْرَ وَمِنْ جِيْرُونِ  
سَبَّعُونَ تَشْرِيفًا وَمَا أَحْصَيْتُهَا      وَلرَّبِّمَا زَادَتْ عَلَى السَّبَّعِينَ  
كَرْمٌ يَزِيدُ عَلَى الْبِحَارِ مَدِيدُهَا      وَعَلَى حَيَا دَانِي الرَّيَابِ هُنُونُ<sup>(٢)</sup>

لقد كان الشعراء يتغنون بالوقوف؛ من باب التشجيع عليه من جهة، وتمجيد الواقف من  
جهة أخرى؛ لما له من أثر في نفوس المسلمين.

أما الوقف الخاص فيكون من بعض أئقياء الأمة<sup>(٣)</sup>، ويشرف على إدارته القضاة ورجال  
الدين<sup>(٤)</sup>؛ ففي عهد المستعصم بالله سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) فتح عز الدين أبو المكارم رباطاً،  
وأسكن فيه جماعة من الصوفية، وأجرى لهم جريات من ماله الخاص<sup>(٥)</sup>، وقد يكون من بعض  
التجار والملاكين والأمراء وأصحاب المراتب العليا؛ أي من الناس كافة<sup>(٦)</sup> والأوقاف تدر  
أموالاً كثيرة، لذلك يجب أن يتولاها أناس ثقات<sup>(٧)</sup>، كما أن إيرادات الوقوف كانت تحت إدارة  
القاضي<sup>(٨)</sup>.

لقد أمر الخليفة المستعصم بالله في سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) بزيادة دور الضيافة؛ ففتحت  
أربع دور جديدة، وكانت دور الضيافة تقع ضمن إشراف ديوان الطبق<sup>(٩)</sup>، وفي السنة نفسها رتب  
عز الدين أبو المكارم وكيلاً لأم الخليفة المستعصم بالله<sup>(١٠)</sup>، كما كان هنا ناظر لوقوف المدرسة

- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٤.
- (٢) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٣.
- (٣) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٩.
- (٤) الزبيدي، محمد حسين، العراق في العصر البويهي، التنظيمات السياسية والإدارية والاقتصادية، دار  
النهضة العربية، بغداد، ١٩٦٩م، ص ١٢٣.
- (٥) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص ١٣٣.
- (٦) بروي، تاريخ الحضارات، مج٣، ص ٢٥.
- (٧) فهد، تاريخ العراق، ص ١٦٣.
- (٨) بيليايف، الحالة الاقتصادية في عهد الخلافة العباسية، ترجمة جليل كمال الدين، مجلة المورد، م٨، ع٤،  
بغداد، ١٩٧٣م، ص ٣٦.
- (٩) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٨، حول ديوان الطبق انظر الفصل الثالث، ص ١٨٠.
- (١٠) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٨؛ تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص ٧٤٨.

المستصرية<sup>(١)</sup>، وفي سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) رتب قوام اللين أبو الحسن علي بن سالم بن إبراهيم البغدادي الكاتب للنظر في أوقاف المستصري، وكان المستصر بالله قد أوقفها على الطبق التي أنشأها في محال بغداد لطور الفقراء في رمضان<sup>(٢)</sup> ووُجدت ما تُسمّى بالأوقاف الذرية، وهي الممتلكات التي أوقفت لأبناء وأحفاد أسرة معينة يتمتعون بها في حياتهم<sup>(٣)</sup>. وقد كانت أراضي الوقف لا تُباع ولا تُشترى ولا تُهدى إلى أحد، كما أنها لا يمكن إلغاء الوقف أو إبطاله<sup>(٤)</sup>.

## ثانياً: الصناعة

تعدّ الصناعة ركناً مهماً من أركان الحياة الاقتصادية في أي بلد، وفي أي وقت، وهي مكملّة للزراعة؛ لكون بعض المواد الأولية التي تنتجها الزراعة تحتاج إلى تحويل لتصبح ذات فائدة للناس، وقد شهدت الصناعة تطور ملحوظاً في مختلف المجالات وعلى مدى العصور الإسلامية، نتيجة للازدهار الحضاري الذي أصاب المجتمع العربي الإسلامي.

## المهن والحرف:

اتسعت في المجتمع الإسلامي أسواق الحرفة، وأصبح لكل منها سوق خاص بها<sup>(٥)</sup>، فظهر الصانع المهرة والحرفيون الممتازون، فضلاً عما اجتذبتّه الحواضر الإسلامية من حذاق الصناعات لتوفر فرص العمل والكسب فيها<sup>(٦)</sup>.

ولم تكن المهن بدرجة واحدة، وإنما كانت على درجات متفاوتة وحسب مركز أصحابها الاجتماعي، فكانت هناك مهن شريفة ومتواضعة ومرذولة<sup>(٧)</sup>، ويبين ابن خلدون أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته " فلا بد من تقسيم العمل، وقد ضرب مثلاً على ذلك فأختار عمل الخبز لبيان مدى التعاون الذي يتطلبه إنتاج هذه المادة الحيوية؛ إذ إن الفرد الواحد ليس بمقدوره القيام بهذا العمل، ولذلك فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٦٤.

(٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٤، ص ٨٠٧.

(٣) بروي، تاريخ الحضارات، مج٣، ص ٢٠٥.

(٤) الزبيدي، التنظيمات السياسية، ص ١٢٣.

(٥) الشبخلي، صباح إبراهيم سعيد، الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٦م، ص ٢٧-٢٨.

(٦) كاهن، تاريخ العرب، مج١، ص ٢٤٠. الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٦٧-٦٨.

(٧) كاهن، تاريخ العرب، مج١، ص ٢٠٤. الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٦٧-٦٨.

القوت له ولهم، وأن هذا الغذاء يحتاج إلى الطحن والعجن والخبز والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري"<sup>(١)</sup>.

كما قسم ابن خلدون الصنائع قسمين، ليشمل أولهما المواضيع الفكرية. أما ثانيهما فيشمل الجسمانية، التي تشتمل على جميع أنواع الحرف اليدوية. ومع ذلك فقد كان ينظر إلى بعض المهن نظرة سلبية، وأبرزها الحياكة والحجامة<sup>(٢)</sup> والقصابين والسماكين؛ لأنها لا تدر أرباحاً وفيرة، كما أن أصحابها يعيشون في وضع اجتماعي متدني<sup>(٣)</sup>، ونتيجة للتطور الذي يشهده المجتمع في العصر العباسي بدأت هذه النظرة تتغير، وكان من آثار هذا التحول أن ظهرت النسبة إلى المهنة<sup>(٤)</sup>، مثل الزيات، الصائغ<sup>(٥)</sup> وغيرهما، ومما يدل على تحسن النظرة إلى الصناعات اليدوية أن أصبحت النسبة إلى الحرفة شائعة بين الطبقة العامة، كما أصبحت شهادة أرباب الصنائع مقبولة من قبل القضاة<sup>(٦)</sup>، وذلك بعد أن كانوا يُعدّون من أصحاب الطبقات الدنيا<sup>(٧)</sup>، ونستطيع القول إن للظروف السياسية دوراً مهماً في الإقبال على المهن والحرف أو العكس؛ ففي عهد الخليفة المستعصم بالله اضطر أصحاب المهن إلى أن يهجروا مهنتهم وحرفهم وينتقلوا إلى أماكن أخرى؛ بسبب الاضطرابات والمشكلات السياسية التي سادت عهد الخليفة، فكان في ظل هذه الظروف من الصعوبة بمكان تحديد الأجور والاهتمام بالمهنيين<sup>(٨)</sup>.

ومع مرور الزمن بدأت تنمو المدن الرئيسية في العراق، وخاصة بغداد؛ نتيجة لتطور الحياة فيها لتتشكل طوائف من نكتلات الحرفيين؛ حيث كان ذلك في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي<sup>(٩)</sup>.

- (١) ابن خلدون، العبر، ج١، ص ٤١-٤٢.
- (٢) الحريري، القاسم بن علي (ت ٥١٦هـ/ ١١٢٢م)، مقامات الحريري، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٤١٩. ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م)، معالم القرية في أحكام الحسبة، عني بتصحيحه روبن ليو، مطبعة الفنون بكمبرج، ١٩٣٧م، ص ٢١٥. ابن خلدون، العبر، ج١، ص ٤٣٥-٤٣٦.
- (٣) ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٢١٥. الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٤٣.
- (٤) الدوري، نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٤، ١٩٥٩م، ص ١٤٣.
- (٥) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣٦٢.
- (٦) الدوري، نشوء الأصناف والحرف، ص ١٤٣.
- (٧) الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (ت أواخر ق ٦ هـ/ ١٢م)، الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق البشري الشوربجي، ط١، الإسكندرية، ١٩٧٧م، ص ٦٢-٦٣.
- (٨) كاهن، تاريخ العرب، مج١، ص ٢٠١.
- (٩) الدوري، نشوء الأصناف والحرف، ص ١٣٤. حداد، جورج الحسامي، مختصر تاريخ الحضارة العربية، ط٢، دمشق، ١٩٥٠م، ص ١٢٩.

فظهرت تنظيمات تعبر عن تماسكهم وتعاونهم، وقد أصبح يُشار إليهم بالأصناف<sup>(١)</sup> وأصحاب المهن<sup>(٢)</sup>، وأهل الصنائع<sup>(٣)</sup> وأرباب المهن والحرف، وقد انتظموا في مناطق خاصة بهم داخل السوق<sup>(٤)</sup>، كما أن الأسواق كانت تُسمّى باسم الحرفة<sup>(٥)</sup>، وهذه الأسواق كانت تراقب بوساطة المحتسب<sup>(٦)</sup> الذي كان يمنع الغش في الصناعات<sup>(٧)</sup>.

## الصناعات:

وُجِدَت أغلب آثار الصناعات في أقدم القرى والمدن الأثرية العراقية كالمنسوجات والزجاج والمصوغات وغيرها، ويمكن القول إن قسماً من هذه الصناعات استمرت في الإنتاج إلى العصور التالية مروراً بالعصر العباسي؛ بسبب التقدم الذي أصاب مختلف مناحي الحياة، وقد ساعدت على ذلك عدة أسباب منها توافر المواد الأولية التي تستخدم لأغراض الصناعة أولاً، ثم موقع العراق على طرق التجارة الرئيسية في الشرق والغرب، ثانياً؛ حيث كان العراق مركزاً لكثير من الصناعات المهمة آنذاك كالمنسوجات والورق والزجاج، وقد قال ابن الفقيه في وصف بغداد: " قل في عجائب بغداد ما شئت، التي قد اجتمع فيها ما هو متفرق في جميع الأقاليم من أنواع التجارات والصناعات"<sup>(٨)</sup>، حيث كانت بغداد ولا تزال مركزاً للصناعة والتجارة منذ تأسيسها حتى زمن الخليفة المستعصم بالله، وأهم الصناعات التي كانت موجودة وتطورت واستمرت إلى ما بعد احتلال بغداد من قبل المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وربما بقي قسم منها محافظاً على وجوده حتى الآن، هي:

### ١- صناعة المنسوجات:

اشتهر العراق بنسج الأقمشة من الحرير والقطن والصوف والكتان<sup>(٩)</sup>؛ وبذا اشتهرت فيه صناعات المنسوجات، وقد أسس الخلفاء مصانع خاصة للنسيج عرفت بدور الطراز<sup>(١٠)</sup>؛

- (١) الأصناف من صنف في اللغة الطائفة من كل شيء، وكل ضرب من الأشياء صنف على حدة، ابن منظور، لسان العرب، مج ٥، ص ٤١٢-٤١٣.
- (٢) الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٦٧.
- (٣) الدوري، نشوء الأصناف والحرف، ص ١٤١.
- (٤) بيليايف، الحالة الاقتصادية، ص ٣٨.
- (٥) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٤١٩.
- (٦) حول الحسبة راجع الفصل الثالث، ص ١٨٧.
- (٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٥٦.
- (٨) ابن الفقيه، أبي عبدالله أحمد بن محمد الهمداني (ت ٣٤٠هـ/٩٥٠م)، مختصر كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٢٧٨.
- (٩) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣١٣.
- (١٠) ابن خلدون، العبر، ج ١، ص ٤١١-٤١٢. معروف، ناجي، المدخل في تاريخ الحضارة العربية، ط ١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٠م، ص ٧٤.

ففي بغداد وحدها كان يصنع ألوان ثياب القز العباداني والساماني الرفيع والمناديل<sup>(١)</sup>، كما كانت تُصنع الثياب البيض<sup>(٢)</sup>، والأبلة، وثياب الكتّاب المقصّبة<sup>(٣)</sup>. وكذا كانت تُصنع في الكوفة عمائم الخز<sup>(٤)</sup> والبنفسج وجودتها<sup>(٥)</sup>، وقد اشتهرت الكوفة بكوفيتها الحريرية<sup>(٦)</sup>؛ حيث لا تزال كلمة الكوفية تُستعمل للمناديل الحريرية التي تُلبس تحت العقال<sup>(٧)</sup>.

ونجد أن العراقيين قد تفوقوا في صناعة الحرير والأطلس والأنسجة الحريرية المشجرة<sup>(٨)</sup>، وهذه الصناعات لم تشتهر بها بغداد؛ إذ اشتهرت الكرخ بالثياب الإبريسمية<sup>(٩)</sup>، وكذلك كانت تُصنع في قرية باقداري، وهي من قرى بغداد، الثياب القطنية التي يضرب المثل في جودتها عند أهل بغداد<sup>(١٠)</sup>، وأيضاً كان يُصنع في الحاضرة، وهي قرية كبيرة شمالي بغداد، نوع من الثياب الكرباس الصفيق الناعم التي ينقلها التجار إلى أنحاء العراق جميعها، كما ينقلون قسماً منها إلى خارج البلاد للتصدير<sup>(١١)</sup>، ومدينة حربي حيث تقع في أقصى الدجيل بين بغداد وتكريت، وقد كانت تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة، التي تُنقل إلى أنحاء البلاد جميعها<sup>(١٢)</sup>، وسين قرية من قرى بغداد نسبت إليها الثياب السبئية المصنوعة من الكتان الغليظ<sup>(١٣)</sup>، وكذلك هناك نوع من الثياب يُسمّى بالنرسين نسبة إلى نهر نرس بنواحي الكوفة<sup>(١٤)</sup>، كما تعمل الثياب

(١) غنيمة، يوسف رزق الله، صناعات العراق في عهد العباسيين، مجلة غرفة تجارة بغداد، جـ ٨، ١٩٤١م، ص ٥٦٧.

(٢) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٧٨.

(٣) المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٦٠م، ص ١٢٨-١٢٩.

(٤) الخز: نسيج ناعم جداً من الحرير، غنيمة، تجارة العراق قديماً وحديثاً، بغداد، ١٩٢٢م، ص ٧٣.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٨-١٢٩.

(٦) علي، مختصر تاريخ العراق، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٧) معروف، المدخل، ص ٧٧.

(٨) علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٦٥.

(٩) الإبريسمية: هي أجود أنواع الحرير، ويكون منها ألوان متعددة. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٣٧٠.

(١٠) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٤٤.

(١١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٣٢٧.

(١٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٢٧٤. ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع، مج ١، ص ٤١١.

(١٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٢٣٧. ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع، مج ١، ص ٣٩٠.

(١٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص ١٨٦.

(١٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٥، ص ٢٨٠.

السَّريَّة في محلة السَّريون في الجانب الغربي من بغداد بين دجلة وباب البصرة<sup>(١)</sup> وقد اشتهرت بصناعة الحرير، فضلاً عن أن العراق تخصصت في إنتاج الأقمشة الحريرية ذات اللونين<sup>(٢)</sup>.

كما كانت تُصنع في العتابية، إحدى محالِّ بغداد، الثياب العتابية، وهي ثياب حرير وقطن مختلف الألوان<sup>(٣)</sup>، وكان الثوب العتابي معروفاً بخطوطه الممتدة من طرف إلى طرف، وانتقلت صناعته إلى عدة مدن خارج العراق<sup>(٤)</sup>، وفي النعمانية أيضاً كانت تُصنع الثياب الصوفية العسليَّة<sup>(٥)</sup>. وقد اشتهر في هذه الصناعة الشيخ الكبير أبو الحسن علي بن أبي الحسن منصور الحريري التاج، الذي توفي في عهد الخليفة المستعصم بالله سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م)<sup>(٦)</sup>.

وكذلك اشتهر في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ثوب السقلاطون؛ حيث كان يُصنع في بغداد ويُصدَّر منها إلى أوروبا، وكانت غالب ألوانه الوردية، وكان يُعدّ من أفخر ملابس الديوان من السيدات والفرسان في إسبانيا<sup>(٧)</sup>، كما اشتهرت خانقين بالثوب الذي عُرف باسمها؛ الثوب الخانقيني<sup>(٨)</sup>، أما بغداد فقد اشتهرت بصناعة ثوب فاخر عُرف بالثوب البغدادي، كان يتخذ للملوك والأمراء<sup>(٩)</sup>.

وفي عهد الخلفاء العباسيين، كانت تُنتج المنسوجات الخاصة بالبلاط العباسي عن طريق دور الطراز، وكذلك تُنتج الخلع التي يشرف بها الخليفة خاصته<sup>(١٠)</sup>؛ فكثرت الخلع في عهد المستعصم بالله، سواء أكانت من قِبل الخليفة أم من قِبل كبار رجال الدولة<sup>(١١)</sup>؛ ففي سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) خلع إقبال الشرايبي على حاشيته ونوَّاب ديوانه وخدمه ومماليكه وغلَّمان إسطنبولته، فبلغت عدة الخلع من الأطلس المعدني والبغدادي والعتابي والعراقي الحريري

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٣١. ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع، مج ١، ص ٢٦٢.

(٢) كورنيل، أرنست، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٨٥.

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٠١. الحميري، الروض المعطار، ص ٤٠٨.

(٤) الكرمل، أنستاس ماري، الحياكة في العراق، مجلة غرفة تجارة بغداد، ع ١، السنة الرابعة، بغداد، ١٩٤١م، ص ٢٢-٢٣.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٨.

(٦) كورنيل، الفن الإسلامي، ص ٨٥.

(٧) غنيمه، صناعات العراق، ج ٨، ص ٥٦٧-٥٦٩.

(٨) الكرمل، الحياكة، ص ٢٦.

(٩) غنيمه، صناعات العراق، ج ٨، ص ٥٦٨.

(١٠) الصالح، النظم، ص ٤٠٤. حسن، زكي محمد، فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٣٦٩.

(١١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٦-١٦٧، ١٨٧، ١٨٩. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١٢.

والحبائشي والأفبئية والشرابيئس الذهب ألف وتسمائة خلعة<sup>(١)</sup>، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على وفرة الإنتاج من الأقمشة الفاخرة من مختلف الأصناف والأنواع.

والخياطة موضوع شديد الارتباط بالنسيج ومكمل له، وقد كان أبرز الخياطين البارزين في عهد المستعصم بالله، عليّ بن أبي الفوارس (ت ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)، الخياط المعروف بالسبرياريك؛ حيث جاء إلى بغداد وسكنها، وكان ماهراً في فنّ الخياطة، حتى قيل إن الأمير الأنباري، أحد أمراء المماليك استدعاه يوماً وجلب له ثوب أطلّس قد اشتطّ صاحبه ثمنه، فقال: أنا أخيطه من غير أن أقطّعه فإن رضي صاحبه بما يُعطى له من الثمن أو أردّه إليه، فقال له: افعل ذلك، ففعل، وجاء صاحبه وأمر الاشتطاط في الثمن، ففتق الثوب وردّه إليه، فلما شاهده صاحبه سليماً رضي به<sup>(٢)</sup>.

وبلغت أهمية المنسوجات في عهد المستعصم بالله أن كانت الخلع تتضمن مختلف أصناف المنسوجات وأنواعها، كما حصل في سنة (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)<sup>(٣)</sup>، وبالرغم من أهمية هذه الصناعة فإننا نجد الجاحظ يصفها بسوء؛ إذ يقول إن: " الحاكة أسقط من أن يقال لهم حمقى"<sup>(٤)</sup>.

## ٢- صناعة الصباغة:

تحتاج المنسوجات، سواء أكانت من الصوف أم القطن أم الكتان أم الحرير إلى الأصباغ والألوان التي تضيف إلى القماش ألواناً زاهية وجميلة<sup>(٥)</sup>، وكان الصباغون يستخرجون الألوان من عصير الأوراق والأزهار وجذور النباتات المختلفة<sup>(٦)</sup>، وقد استخدمت مختلف الألوان لصبغ الأقمشة، مما يدلّ على ما وصل إليه فنّ الصباغة<sup>(٧)</sup>، كما أن الصباغون كانوا يتفنون في مهنتهم، واختصّ بالصبغ بصبغة واحدة، مثل الفوه والنيلة<sup>(٨)</sup> التي كانت تجلب من جهة الهند<sup>(٩)</sup>، كما كانت الأصباغ المركبة تُعمل بخلط الأصباغ الأولية<sup>(١٠)</sup>، ومما ساعد على اتساع استخدام

(١) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٣.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٠.

(٣) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٢-٥١٣.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، ط١، القاهرة، ١٩٤٨م، ج١، ص ٢٤٩.

(٥) غنيمة، صناعات العراق، ج٨، ص ٥٦٨.

(٦) غنيمة، صناعات العراق، ج٨، ص ٥٦٨.

(٧) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٠٧.

(٨) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٠٧.

(٩) فهد، تاريخ العراق، ص ٣٦٦.

(١٠) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٠٧.



الألوان أن الناس أخذوا يرتدون ملابس مختلفة الألوان، فالعباسيون إلى جانب لبس السواد الذي هو شعارهم الرسمي<sup>(١)</sup>، قد لبسوا العمائم الكحلية<sup>(٢)</sup>.

وكان يُصنع في العراق الحرير بلونيه الأخضر والأحمر، وهو الحرير نفسه الذي كان الناصر لدين الله يرسله إلى مكة لإكساء البيت الحرام<sup>(٣)</sup>، كما اشتهرت واسط بصناعة صبغ القرمز<sup>(٤)</sup>.

### ٣- صناعة الورق:

مرت صناعة الورق بعدة مراحل حتى وصل الورق إلى شكله المتعارف عليه، وتطورت هذه الصناعة تطوراً واضحاً في العصر العباسي، وكثرت مصانع الورق، وتعددت أنواعه؛ نتيجة لنشاط المراكز العلمية من المساجد والمدارس والربط وغيرها<sup>(٥)</sup>، وكما هو معروف فإن العراق كان مهد الحضارة الإسلامية؛ حيث نشطت فيه صناعة الوراقين وكل ما يتعلق بأمور صناعة الكتب والدواوين والسجلات، حتى بلغت حد الكمال والجودة فيها<sup>(٦)</sup>.

والكاغد (الورق البغدادي) كان من أشهر أنواع الورق الذي ينتج في بغداد<sup>(٧)</sup>، وقد انتقلت هذه الصناعة من سمرقند إلى العراق<sup>(٨)</sup>، وكانت صناعته تتركز في بغداد في محلة دار القز الواقعة في أطراف بغداد<sup>(٩)</sup>، وقد اشتهرت دكاكين قرية الكرخ في بغداد ببيع الورق<sup>(١٠)</sup>، ويُعدّ الورق البغدادي من أجود أنواع الورق المستعمل، وربما استعمله كاتب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها<sup>(١١)</sup>.

- (١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٤٠.
- (٢) غنيمة، صناعات العراق، ج٨، ص ٥٦٩.
- (٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٥٤.
- (٤) غنيمة، صناعات العراق، ج٨، ص ٥٦٩.
- (٥) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٨. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٥٦، ١٧٠، ٢٥٣، ٢٦٢، ٣٠٧، ٣٠٨. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٨.
- (٦) ابن خلدون، العبر، ج١، ص ٤٢١-٤٢٢.
- (٧) ابن سعيد، المغربي، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٨. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نقل وتصحيح أمرؤ القيس بن الطحان، ج١، د.م، ١٨٨٢م، ص ١٩٧.
- (٨) الجاحظ، التبصرة بالتجارة، دمشق، ١٩٣٢م، ص ٢٢.
- (٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٢٢.
- (١٠) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٤٤.
- (١١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٨٧. الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ١٠٠.

#### ٤ - صناعة الصياغة

تعد صناعة الصياغة من الصناعات القديمة التي لم تنقرض، وتعود هذه الصناعة إلى أزمان مختلفة في التاريخ، ويتضح أن أشهر من عمل في هذه الصناعة أهل الذمة، وقد جنوا أرباحاً كثيرة حتى أصبحوا أكثر الناس ثراءً<sup>(١)</sup>، وانتشرت هذه الصناعة في أغلب مدن العراق لا سيما بغداد؛ حيث كان فيها سوق الصاغة ودار الريحانيين<sup>(٢)</sup> والنعمانية<sup>(٣)</sup>، وفي العهد العباسي سارت جنباً إلى جنب مع ترف الخلفاء العباسيين وحاجات نسائهم والأغنياء، وتعدى استعمال هذه الصناعة إلى أثاث البيوت والأواني<sup>(٤)</sup>.

وقد استمرت هذه الصناعة حتى زمن الخليفة المستعصم بالله، كما نجد أن صناعة ضرب النقود الذهبية والفضية والتعامل بها في التجارة يعود الكثير منها إلى زمن الخلفاء العباسيين المتأخرين ومنهم المستعصم بالله<sup>(٥)</sup>، وكان الحكام والأمراء يهدون بعضهم ذهباً؛ ففي سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) وصل رسول الملك العزيز صاحب حلب إلى دار الخلافة ومعه الكثير من الهدايا، منها ألف وخمسمائة قطعة وصناديق فيها أواني ذهب وفضة مجوهرة، وثلاثمائة مجلد بخطوط منسوبة وأصول صحيحة الضبط ومصحف كريم<sup>(٦)</sup>.

#### ٥ - صناعة الزجاج

وهي صناعة قديمة في العراق، استمرت في العصر العباسي؛ حيث اشتهرت بغداد بزجاجها المزخرف الجميل الذي لاقى إقبالاً كثيراً أينما عرض<sup>(٧)</sup>، وقد تقنن العراقيون في صناعة الزجاج؛ حيث بدأوا يرصعونه بالجواهر ويصنعون منه أقداحاً للأمراء والملوك<sup>(٨)</sup>، ومن

- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٦٨-٦٩.
- (٢) دار الريحانيين: دار كائنة في دار الخلافة ببغداد ومشرفة على سوق الريحان، كان فيها ستة عشر دكاناً لصاغة الذهب، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٢٠.
- (٣) النعمانية: بلدة صغيرة على ضفة دجلة بين واسط وبغداد، فيها سوق للذهب وكميات كبيرة منه، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٥، ص ٢٩٤. القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٩.
- (٤) الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ١٦-١٨.
- (٥) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١٢٩. الكساب، علي عبدالكريم، الألقاب ودلالاتها على نقود الخليفة المستعصم بالله، ط ١، عمان، ٢٠١٠م، ص ١٩.
- (٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٧٧-٥٧٨.
- (٧) سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٣٤. ديورانت، قصة الحضارة، مج ٤، ج ١، ص ١٠٨.
- (٨) غنيم، صناعات العراق، ج ٨، ص ٥٧٦.

مراكز صناعة الزجاج في العراق القادسية<sup>(١)</sup>، كما كانت تُصنع في القرارة من ضواحي بغداد، القوارير والنحف<sup>(٢)</sup>، وبلغت شهرة الزجاج العراقي أن وصلت إلى إسبانيا وعرفت هناك باسم Lraga أو Lrage<sup>(٣)</sup>، وقد اشتهرت البصرة في كل أنحاء العالم بصناعة الزجاج<sup>(٤)</sup>، واشتهرت النجف أيضاً بصنع البلور، ولشهرته كان يُسمّى درّ النجف<sup>(٥)</sup>.

وتعدّدت شهرة الزجاج العراقي العراق حتى وصلت إلى الكعبة الشريفة، فكانت القناديل الزجاجية المنقوشة معلقة بها<sup>(٦)</sup>، وكذلك وصلت شهرة الزجاج العراقي إلى بلدان أخرى من العالم، مثل خوارزم؛ حيث وجد ابن بطوطة<sup>(٧)</sup> مصنّعاً على هيئة أوان زجاجية، واستعملت مختلف الألوان في تلوين الزجاج، وأشهرها: الذهبي، والأحمر، والأخضر، والأبيض، والأزرق<sup>(٨)</sup>.

إنّ، كان الزجاج من الصناعات القديمة التي بقيت حيه ومتطوّرة طيلة العصور الإسلامية.

#### ٦ - الحدادة:

اشتهر الصنّاع بصنع أنواع عديدة من الحديد بعد صهره؛ لاستخدامه في شؤون الحياة، خاصة تلك التي تتطلبها الحياة اليومية، مثل الكراسي والشبابيك والأبواب وغيرها<sup>(٩)</sup>، وكانت من أهم الصناعات صناعة سلاسل الحديد التي تُستخدم في الجسور. وقد وصف ابن جبير هذه السلاسل عند عبوره نهر الفرات إلى الحلة، وكيف أن سلاسل الحديد ممتدة من الشط إلى الشط على جانبي المراكب المعقود منها الجسر، وكذلك وصفها عند عبوره في قرية صرصر<sup>(١٠)</sup>. وبالنسبة لصناعة شبابيك الحديد فقد كانت مشهورة، فيذكر ابن الفوطي، "أنه في سنة

(١) القادسية: قرية كبيرة من نواحي دجيل بين حربي وسامراء، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص ٢٩٣.

(٢) غنيمة، صناعات العراق، ج ٨، ص ٥٧٣.

(٣) غنيمة، صناعات العراق، ج ٨، ص ٥٧٢.

(٤) علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٥) فهد، تاريخ العراق، ص ٣٦١.

(٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٥٤.

(٧) الرحلة، ج ١، ص ٤٠٣.

(٨) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٠٩.

(٩) غنيمة، صناعات العراق، ج ٨، ص ٥٧٥.

(١٠) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٨٩، ١٩٣.

(٢٢٨هـ/١٢٣٠م) وفي ليلة عيد الفطر فُتح باب في حائط دار الوزارة، وجُعِلَ عليه شبّاك حديد، وجلس فيه القمّي نائب الوزارة، واستعرض الجيش نيابه عن الخليفة" (١).

واستخدم الناس البرونز والحديد والفولاذ لصنع أنواع من الأدوات المختلفة التي تستخدم في البيوت (٢)، وتزيينها بالحفر والنقش وترصيعها ترصيعاً متقناً، وقد كانت الموصل إلى زمن متأخر أهم مركز لإنتاج أعمال الترسيع (٣)، ومن الصناعات الحديدية الأخرى، صناعة الأسلحة بأنواعها كالعجلات والسيوف والقسى والزرديات والخوذ والرماح والدروع (٤)، وكانت لها في بغداد سوق خاص يُعرف بسوق الأسلحة (٥).

### ٧- صناعات أخرى:

إلى جانب الصناعات السابقة، عرفت العراق صناعات أخرى، مثل: صناعة الأجر (اللبن المشوي)، الذي تُصنع منه عدة أشياء، مثل: الجرار والأحباب والبساتيق، وهي التي تُستخدم لحفظ السوائل (٦)، وصناعة العطور وماء الورد حيث استعمل ماء الورد لأغراض متعددة؛ فعندما توفي نجم الدين نجاح الشرايبي سار وراءه عشرون جمّالاً وعلى رؤوسهم ماء الورد (٧)، وكذلك صناعة السيلان، وهو عسل لذيق الطعم مستخلص من التمر، وقد اشتهرت البصرة بتمورها المختلفة الأشكال والأنواع (٨)، وصناعة الأواني والأدوات الخشبية التي كانت معروفة واستمرت في العصر العباسي، واشتهرت دير الجماجم بصنع أقذاح الخشب حتى سُميت بأسمها؛ لأن الجمجمة تعني القدح من الخشب (٩)، وكذلك صناعة الجلود وصناعة الدباغة (١٠)، وصناعة الصابون (١١)، وصناعة البواربي (الحصران) (١٢)، كما اشتهرت بغداد

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤.

(٢) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١١٠.

(٣) غنيمية، صناعات العراق، ج٨، ص ٥٧٦.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ٢، ص ٥٢٣.

(٥) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص ٢٧.

(٦) غنيمية، صناعات العراق، ج٨، ص ٥٨٠.

(٧) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ٢، ص ٦٠٠.

(٨) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ٢٠٧.

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ١٥٩.

(١٠) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٤٠.

(١١) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ١، ص ٢١٠.

(١٢) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٥٣٨.

بصناعة الحلوى<sup>(١)</sup> والسكر<sup>(٢)</sup> والمربيات والأشربة السكرية اللذيذة، فقلدت صنعها بلدان إسلامية كثيرة مثل دمشق والقاهرة وغرناطة، ثم انتقلت إلى أوروبا عن طريق الإفرنج<sup>(٣)</sup>، واشتهرت أيضاً صناعة السفن، وتعددت دورها، وأخذ صانعوها يتقنون في صنعها وتزيينها على هيئة الأسد، والفيل، والدلفين<sup>(٤)</sup>.

نستنتج مما سبق أن أغلب الصناعات كانت موجودة منذ القدم، واستمرت حتى عهد الخليفة المستعصم بالله، ثم حتى العصر الحالي، وكذلك نجد أنه أصبحت لبعض الصناعات شهرة عالمية تجاوزت حدود العراق إلى أوروبا وآسيا وغيرها، ولكن في الوقت نفسه لم تعثر الباحثة على معلومات كافية عن الوضع الاقتصادي لأصحاب هذه المهن والصناعات، غير أنه يتبين على الأغلب أن مستوى الحياة المعاشي قد تفاوت تبعاً لنوعية حرفهم، وظروف الطلب عليها.

### ثالثاً: التجارة

ترجع أسباب ازدهار النشاط التجاري في العراق واستمرار ديمومته إلى الموقع الجغرافي للعراق على طرق المواصلات البرية والبحرية؛ إذ جعله قبلة أنظار التجار وأهل الثروات؛ حيث يقع في منطقة النقاء الطرق التجارية التي تصل الشرق بالغرب، ويشكل من ثمّ عقدة مواصلات مهمّة<sup>(٥)</sup>، فضلاً عن تشجيع الخلفاء العباسيين للتجارة، ثم استتباب الأمن وانتهاء عصر الفتوحات الإسلامية، ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى إقبال التجار على التجارة حماية الدولة أموال التجار من الأعداء وقطاع الطرق من خلال العلاقات الحسنة بين إمارات الأطراف المختلفة<sup>(٦)</sup>.

(١) الأزدي، أبو المطهر محمد بن أحمد (عاش في ق٤٤٠هـ/١٠م)، حكاية أبي القاسم البغدادي، هيدليبرج، مطبعة كول ونتر، ١٩٠٢م، ص٤١. ابن سيده، المخصص، مكتبة التجارة، بيروت، د.ت، ج٥، ص٢٠.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٧٨.

(٣) غنيمة، صناعات العراق، ج٨، ص٥٨٠.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج١، ص٤١٠-٤١١.

(٥) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبدالله بن عبدالله (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م)، المسالك والممالك، بغداد، ١٩٨١م، ص١٨-١٩.

(٦) الدوري، مقدمة في التاريخ، ٧٠. فهد، تاريخ العراق، ص١١٠-١١١.

وقد كانت حاجة الخلفاء وكبار رجال الدولة للسلع الأجنبية تزداد يوماً بعد يوم، وخاصة

الكماليات ومواد الزينة والهدايا النادرة والثمينة غير الموجودة في أسواق العراق المحلية، مما شجّع التجار على ركوب البحر وشق المسافات البعيدة طمعاً في الربح<sup>(١)</sup>، وقد أدى ذلك إلى جعل الأسواق عامرة بأهلها وخاصة ببضاعتها<sup>(٢)</sup>. ونجد أن كثرة الأرباح دفعت التجار إلى المغامرة وتحمل المشاق في سبيل الربح، حتى إن قوافلهم وصلت إلى جميع المناطق.

كما أن الخلفاء العباسيين لم يتدخلوا في التجارة من حيث تسعير البضائع إلا قليلاً، وفي ما يمس أسعار المواد الغذائية وتخليص الناس من جشع التجار واستغلالهم<sup>(٣)</sup> مما زاد في أرباحهم ومدخولاتهم أكثر من أية مهنة أخرى. ففي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، نجد أن الخليفة المستعصم بالله عاقب الخبازين بالضرب عندما علم أنهم زادوا الأسعار<sup>(٤)</sup>، بالإضافة إلى أن الخلافة كانت تختبر المكابيل باستمرار<sup>(٥)</sup>، وهذا يدل على متابعة الخلافة للأسواق وما يجري فيها.

كذلك أهتم الخلفاء العباسيون بتحسين طرق التجارة؛ فحفروا الآبار، واشتهر العرب بالتجارة البحرية لوقوع مدنهم على سواحل الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط وبحر العرب<sup>(٦)</sup> ويعود النشاط التجاري للعراق نتيجة لموقعه المتوسط بين البلدان<sup>(٧)</sup>؛ حيث أصبح جسراً بين إيران والهند وأواسط آسيا والصين من جهة، والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب من جهة أخرى<sup>(٨)</sup>.

أما التجارة في العصر العباسي الأخير، فنجد أنها بالرغم من توسعها قد تأثرت بالظروف السياسية في تلك الحقبة، حيث التناحر السياسي والصراعات الموجودة في المنطقة؛ إذ أدت هذه الظروف إلى مشاحنات كثيرة كانت عاملاً من عوامل ضعف التجارة وخاصة التجارة الخارجية<sup>(٩)</sup>، كما أثرت الحروب الصليبية في تجارة بلدان الشرق الأدنى، ذلك أن التجار الأوربيين في إيطاليا ومرسيليا وإسبانيا استغلوا المراكز التي أقامها الصليبيون في بلاد الشام

(١) الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٦٩-٧٠.

(٢) فهد، تاريخ العراق، ص ٣٥٠-٣٥١.

(٣) غنيمة، تجارة العراق، ص ٤٦.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٣.

(٥) الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٦) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣٢١-٣٢٢.

(٧) البعقوبي، البلدان، ١٨٩٢م، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٨) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٨-١٩. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١١٩.

(٩) عاشور، العصر المماليكي، ص ٢٦٥.

للقيام بنشاط تجاري واسع بين الشرق والغرب؛ فأخذت حاصلات الشرق تتدفق على غرب أوروبا عن طريق موانئ مصر والشام<sup>(١)</sup>، وكان لظهور المغول واحتلالهم للصين وبلاد ما وراء النهر (سمرقند وبخارى) وإيران أثر في عرقلة حركة التجارة، مما أدى إلى اضمحلال بعض الطرق التجارية بين الشرق والغرب مثل طريق الخليج العربي، الأمر الذي نجم عنه تركيز طرق التجارة على البحر الأحمر، ما أدى من ثم إلى ازدهار الأقطار الواقعة على البحر الأحمر كاليمن والحجاز ومصر<sup>(٢)</sup>.

وكان لرحلاتهم فضل كبير في معرفة المسالك وتقديم علم الجغرافيا؛ فألفوا الكتب التي تعين التجار في أسفارهم التجارية وتحدد لهم المسافات بين المدن<sup>(٣)</sup>. كما وضعوا المناطق التي زاروها من حيث أسواقها، وعاداتهم وتقاليدهم، وكل ما يقع نظرهم عليه.

أمام كل ذلك أصبح تجار العراق وسطاء في التجارة بين الشرق والغرب، وخاصة تجار البصرة، مما ترتب عليه إنعاش هذه الطبقة؛ حيث بلغت ثروات بعضهم آلاف الألوف.

### الطرق التجارية:

اهتم الخلفاء العباسيون بتيسير الطرق التجارية، سواء أكانت برية أم بحرية؛ من أجل ترقية التجارة التي تقوم على تبادل المحاصيل، كما مهّدوا السبيل أمام الكاشفين والرحالة الذين وصفوا البلاد وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة<sup>(٤)</sup>.

#### ١- الطرق التجارية المائية:

##### أ- الطرق البحرية:

يعد الخليج العربي المنفذ الطبيعي للعراق على البحار والمحيطات، إذ انتشرت التجارة إلى أقصى الصين شرقاً، ثم اتجهت إلى الغرب إلى أقصى الشمال من شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس)<sup>(٥)</sup>، وهنا نذكر أهم الطرق التجارية البحرية:

- (١) عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ١٠٣.
- (٢) عاشور، العصر المماليكي، ص ٢٩٧.
- (٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢١٠. الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٦. ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ١٠٤-١٠٨. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٩٣-٢٩٨.
- (٤) حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٣١٩.
- (٥) الشامي، أحمد، العلاقات التجارية بين الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى، مجلة المؤرخ العربي، ع ١٢، بغداد، ١٩٨٠م، ص ١١١-١١٢.

## الطريق الأول: يتجه شرقاً إلى الهند والصين وموانئهما مثل كانتون، حاملين معهم

الأحجار الكريمة كالكهرب والياقوت والكافور، بالإضافة إلى العاج والعمود (١).

الطريق الثاني: تسلكه السفن التي تأتي من الهند مرة ببيع الموانئ مثل سيراف حتى

الخليج العربي وميناء البصرة (٢).

الطريق الثالث: ينطلق من سواحل الجزيرة العربية عن طريق البحر الأحمر، حتى

يصل إلى سواحل أفريقيا، وهذا الطريق صالح للملاحة طوال أيام السنة، حيث يذهب التجار إلى

أفريقيا بحثاً عن الذهب، بالإضافة إلى السلع التجارية الأخرى التي يحتاجها المجتمع العراقي (٣).

### ب- الطرق النهرية:

كان لنهري دجلة والفرات أثرهما الكبير في تجارة العراق؛ حيث إنهما أهم ممرين

لحركة الملاحة في العراق (٤)؛ فقد أخذت السفن الصغيرة والمراكب والأكلاك تأتي إلى بغداد؛

المركز التجاري وعاصمة الخلافة، قاطعة مسافات بعيدة جداً من أقاصي شرق الأرض

ومغربها كالإمامة والهند وأفريقية وأرمينية وأنريجان والصين وأوروبا (٥)؛ لنقل البضائع

والمسافرين (٦)، كما أن الطرق المائية كانت من أكثر الطرق التجارية استخداماً؛ لرخيصتها

وسهولتها (٧). وقد كان الناس ينتقلون بين جهتي النهر ليلاً ونهاراً بسهولة بسبب كثرة السفن (٨).

وبالرغم من وجود المياه الضحلة (البطائح) في بعض الأجزاء من دجلة، فإن الزوارق

الصغيرة كانت تنقل البضائع إلى المناطق التي لا تدخلها السفن الكبيرة (٩)، كما اقتصر

الملاحة في دجلة على النهر نفسه، فكانت السفن تسير فيه إلى وبالعكس؛ حيث كانت بغداد تعتمد

على ما يأتيها من القمح من شمال العراق (١٠)، وكانت التجارة في دجلة بين بغداد والبصرة

مستمرة بسبب بطء التيار وقلة الانحدار.

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٥٤. معروف، المدخل، ص ٦٩-٧٠.

(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٥٤-١٥٥. غنيمه، تجارة العراق، ص ٤٨.

(٣) ابن الفقيه، كتاب البلدان، ص ٢٧٠. معروف، المدخل، ص ٧٠.

(٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٤١.

(٥) غنيمه، تجارة العراق، ص ٤٩-٥٠.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٦، ٣١٨.

(٧) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١٣٥.

(٨) ابن جبیر، رحلة ابن جبیر، ص ٢٠١.

(٩) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣٢٥.

(١٠) لسترانج، بلدان الخلافة، ص ١١٠، الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣٢٥.



وكانت السفن تنقل الأرز والتمور والذرة والحبوب<sup>(١)</sup>، كما كانت الرحلات مننظمة بين بغداد والبصرة بوساطة السفن، ولكن الرحلات من البصرة إلى بغداد كانت صعبة لأنها ضد التيار وضد الرياح السائدة (رياح الشمال)<sup>(٢)</sup>. وبالنسبة لنهر الفرات فقد كثرت تفرعاته باتجاه الشرق ولمسافات بعيدة؛ فنهر عيسى الذي يأخذ مياهه من الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة محملة بالدقيق، والبضائع الأخرى من الشام ومصر، فتسير من الفرات ومنه إلى نهر عيسى لتفرغ حمولتها<sup>(٣)</sup> على أرصفة بغداد، وكان التجار عن طريق الفرات أيضاً يذهبون إلى بلاد الشام، فيمرّون بالأبنار وحديثة وعانة، أو عن طريق تكريت والموصل وبلاد الجزيرة<sup>(٤)</sup>.

وقد اهتم الخلفاء كثيراً بالطرق المائية، بحيث ألزموا الغواصين بمرافقة السفن تحسباً لأي عارض يحدث مثل الغرق؛ بهدف إنقاذ المسافرين، فهذا الخليفة المستعصم بالله يأمر الغواصين بإنقاذ السفينة التي غرقت في دجلة سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) وكان عليها إحدى عشرة جارية من جواري دار الخلافة<sup>(٥)</sup>، كما انتقل التجار العرب بين المدن والبلدان بتجارتهم عبر الخليج العربي، وهو المنفذ الطبيعي للعراق على البحار والمحيطات إلى أقصى الصين شرقاً<sup>(٦)</sup>.

ويتجلى اهتمام العباسيين الكبير بالتجار في اختيار العاصمة بغداد حيث رُوي في اختيارها أن تكون قريبة من الطرق والممرات التجارية، وهي قريبة من دجلة الذي يربطها بسهولة بخليج فارس (الخليج العربي)، الذي يصلها بالمحيط الهندي، ثم بالهند، ثم بالصين، هذا من ناحية الجنوب، أما من ناحية الشمال فقد استطاعت أن تتصل بالمناطق الشمالية عن طريق دجلة أيضاً؛ حيث كانت الأقسام الشمالية صالحة للملاحة، ومن جهة الغرب كانت البضائع تصل إلى بغداد من بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا عن طريق نهر الفرات.

(١) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣١٦، ٣٢٥.

(٢) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣١٧.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص ١١٢. لسترانج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ط١، بغداد، ١٩٣٦م، ص ٧٠.

(٤) غنيمه، العراق قديماً وحديثاً، ص ٤٩.

(٥) الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨١.

(٦) الشامي، العلاقات التجارية ع١٢ع، ص ١١١-١١٢.

## ٢- طرق التجارة البرية:

لقد أبدى العباسيون اهتماماً كبيراً بتنظيم الطرق التجارية البرية وحمائتها، وساعد على ذلك استواء سطح العراق<sup>(١)</sup>، وكانت بغداد مركز هذه الطرق؛ حيث أصبحت أشبه بالأخطبوط لكثرة طرق المواصلات المتشعبة منها إلى كل الجهات شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً<sup>(٢)</sup>، وقد حرص الخلفاء العباسيون عند اختيارهم العاصمة بغداد أن تكون قريبة من الطرق التجارية المهمة، حيث ساعدها على ذلك موقعها الجغرافي المتميز، الذي سهّل على التجار الذين كانوا يأتونها من جميع البلدان<sup>(٣)</sup>، وقد أقامت العراق علاقات تجارية مع مناطق متعددة، مثل: الروس<sup>(٤)</sup>، وبلاد الشام<sup>(٥)</sup>، والبلغار<sup>(٦)</sup>، وبلخ<sup>(٧)</sup> (٨)، والخزر<sup>(٩)</sup> (١٠)، ومكة، والمدينة<sup>(١١)</sup>، وغيرها.

وبسبب مكانة بغداد التاريخية والسياسية بقي النشاط التجاري مستمراً فيها حتى بعد سقوط الخلافة العباسية؛ إذ لم يؤثر الغزو المغولي في مركزها التجاري، وبقيت أسواقها عامرة بالتجارات<sup>(١٢)</sup>، وبالرغم من ذلك فقد تأثرت الطرق البرية الخارجية بعض الشيء بسبب غزوات المغول أولاً وتوتر العلاقات مع الدولة الخوارزمية ثانياً<sup>(١٣)</sup>؛ حيث اضطرت بعض القوافل إلى أن تسلك طريقاً آخر عبر الأناضول<sup>(١٤)</sup>، كما أن الخلافة العباسية قد تعرضت منذ سنة

- (١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٤٣.
- (٢) بصرى، صبر، "العراق طريق تجاري عالمي"، مجلة غرفة تجارة بغداد، العدد ٨، السنة ٣، بغداد، ١٩٤٠م ص ٦٩٢.
- (٣) القزويني، آثار البلاد، ص ٣١٥.
- (٤) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٥٤.
- (٥) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٣٧.
- (٦) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٥٠٢.
- (٧) بلخ: مدينة عظيمة من أمهات بلاد خراسان. القزويني، آثار البلاد، ص ٣٣١.
- (٨) الهمداني، مقامات، ص ٩.
- (٩) الخزر: هم جيل عظيم من الترك، بلادهم خلف باب الأبواب الذي يقال له الدر بند. القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٤.
- (١٠) الإصطخري، مسالك الممالك، ص ٢١٨، ٢٢٠.
- (١١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٢٨.
- (١٢) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١٣٧. الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣٢٥.
- (١٣) العزاوي، عباس، تاريخ الضرائب العراقية في صدر الإسلام إلى آخر العهد العثماني، بغداد، ١٩٥٩م، ص ٣١-٣٢.
- (١٤) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣١٨.

(٦١٧هـ/١٢٢٠م) إلى عدة هجمات من قبل المغول قبل احتلال بغداد، وعندما استولى المغول على آسيا الوسطى سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) أصبح العراق مطوّقاً من الشرق والشمال، وبذلك أصبحت إمبراطورية المغول تتكون من أغلب بلاد الصين وتركستان ومقاطعات الهند وجزء كبير من روسيا وإيران وآسيا الصغرى<sup>(١)</sup>، ففُطعت طرق المواصلات البرية الخارجية، وفي عهد المستعصم بالله سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) أصبح الطريق الذي تسلكه القوافل للوصول إلى بغداد غير آمن، وأصاب مدنه وقراه الخراب<sup>(٢)</sup>.

لكن في ما بعد أصبح هناك نوع من الود والصدقات بين أمراء المغول وبعض التجار الذين كانوا يسافرون إلى خراسان وغيرها<sup>(٣)</sup>، وكان لهؤلاء التجار دور الوسيط بين المستعصم بالله والمغول، وذلك سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)<sup>(٤)</sup>، لكن المغول قد استغلوا بعض التجار وجعلوهم جواسيس لتقصّي أخبار الدولة العباسية ونقل المعلومات عن العراق<sup>(٥)</sup>، ويلاحظ أنه عندما هجم المغول على بغداد في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) كان فيها بعض التجار الذين كانت تربطهم بأمراء المغول علاقات وصدقات من قبل، فعندما احتلت بغداد كتب لهم المغول فرامين؛ فخرجوا إلى أمراء المغول وعادوا ومعهم من يجرس بيوتهم لحمايتهم، والتجأ إليهم جماعة من جيرانهم فسلموا من القتل<sup>(٦)</sup>.

وقد زار بغداد الكثير من الرحالة والجغرافيين الذين وصفوها وتغنوا بها، وكان أشهرهم: ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) الذي يقول إنه وجد في بغداد أسواقاً كثيرة أشهرها سوق الثلاثاء، الذي كان فيه كل صناعة على حدة<sup>(٧)</sup>، أما ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)<sup>(٨)</sup>، الذي زارها في عهد المستعصم بالله سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) فقد ذكر " أن أرخص ما فيها التمر الذي يجلب من البصرة، والأرز وقصب السكر اللذان يجلبان من البطائح، وجهات واسط فيها التفاح الواسطي، والعنب الرازقي، والنانج القروي، والليمون اليعقوبي،

(١) العابد، صالح محمد وآخرون، العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣م، ص ٥٤٥.

(٢) العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، ١٩٧٠م، ج ١، ص ١٤٣.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩.

(٤) القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص ٩٧.

(٥) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ٣١٢. بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط ٤، مصر،

د.ت، ص ١٢٢.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٠٢.

(٧) ابن بطوطة، الرحلة، ج ١، ص ١٤١.

(٨) ابن سعيد المغربي، بسط الأرض، ص ٩١، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٨.

والورق البغدادي، كما أن هؤلاء الرحالة زاروا مدناً أخرى ووصفوها، مثل: البصرة وواسط  
والموصل والكوفة والنجف.

ولأهمية الطرق، فقد اجتهدت الباحثة في ذكر أبرزها، وهي:

#### أ- طريق الحج:

كانت القوافل تسلك للوصول إليه أقصر الطرق، منها ما يتجه إلى الكوفة والقادسية ثم  
إلى ديار الحج، ومنها ما يسلك طريق البصرة ثم تتجه غرباً وتلتقي مع الطرق المسلوكة داخل  
الجزيرة العربية<sup>(١)</sup>، ثم يسير هذا الطريق من المدينة إلى مكة ماراً بقرى كثيرة مثل الأبواء<sup>(٢)</sup>.

#### ب- الطريق الشرقي:

يبدأ هذا الطريق من بغداد ويتجه شرقاً إلى حلوان مقتنياً أثر طريق خراسان القديم،  
حيث يتجه<sup>(٣)</sup> إلى إيران وما وراء النهر وشرقي أوروبا وفي الطريق الجنوبي الغربي مع  
الجزيرة العربية والشام<sup>(٤)</sup>.

#### ج- طريق شمالي:

يصل بين بغداد والأنبار على الفرات، ومنها يصعد بمحاذات النهر إلى الرقة، ثم يخرج  
طريق من الرقة ويخترق بادية الشام إلى دمشق، وطريق آخر من بغداد على جانبي دجلة إلى  
الموصل، وقد كان هذا الطريق يصل إلى أمد من جهة، وإلى قرقيسيا<sup>(٥)</sup> على الفرات في  
الجنوب الغربي من جهة ثانية، ومن أمد تخرج طرق تتصل ببلاد الروم<sup>(٦)</sup>.

وبالنسبة لوسائل النقل والتجارة عن طريق البر، فقد كانت الجمال والبغال والخيول  
والحمير، وكانت المواد التجارية الكثيرة تنقل بقوافل كبيرة<sup>(٧)</sup>.

ويُلاحظ من الدراسة أن صلات العراق التجارية مع دول الشرق، وهي: الصين والهند  
وأواسط آسيا، كانت أقوى بكثير مما كانت عليه مع دول الغرب، وهي: الإمبراطورية  
الكارولنجية والإمبراطورية البيزنطية والأقطار الإسلامية، وتشمل مصر والشام والمغرب

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٢٥. غنيمة، تجارة العراق، ص ٥٠.

(٢) الأبواء: قرية من أعمال المدينة، بينها وبين الحفة ثلاث وعشرون ميلاً، وفيها قبر أم النبي صلى  
الله عليه وسلم، ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع، ج١، ص ١٩.

(٣) ابن رسته، الأعلام النفسية، ص ١٦٣. معروف، المدخل، ص ٧٠. لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٢٣.

(٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٥٠.

(٥) قرقيسيا: مدينة تقع شرقي الفرات، وهي مدينة الزبء صاحبة جذيمة الأبرش، وفيها مات الصحابي جرير  
بن عبدالله البجلي. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٢٤.

(٦) لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٢٥. غنيمة، تجارة العراق، ص ٥٠.

(٧) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣١٩.

والأندلس والجزيرة العربية، ولعل ذلك يعود إلى غنى بلدان الشرق بموادها الأولية النادرة، التي كانت تهم خلفاء بني العباس كثيراً، مثل: الأحجار الكريمة والطيب والمنسوجات الحريرية، وغيرها.

### الصادرات والواردات:

كان للتجار العراقيين علاقات تجارية مع مختلف الدول، وفي الوقت نفسه كانت تجارة هذه الدول تصل إلى العراق<sup>(١)</sup>، وكان التبادل التجاري يوفر للدولة أموالاً تعتمد عليها في تحسين وضعها المالي، وتوفر لها ما تحتاج من سلع مختلفة، وكانت صادرات العراق تعتمد على ما تنتجها بغداد محلياً وما يرد إليها من المدن العراقية الرئيسية.

وأهم السلع الصادرة: الزجاج، والزيت، والعود، وماء الورد، والزعفران والأقمشة الحريرية والصوفية<sup>(٢)</sup> والتمور والحناء<sup>(٣)</sup>، وكذلك الأرز، العمائم، المناديل والدهون<sup>(٤)</sup>، وأيضاً القمح، الشعير، المجوهرات، الزبيب<sup>(٥)</sup>. أما السلع الواردة فقد كان يأتي قسم منها من البلاد الإسلامية والقسم الآخر يأتي من البلاد الأخرى وأهمها: فمن الهند كان يأتي: التوابل، وجوز الهند، والخشب، والعاج، والطيب، والخيزران، والمعادن، والعنبر<sup>(٦)</sup> والقرنفل، والصندل الأبيض<sup>(٧)</sup>، ومن إيران: السجاد، والقلانس، والبسط المطرزة<sup>(٨)</sup>، ومن اليمن: البخور، والسيوف، والدروع، والبيغال، والعود<sup>(٩)</sup>، ومن الصين: المسك، والجلود، والبقول، والقصدير، والخزف، والحديد، والفواكة<sup>(١٠)</sup>، ومن مصر: السكر، والثياب الرقاق، والقراطيس<sup>(١١)</sup>، أما

(١) الشامي، العلاقات التجارية، ص ١١٢.

(٢) علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٦٦.

(٣) المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد (ت ٧٦٣هـ/١٣٦١م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٢٨.

(٤) الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٩٥.

(٥) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣٢٤-٣٢٥.

(٦) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٣١٩.

(٧) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٤٠.

(٨) غنيمية، تجارة العراق، ص ٥٠.

(٩) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٤٠.

(١٠) الشامي، العلاقات التجارية، ص ١٠٦.

(١١) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٤٤٨.

بلاد ما وراء النهر فقد كان يأتي منها القطن، الكاغد، الأسلحة، المنسوجات الحريرية<sup>(١)</sup>، وكذلك كان يأتي من أواسط آسيا، الفواكة، المواد الخام، الورق، الأبسطة، الأسلحة<sup>(٢)</sup>. إذن، هذه أبرز السلع وأهمها التي كانت تصدر وتستورد، وقد كانت الدولة تتدخل لحماية التجار داخل البلاد وخارجها. كما تتدخل لحماية الرعية من استبداد التجار وجشعهم، وكانت تنتظر في أسعار السلع والمؤن<sup>(٣)</sup>، التي كانت كثيراً ما ترتفع بسبب هجر الناس قراهم ومزارهم الواقعة شرق بغداد لتعرضهم لهجمات المغول<sup>(٤)</sup>؛ حيث بلغ اهتمام الدولة بالطرق التجارية مبلغاً عظيماً، حتى إنها أنشأت فيها الخانات<sup>(٥)</sup> والقياسر<sup>(٦)</sup> والآبار، والمضايق<sup>(٧)</sup>.

### وسائل المعاملات التجارية:

نجم عن توسع التجارة وازدهارها في العصر العباسي الأخير أن أصبح لها نظم وقوانين واصطلاحات خاصة بها لم تكن موجودة قبل هذه المدة، كما أصبح للتجار وكلاء معتمدون في المدن التي يتاجرون معها، فيرسلون معهم المعلومات والتقارير عن حالة السوق وعن كمية الحاجات المطلوبة والمعروضة في السوق<sup>(٨)</sup>.

#### ١- النقود:

ترتبط النقود بالحالة الاقتصادية للدولة، وهي من المظاهر الحضارية التي تحققها؛ حيث تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ونفقاتها، وقد سارت الدولة العباسية على ذلك حتى عهد المستعصم بالله<sup>(٩)</sup>.

- (١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٤٠.
- (٢) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص ٢٣٤.
- (٣) غنيمية، تجارة العراق، ص ٤٦.
- (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٢، ٢١٨، ٢٢٦، ٢٤١. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١١، ٥٣٥، ٥٤٩، ٦٠٩.
- (٥) المياح، برهان نزر محمد علي، خانات من القرن التاسع وحتى مطلع العشرين، مجلة المورد، مج ٨، ع ٤، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م، ص ٣١.
- (٦) القياسر: هي أبنية تقوم بمهمة الأسواق، وقد وصف ابن جبیر قيسارية الموصل بأنها خان عظيم. ابن جبیر، رحلة ابن جبیر، ص ٢١٠.
- (٧) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٤، ج ٢، ص ١٠٩.
- (٨) معروف، المدخل، ص ٦٨.
- (٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٣. حتي، موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة أنيس فريجة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ١٧١.

ففي عهد الخليفة المستعصم بالله ضربت النقود في إربل وواسط، بأنها كانت سابقاً تُضرب ببغداد في دور تُسمى بدور الضرب<sup>(١)</sup> <sup>(٢)</sup>، وكانت دور الضرب تضم مجموعة من الموظفين، منهم: متولي دار الضرب، وهو وكيل الخليفة الذي كان يشرف على دار الضرب، وأيضاً هناك المشارف، الذي يوكل إليه حفظ جميع المحتويات من فضة وذهب، وكذلك الشاهد الذي يشهد على جميع ما حوت دار الضرب، أما المقدم، فهو الفني الذي يوكل إليه حفظ عيار الذهب وسبائكة التي ترد إلى دار ضرب النقد<sup>(٣)</sup>. وكان ناظر دار الضرب في عهد المستعصم بالله، سراج الدين علي بن النخلي<sup>(٤)</sup>.

يشير ابن جبير<sup>(٥)</sup>، إلى أن أهل بغداد كانوا يستخدمون القراضة، وهي قطع صغيرة من دنانير مفتتة أو مكسورة إلى جانب تعاملهم بالدرهم الرديئة والمسوحة حيث حرم الفقهاء التعامل بمثل هذه الدنانير وعدّوها نوعاً من الربا؛ لأنها تكون ناقصة الوزن<sup>(٦)</sup>، وقد حاول الخليفة المستعصر بالله إصلاح النظام النقدي، فضرب دراهم فضية ليتم التعامل بها<sup>(٧)</sup>، إلا أن هذه العملة لم تحافظ على وزنها، لذلك أبطل المستعصم بالله سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) المعاملة بهذه الدراهم، وأصدر دراهم جديدة يتعامل بها الناس<sup>(٨)</sup>، إلا أنه يتبين من خلال المسكوكات عدم انسجام السكة من حيث الوزن والمعيار للسنوات (٦٤٠هـ/١٢٤٢م، ٦٤١هـ/١٢٤٣م، ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، ٦٤٤هـ/١٢٤٦م)<sup>(٩)</sup>. وبلغ عدد الدنانير التي استخدمت في عهد المستعصم بالله خمسة وثلاثين ديناراً، وواحداً وثلاثين درهماً، ضربت في إربل وواسط، بالإضافة إلى النقود التي سكتها حكام الأقاليم والولايات التي حكمت باسم الخليفة المستعصم بالله<sup>(١٠)</sup>. إذن،

(١) دور الضرب، هي المكان الذي تُسكّ فيه الدراهم والدنانير. وقد اطلع المقرئ علي دار العيار التي كانت تُعنى عناية خاصة بوزن الذهب والفضة. المقرئ، النقود الإسلامية المسمى بدور العقود في ذكر النقود، ط٦، دار الزهراء، بيروت، ص ١٩٨٨م، ص ١٢٣.

(٢) العزاوي، تاريخ النقود العراقية، مجلة غرفة تجارة بغداد، ع ١، السنة الرابعة، بغداد، ١٩٤١م، ص ٢٢٢. الكساب، الألقاب ودلالاتها، ص ١٦٨.

(٣) الكبيسي، حمدان، النظام النقدي في الدولة العربية الإسلامية، ط١، بغداد، ١٩٨٨م، ص ٤٥.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٩.

(٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٩٤.

(٦) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٢١٠.

(٧) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١٢٠-١٢١.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٩) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١٢١. النقشبندى، ناصر السيد محمود، الدينار الإسلامي، بغداد، ١٩٥٣م، ص ٩٦.

(١٠) الكساب، الألقاب ودلالاتها، ص ٢١.

ارتبطت المسكوكات الإسلامية بالحضارة الإسلامية وفنونها المختلفة؛ فهي سجل تاريخي وجغرافي مهم ارتبط بالتاريخ الإسلامي وفتوحاته العظيمة، وبوساطتها يمكننا تتبع الحوادث التاريخية<sup>(١)</sup>، كما اهتم بعض المؤرخون بها لأنها من أهم المصادر وأدقها في موضوع إعادة كتابة التاريخ؛ لكونها تصدر عن جهة رسمية<sup>(٢)</sup>. وبذا، فقد كان لدراسة النقود والأسماء والألقاب والحروف دلالات ومغزى سياسي وديني واجتماعي يظهر قوة الدولة أو ضعفها في فترة من الفترات.

## ٢- الصيرفة:

كان لصيارفة بغداد ميزة كبيرة في مجال الصيرفة، وأدوا دوراً مهماً في تسليف التجار بسبب اتساع نطاق التجارة، وفي تنشيط معاملاتهم وتسديد الحسابات بين التجار من غير اضطرارهم إلى الدفع المباشر<sup>(٣)</sup>، وغالباً ما كان التجار يكتبون الصكوك بالنقود التي يريدون دفعها، ويحولونها للصراف بدل النقود فيتولى هو دفع المبلغ المراد تسديده<sup>(٤)</sup>، أما مصدر أموالهم فهو من الودائع المؤمنة لديهم، كما أن أغلب الصيارفة كانوا من أهل الذمة المجازين من الحكومة، الذين يعملون في بيت المال لخبرتهم بالنقود وتمييز الجيد منها من الرديء<sup>(٥)</sup>، وبالنسبة للصرافين فقد كانوا يعيشون في حالة خطر من اللصوص، الذين يقتصون الفرصة للسيطرة على أموالهم وأغنيائهم<sup>(٦)</sup>.

ومن وسائل التعامل النقدي:

أ- السفاتج: وهي أن يعطي رجل مالاً لأخر في بلد ما، وللآخر مال في بلد المعطي فيوفيه إياه، فيستفيد أمن الطريق لأن صاحب المال يتخلص من المخاطر التي قد يتعرض لها في الطريق<sup>(٧)</sup>، وهو في الأصل سند الدين<sup>(٨)</sup>، وتشبه في زماننا الحوالات<sup>(٩)</sup>، وهي

- (١) عبداللطيف جاسم كانو، دراسة عن المسكوكات الإسلامية، مجلة الوثيقة، تصدر عن مركز الوثائق التاريخي بدولة البحرين، ٢٤، السنة الأولى، يناير، ١٩٨٣م، مج ١، ص ٣٤.
- (٢) الحسيني، محمد باقر، النقود العربية الإسلامية ودورها الحضاري والإعلامي، الموسوعة الصغيرة، دائرة الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٥م، ص ٧.
- (٣) الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٩٧.
- (٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٦٩.
- (٥) بروي، تاريخ الحضارات، مج ٣، ص ١٩٤. كاهن، تاريخ العرب، ص ٢٣٤-٢٣٥.
- (٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٧، ص ١٠٦. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٨١.
- (٧) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٧٤.
- (٨) متر، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٧٩.
- (٩) الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٧٠. متر، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٧٩.



وسيلة ائتمانية تطلب استعمالها للتخلص من مشكلة النقل وتحاشي قطاع الطرق واللصوص، فتصبح ذات فائدة للتجار الأغنياء الذين يودعون أموالهم لسوكلائهم في المدن، وترسل لهم من المال المؤتمن ما يريدون دفعه<sup>(١)</sup> وتعدّ السفاتج خبير وسيلة لنقل الأموال من مكان إلى آخر<sup>(٢)</sup>، ولعل هذا الأسلوب في التعامل سهل علاقات التعامل المعقدة بين تجار أسواق بغداد وبين أقاليم الدولة العباسية.

ب- الصكوك<sup>(٣)</sup>: وسيلة من الوسائل الائتمانية والتجارية، وهي " أمر خطي بدفع مقدار من النقود إلى الشخص المسمى فيه<sup>(٤)</sup>، وقد ظهرت أول مرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، عندما أمر زيداً بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم، وأمره أن يكتب لهم صكوكاً من قراطيس وختم أسفلها، فكان ذلك أول صكّ عربي ظهر<sup>(٥)</sup>، وبعد ذلك اشتهرت الصكوك بدلاً من النقود، وكان الصكّ في العراق أشبه بالصكّ الرسمي<sup>(٦)</sup>، ويبقى أفضل طريقة للمعاملات التجارية؛ حيث إنه مقبول في التعامل التجاري داخل البلد وخارجه<sup>(٧)</sup>، وكثر استعمال الصكوك لدفع المال ليس من قبل الدولة حسَبُ بل تعدى استعمالها إلى أفراد الشعب<sup>(٨)</sup>، ويعود سبب انتشارها في الدولة الإسلامية لكثرة الأعمال التجارية وتطورها أولاً، ثم صعوبة نقل الأموال وخطورتها ثانياً<sup>(٩)</sup>، وخاصة أن الصرافين كانوا يعيشون في حالة خطر من اللصوص وأصحاب المطامع<sup>(١٠)</sup>، كما كان التجار غالباً ما يكتبون الصكوك بالنقود التي يريدون دفعها ويحولونها إلى الصراف بدل النقود، فيتولى هو دفع المبلغ المراد تسديده<sup>(١١)</sup>، وقد عُرف أن أغلب الصيارفة كانوا من أهل الذمة ومن الجهادية؛ وذلك لخبرتهم بالنقود وتمييز الجيد منها من الرديء<sup>(١٢)</sup>، إذن كانت للصكوك عدة استعمالات، سواء للحكومة أو للأفراد، من

(١) بروي، تاريخ الحضارات، مج ٣، ص ١٩٤.

(٢) بروي، تاريخ الحضارات، مج ٣، ص ١٩٤.

(٣) الصكوك، جمع صك وهي الكتاب. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ٣٠٩.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٠، ص ١١٩.

(٥) البيهقي، تاريخ البيهقي، م ٢، ص ١٥٤-١٥٧.

(٦) متر، الحضارة الإسلامية، ص ٣٨٠.

(٧) معروف، المدخل، ص ٦٩. الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٧٠.

(٨) الكبيسي، النظام النقدي، ص ٤٨.

(٩) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ط ٣، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م، ج ٢، ص ٢٤٣.

(١٠) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٠، ص ١٠٦.

(١١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٦٩.

(١٢) بروي، تاريخ الحضارات، مج ٣، ص ١٩٤.

حيث تسديد الديون والقروض، كما أن التداول بالصكوك يدل على تطور المعاملات التجارية منذ مدة مبكرة عند العراقيين هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدل على ما وصل إليه الفكر الاقتصادي في العراق من الرخى والتقدم، كما أن الصكوك لم تقتصر على التجار وحدهم بل استخدمها الخلفاء والأمراء أيضاً.

### المراكز التجارية:

١- بغداد: كانت بغداد مركزاً تجارياً عالمياً، فيها مقر البلاط العباسي، وكان فيها الكثير من الأسواق المتخصصة؛ حيث تُسمى كل سوق باسم السلعة التي تعرض فيها، وكان لكل تجار ونجارة سوق خاص<sup>(١)</sup>، مثل: سوق الريحانيين، وسوق العطارين، وسوق الصرافين<sup>(٢)</sup>، والبزازين<sup>(٣)</sup>، وسوق التمر، والحريم<sup>(٤)</sup>، والسلطان<sup>(٥)</sup>، والقنطرة<sup>(٦)</sup>، ولكن كان أعظم أسواقها سوق يُعرف باسم سوق الثلاثاء<sup>(٧)</sup>، الذي أصبح مركزاً تجارياً رئيساً لبغداد<sup>(٨)</sup>.

وقد وصفت بغداد بأن لها شهرة ومكانة عالمية مرموقة تجارياً، بالإضافة إلى كونها سوقاً رئيساً ومخزناً تموينياً للقوى المحيطة بها، فأخذ الرحالة بنيامين التطيلي يصف تجارتها وعلاقاتها الواسعة مع العالم قائلاً: " ولها تجارة واسعة يقصدها التجار من جميع أقطار العالم للبيع والشراء"<sup>(٩)</sup>.

٢- البصرة: اشتهر أهل البصرة منذ القدم بالأسفار التجارية إلى كل الجهات<sup>(١٠)</sup>، كما أن البصرة أصبحت مركزاً تجارياً ومرسى للسفن التي تأتي إليها من سائر مدن العراق ومن خارج العراق<sup>(١١)</sup>، وأصبحت تزود المدن العراقية بما تحتاج إليه من السلع

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ١٤١. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٣٤.

(٢) ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع، مج٣، ص ١٣٢٢.

(٣) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٩٥. حسن، تاريخ الإسلام، ج٢، ص ٣١٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٣٢-٣٣٤.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٠٠، ١٧٧، ٢٨٩.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٠٠. حسن، تاريخ الإسلام، ج٢، ص ٣١٨.

(٧) منز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص ٣٨٦.

Duri.A.A: Baghdad. The Encyclopaedia of Islam leiden, Brill, 1979 Vol.1,p.895.

(٨) جواد، دليل خارجه بغداد، ص ١٧٤.

(٩) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ١٣٩.

(١٠) ابن الفقيه، كتاب البلدان، ص ٢٢٧.

(١١) غنيمه، تجارة العراق، ص ٤٤.

التجارية<sup>(١)</sup>، وتعدّ البصرة ملتقى القوافل التجارية القادمة من الهند والصين شرقاً ومفاوز الصحراء غرباً<sup>(٢)</sup>، أما أشهر أسواقها فسوق (الكلاء)<sup>(٣)</sup>، وسوق (المربد)<sup>(٤)</sup>، كما أنها اشتهرت بعمل ثياب الكتان الرفيقة على عمل القصب<sup>(٥)</sup>.

٣- واسط: وهي محطة تجارية وحلقة وصل بين بغداد والبصرة؛ حيث ذكرها القزويني، قائلاً: "كلها قصور وبساتين ومياه، وعيبتها أن حاصلها يحمل إلى غيرها، فلو كان حاصلها يبقى في يد أهلها لفاقت جميع البلدان"<sup>(٦)</sup>. وهذا يدل على غزارة محاصيلها الزراعية وعلى تجارتها الرائجة مع بقية أقاليم الخلافة وأسواقها العامرة، كما أن لتجار واسط نشاطاً خارجياً مع الهند<sup>(٧)</sup>.

٤- تكريت: كانت عامرة بأهلها وذات مساحة واسعة وفسحة، وكان لها تجارة رائجة<sup>(٨)</sup>، كما أن أسواقها مزدهمة باستمرار<sup>(٩)</sup>، وبها صناعات ضرورية<sup>(١٠)</sup>، مما يدل على أن فيها نشاطاً اقتصادياً واضحاً، ولها تجارة رائجة.

٥- الكوفة: كانت الكوفة ملتقى الطرق التجارية، وفيها أسواق عامرة<sup>(١١)</sup>. إلا أنه أستولى عليها الخراب، فانتقلت تجارتها إلى النجف التي لها أسواق متعددة، ونظيفة، وبها أنواع السلع، منها: سوق البقالين، وسوق الطباخين، وسوق الخبازين، والفاكهة، والخياطين، والعطارين، وتقام فيها أسواق خاصة في المناسبات الدينية، وتكون مؤقته يجتمع لها الناس من سائر البلاد في بداية شهر المحرم؛ حيث يقام فيها سوق عظيم لمدة عشرة أيام<sup>(١٢)</sup>.

(١) الأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٣٩٩.

(٢) أبو الفداء، نقويم البلدان، ص ٥٧. لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٦٥.

(٣) ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، مج٣، ص ١١٧٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٣٧. لسترانج، بلدان الخلافة، ص ٦٥.

(٥) لسترانج، بلدان الخلافة، ص ١٠٩، ١١٠.

(٦) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٧٨.

(٧) الشطنوفي، نور الدين أبي الحسن علي بن جرير اللخمي (ت ٧١٣هـ/١٣١٣م)، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني محيي الدين أبي محمد عبدالقادر الجيلاني، ط١، دار الكتب

العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٦٩.

(٨) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٨٦.

(٩) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ٢٥٤.

(١٠) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٨٩، ٢٠٨. ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ١٣٨، ١٤٨.

(١١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٨٧.

(١٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٨٧. ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ١٠٩-١١٠، ١٣٧.

وعلى العموم، فقد تميزت العراق على نحو عام وبغداد على نحو خاص بكثرة الأسواق وتعددتها وتنوعها، وأصبح لكل تجارة سوق خاص بها، وهذه الأسواق كان لا بد من تنظيمها ومراقبتها؛ حيث لم يكن بالإمكان السيطرة عليها إلا من خلال المراقبة، فكانت وظيفة الحسبة<sup>(١)</sup> هي خير مراقب؛ حيث أصبحت في أواخر العصر العباسي ذات أهمية بحيث أوكلت مهمة رقابة الأسواق وملحقاتها إلى المحتسب<sup>(٢)</sup>، الذي كان له صلاحيات واسعة<sup>(٣)</sup>، أبرزها تفقد أحوال السوق والتأكد من صحة المكايل والأوزان<sup>(٤)</sup>، ففي سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) أمر الخليفة المستعصم بالله المحتسب عبدالرحمن بن الجوزي بتقرير تسعير مسترخص للحنطة وغيرها، فاضطر أصحاب الغلات وأزمهم باتباع تلك الأسعار، وأخذ تعهدهم بذلك<sup>(٥)</sup>. ونفس الأمر تكرر في سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)<sup>(٦)</sup>.

إذن، تعدّ الأسواق مركز الثقل للنشاطات الاقتصادية؛ حيث تتم فيها عمليات التبادل التجاري، وقد أدت دوراً مهماً في حياة بغداد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بكل ما يحدث في بغداد، فنلقى صدها في الأسواق.

#### رابعاً: النظام المالي

تتطلب مصلحة كل دولة أن يكون لها نظام مالي تسير عليه، وقد راعت الدولة الإسلامية ذلك فأنشأت بيتاً للمال يقوم على رعاية مصالحها، ولبيت المال موارد ونفقات، وقد كان أهم موارد الدولة:

##### أ- الزكاة:

تعني الطهارة، فكان الخارج من المال يظهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين حقاً، قال تعالى<sup>(٧)</sup>: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾<sup>(٨)</sup>، والزكاة شرعاً: تملك جزء من مال عيّنهُ الشرع لمستحقه بشرائط مخصوصه<sup>(٩)</sup>، علماً بأن الزكاة لا تشكل مورداً

(١) حول المزيد عن الموضوع انظر الفصل الثالث، ص ١٨٧.

(٢) ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٠. كاهن، تاريخ العرب، مج ١، ص ٢٠٢.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٤١.

(٤) ابن الاخوة، معالم القرية، ص ٢١٩.

(٥) الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١٢.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٣، ٣٠٣.

(٧) حسن، النظم الإسلامية، ط ٤، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٢٣٢.

(٨) سورة التوبة، الآية (١٠٣).

(٩) حسن، النظم الإسلامية، ص ٢٠١.

رئيساً للدولة؛ إذ يخرجها الناس بأنفسهم<sup>(١)</sup>، وهي أنواع، منها: زكاة المال الظاهر كالزروع والثمار، فإذا سُقِيَت بالمطر أو سِيحاً كان مقدارها العشر، وإذا سُقِيَت سِيحاً؛ أي بعمل الإنسان، كان فيها نصف العشر، وزكاة المواشي، التي تجب بشرطين، أحدهما أن تكون سائمة فترعى الكلاً فتقل مؤونها ويتوافر درها ونسلها، وثانيهما أن يحول عليها الحول؛ أي يمرّ عليها سنة ليستكمل فيها النسل، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول"<sup>(٢)</sup>، أما الذهب والفضة فزكاتها ربع العشر، لقوله صلى الله عليه وسلم: " في السورق ربع العشر"<sup>(٣)</sup>، وكل مائتي درهم فيها خمسة دراهم، ولا زكاة فيها إذا انقضت عن مسائتين<sup>(٤)</sup>، وتُصرف الزكاة على الأشخاص المذكورين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ<sup>(٥)</sup> .

إذن، الزكاة مورد لإصلاح المجتمع فقط في حدود معينة، أما الموارد الأخرى فهي التي تفيد الدولة وتجعلها تنهض بمشروعات الإصلاح.

#### ب- الضرائب:

كانت سياسة الخلفاء في إدارة الضرائب وتنظيمها ترتبط بأمرين، هما: الأرض، وأهل الأرض؛ لصلتها المباشرة بها، ومن منطلق عدم الإضرار بالأرض أو بأهلها، بل مراعاة قدرة الأرض على الاحتمال إلى جانب مراعاة أوضاع الزراعة وإمكاناتهم المالية<sup>(١)</sup>.

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٢٣١.

(٢) أبي داود، سليمان بن الأشعث السحباني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٧م)، سنن أبي داود، كتابة الزكاة، باب في زكاة السائمة، حديث رقم ١٣٤٢.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١١٣. الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤ج، الناشر مصطفى البابي، مصر، ١٩٣٩م، ص ٢١٦-٢١٧.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١١٣. الغزالي، إحياء علوم الدين، ص ٢١٦-٢١٧. حسن، النظم الإسلامية، ص ٢٣٤.

(٥) سورة التوبة، آية (٦٠).

(٦) غيداء خزنة كاتب، الخراج (ضريبة الأرض) بين الواقع التاريخي والنظرية الفقهية من صدر الإسلام وحتى نهاية العصر العباسي الأول، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢م، ص ٣٧٠.

## ١- الفراج:

وهي ضريبة تؤخذ من الأرض الصالحة للزراعة كإيجار لقاء استغلالها؛ لأنها ملك للدولة، وقد بقيت هذه الضريبة تشكل مورداً مالياً للدولة<sup>(١)</sup>؛ حيث استمرت وأكد عهد عمر بن عبد العزيز في إصلاحاته على وضع الخراج على الأرض الخراجية<sup>(٢)</sup>، وفي عهد العباسيين كانت معظم الأراضي غير مزروعة ولا يمكن إعمارها إلا بنفقات كبيرة جداً، والفلاح بإمكاناته المحدودة لا يستطيع القيام بها، فأحدث ذلك خللاً في الخراج، مما جعل العباسيين يعالجونها بتطبيق نظام المقاسمة<sup>(٣)</sup>، والمقاسمة هي تقدير الخراج طبقاً لمقدار المنتج الزراعي؛ حيث تستحصل بعد الحصاد، وتقاسم الدولة الملاك ما ينتج من محصول بنسبة معينة<sup>(٤)</sup>، وأول من طبق نظام المقاسمة هو الخليفة المهدي (ت ١٦٩هـ/٧٨٥م)؛ ليضمن تحقيق العدالة، كما جاءت تخفيفاً عن كاهل الفلاح<sup>(٥)</sup>؛ أي تخفيف أعباء دافعي الضرائب من غير المساس بحق الدولة، خاصة بعد انخفاض الأسعار، وبعد أن أصبح العمل بخراج المساحة أمراً مرفوضاً مع تذبذب الأسعار وعدم ثباتها. أما النوع الثاني من أسلوب جباية الخراج فهو المساحة، وكان يدفع نقداً أو حصّة معينة من المحصول أو من كليهما، وهو خراج معيّن على مساحة محدودة من الأرض<sup>(٦)</sup>.

وأما النوع الثالث، الذي كان واضحاً زمن العصر العباسي الأخير، فهو نظام الإقطاع، وهو أن تقطع المنطقة أو المدينة لأحد الأفراد مقابل دفع مبلغ معيّن من المال، فتتفق عليه من ضرائبها للحكومة<sup>(٧)</sup>، وتكون صلاحية المقطع في جباية الأموال وليس له علاقة بالإدارة<sup>(٨)</sup>، وهذا الإقطاع يكون مؤقتاً، حيث يسترد منه متى شاء الخليفة أو عند وفاة صاحب الإقطاع<sup>(٩)</sup>.

- (١) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٣٢. الرئيس، محمد ضياء الدين، الخراج في الدولة الإسلامية، ط١، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ١٠٥.
- (٢) الخضري، محمد بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، مصر، ١٩٦٩م، ج٢، ص ١٨٤. العزاوي، تاريخ الضرائب العراقية، ص ٩٣.
- (٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٤٩. الرئيس، الخراج في الدولة الإسلامية، ص ٣٨٨. ماجد، العصر العباسي الأول، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٥٢.
- (٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٤٩. الرئيس، الخراج في الدولة الإسلامية، ص ٣٨٩. كاهن، تاريخ العرب، م١، ص ١٣٠.
- (٥) العزاوي، تاريخ الضرائب العراقية، ص ١٠٢.
- (٦) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٤٩. علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٦٨.
- (٧) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١١٠، ١١٤.
- (٨) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٥.
- (٩) الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٨٩؛ تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤١.

مع الأخذ بالحسبان أن الخليفة هو الذي يمنح الإقطاع<sup>(١)</sup>. فقد أقطع المستعصم بالله مناطق خراسان والخالص والراذان إلى عميد الدين منصور بن عباس<sup>(٢)</sup>، وكان بعض الولاة يجمعون بين الحرب والخراج، وهم قلة<sup>(٣)</sup>.

وقبل المستعصم بالله أقطع المستنصر بالله علاء الدين الطبرسي الظاهري المعروف بالدويدار الكبير ليلة دخوله على ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، منطقة قوسان؛ حيث يحصل منها بحدود (٣٠٠٠٠٠) دينار، وبقيت بحوزته إلى أن توفي سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)<sup>(٤)</sup>، وكانت إقطاعات فلك الدين أبي المظفر محمد بن فلك الدين تدر عليه أرباحاً تزيد على مائة ألف دينار، وولي زعامة شهرزور<sup>(٥)</sup>، وقد قتله المغول في سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م)<sup>(٦)</sup>، وأيضاً أقطع الأمير قيران الناصري الكوفة، وقد توفي سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)<sup>(٧)</sup>.

أما النوع الرابع من أنواع جباية الضرائب، وهو الضمان، ففيه يتعهد أحد الأفراد بتقديم مبلغ معين للحكومة عن منطقة من المناطق مقابل جباية ضرائبها لنفسه<sup>(٨)</sup>، وغالباً ما يكون الضامن هم الأمراء<sup>(٩)</sup>، وهناك الكثير في عهد المستعصم بالله ممن تولوا الضمان، ففي سنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م) ألحق قطب الدين أبو المظفر سنجر بن عبدالله البلكلي المستنصر التركي بالزعماء، وعقد عليه ضمان البندنجين، وقتله المغول سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)<sup>(١٠)</sup>، وفي سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) عقد ضمان ولاية الجبل على الأمير سراسنقر، وخلق عليه بعدة كاملة<sup>(١١)</sup>، كما كان عماد الدين طغرل بن عبدالله الناصري قد ضمن البصرة بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار، فبيعت الحمل في كل شهرين وما يتبع ذلك من الهدايا والتحف<sup>(١٢)</sup>، وكذلك عقد ضمان قوسان للأمير فلك الدين أبي الفوارس المعروف بالدويدار الكبير، وكان ذلك بمبلغ مائة وواحد

(١) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٢٩.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٧. خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١٠٠-١٠٢.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٧.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٥.

(٥) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمدان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص ٣٧٥.

(٦) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج ٤، ق ٣، ص ٥١٦-٥١٧.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٧.

(٨) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٦. خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١١٠، ١١٤.

(٩) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٦. كاهن، تاريخ العرب، ص ٩١.

(١٠) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج ٤، ق ٤، ص ٦٤٥.

(١١) الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٧٥.

(١٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج ٤، ق ٢، ص ٧٤٢-٧٤٣.

وعشرين ألف دينار، وقتله المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(١)</sup>، وكانت الدولة حريصة على استيفاء الضرائب في موعدها المقرر، بغض النظر عن صاحب المنصب، ومن ذلك أنه في سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ظهر خلل في وارد المخزن؛ حيث تبين أن السبب يرجع إلى عدم تسديد ما استحق من ضرائب على أرباب المناصب كالوزير وأخيه وولده وشيخ الشيوخ وجماعة من الخدم والرؤوساء؛ فأمر الشرابي بتحصيلها ومنع هؤلاء من الزرع<sup>(٢)</sup>. إذن، أدرك خلفاء بني العباس أهمية الخراج فعملوا على تنظيمه؛ لأنه المصدر الرئيسي لبيت المال.

## ٢- الجزية:

ذكر أنفاً<sup>(٣)</sup>، أنها ضريبة الرأس يدفعها أهل الكتاب للخلافة اعترافاً بسيادتها، وقد فرضت تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾<sup>(٤)</sup>، واختلف الفقهاء في مقدار الجزية<sup>(٥)</sup>، وكانت هذه الضريبة قد شكلت إيراداً كبيراً لبيت المال في الخلافة الراشدة<sup>(٦)</sup>، وكانت تجبى أول الأمر في كل شهر؛ لأن عمال المسلمين كانوا يتقاضون منها مرتباتهم، ثم صارت تجبى منذ سنة (٣٦٦هـ/٩٧٦م) في المحرم من كل سنة<sup>(٧)</sup>، واستمر الحال على ذلك حتى نهاية العصر العباسي.

## ٣- مكوس التجارة:

كانت ضرائب العشور تفرض على التجارة<sup>(٨)</sup>، فإذا أخرج المسلم بالتجارة إلى المفاوز احتاج إلى حماية الإمام؛ فيثبت لهم حق أخذ العشور منه لأهل الحماية، وكذلك الذمي، بل أكثر

(١) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٣، ص٥١١. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص٦٠٣.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص٥٦١-٥٧٧.

(٣) حول الموضوع، انظر الفصل الثالث، ص١٧٧-١٧٨.

(٤) سورة التوبة، الآية (٢٩).

(٥) حول الموضوع، انظر الفصل الثالث، ص١٧٨، هامش ٢.

(٦) ابن رسته، الأعلام النفسية، ص١٦٥. عبدالحسين علي بن أحمد، بيت المال في بغداد خلال العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ)، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، ١٩٨٩م، ص٣٠.

(٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٤٢.

(٨) القزاز، الحياة السياسية، ص١٣٤. الريس، الخراج في الدولة الإسلامية، ص١٢٣. حسن، النظم الإسلامية، ص٢٣٩.



لأن طمع اللصوص في أموال أهل الذمة أكثر وأبين<sup>(١)</sup>؛ حيث كان أول من فرضها الخليفة عمر بن الخطاب<sup>(٢)</sup>.

غير أنّ الملاحظ في العصر العباسي الأخير أن الضرائب كانت غير مستقرة؛ إذ كان كل خليفة جديد يُسقط الضرائب والمكوس<sup>(٣)</sup> عن الرعية، أو يثبتها، حتى جاء الخليفة المستعصم بالله فأمر في سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) الوزير نصير أحمد بن الناقد بإزالة ما أحدثه عمال السوء من المكوس والتقسيمات والمؤن والتأويلات؛ فنهض الوزير واصطحب معه صاحب باب النوبي تاج الدين بن الدوامي إلى داره؛ خوفاً عليه من عامة الناس؛ لأنه كان مسؤولاً عن أخذ المؤن عند تولية المستعصم بالله<sup>(٤)</sup>.

#### ٤- ضرائب أخرى:

لمّا لم تكن الموارد السابقة كافية، فقد اضطرت الخلافة إلى فرض ضرائب أخرى، مثل ضرائب البيع التي كانت تحصل من الباعة في سوق الغنم والخيول والجمال والسمك والمدبغة، ومن التجار المتقلبين في شارع ميسان<sup>(٥)</sup>، وضرائب المرور أو الطرق التي كانت تفرض على القوافل والبضاعة، وكانت مقادير هذه الضرائب مختلفة<sup>(٦)</sup>.

إذن كانت الضرائب الأخرى متعددة، وكثيرة منها ضريبة تستحصل من الذين يرغبون في نيل وظائف كبيرة؛ ففي سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)، رغب الأميران؛ سيف الدين عبدالله وعلاء الدين علي ولدا الأمير قيران الظاهري، في أن يصبحا من أرباب الدرباشات والغواشي<sup>(٧)</sup>. المرفوعة، وأن تجعل معيشة كل واحد منهما أربعة آلاف دينار كل سنة، وبذل في سبيل ذلك عشرين ألف دينار فاجيبا إلى طلبهما<sup>(٨)</sup>.

(١) السرخسي، شمس الدين (ت ٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، المبسوط، مصر، ١٤٢٤هـ، ج٢، ص ١٩٩.

(٢) الرئيس، الخراج في الدولة الإسلامية، ص ١٢٤.

(٣) المكوس: من المكس، وهي ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد، وأصل المكس في الفقه الجبائية، الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٤٠.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٢-١٦٣، ١٨٢. ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨.

(٥) ميسان: كورة كثيرة القرى والنخيل، تقع بين البصرة وواسط. القزويني. آثار البلاد، ص ٤٦٤.

(٦) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٣٤-١٣٥.

(٧) الغواشي: نسيج مزخرف مزركش يحمل مبسوطاً منشوراً أمام الفارس، ويوضع أحياناً على صدر الفارس، ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٣، ص ١٠٢٤.

(٨) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٢.

ومهما كانت نظم جباية الضرائب، فعلى متولي الجباية أن يرفع تقارير سنوية يوضح فيها حملة الإيرادات السنوية كاملة (١).

### ج- المواريث الحشرية:

وهي الأموال التي لا يعلم لها مستحق كاللقطة، ومال من يموت وليس له وراث، والأموال التي صالح عليها المسلمون أعداءهم (٢)، والباقي من أموال المسلمين بعد تقسيمها على الورثة (٣)؛ حيث أصبح لها ديوان يسمى ديوان التركات الحشرية، والمسؤول عنه يسمى ناظر التركات (٤). أو الناظر في المواريث (٥)، ففي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) توفي نصير الدين أحمد بن الناقد، فلما فتحت تركته وُجد فيها صندوق أبنوس فيه نيف وتسعون ألف دينار، وفيه رقعة يُذكر فيها أن ذلك من فواضل معيشتة وما أنعم به في الأيام المستصرية، والمستعصمية، وأن ذلك حق من حقوق بيت المال للمسلمين لا يستحق ورثته منه شيئاً، فحُمِل إلى دار التشريفات وأنعم على ورثته وأجريت لهم جرايات من المخزن (٦)، وكذلك ورد أنه في سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) توفي الفقيه الشمس عبد السلام البقش، وكان يسكن بالمدرسة المستصرية، وقد أحصيت تركته فبلغت مائتي درهم، وتسع خرق فيها تسعمائة دينار (٧)، وفي سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) أشرف صانع حمام ببغداد على الوفاة ولم يكن له وراث، فحضر ناظر التركات إلى داره، وأخذ مفتاح صندوقه وفتحه فوجد فيه سبعة أرطال ذهباً واثنى عشر رطلاً فضة، فأخذ الجميع وبقي الرجل مدة قصيرة ثم توفي (٨).

### د- الهدايا:

عُرِفَت الهدايا في العصر العباسي، وكانت تُقدَّم في مختلف المناسبات؛ ففي سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)؛ أي عند وفاة المستنصر بالله وتولية المستعصم بالله، قدم رسول من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ومعه تعزية وتهنئة وثوبان أطلس وألف دينار (٩).

- (١) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص ٢٩٧.
- (٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ٢، ص ٥٣٧. حسن، النظم الإسلامية، ص ٢٠٧.
- (٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٣٢.
- (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٩، ٣٠٦.
- (٥) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ١، ص ١٧٢.
- (٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٨-٥٢٩.
- (٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٩٦-٥٩٧.
- (٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٥-٣٠٦.
- (٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٦٥. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٢.

أما في سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) فوصل مع الحاج رسول صاحب اليمن ومكة نور الدين عمر بن علي الرسول؛ فقبل بالإكرام، وقدم ما معه من تحف وهدايا للخليفة المستعصم بالله؛ فقبلت منه <sup>(١)</sup>، وكذلك وصل في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) الزين سالم مبعوثاً من بدر الدين لؤلؤ، وأدى رسالته، وقدم ما معه من هدايا للخليفة؛ فقبلت منه، وخلع عليه <sup>(٢)</sup> وحدث الشيء نفسه في سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) <sup>(٣)</sup>.

### نفقات الدولة:

وكانت الدولة تنفق ما يرد لها في ما يأتي:

#### ١- نفقات الجيش:

لقد اهتمت الخلافة العباسية بالإنفاق على الجيش <sup>(٤)</sup>؛ من أجل تقويته لخدم الخلافة، ويحقق أغراضها؛ لذا فإن الخلافة مسؤولة عن دفع أرزاق الجند ورواتبهم، فالأمراء والمماليك يتسلمون نفقات سنوية، تتراوح بين الألف دينار <sup>(٥)</sup> إلى أربعة آلاف دينار <sup>(٦)</sup>. وفي بعض الأحيان كانت تمنح اقطاعات لبعض الأمراء بدلاً من الرواتب <sup>(٧)</sup>. كما أن الدولة مسؤولة عن تجهيز الجيش بالأسلحة والمعدات الحربية، وكل التجهيزات التي يحتاجها المقاتل، وفي بغداد خزانة للسلاح تحتوي على مختلف الأسلحة والتجهيزات العسكرية <sup>(٨)</sup>.

وقد كانت كلمة الأمراء نافذة، وكانوا ذوي سلطة؛ فالأمير عماد الدين أبو الفوارس عبدالله المستعصي، رتبته الخليفة المستعصم بالله أمير أسوة بالزعماء الآخرين؛ حيث خلع عليه وجعل له خمسين فارساً ومعيشتته ألف دينار في كل سنة <sup>(٩)</sup>.

وفي أواخر عهد المستعصم بالله؛ أي في سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، أهملت حال الجيش وقُطعت أرزاقهم. ففارق الكثير منهم بغداد ولحقوا ببلاد الشام <sup>(١٠)</sup>، وفي سنة (٦٥٥هـ/

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٧.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٧.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٧٧-٥٧٨.

(٤) حول الموضوع، انظر الفصل الثالث، ص ١٤٥-١٤٦.

(٥) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٢، ق٢، ص ٧٤٥.

(٦) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص ٥٨٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦١٢.

(٧) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٣، ص ٥١٦-٥١٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٦.

(٨) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٥٢٣. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٦.

(٩) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص ٧٤٥، ١٠٢٤.

(١٠) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦١.

١٢٥٧م)، أصبح الجيش في حال يرثى لها؛ فعمل المستعصم بالله على منع أرزاق أعداد كبيرة منهم، كما أسقط أكثرهم من ديوان العرض، فوصل الأمر إلى سؤال الناس في الأسواق والجوامع<sup>(١)</sup>.

## ٢- رواتب الموظفين وأرزاقهم:

كان للموظفين رواتب سنوية مختلفة، بالإضافة إلى أنه في بعض الأحيان كانت تمنح لهم إقطاعات واسعة بدل الرواتب، يحصلون منها على مبالغ كبيرة، ولكن الملاحظ على الرواتب أنه كان يوجد فيها تفاوت واضح، فمثلاً نجد أن الأمراء الصغار كانوا يستلمون راتباً مقداره ألف دينار في السنة<sup>(٢)</sup>، بينما يتسلم الأمراء الكبار خمسة آلاف دينار في السنة<sup>(٣)</sup>، فمثلاً رتب الأمير قطب الدين أبو المظفر سنجر بن عبدالله البكلي ناظر بالحلف، وعقد عليه ضمان البندينجين، وجعلت معيشته خمسة آلاف دينار<sup>(٤)</sup>، وأيضاً خلع المستعصم بالله على الأمير فتح الدين أبي المظفر الحسن بن محمد بن كر الكردي خلع السلطنة، وزيد في معيشته ألف دينار، فصار له في كل سنة أربعة وعشرون ألف دينار<sup>(٥)</sup>، كما بلغت معيشة الأمير علاء الدين أبي شجاع في السنة اثنتي عشرة ألف دينار<sup>(٦)</sup>، إضافة إلى ذلك فإن العديد من الأمراء كانوا يمنحون إقطاعات واسعة بدل الرواتب؛ حيث أقطع علاء الدين الطبرسي قوسان، وكان يحصل منها نحو ثلاثمائة ألف دينار<sup>(٧)</sup>، وبالنسبة للعلماء فإننا نلاحظ الفرق؛ حيث كانت رواتبهم قليلة جداً إذا ما قورنت بالأمراء الصغار أو الكبار؛ فكان مدرسو المدرسة المستنصرية يتقاضى كل منهم راتباً شهرياً مقداره اثني عشر ديناراً، وأمين المكتبة لا يزيد راتبه على عشرة دنانير<sup>(٨)</sup>، أما مشرف المكتبة فكان يتقاضى سبعة دنانير، وكان للطالب ديناران، أما بقية الموظفين في المكتبة فقد كانت لهم جرايات ورواتب، وكانت الجرايات تضاعف لهم في شهر رمضان من كل سنة<sup>(٩)</sup>، وعلى أية

- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٠-٣٢١. ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٣-٥٣٤.
- (٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص ٧٤٥؛ و ج٤، ق٣، ص ١٢٢، ١٣٦، ١٣٨، و ج٤، ق٤، ص ٦٤٤.
- (٣) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ق٤، ص ٥٩٧، ٦٠٢، ٦١٢.
- (٤) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٤، ص ٦٤٥.
- (٥) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٣، ص ٣٤.
- (٦) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص ١٠٠٣-١٠٠٤.
- (٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٥.
- (٨) معروف، حياة إقبال الشرايبي، ص ٢٣.
- (٩) الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٨٧. معروف، تاريخ علماء المستنصرية، ج١، ص ٥٧-٥٨، ٧٢-٧٣، ٢٦١.

حال فإن الخليفة أو المسؤول عن بيت المال، مفوض لزيادة أرزاق الولاة والقضاة إن أحسن في عمله؛ لجعله ذلك حافظاً له وللآخرين بأن يؤدي عمله على أحسن وجه، وكذلك فإنه مفوض بإنفاص رواتب من يهملون في أداء أعمالهم من الموظفين (١).

### ٣- نفقات الحج:

كانت الدولة تتفق على شؤون الحج، وتنظيم إدارته، وتأمين طرقه، وكسوة الكعبة الشريفة، وإصلاح ما تهدم منها وعمارة المسجد (٢).

كان الخليفة المستعصم بالله مهتماً بمتابعة أمور الناس وقضاء حوائجهم؛ حيث اهتم كثيراً بأمر الحجاج، وكان قد عاد الحج إلى وضعه بعد انقطاعه منذ سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، وقد اعتنى بطريق الحج من حيث الاهتمام بالآبار وتنقيتها لتصبح صالحة للاستخدام، كما عيّن عليها مشرفاً؛ شخصاً يعرف باسم ابن ورخز، ومعه جماعه من الرجال والأجناد (٣)، وكذلك اهتم بأمر سبيل الفقراء، وجعل السراج عمر ابن بركة النهركلي مشرفاً عليه. ووضع سبيلاً لكل من المستنصر بالله والظاهر بأمر الله، وسبيل لوالده الناصر لدين الله، وعيّن لكل سبيل من يتولاه ويشرف عليه (٤).

لقد أسندت إمرة الحج في عهد المستعصم بالله إلى قادة الجيش، مثل مجاهد الدين أيبك المستنصري، وتكرّر انتدابهم لهذا العمل في سنوات متتالية، بعد أن كان أمير الحج في العهود العباسية الأولى يُختار من الأمراء العباسيين، ثم من البارزين من العلويين (٥).

ومما يُروى في حوادث سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) (٦)، أن والده المستعصم بالله حجّت وكان معها الأمير مجاهد الدين أيبك الدويدار، وعندما عادت من الحج في السنة التالية (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) (٧)، جهزت الإقامات لتلقيها بإصلاح الآبار التي في طريق مكة لتزويد الحجاج بالماء، وجعل على إمارة الحج سيف الدين كيكلدى الناصري (٨)، وجاء في حوادث سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) " أنه وقع الشروع بأمر الحج وعيّن له الأمير أيبك الخاص الدويدار

(١) أبو يوسف، الخراج، ص ١٨٦-١٨٧.

(٢) القزاز، الحياة السياسية، ص ١٣٥.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٣-١٧٤.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٣-١٧٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٢٧.

(٥) فهد، تاريخ العراق، ص ٢٦٠.

(٦) الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦.

(٧) جواد، سيدات البلاط العباسي، ص ١٩١-١٩٢.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٧٣-١٧٤.

الصغير، وحملت إليه نفقة أجناد الحج، وهي خمسون ألف دينار، وأخرجت النوبة الملكية وكسوة الكعبة الشريفة وكسوة حجرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصدقة فقراء الحرمين ورسوم العرب، ثم أخرجت باقي السبل، وهي سبيل الخاص وفيه مائتا جمل، ثم سبيل المستنصر بالله وفيه مائة وخمسون جملًا، ثم سبيل الظاهر بأمر الله وفيه مائة وخمسون جملًا، ثم سبيل الناصر لدين الله وفيه مائة جمل، ثم سبيل أم الناصر لدين الله وفيه ثمانون جملًا، ثم سبيل الخلاطية وهي زوجة الخليفة الناصر لدين الله " (١).

كما أرسل الشرابي لتلقي أم الخليفة مع وكيله عز الدين حسين بن عبدوس تسعين جملًا عليها التشريفات بالمناسبة، ثم خرج صدر المخزن محمد بن أبي عيسى ومشرفه عميد الدين منصور بن عباس الدجيلي لتلقي أم الخليفة ومعهما خمسة وخمسون جملًا محملاً بالتشريفات المتنوعة، وحمل إليها من البصرة فخر الدين بن المخزومي صاحب الديوان ستة عشر جملًا محملاً بالتشريفات أيضاً، وهذه التشريفات كانت تشتمل، سواء عند ذهابها إلى الحج أو عودتها منه، على أعداد كبيرة جداً من الجمال التي تحمل حوائج كثيرة وفيها كل ما لذ وطاب، مما يدل على وفرة الأموال لدى الأمراء الكبار خلال هذه المدّة، وفي هذه المناسبة خلعت أم الخليفة على أمير الحاج مجاهد الدين أبيك الدويدار، وأمرت له بخمسة عشر ألف دينار، وعلى حسن الدين قيران بألف دينار، ثم وزعت الخلع على كل من كان بخدمتها من النواب والأتابع والفراشين والجمالين والحدادين والسقائين والنفاطين والحراس (٢).

#### ٤- الصدقات:

كانت الصدقات توزع على الفقراء والمحتاجين، وبعضها كان يوزع على نحو مستمر وهي الصدقات الرجبية؛ حيث كانت توزع بحلول شهر رجب من كل سنة (٣). وكانت هذه الصدقات تخرج من المخزن؛ فعند وفاة الوزير نصير الدين بن الناقد أخرج صدقة من المخزن فبلغت تسعين رأساً من البقر وخمسة عشر ألف رطل من الخبز ومائة وخمسين قوصرة من التمر (٤). وقام المستعصم بالله في سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) بفتح دور الضيافة في جانبي بغداد، ووزعت الأطعمة فيها لإفطار الفقراء، وكان المخزن يجهّز دور الضيافة بكل ما تحتاجه من الأطعمة لإفطار الفقراء (٥)، ومثلما اهتم الخليفة المستعصم بالله

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٩-٥٢٠.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩١-١٩٢. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٤.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩١-١٩٢. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٤-٥٢٥.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢٨.

(٥) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥١٨، ٥٥٤، ٥٧٨.

بشؤون الحج فقد اهتم بالصدقات الرمضانية؛ ففتح لها دوراً خاصة توزع فيها الطعام على الفقراء، ففي سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) أمر بتوزيع ما جرت العادة به من الدقيق والذهب والغنم على المدارس والجوامع والأربطة وزوايا الفقراء والمشاهد<sup>(١)</sup>، ولم تقتصر الصدقات في عهد الخليفة المستعصم بالله على من كان داخل العراق بل تجاوز ذلك؛ حيث أصبحت ترسل إلى الخارج إلى الديار المقدسة؛ فقد حصل أمير مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، على ما يزيد على عشرة آلاف دينار من الصدقات<sup>(٢)</sup>.

#### ٥- نفقات الإعمار:

كان ديوان الأبنية هو المسؤول عن الإعمار والترميم، ويتولى الناظر هذا الديوان، فقد رتب عز الدين أبو العباس أحمد بن عبدالرحيم بن أحمد الهيبي الكاتب المعدل ناظراً بديوان الأبنية وخلع عليه بدار الوزارة<sup>(٣)</sup>، والدولة كانت مسؤولة عن الإنفاق على إعمار المدارس والمستشفيات والأضرحة والدور وإقامة الجسور والسدود<sup>(٤)</sup>؛ إذ وجه المستعصم بالله عنايته إلى الأماكن المقدسة، فعندما وقع حريق بمسجد النبي، صلى الله عليه وسلم، سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، أرسل قاضي القضاة سراج الدين النهركلي ومعه المال الكثير لعمارة المسجد النبوي<sup>(٥)</sup>. كما أمر في سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) بسقف الحجرة الشريفة، وما حولها<sup>(٦)</sup>، وأيضاً اهتم الخليفة المستعصم بالله أيضاً بعمارة الربط والمشاهد وترميمها منذ توليه الخلافة؛ إذ عمل على تجديد عمارتها فصرف عليها مبالغ كبيرة<sup>(٧)</sup> وكان ينفقها باستمرار، وفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) أمر الخليفة المستعصم بالله ببناء السد على فم نهر عيسى؛ ليزداد ماء النهر بحيث تعبر شبارته إلى القصر المستجد بجوار قنطرة الشوك<sup>(٨)</sup>، وفي سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) أمر الخليفة بعمل دار مسناد على شاطي دجلة في بستان الصراة، وتولى العمل على ذلك أستاذ الدار محيي الدين يوسف بن الجوزي<sup>(٩)</sup>، واهتم المستعصم بالله بإحكام السدود ومنع الفيضانات

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ٥١٨.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٩٤.

(٣) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق ١، ص ٦-٧.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٨١، ١٨٧.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١٦.

(٦) النياضي، مرآة الجنان، ج٤، ص ١٠٣.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٤٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٢١، ٥٧١، ٥٩٣.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٩٨، ١٩٩.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٠.

التي كانت لها أضرار كبيرة على الزراعة وتهديم الدور والمحلات<sup>(١)</sup>؛ حيث جاءت معظم نفقات الدولة عند حدوث الفيضانات، ويجب التذكير بأنه خلال حكم المستعصم بالله حدثت فيضانات خطيرة كان أشدها خطورة على بغداد وضواحيها فيضانات سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م، و ٦٥٣هـ/١٢٥٥م، ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) على التوالي، ففيضانات سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) مثلاً أغرقت الجانب الشرقي من بغداد، والمحلات التي أنشأت في ظاهر السوق، ودخل الماء إلى داخل المدرسة النظامية بارتفاع ثلاثة أمتار<sup>(٢)</sup>، وامتألت الطرقات بالماء حتى منعت الناس من المرور فيها<sup>(٣)</sup>.

كما أغرقت هذه الفيضانات المحلات الجديدة في الجانب الشرقي، الذي كان يسكنه كثير من الزعماء والجند، وقد اهتم الخليفة المستعصم بالله بأمر هذا الفيضان، وألزم نائب المخزن بملازمة القورج وإحكامه وتوزيع الأموال على الرجال وإلزامهم العمل ليلاً ونهاراً<sup>(٤)</sup>، أما فيضان سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، فقد دمر معظم أحياء بغداد<sup>(٥)</sup>، وتضررت عدة مساجد وجوامع، منها جامع المنصور وجامع السلطان ومسجد قمرية، كما تهدم قسم من دار الخلافة وما جاورها من مبانٍ فتضاعفت أجرة المساكن<sup>(٦)</sup>، وبالنسبة لفيضان سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) فقد جاء في أواخر عهد الخليفة المستعصم بالله؛ حيث هدمت أسواق كثيرة في الجانب الشرقي، ودخل الماء إلى دار الخلافة فغرقت خزائن الخليفة وذخائره<sup>(٧)</sup>، بالإضافة إلى تهديم الكثير من الدور فاضطرت الخلافة إلى إسكان الناس في الخيم خارج المدينة<sup>(٨)</sup>، ويُعد هذا الفيضان الأشد والأكثر ضرراً والأطول مدة؛ حيث استمر خمسين يوماً، وقد سُمي بالغرق المستعصمي<sup>(٩)</sup>.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣٢، ٣٠٤، ٣١٧، ٣١٩. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٦٥، ٦٠٠-٦٠١، ٦١٥.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣. سوسة، الفيضان وغرق بغداد، مج ١٠، ص ٦٦-٦٧.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣١.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٦٥.

(٥) سوسة، فيضانات بغداد في التاريخ، ق ١، ص ٣٣٣.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٣، ٣٠٤. سوسة، فيضانات بغداد في التاريخ، ق ١، ص ٣٣٣.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١٨.

(٨) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٩٢.

(٩) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٦٢.



ولم تقتصر عملية الإعمار على الخليفة المستعصم بالله، بل اهتمت بالإعمار أيضاً أم الخليفة المستعصم بالله؛ إذ فتحت الرباط المستجد؛ حيث تولى عمارته ابن الكازروني، وخلع الخليفة على كل من تولى عمارته (١).

كما اهتمت زوجة المستعصم بالله بالعمارة، فأمرت بعمارة دار القرآن وبناء المدرسة البشرية، ووقفت عليها ووقفاً كثيرة قبل وفاتها (٢).  
إذن، لم تقتصر العمارة على الخلفاء وحدهم، بل تجاوزت ذلك إلى أمهاتهم وزوجاتهم، وحتى الأمراء وقادة الجيش.

## ٦- الخلع والهدايا والعطايا:

كانت الخلع تقليداً معروفاً في عهد الدولة العباسية، وكانت تعطى من المخزن لكبار رجال الدولة والموظفين في دار الخلافة (٣)، وهذه الخلع كانت تمنح في المناسبات الدينية والسياسية والمناسبات الأخرى، كالزواج والولادة والختان والموت وغيره، ولم تقتصر عملية منح الخلع على الخليفة وحده، فمنح الأمراء وكبار رجال الدولة كالقادة والوزارة وغيرهم.  
وكان الخليفة المستعصم بالله يميل إلى الإكثار من الخلع والهدايا، وخاصة في المناسبات سواء أكانت دينية أم غيرها، ففي شهر رمضان من سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، فرقت الخلع من المخزن على أربابها من خدمة الباب وحاشيته، فبلغت ثلاثة آلاف وأربعمائة ونيفاً وعشرين خلعة، وفي السابع والعشرين من شهر رمضان خلع الوزير على أرباب الدولة وحاشية الديوان وغيرهم فبلغت عشر خلع، وفي الثاني والعشرين منه أيضاً خلع شرف الدين إقبال الشرايبي على حاشيته ونواب ديوانه وخدمه ومماليكه وغللمان اسطبلاته، فبلغت عدة الخلع ألفاً وتسعمائة خلعة (٤). وفي عيد سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) خلع إقبال الشرايبي ألفاً وثمانمائة خلعة، وخلع الدويدار الصغير ألفاً وخمسمائة خلعة، أما أستاذ الدار يوسف ابن الجوزي فخلع خمسين خلعة، كما خلع صاحب الديوان أحمد بن الدامغاني ثلاثمائة وخمس عشر خلعة، والدويدار الكبير سبعمائة خلعة، ثم تلاه بقية الأمراء وأرباب الدولة كل حسب حاله، فكان جملة ما خلع بمناسبة العيد نيفاً وستة آلاف خلعة (٥). وفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) أرسل الخليفة ابن الجوزي سفيراً

(١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨-٢٦٩. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦١، ٢٥٨.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٧، ٢٧٥، ٣٠٨. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٠٩.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٠٢-٢٠٣، ٢١٤، ٢٨٨، ٣٠٨.

(٤) الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١٢-٥١٣.

(٥) الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٣٢-٥٣٣، ٦٠٤، ٦٠٥.

إلى نجم الدين أيوب ومعه خلع السلطنة عمامة سوداء. وفرجية<sup>(١)</sup> مذهبة، وثوبان من ذهب، وسيف مسقط بذهب، وترس ذهب، وحصان<sup>(٢)</sup>.

وفي السنة نفسها وصل إلى بغداد نور الدين علي بن حلب شقيق الملك الصالح من أمه، فحضر عند الوزير وطلب الإقامة في بغداد والخدمة في الأبواب الشريفة، فأجيب إلى ذلك وخلع عليه<sup>(٣)</sup>، وكذلك في سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) عندما ختن ولدا الخليفة المستعصم بالله، وهما الأمير أبو العباس أحمد، وأبو الفضائل عبدالرحمن، ومعهم الأمير علي بن الأمير أبو القاسم عبدالعزيز المستصري، ومعهم أولاد الأمراء الكبار، وبهذه المناسبة خلع على الأستاذ إقبال الشرابي وقلد سيفين، ثم على الأستاذ عاشور الظاهري، وخلع على الخدم والبوابين والفراشين، وحاشية دار التشریفات، وعلى الطبيب الذي ختن الأولاد، وعلى غيرهم؛ حيث قال ابن الخازن أن ما صرف من المال في هذه المناسبة يزيد على مائة ألف دينار<sup>(٤)</sup>، والشيء نفسه تقريباً يقال عندما ختن ابن المستعصم بالله الصغير، أبو المناقب المبارك سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)؛ حيث ختن معه جماعة من أولاد الأمراء، وكذلك عمت الخلع خلقاً كثيراً<sup>(٥)</sup>، وفي سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) رزق الخليفة بولد سماه محمداً؛ فخلع على الخدم والحاشية ووزع الأموال الكثيرة، وفي ذلك قال ابن الخازن إن الخلع عمت خلقاً كثيراً<sup>(٦)</sup>، وكذلك في السنة نفسها أنعم المستعصم بالله على خواصه وحاشيته عشرة آلاف دينار، وذلك عندما توجه إلى زيارة مشهد علي عليه السلام<sup>(٧)</sup>، وأيضاً كانت الخلع تعم عند وفاة أحد أفراد عائلة الخليفة، فعندما توفي أبي نصر محمد بن الخليفة سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)، خلع علي ابن الجوزي نحو عشرة آلاف دينار لأنه تولى غسله<sup>(٨)</sup>، وكذلك كانت الخلع تعم في المناسبات الأخرى؛ إذ نجد الخليفة المستعصم بالله يشجع الرياضة، وذلك أنه في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) جرى معتوق الموصل من دقوقاً ساعياً على قدميه، فوصل كشك الملكية وخرج الخليفة لمشاهدته ومعه، فمنحه الخليفة

(١) فرجية: ثوب يلبس فوق سائر الثياب، أو يلقي على الكتفين، وله طوق وأردان طويلة، الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٨٩.

(٢) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٤٩.

(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٣٦.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤١-٦٥٠هـ)، ص ٢٩، ٣٣١؛ دول الإسلام، ج٢، ص ١٥٠. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٤٤، ٥٤٥-٥٤٦، ٥٤٧.

(٥) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨٦.

(٦) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٩٤-٥٩٥.

(٧) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٩٣.

(٨) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٠٨.

فمنحه الخليفة خمسمائة دينار وأعطاه الشرايبي ثلاثمائة دينار<sup>(١)</sup>، وكذلك السباق الذي جرى في سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) بين علي الأربلي ومعتوق الموصلبي، وفيه حصل معتوق على خلع من الخليفة وكبار رجال الدولة وصلت إلى عشرة آلاف دينار<sup>(٢)</sup>.

كما أن الخليفة المستعصم بالله، كان يحرص على إرسال الهدايا بين الحين والآخر إلى كبار رجال الدولة؛ وذلك من باب توثيق العلاقات، فنجده في عام (٦٤٩هـ-١٢٥١م). يهدي ابن العلقمي بغلة، حيث قال أبو المعالي بن أبي الحديد في ذلك:

(بحر الكامل)

هنئت يا خير الملوك ببغلة من مالك مفضل متطول

جاء البشير بها إليك كأنما جبريل جاء محمداً بالذلل

أخت الحصان وهكذا رتب العلا تأتي مكملة لغير مكمل<sup>(٣)</sup>

وكذا الإنفاق على بعض المشاريع الخيرية كبناء المستشفيات وتوزيع الأدوية على الفقراء وبناء دور الضيافة في رمضان، واستقبال الحاج والإنفاق على الضعفاء منهم وتجهيزهم عند سفرهم، بالإضافة إلى ما ينفق على الفقهاء والصوفية في المساجد والزوايا والمدارس<sup>(٤)</sup>. إذن، نستنتج أن كثرة الخلع في عهد الخليفة المستعصم بالله تدل على حالة الرخاء، وكثرة الأموال لدى الأمراء المتنفذين في عهده؛ لأن منح هذه الخلع يتطلب أموالاً كثيرة لا يقدر على دفعها إلا من كان له يد طولى وصاحب نفوذ لدى الخليفة، وعلى أية حال فإن هذه الخلع كانت تشكل عبئاً مالياً كبيراً على الدولة، في حين كان الجنود في المدة نفسها يتمردون بين الحين والآخر مطالبين بدفع رواتبهم نتيجة تأخرها؟!، وبذا، فقد كان ينبغي للدولة دفع رواتب الجنود أولاً، ثم بناء جيش قوي ليكون قادراً على الوقوف في وجه الأطماع الخارجية ثانياً، خاصة أن المغول كانوا يظهروا بين الحين والآخر مهددين الدولة العباسية، وتحديداً في عصرها الأخير.

أمّا بالنسبة للعطايا والخلع والهدايا، فإنها لم تكن مستغربة في عهد المستعصم بالله؛ إذ إن لها جذوراً في الفترات السابقة؛ وبذا استمرت في عهد المستعصم بالله، واستمرت بعده حتى الوقت الحاضر.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩١.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣٤. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٦٦.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٥٩. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٥٨١-٥٨٢.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٢٢٩-٢٣٠. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤٤.

## الفصل الخامس

### الزحف المغولي وسقوط بغداد

أولاً: بداية الزحف المغولي باتجاه العالم الإسلامي

ثانياً: موقف المستعصم بالله من التهديد المغولي

ثالثاً: اتهام ابن العلقمي بالخيانة

رابعاً: سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

خامساً: نتائج الغزو المغولي على الخلافة العباسية

## أولاً: بداية الزحف المغولي باتجاه العالم الإسلامي

بعد أن وحد جنكيز خان (١) القبائل المغولية تحت سيطرته، سعى إلى توسيع رقعة دولته، وكان المجال الحيوي له بلاد الصين التي تقع جنوب مملكته، فشن عدة حملات على إمبراطورية كين (٢) واستولى على أقاليم واسعة من بلاد الصين، وسيطر على بكين سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) (٣). بذلك أصبحت إمبراطورية المغول القوية تجاور الدولة الخوارزمية التي كانت قد وصلت إلى أقصى اتساعها في عهد علاء الدين خوارزمشاه، وكان من الطبيعي أن يحدث احتكاك بين الدولتين (٤)، وخاصة أن جنكيز خان كان يهدف إلى تعزيز أواصر الصداقة مع خوارزمشاه، وكان يهيمه حرية التجارة وتبادلها بين الشرق والغرب على أوسع نطاق، وأن يتهيأ للتجار الحرية في الانتقال من إقليم إلى آخر (٥). فمن باب تعزيز العلاقات التجارية والسياسية بين جنكيز خان وخوارزمشاه أن أصبح بينهما تبادل سفارات، وهذا دليل على أن العلاقات كانت بينهما حسنة ولم يشوبها شائبه بعد (٦).

يرجع السبب الذي من أجله اشتعلت نيران الحرب بين الدولتين إلى: قضية التجار؛ حيث وفد جماعة من التجار من رعايا جنكيز خان إلى الدولة الخوارزمية، وفي أثناء مقابلة هذا الوفد للسلطان الخوارزمي قالوا له: إن الخان الكبير يسلم عليك ويقول: "ليس يخفى على عظيم شأنك وما بلغت من سلطانك، ولقد علمت بسطة ملكك وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي، وغير خاف عليك أيضاً أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك وقد أذعنت لي قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادنا مثرات

- (١) جنكيز خان: هو تيموجين بن يسكوي (يسوغاي)، خان المغول، ولد سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م)، الفاتح المغولي، والطاغية التتري المشهور، لقب جنكيز خان ومعناه المحارب الكامل، إمبراطور العالم، البستاني، بطرس، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٦، ص ٥٥.
- (٢) تنسب هذه الإمبراطورية إلى أسرة كين، الذين كانوا يرأسون طوائف من الجنس الأصفر، ويسيطرون على ممالك الخطا الشمالية، الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٢١.
- (٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٧-٤٦٨. الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٩٥-٩٧. العريني، السيد الباز، المغول، دار النهضة، بيروت، ١٩٦٧م، ص ٦٤-٦٦. فلاديمير، ستوف، حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية، ترجمة سعد الغامدي، ط١، الرياض، ١٩٨٣م، ص ١٣٠-١٣٥.
- (٤) حمدي، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٠.
- (٥) العريني، المغول، ص ١١٦. الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٩٨-٩٩.
- (٦) العريني، المغول، ص ١١٩.

العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في  
الجهتين سبيل التردد عمت المنافع وشملت الفوائد" (١).

لقد أثارت هذه الرسالة حفيظة السلطان الخوارزمي لما فيها من أشياء تحط من قدره؛ إذ  
نعتة بولده؛ حيث كانت هذه الصيغة في الشرق تطلق على الأتباع والخدم (٢)، هذا بالإضافة إلى  
ما تحمله الرسالة في طياتها من التهديد والوعيد.

ولكن بفضل تدخل محمود الخوارزمي لدى السلطان الخوارزمي فإن الأوضاع قد  
هدأت؛ حيث عقدت معاهدات تجارية بين جنكيز خان والسلطان الخوارزمي؛ فسر جنكيز خان  
بهذا الاتفاق، وأخذ يعمل على تأمين التجارة بين شرق آسيا وغربها وتوسيع نطاقها ونشر  
الأمن (٣)، وقد عازمت هذه القافلة على العودة إلى جنكيز خان سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م)؛ حيث  
تألفت القافلة التجارية التي بعث بها جنكيز خان من (٤٥٠) رجلاً كلهم مسلمون (٤)، ومن  
(٥٠٠) جمل تحمل سلعاً تجارية من الذهب والفضة والمنسوجات الحريرية، وفراء السمور  
والقندس (٥) وغيرها من المتاجر، وكان على رأس هذه القافلة أربعة تجار، هم عمر خوجا  
الدوتراري، وجمال المراغي، وفخر الدين الديزكي البخاري، وأمين الدين الهيراتي، على أن  
والي أترار (٦) من قبل خوارزمشاه وهو ينال خان (٧)، احتجز كل رجال القافلة عند ما علم  
بأمرها (٨)، وأرسل إلى السلطان محمد خوارزمشاه يخبره بذلك، فأمره بالقبض عليهم وإعدامهم

- 
- (١) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٣-٨٤. الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ٨٨. إقبال، عباس،  
تاريخ المغول، ترجمة عبدالوهاب علوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٠م، ص ٢٢.
- (٢) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٥٩-١٦٠.
- (٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٦-٢١٧. الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٥٠.
- (٤) الجويني، عطا ملك (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، تاريخ جهانكشاي، ترجمة محمد التونجي، ط١، دار الملاح،  
دمشق، ١٩٨٢م، ج١، ص ٦٠. العريني، المغول في التاريخ، ص ١١٩، بينما يذكر ابن العبري أن  
عدد أفراد القافلة بلغ (١٥٠) تاجراً، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٠-٢١١.
- (٥) القندس: نوع من الفراء مأخوذ من حيوان قارض، كثير الفراء، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤،  
ص ٢٩٥.
- (٦) أترار: مدينة على الساحل الغربي لنهر سيحون، وهي ملتقى طرق التجارة بين شرق آسيا وغربها، وتعد  
مفتاحاً لإقليم ما وراء النهر. النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٥. إقبال، تاريخ المغول، هامش  
٣، ص ١٠٤.
- (٧) هو ابن خال السلطان، وقد كان شخصاً متعجرفاً مغروراً معتمداً على قرابته من والدة السلطان، النسوي،  
سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٦.
- (٨) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٣٦٢-٣٦٣. الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ٦٠. العريني،  
المغول، ص ١١٩.

على اعتبار أنهم جواسيس بعث بهم جنكيز خان، وظاهر أمرهم التجارة، وهؤلاء التجار كان مركزهم خجندة<sup>(١)</sup> التي تسير منها قوافلهم إلى منغوليا تحمل إلى خان المغول الهدايا من نسيج الكتان والديباج؛ حيث كان يشجعهم على ممارسة نشاطهم التجاري<sup>(٢)</sup>.

وأقر السلطان الخوارزمي تصرف والي أترار، ووزع السلع على تجار بخارى<sup>(٣)</sup> وسمرقند، وحاز أثمانها لنفسه<sup>(٤)</sup>.

ونتيجة هذا العمل ساءت العلاقات بين الدولتين عقب قتل التجار، وشعر السلطان خوارزمشاه بمغبة قتل التجار، فأرسل إلى دولة المغول جواسيس لاستطلاع قوتهم، ومعرفة نواياهم، فعادوا إليه، وأخبروه بكثرة عددهم. وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح<sup>(٥)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك فقد تشدد علاء الدين محمد مع جنكيز خان ولم يقبل شروطه فسي تجنب الحرب، فأرسل إلى خوارزمشاه سفارة مؤلفة من ثلاث رجال؛ كي تحتج عند السلطان على الفور بقتل رجال القافلة، وتطلب تسليم حاكم أترار<sup>(٦)</sup>، وقد جاء في رسالة خاقان المغول: "فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان - حاكم أترار - كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان الي لأجازيه على ما فعل، حقناً للدماء"<sup>(٧)</sup>، لكن السلطان الخوارزمي اعتقد أنه لو لاطف جنكيز خان في الجواب، لم يزد ذلك إلا طمعاً فيه، فأمر سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨م)<sup>(٨)</sup> بقتل أحد الرسل الذي قدم إليه من قبل جنكيز خان يعاتبه على فعلته الشنيعة ويطلب منه تسليم ينال خان له، كما تحفظ على زميليه ولم يطلق سراحهما إلا بعد حلق لحيتهما، مما أغضب جنكيز خان مرة أخرى<sup>(٩)</sup>.

ويقول الجويني: "إن دمهم أهرق، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء، وإن رؤوسهم قد سقطت، ولكن كل شعرة منها قد كلف مئات الألوف من الناس

- 
- (١) خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون، بينها وبين سمرقند، عشرة أيام، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٣٤٧-٣٤٨.
  - (٢) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٣٦٣. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٣٧٠-٣٧١.
  - (٣) بخارى: مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر. القزويني، آثار البلاد، ص ٥٠٩.
  - (٤) العربي، المغول، ص ١١٩.
  - (٥) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٣٦٢-٣٦٣. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٣٧١.
  - (٦) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٧. إقبال، تاريخ المغول، ص ١٧٦-١٧٨.
  - (٧) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٧.
  - (٨) العربي، المغول، ص ١١٩.
  - (٩) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٣٦٣. النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٧. العربي، المغول، ص ١١٩. إقبال، تاريخ المغول، ص ٦٤.

حياتهم»<sup>(١)</sup>، أما النسوي فيقول: "فيا لها من قتلة هدرت دماء الإسلام، وأجرت بكل نقطة سيلاً من الدم الحرام، فاستوفى عن لغيف فيضاً، وأحلى بكل شخص أرضاً"<sup>(٢)</sup>.

فبذلك قطع السلطان خوارزمشاه أي أمل للتفاهم مع المغول، وأصبحت الحرب أمراً محتملاً، وأصبح لدى جنكيز خان الحجة القوية لتبرير هجومه على البلاد الإسلامية والإسراع فيه.

ولقد اتسمت غارات المغول على الدولة الخوارزمية بالوحشية والهمجية، فقتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة<sup>(٣)</sup>. بالإضافة إلى أنهم أشاعوا الخراب والدمار في كل بلد ملكوه، حتى تحوّلت المدن العامرة، والقرى والمزارع الخصبة إلى صحارى قاحلة، وأتوا على الأخضر واليابس، وأهلكوا الحرث والنسل<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة (٦١٦هـ/١٢١٨م) أعد جنكيز خان جيوشه لمهاجمة الدولة الخوارزمية؛ فسارع إلى مدينة أترار، وشدّد هجماته عليها؛ حيث اعتصم حاكمها ينال خان، ودافع بكل بسالة وأنهك المغول، لكنه في النهاية قبض عليه المغول وسيق إلى جنكيز خان؛ حيث أمر بسك الفضة وصبها في أذنيه وعينه انتقاماً منه لقتله للتجار، وبذلك سقطت مدينة أترار، وبسقوطها سقط مفتاح بلاد ما وراء النهر بين المغول<sup>(٥)</sup>، وبعد ذلك سقطت المدن الإسلامية العظيمة في بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارى<sup>(٦)</sup>، وبقي المغول يتعقبون خوارزمشاه من مكان إلى مكان إلى أن وصل بحر الخزر (قزوين)، إلى جزيرة أيسكو؛ حيث كانت له فيها قلعة<sup>(٧)</sup>، فكان من الصعب على جنكيز خان الوصول إليه<sup>(٨)</sup> وقد بقي في تلك القلعة إلى أن توفي سنة (٦١٧هـ/١٢١٩م)، على إثر مرض أصابه فيها<sup>(٩)</sup>. وبقي المغول يطاردون الخوارزميين حتى سنة (٦٣٨هـ/

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، جـ١، ص ٦١-٦٥.

(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٣٦٤-٣٦٧.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٠. المكي، سمط النجوم العوالي، جـ٣، ص ٥٢٤. العريني، المغول، ص ١٢٣.

(٥) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٥٠٤. حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت، ص ١١٩. الفقي، دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص ٢٨١.

(٦) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٩١. الرفيعي، عبدالأمير، العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م، جـ١، ص ٩٤.

(٧) أيسكو، جزيرة تقع عند مصب نهر جاجان وعلى بعد ثلاثة أيام من مدينة جرجان القديمة، ولم يبق منها أثر حالياً، إقبال، المغول، هامش ٣٠، ص ١٠٥.

(٨) الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٢٧٤.

(٩) ابن الأثير، الكامل، جـ١٢، ص ٣٦٩-٣٧٠. ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٥١٩.



١٢٤٠م)؛ حيث استولوا على الري وهمذان، فتعقب المغول سنة (٦٢٩هـ/١٢٣١م) السلطان جلال الدين منكبرتي الذي قوي أمره وأصبح يمتلك بلاداً واسعة، وله إمكانات كبيرة، لكن لم يستغلها في حربه مع المغول الذين كانوا بالمرصاد لكل حركاته؛ حيث التقوا مع جلال الدين في كثير من المعارك التي انتصر فيها عليهم وسار وراءهم يقتل ويأسر حتى أبعدهم عن الري، ثم عاد إلى أذربيجان وأقام فيها (١).

لكن جلال الدين لم يستمر على هذا الوضع طويلاً، بل وقف في الميدان وحيداً؛ فعندما تحرك المغول سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) إلى أذربيجان، ودمروا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، لم يقف إلى جانبه أحد من الدول المجاورة؛ بسبب سياسته؛ حيث لم يترك أحد من الملوك المجاورين إلا عاياه ونازعه الملك وأساء مجاورته (٢)، لذا أنفذ المغول جيشاً لمقاتلته (٣) في موقان (٤) وتبريز (٥) وفي أذربيجان، وعندما أحس جلال الدين بتعقب المغول له توجه إلى خلاط يلتمس الالتجاء إليها، وأخذ يطلب المساعدة من سائر الأمراء المسلمين والخليفة العباسي، ويحذرهم من عاقبة إهمالهم، فلم ينهض أحد لمساعدته، عند ذلك غادر خلاط إلى آمد حيث هزمه المغول هناك، وشردوا رجاله، وقد تتبع المغول السلطان جلال الدين حتى وصل إلى جبال كردستان (٦) (٧)؛ إذ قتل هناك على يد بعض الأكراد، وبوفاته زالت الدولة الخوارزمية (٨).

وبزوال الدولة الخوارزمية أصبحت حدود الدولة المغولية محاذيه لأمالك الخليفة العباسي آنذاك. وانفتحت الطريق أمامهم إلى بغداد، وصار خطرهم واضحاً للعيان.

- (١) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٢، ص ٣٧٢-٣٧٤. الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن، (ت ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م)، تاريخ الخميس في أحوال أنفوس النفيس، ج ٢، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، ١٩٧٠م، ج ٢، ص ٤١٣-٤١٤.
- (٢) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٢، ص ٤٧٥-٤٧٦. ابن واصل، مفرج الكروب، جـ ٤، ص ٣١٤-٣١٥.
- (٣) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٢، ص ٤٩٥. ابن الوردي، تنمة المختصر، جـ ٢، ص ١٤٠. العريني، المغول، ص ١٧٢.
- (٤) موقان: ولاية واسعة بها قرى ومروج بأذربيجان. القزويني، آثار البلاد، ص ٥٦٤.
- (٥) تبريز: مدينة حصينة ذات أسوار محكمة، وهي قسبة بلاد أذربيجان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ١٣.
- (٦) جبال كردستان: مصطلح استخدمه السلطان السلجوقي سنجر في (ق ٦هـ/ق ١٢م)، وله مدلول جغرافي وسياسي وتاريخي، حيث يدل على المنطقة التي يعيش عليها الأكراد في كل من تركيا والعراق وإيران وسوريا، الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٤، ص ٢٥٨.
- (٧) العريني، المغول، ص ١٧٢-١٧٣. الفقي، عصام الدين عبدالرؤوف، دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢٩٠.
- (٨) أبو الفداء، المختصر، جـ ٣، ص ١٨٢-١٨٣.

وفي سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م) وصل المغول إلى أربل، وهو أول هجوم مغولي إلى العراق، فراسل الخليفة العباسي الناصر بذلك الأمير بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل والملك الأشرف صاحب الجزيرة الذي اعتذر عن قتال المغول، فوجه الخليفة الناصر رسالة إلى صاحب أربل مظفر الدين كوكبرى، يبلغه فيها بأنه أرسل لقتال المغول عشرة آلاف مقاتل، ولكن لم يصل منهم إلى صاحب أربل سوى ثمانمائة مقاتل، وقد رجع المغول قبل أن يلتحموا معهم بمعركة (١).

أما سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) فقد قام المغول بهجوم ثانٍ وصلوا فيه إلى حدود العراق، ولم يفعل الناصر شيئاً سوى أنه حصّن بغداد وأمر الناس بالصلاة والدعاء، كما هبّ الجند وصرف الأموال لهم واشترى المؤونة والسلاح (٢).

يتضح أن الناصر لم يكن لديه جيش قوي دائم التجهيز يدافع فيه عن العراق، كما لم يكن لديه قائد لقيادة الجيش، ولعلّ سبب ذلك خوفه من استبداد ذلك القائد بالأمور السياسية والعسكرية وإلا فلماذا يستعين في المرتين السابقتين بمظفر الدين صاحب أربل على إمارة هذا الجيش الذي أغلبه كان من الموصل وأربل، فالناصر هو المسؤول الأول عن ضعف الخلافة وبخاصة في أيام حكمه الأخيرة، مما أحدث ثغرة في قوة الخلافة (٣)، فجاء بعده المستنصر والمستعصم بالله ليعملا على توسيع تلك الثغرة من غير قصد، فكان الأجير به أن يتخذ التدابير اللازمة بعد تعرضه لغزو المغول بتقوية الجيش من حيث العدد والعدة؛ ليكون مستعداً لملاقاة المغول ومطاردتهم داخل حدود دولة الخلافة على الأقل.

وفي سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)؛ أي بعد وفاة جنكيز خان في إحدى حملاته بسنة تقريباً؛ حيث خلفه ابنه أوكيتاي، وصل المغول (٤) إلى أربل بعد أن قتلوا الكثير من الأكراد والتركمان، ودخلوها عنوة مما اضطّر حاكمها إلى طلب المساعدة من الموصل، لكن المغول انسحبوا إلى أذربيجان، ولم يلاحقهم مظفر الدين كوكبرى (٥).

(١) اليافعي، مرآة الجنان، جـ٤، ص ٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٩٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ١٢، ص ٤٠٤-٤٠٥. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٢٨. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٩٤-٩٥. الديار بكري، تاريخ الخميس، جـ٢، ص ٣٦٩. الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٣٨٣-٣٨٧. القزاز، الحياة السياسية، ص ٣١١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ١٢، ص ٤١٩-٤٢٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ١٠٧.

(٤) العريني، المغول، ص ١٧٠-١٧١.

(٥) ابن الأثير، الكامل، جـ١٢، ص ٤٩٥-٤٩٧. ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص ٣٢٨. المقرئ،

السلوك، جـ١، ق ١، ص ٢٤١. فهد، تاريخ العراق، ص ٨٧.

أما سنة (٦٢٩هـ/١٢٣١م)، فقد وصل المغول إلى منطقة شهرزور، فجهز الخليفة المستنصر الجيوش وأمر عليهم الأمير قشتمر الناصري بعد أن استجد بصاحب أربل، وتوجه الجيشان نحو المغول، إلا أنهم رجعوا من غير حصول تصادم عسكري بينهم<sup>(١)</sup>، لكن المغول داهموا أربل مرة أخرى في سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، ونشب تصادم بين الفريقين، مما اضطر المغول إلى الانسحاب إلى الموصل بعد أن قتلوا ونهبوا، فأنفق الخليفة الأموال، واستتفر الأعراب، وكون جيشاً لملاقاتهم إلا أنهم انسحبوا راجعين لديارهم<sup>(٢)</sup>، لكن المغول عادوا وهاجموا أربل (٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، فدخلوا المدينة وقتلوا الكثير من أهلها<sup>(٣)</sup>، وقد استفتى الخليفة العلماء حول الجهاد في حالة إذا اتفق الجهاد والحج في سنة واحدة فأيهما أهم؟ فأفتوه بالجهاد؛ فتعطل الحج لهذه السنة بسببهم؛ حيث أرسل الخليفة جيشاً إلى أربل على رأسه مجاهد الدين أيبك الدويدار، ثم تبعهم إقبال الشرايبي مع قوة إضافية، ولم يلتقوا مع المغول الذين انسحبوا عند سماعهم قدوم جيش الخليفة<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) وصلت الأخبار إلى بغداد بوصول المغول إلى الحدود، وكان مقصدهم أربل، فأمر حاكمها شمس الدين باتكين بالخروج والاستعداد للحرب، لكن المغول غيروا وجهتهم إلى داقوقا<sup>(٥)</sup>، فأرسل الخليفة القائد إقبال الشرايبي على رأس جيش لقتالهم، إلا أنهم عندما علموا بذلك انسحبوا منها ثم عادوا مرة ثانية في السنة نفسها؛ حيث توجهوا نحو بغداد، وتهايا الجيش لقتالهم، واستجد الخليفة المستنصر بالله بأمرأء الشام، وكاتبهم، فوصلت له بعض الإمدادات من بعلبك ودمشق، وحصل القتال بين الفريقين، انتصر جيش الخليفة في أول الأمر، لكنه خسر المعركة في ما بعد بسبب خدعة المغول وكما نتمهم<sup>(٦)</sup>.

وكان الخليفة المستنصر بالله قد اتخذ موقفاً جدياً تجاه المغول؛ حيث بنى جيشاً قوياً من أجل التصدي للمغول<sup>(٧)</sup>، إلا أنه يؤخذ على الخليفة المستنصر بالله إهماله الجيش وعدم الاهتمام

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧. الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٣٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٣٢.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٨٤-٨٥. الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٣٧؛ العبر، ج٥، ص ١٣٢-١٣٣. النياضي، مرآة الجنان، ج٤، ص ٨٤. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٧٠.

(٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٦٥.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٩٨. الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٣٧؛ العبر، ج٥، ص ١٣٦.

(٥) داقوقا أو دقوقا: مدينة بين أربل وبغداد، لها ذكر في الأخبار والفتوح، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص ٤٥٩.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٠٩-١١٣. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٤٧٩-٤٨١. المقرئ، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٧٣.

(٧) الفزاز، الحياة السياسية، ص ٩٣-٩٤.

به؛ حيث لم ينفق الأموال اللازمة لتقويته من حيث العدة والعتاد، مما أدى إلى انحلاله وعدم قدرته على الدفاع عن بغداد. غير أن الباحثة لا تتفق مع ما سلف ذكره؛ لأن حالة الضعف جاءت نتيجة تراكمات كانت بدايتها منذ عهد الخليفة الناصر، وقد كان لدى المستعصم بالله القدرة الكافية للتصدي للمغول؛ حيث نلاحظ ذلك من خلال تصديه لهجمات المغول الأولى في بداية عهده<sup>(١)</sup>.

#### ثانياً: موقف المستعصم بالله من المغول

كان الخليفة المستعصم بالله يتحسب للخطر المغولي ويدرك مدى خطورته على الخلافة والعالم الإسلامي، فكان ذلك مدعاة لاتخاذ موقف موحد، وتكوين جبهة إسلامية من خلال دعوته لأمراء الأطراف الأيوبيين، فترددت رسل الخليفة إلى أمراء الشام طالباً مساعدتهم على صدّ المغول؛ حيث إن المستعصم بالله طلب من الملك الناصر داود صاحب الكرك أن يصالح الملك المعز، وأن يتفقا على حرب المغول، فوافق الملك الناصر على ذلك<sup>(٢)</sup>.

كما أن المستعصم بالله بذل جهداً كبيراً في سبيل استنهاض أمراء الإسلام لتوحيد شملهم، وذلك عندما سمع نبأ تقدم هولاء نحو العراق؛ من أجل الوقوف أمام الغزو المغولي<sup>(٣)</sup>.

لم يقف المستعصم بالله مكتوف اليدين أمام أخبار تقدم المغول نحو بغداد، بل كانت رسله تجوب البلاد تستصرخ أمراءها لنبذ الشقاق والفرقة، وتدعوهم إلى الاتحاد استعداداً لمواجهة التحدي المغولي<sup>(٤)</sup>.

وقد أفاد المستعصم بالله من علاقاته الحسنة التي تميز بها مع أكثر مناطق العالم الإسلامي، وأنه كان يحظى بمكانة رفيعة عند الحكام الذين يديرون مناطقهم على نحو مستقل، إلا أنهم كانوا يعترفون به خليفة للمسلمين.

ومما يظهر رفعة مكانته، ما ذكر من أنه في سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، وصل الملك الأفضل موسى بن أسد الدين شيركوه هارباً من أخيه - صاحب حمص - ملتجأً إلى دار

(١) حول علاقة الخلافة مع المغول في عهد المستعصم بالله، انظر الفصل الثاني، ص ١١٧.

(٢) عبدالمنعم رشاد، احتلال المغول لبغداد، أدب الرافدين، جامعة الموصل، ص ٧-٨.

(٣) البيهقي، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٨٣-٨٤.

(٤) السامرائي، عبدالجبار محمود، حصار المغول للعاصمة بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، المورد، مج ٢٦،

ع ٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ١٩.

الخلافة<sup>(١)</sup>. وأيضاً في سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، وصل الأمير يعقوب بن شيركوه بن شاهنشاه بن شيركوه - صاحب حمص - بأهله وأولاده إلى دار الخلافة، فتلقي بالإكرام والقبول؛ حيث خلع عليه في دار الوزارة وبقي مدة في ضيافة الخليفة، وحين عودته إلى بلاده أعطاه الخليفة فرساً عربياً بعدة كاملة وطوقاً ذهبياً، وأنعم عليه بألفي دينار<sup>(٢)</sup>، وأيضاً في جملة العلاقات الحسنة أن وصلت رسل المستعصم بالله في سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) بالخلع والتقليد للملك الصالح نجم الدين أيوب<sup>(٣)</sup>، كما أن المستعصم بالله كان يُحسب له حساب، وكان لرأيه وزن بين الأمراء والحكام، ونستدل على ذلك بأنه حينما أرسل المستعصم بالله في سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) نجم الدين البادراني من أجل الصلح بين الملك الصالح والحليين، وأن تستقر حمص للحليين، فأجاب الصالح إلى ذلك<sup>(٤)</sup>، والأمر نفسه تكرر في سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) عندما أرسل المستعصم بالله نجم الدين البادراني للتدخل من أجل وقف القتال بين الشاميين والمصريين، فأصلح الجيشين، وكانت الحرب قد نشبت واشتدت الحرب بينهما<sup>(٥)</sup>، وبقي الأمر إلى أن تدخل نجم الدين البادراني مرة ثانية عندما تكرر القتال بين الطرفين في سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)<sup>(٦)</sup>.

كما أن المستعصم بالله كان مسموع الكلمة لدى حكام مناطق العالم الإسلامي، فقد أفرج عن الناصر داود بشفاعة الخليفة المستعصم بالله لدى الناصر يوسف صاحب حلب سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)<sup>(٧)</sup>.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على علو شأن الخليفة المستعصم بالله ودوره المميز في حل المشكلات الكبرى في المناطق الإسلامية، وبدل كذلك على راحة عقله؛ إذ استطاع حقن دماء المسلمين وإيقاف النزاع بينهما بإرساله نجم الدين البادراني للنظر في الأمر، والأهم من ذلك اعترافهم به خليفة للمسلمين.

وكذلك نجد الملك الناصر داود يلبي نداء المستعصم بالله، فعندما طلب منه أن يسير على رأس عساكر الشام والعساكر المصرية لمساندته في قتال المغول، وكان المستعصم بالله قد بعث

(١) الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٢٩.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٤٢-٥٤٣.

(٣) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤. الدواداري، كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٥٦.

(٤) أبي الفداء، المختصر، جـ٣، ص ٢١٥-٢١٦. ابن الوردي، تنمة المختصر، جـ٢، ص ٢٦٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ١٨٤.

(٥) أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، جـ٣، ص ٢٢٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ١٨٤. ابن الوردي، تنمة المختصر، جـ٢، ص ٢٦٠. الغساني، العسجد المسبوك، جـ٢، ص ٥٨٥.

(٦) أبي الفداء، المختصر، جـ٣، ص ٢٢٩.

(٧) بييرس المنصوري، ركن الدين بييرس الخطائي (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك، مركز توثيق الجامعة الأردنية، شريط رقم ٢٠، ق ٤٦ب.

إليه بمبلغ من المال من أجل تجهيز الجيوش، لكن الناصر داود أمر بإخراج مائتي ألف دينار من بيت المال، ورفض أن ينفق شيئاً من المال الذي بعثه المستعصم بالله (١).

إذن نستنتج أن الخليفة المستعصم بالله قد بذل كل ما في وسعه من أجل تلافي خطر المغول وصددهم عن بغداد، ولا نجد أبلغ من قول ابن الكازروني (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٩م) عندما قال في خضم حديثه عن المستعصم بالله والمغول: " تلقى المغول بعزم شديد، ورأي سديد " (٢)، فهذا الخبر ينفي عن الخليفة المستعصم بالله ما نسب إليه من قبل بعض المؤرخين كالغفلة والإهمال وسوء الإدارة، والتخاذل عن مقاومة المغول (٣)، غير أن الدراسة تكشف من خلال استعراضها للروايات الأنفة، أن المستعصم بالله كان متنبهاً ومتيقظاً لخطر المغول، وهذه حال عامة الناس آنذاك، وفي هذا السياق كتب بعض العوام إلى الخليفة المستعصم بالله رقاعاً جاء فيها:

(بحر المجتث)

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ مَهْلًا	أَتَاكَ مَا لَا تَحِبُّ
هَا قَدْ دَهَنَكَ فُنُونٌ	مِنْ الْمُصَابِ غُرْبٌ
فَانْهَضْ بَعْزِمٍ وَإِلَّا	غَشَاكَ وَيْلٌ وَحَرْبٌ
كَسْرٌ وَهَنْكٌ وَأَسْرٌ	ضَرْبٌ وَنَهْبٌ وَسَلْبٌ (٤)

كما أنه كان بإمكان الخليفة الهروب بسهولة من بغداد إلى أي منطقة كالشام أو مصر أو غيرها، وذلك قبل قدوم المغول إلى بغداد، لكن الخليفة فضل البقاء والدفاع عن بغداد، وهذا ليس بالجديد على المستعصم بالله؛ فمنذ توليه الخلافة تصدى للمغول أكثر من مرة (٥)، وقد حاول إيقاف تقدمهم بدايةً بالطرق السلمية؛ حيث يرد أن المستعصم بالله تبادل الهدايا والتحف والمكاتبات مع أحد أمراء المغول (٦)، وإن صح هذا الخبر - لأنه يرد فقط عند ابن فضل العمري - فإن ذلك يدل على دبلوماسية المستعصم بالله ومحاولته حقن دماء المسلمين وتجنبيهم شر

(١) ابن واصل، التاريخ الصالحى (مخطوط)، ق ٢٣٧، المقرئ، السلوك، ج١، ق ١، ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٨.

(٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٣. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٣٣.

الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩١. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٦.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٤٦.

(٥) حول تصدى المستعصم بالله للمغول، انظر الفصل الثاني، ص ١١٩-١٢٠.

(٦) ابن فضل الله العمري، مسالك الإبرار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبدالقادر خريسات وحسن

النابودة، العين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٤م، ج٣، ص ٧٨-٨٠.

القتال، ولكنه عندما فشل في ذلك لجأ إلى القوة العسكرية محاولاً جمع شمل المسلمين والاستعداد بأمراء الأطراف.

كل ذلك يتنافى مع قول ابن العبري، على لسان المستعصم بالله عندما كان يجيب حينما يذكر له خطر المغول: " إن بغداد تكفيني ولا يستكثرونها عليّ إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليّ، وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي"<sup>(١)</sup>.

كيف ذلك وهو الذي كما قلنا يحرص كل الحرص على شؤون المسلمين في مختلف الأصقاع، وهو الذي عندما شعر بخطر المغول، كانت رسله تجوب البلاد لجمع كلمة المسلمين، لكننا لا ننكر أن الخلافة تعرضت في عهد المستعصم بالله لجملة من الظروف والأوضاع ساعدت في إضعاف الخلافة وتسهيل دخول المغول، فظهرت النكبات الاقتصادية؛ حيث صادف ذلك غزو المغول، ويذكر القزاز بأن النكبات الاقتصادية كأنها سبقت المغول لتمهد لهم الطريق وتسهل لهم الاستيلاء على البلاد<sup>(٢)</sup>، وكذلك كثرة الأوبئة والأمراض<sup>(٣)</sup>، وكثر اللصوص الذين يأخذون أموال الناس<sup>(٤)</sup>، وزاد فساد العيارين فدخلوا بيوت الأمراء، وجرحوا وفتكوا، وأخذوا ما يجدونه على وجه القهر والغلبة<sup>(٥)</sup>، وارتفعت الأسعار حتى بلغ الكرمين<sup>(٦)</sup> الحنطة تسعين ديناراً ومن الشعير ثلاثين ديناراً<sup>(٧)</sup>، وتدهورت العملة فكثرت الدراهم في أيدي الناس، وقيل الذهب حتى تجافى الناس عن أخذها، فأبطل التعامل بالدراهم وتعاملوا بالقراضة السورية<sup>(٨)</sup>، وأزداد تأثير الحاشية، وعودة الجيش إلى التدخل في السياسة<sup>(٩)</sup>. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان للفتن وأعمال الشغب والمنازعات التي بدأت منذ السنة الأولى لتولي المستعصم بالله دوراً في تشييت الخلافة عن مهامها الأساسية.

والمستعصم بالله لا يتحمل وحده مسؤولية ما حدث في بغداد؛ لأن مظاهر الضعف ترجع جذورها إلى زمن بعيد، ولم تستطع فترة الانتعاش التي مرت بها أن تقلل من أثرها، كما أن الخلفاء المتأخرين جميعهم مسؤولون عن الضعف الذي كانت الخلافة قد مرت به من جراء إقامة

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٣.

(٢) القزاز، الحياة السياسية، ص ٣٢١.

(٣) الكتبي، عيون التواريخ، ج ١٢، ص ١٣.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧٤.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٥٤. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٧٨، ٦١٢.

(٦) الكر: هو من المكابيل التي استخدمت في بغداد، والكر يحتوي على ثلاثون كارة، وكل كارة قفيزان، أي

أن الكر ستين قفيزاً، الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢٠-٤٢١.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢١٢. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥١٢، ٥٣٦-٥٣٧.

(٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٢٤.

(٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٤، ٢٩٧. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦١٦-٦١٩.

الخلفاء بينهم وبين الناس سداً من الخدم والحجاب ورجال القصر، الأمر الذي أسفر في النهاية عن تحكمهم في تصرفات الخليفة فأصبح لا يستطيع فعل أمر من غير استشارتهم أو على الأقل إعلامهم، وخير دليل على هذا التحكم كيفية تولي المستعصم بالله الخلافة بعد وفاة المستعصر؛ حيث إن كل ذلك تم بتدبير رجال القصر<sup>(١)</sup>.

كما أن الأمراء المعاصرين لا يمكن أن نغفيمهم من مسؤولية ما حدث في بغداد؛ فقد كانوا يملكون من القوة والسلطان ما يزيد على ما تملكه الخلافة نفسها، ورغم ذلك لم يُقدروا الظروف الجديدة التي أحاطت بالعالم الإسلامي من الغرب والشرق، بل مضوا في انقساماتهم ولم يأخذوا العبرة من الأحداث التي كانت تحل بالبلاد<sup>(٢)</sup>، فمثلاً نجد أن الخوارزميين انشغلوا بالصراع في ما بينهم على السلطة، فلم يتردد بعضهم في أن يببش بأخيه في سبيل الملك<sup>(٣)</sup>، وكذلك فعل الأيوبيون حيث إن العادل لم يستطع أن يرتفع إلى مستوى الأحداث ليجمع الناس على زعامته، إذ سلك في سبيل الاستيلاء على الحكم سبلاً غير شريفه، وقبل وفاته وزع البلاد جميعها بين أبنائه<sup>(٤)</sup>. كما أن الأيوبيين الأواخر بلغ بهم الضعف حداً دفعهم إلى مهادنة المغول والتماس حمايتهم والدخول في طاعتهم؛ حيث لم يتردد بعضهم في المشاركة في عين جالوت تحت راياتهم<sup>(٥)</sup>.

والمسلمون بشكل عام لم يدركوا أن المغول كانوا يستهدفون كياناتهم؛ حيث كان بإمكان المسلمين الوقوف إلى جانب الإسماعيلية ونجدتهم، فقط لأجل إيقاف الغزو المغولي، ومنع وصوله إلى المسلمين؛ حيث إن القلاع الإسماعيلية كانت من القوة والمنعة بحيث تستطيع الصمود طويلاً في وجه المغول لو أن المسلمين أمدوا الإسماعيلية وساعدوهم.

بعد انتصار المغول على الإسماعيلية نجد تهديدهم يصل إلى بغداد ويتردد صدهاء في جميع أنحاء العالم الإسلامي، من غير أن يكون لهذا الصدى أية ردة فعل عملية، وبناء على ذلك تهيأ هولاءكو ومضى لمتابعة المسير باتجاه بغداد.

إن مسؤولية ما حدث في بغداد، هي مسؤولية جماعية سواء أكان من الخلفاء العباسيين أنفسهم، أم من أمراء الأطراف المعاصرين.

(١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٦٦. الإربلي، خلاصة الذهب، ص ٢٩٠. ابن الفوطي، الحوادث

الجامعة، ص ١٥٨. الذهبي، مختصر تاريخ الإسلام، ص ٣٠٢-٣٠٤.

(٢) الفزاز، الحياة السياسية، ص ٣٢٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٤٧٥-٤٧٧.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢١٦.

(٥) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ٤٥. المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٧٩، ٤٣٠.



## ثالثاً : اتهام ابن العلقمي بالخيانة

تدهورت علاقة الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي بالخليفة المستعصم بالله وكبار الأمراء سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، بعد أن نسب إلى مجاهد الدين أبيك الخاص المستصصري المعروف بالدويدار الصغير العزم على الفتك بالوزير ابن العلقمي، والخليفة المستعصم بالله. ونقل هذا العزم إلى الخليفة الوزير ابن العلقمي، وفلك الدين محمد بن علاء السدين الطبرسي المعروف بالدويدار الكبير؛ حيث ساءت العلاقة بين الوزير ابن العلقمي ومجاهد الدين أبيك، فخاف كل طرف على نفسه؛ لذا جمعوا العساكر للحماية، ثم أخبر ابن العلقمي الخليفة بما تخوض به العامة، طالباً القبض على جماعة منهم ليرتدع بهم غيرهم، وتلا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ بِنَبِيِّهِ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(١)</sup>، لكن الخليفة لم يستجب لطلبه مؤكداً أنه لا يأخذ بالظنة ولا يقتل بالتهمة. ثم تردد نجم الدين عبدالغني بن الدرنوس إلى مجاهد الدين أبيك؛ حيث هدأ من روعه وكتب له الخليفة أماناً قرأه في جماعة من الناس بعد أن خلع عليه في دار الوزارة، وجاء في الأمان "بسم الله الرحمن الرحيم قد أمانا مملوكنا الخاص أبيك أمان الله سبحانه وتعالى وأمان رسول الله، وأماننا حاضراً ومستقبلاً في نفسه وأولاده، فليثق بذلك فله به علينا عهد الله وميثاقه" <sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن الحاشية بدأت تتحرك ضد الوزير ابن العلقمي، فبالرغم من أن الخليفة كان يحبه، فإن حاشيته وخواصه كانوا يكرهونه ويحسدونه، لكن نتيجة تأثيرهم كف يده عن أكثر الأمور، وزاد الأمور تعقيداً ما نسب إلى الوزير أنه يكاتب المغول.

لقد اتهم ابن العلقمي بالخيانة؛ حيث انقسم المؤرخون القدامى تجاه موقف الوزير فريقيين كانوا بين مؤيد ومعارض، ولأهمية هذا الموضوع وأثره في تاريخ الخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله، وجدت من الأمانة والموضوعية أن أعرض جميع المصادر التي توصلت إليها وتطرقت للموضوع، فالمصادر السنوية تجمع على أن ابن العلقمي قد كاتب المغول سراً لقلب الخلافة، ومنهم ابن تيمية (ت ٦٦١هـ/١٢٦٣م)<sup>(٣)</sup>، والبيونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٣٥م)<sup>(٤)</sup>، وأبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٧م)<sup>(٥)</sup>، والنويري (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)<sup>(٦)</sup>، والذهبي

(١) سورة الأحزاب، آية (٦٠).

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٩٤-٢٩٧. الغساني، العسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦١٦-٦١٩.

(٣) ابن تيمية، المنتقى، ص ٢٦-٢٧.

(٤) البيونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٢٥٥.

(٥) أبي الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٣٣.

(٦) النويري، نهاية الإرب، ج ٢٧، ص ٣٨٢.

(ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) <sup>(١)</sup>، وابن الوردي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) <sup>(٢)</sup>، والصفدي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) <sup>(٣)</sup>، وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) <sup>(٤)</sup>، واليافعي (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٥م) <sup>(٥)</sup>، والسبكي (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) <sup>(٦)</sup>، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) <sup>(٧)</sup>، والغساني (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) <sup>(٨)</sup>، وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) <sup>(٩)</sup>، والقلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) <sup>(١٠)</sup>، والمقرئزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) <sup>(١١)</sup>، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) <sup>(١٢)</sup>، والسيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) <sup>(١٣)</sup>، والقرماني (ت ٩٣٩هـ / ١٥٣٣م) <sup>(١٤)</sup>، وخواندمير (ت ٩٤٢هـ / ١٥٣٩م) <sup>(١٥)</sup>، والديار بكري (ت ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م) <sup>(١٦)</sup>، وابن العماد الحلبي (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) <sup>(١٧)</sup>، ونظمي زادة (ت ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م) <sup>(١٨)</sup>.

وبالمقابل نجد أن بعض المؤرخين قد نفى عنه هذه التهمة، مثل ابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) الذي أشاد بأخلاق الوزير وإخلاصه للخليفة <sup>(١٩)</sup>؛ لأنه ممن باعوا أنفسهم وقلمهم لملوك الدولة الإيلخانية، وكذلك القمي (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م) صاحب كتاب الكنى والألقاب <sup>(٢٠)</sup>، وهذا طبيعي أن يدافع تعصباً للمذهب الشيعي الذي كان ابن العلقمي من أتباعه.

- (١) الذهبي، العبر، ج٣، ص ٢٧٧.
- (٢) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٨٩.
- (٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٨٤.
- (٤) الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص ٢٥٢.
- (٥) اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص ١١٢.
- (٦) السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٢٦٢.
- (٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٥.
- (٨) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٢٧٩.
- (٩) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٣-٥٣٤.
- (١٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٦. مآثر الأنافة، ج٢، ص ٩٠.
- (١١) المقرئزي، السلوك، ج١، ق ٢، ص ٤٠٠.
- (١٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٤٢-٤٣.
- (١٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٧.
- (١٤) القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق أحمد مطيط، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٨٠.
- (١٥) خواندمير، دستور الوزراء، ص ٢٠٦.
- (١٦) الديار بكري، تاريخ الخميس، ج٢، ص ٣٧٧.
- (١٧) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٢٥٥.
- (١٨) نظمي زادة، كلشن خلفا، ص ١٤٩.
- (١٩) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٧-٣٣٨.
- (٢٠) القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص ٢٨٤-٢٨٦.

واستطيع القول أن هناك فريق ثالث من المؤرخين التزم الصمت اتجاه التهم الموجهة إلى ابن العلقمي، ولم ترد لديهم أية إشارة، ومنهم عطا ملك الجويني (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وهو أحد المصادر الرئيسية في تاريخ المغول، كما كان مرافقاً لهولاكو عند زحفه على بغداد (١)، وكذلك ابن العبري (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) الذي كان أيضاً معاصراً، اتصل بالمغول وعرف أخبارهم (٢)، وأيضاً عبدالرحمن سنبط بن قنيتو الأربلي (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م) الذي كان عراقياً معاصراً للحوادث التاريخية (٣)، والشيء نفسه يقال بالنسبة لابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م) الذي كان معاصراً وكثير الإطلاع (٤).

وبعض المؤرخين يرجع خيانة الوزير ابن العلقمي ومراسلته للمغول؛ وذلك لأن قلبه مغلول وقد دخله الكفر (٥)، وقيل إن قائد المغول هولاكو دخل بغداد في زي تاجر أعجمي ومعه مائة حمل حرير واجتمع بالوزير ابن العلقمي (٦).

كما نجد أن خواص الخليفة وخاصة الدويدار الصغير كانوا يكرهونه ويحسدونه بسبب محبة الخليفة له؛ لذا أشاعوا بين الناس أن الوزير متفق مع هولاكو وأنه يريد نصرته وخذلان الخليفة، فقوي هذا الظن؛ حيث رفع الخليفة يد ابن العلقمي عن أكثر أمور الدولة (٧). ويستدل بعض المؤرخين على علاقة ابن العلقمي مع المغول، بأنه حينما احتل هولاكو بغداد قتل الخليفة المستعصم بالله، وسلم بغداد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه.

أن تنصيب ابن العلقمي شرف الدين من قبل هولاكو، ليس دليلاً كافي على علاقته بالمغول، لأن هدف المغول أن يتولى بغداد من له خبره بشؤونها، وابن العلقمي أكفأ شخص استناداً إلى خبرته الطويلة مع المستعصم بالله، بالإضافة إلى إخلاصه له.

وتذكر بعض المصادر أن الاتصالات بين ابن العلقمي والمغول ترجع إلى وقت مبكر؛ أي في البدايات الأولى من وزارته، حينما قدم إلى بغداد سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) رسولان من

- 
- (١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ٩٦.
  - (٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥-٢٣٧.
  - (٣) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٩٠-٢٩١.
  - (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣٩.
  - (٥) الديار بكري، تاريخ الخميس، ج٢، ص ٣٧٦-٣٧٧.
  - (٦) العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٢١.
  - (٧) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٧-٣٣٨. الهذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج١، ص ٢٧٤.

المغول أحدهما من بركة والآخر من باجو، واجتمعوا بالوزير ابن العلقمي، من غير أن يعرف الناس ما جرى بالاجتماع " وتعمت على الناس بواطن الأمور" (١).

كما تذكر بعض المصادر أنه حصل نوع من الاتفاق مع المغول، بحيث إن ابن العلقمي بدأ في سياسته أكثر ميلاً لهم، فلما ثارت طائفة من الجند سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) لأجل قطع أرزاقهم، كان المتهم بقطع الأرزاق ابن العلقمي، الذي اتهم بالحرص على زوال الدولة ونقلها للعلويين (٢). وكان هؤلاء الجند من خيار الجند أيام المستنصر (٣)، وزاد الأمور تعقيداً أنه في سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) فارق كثير من الجند بغداد؛ وذلك بسبب قطع أرزاقهم؛ حيث لحقوا ببلاد الشام (٤). لكن اتصالات المغول ازدادت سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)؛ إذ إن رسلهم ترددت إلى كبار رجال الدولة ومنهم الوزير ابن العلقمي (٥). وبعد الخلاف بين الدويدار الصغير وابن العلقمي سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) أخذت الأمور تتأجج بين ابن العلقمي والحاشية وكبار الموظفين؛ حيث وقع بينه وبين حاشية الخليفة وخواصه منازعة في ما يتعلق بالأموال، فاستبدوا بالأمر دونه، وقويت المنافسة بينه وبين الدويدار مما أضعف جانبه (٦) كما صار الخاصة والمقربون لدار الخلافة، يعاملونه بما لا يليق بمركزه، لذلك كان يتألم كثيراً (٧) فذكرت له أشعار تعبر عن ألمه:

(بحر الخفيف)

كيف يُرجى الصلاحُ من أمر قوم  
فمطاعُ الكلام غيرُ سديدٍ  
ضيعوا الحزمَ فيه أيّ ضياع  
وسديدُ المقالِ غيرُ مطاع (٨)

- (١) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤٠-٦٥٠هـ)، ص ٢٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٥٦.
- (٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٤٠-٦٥٠هـ)، ص ٦٣؛ دول الإسلام، ج ٢، ص ١٥٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٠.
- (٣) الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٥٦.
- (٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦١.
- (٥) الدواداري، كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٤.
- (٦) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٢٩٠.
- (٧) خواندمير، دستور الوزراء، ص ٢٠٥.
- (٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٢.

كما أخذ الدويدار الصغير المغالي في سنته، وابن الخليفة أبو بكر، في مضايقة الشيعة، والتعدي عليهم<sup>(١)</sup>، وكان لتلك التصرفات الأثر في انحراف ابن العلقمي، بحيث ازدادت اتصالاته بالمغول، ففي سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وصلت جواسيس هولاءكو إلى ابن العلقمي ببغداد، وتحدثوا معه، كما وعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدة مواعيد<sup>(٢)</sup>. ثم دخل هولاءكو سلطان المغول إلى بغداد، في زي تاجر أعجمي، ومعه مائة حمل حرير واجتمع بالوزير ابن العلقمي، وبابن الدرنوس نديم الخليفة وبأكابر الدولة<sup>(٣)</sup>.

وتعقد الأمر بعد أن ثارت الفتنة بين السنة والشيعة، سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م). فأنفذ الخليفة ابنه أبا بكر والدويدار الصغير لتأديب أهل الكرخ، ولم يتمكن الوزير من منعها لما لهما من حضور في الدولة، فأضمر في نفسه الغلّ ولجأ إلى مكاتبة المغول<sup>(٤)</sup>، ظناً منه أنه يستطيع أن يقيم خليفة علويّاً، وأن يكون نائب هولاءكو بالعراق<sup>(٥)</sup>.

وكانت ابن العلقمي نائبه بأربل، وهو تاج الدين محمد بن صلاحيا، وهو أيضاً شيعي، ووضح له ما أصاب الكرخ من قبل ابن الخليفة والدويدار "نهب الكرخ المكرّم"، وأنهما عزموا أيضاً على نهب الحلّة والنيل، موضحاً أنه يجب عدم السكوت عن التصرفات الهوجاء تجاه الشيعة وتشريدتهم، عاقداً العزم على الانتقام<sup>(٦)</sup>.

وكان إجراء ابن العلقمي أن كاتب هولاءكو طالباً الحضور إلى بغداد، لكن هولاءكو أكد له أن عساكر بغداد كثيرة، وإذا كان صادقاً فعليه تفريقها عن بغداد. ولما وصله كتاب هولاءكو دخل على الخليفة وقال له إن الجند كثير، وكلفتهم كبيرة، والصواب تسريح خمسة عشر ألفاً منهم، وتوفير معلومهم. وبعد أن أجاب المستعصم بالله طلبه، خرج ابن العلقمي ومحا اسم من ذكر في الديوان ونفاهم من بغداد، وبعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألف من

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٢٩١. نظمي زادة، كلشن خلفاء، ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٠٠.

(٣) الدواداري، كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٩.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٣٢٤. أبي الفداء، المختصر، ج ٢، ص ٣٠٣-٣٠٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٣٤؛ العبر، ج ٣، ص ٢٨٤. اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١١٢. ابن كثير، البداية، ج ١٣، ص ٢١٤. ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٧٢.

(٥) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٧٠.

(٦) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٢٩١-٢٩٢. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٨٢-٢٨٣. السبكي، طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٦٤-٦٦.

الديوان<sup>(١)</sup>، ولتنظيم الميزانية وتقليل المصروفات قطع أيضاً من مخصصات العليق لدواب الجنود الباقين ما يزيد على الخمسة والثلاثين ألفاً<sup>(٢)</sup>.

كما أفتق الخليفة بأن يعين قادة الجيش والمحاربين الشجعان كل في طرف من أطراف الخلافة، فوافق الخليفة. ولذلك قام ابن العلقمي بتفريق جنود بغداد في أطراف البلاد والولايات وأبعدهم عن عاصمة الخلافة<sup>(٣)</sup>. في الوقت ذاته كان اهتمام رجال الدولة بالاقطاعات والمكاسب، وأهملوا النظر في المصالح، كما أشد ظلم العمال واشتغلوا بتحصيل الأموال، ولذلك قال عبدالقادر بن الغرضي الذي كان يعمل كاتباً بديوان العرض، واصفاً رجال الدولة وانحرافهم:

(بحر البسيط)

يا سائلي ولمحض الخير يرتادُ  
أصخِ فعندي نشدانٌ وإنشادُ  
واسمعْ تجذلي رواياتٍ تحققها  
ذا رايةً وأحاديتٍ وإسنادُ  
فهمٌ ذكيٌّ وقلبٌ حاذقٌ يقظُ  
وخاطرٌ لنفوذِ النقدِ نقادُ  
عن فتيةٍ فنكوا في الدين وانتهكوا  
حماءَ جهلاً برأيٍ فيه إفسادُ  
أما الوزيرُ فمشغولٌ بعنبره  
والعارضانِ فنسأخَ ومُذادُ  
وحاجبُ البابِ طوراً شاربٌ تملُّ  
وتارةً هوَ جنكيٌّ وعوادُ  
ومشرفُ الدستِ مغرَى باللواطِ له  
في كلِّ زاويةٍ علقٌ وعوادُ  
يا ضيعةَ الملكِ والدينِ الحنيفِ وما  
تلقاهُ منَ حادثاتِ الدهرِ بغدادُ<sup>(٤)</sup>

وكانت مخططات ابن العلقمي إبادة السنة، وإظهار البدعة والرافضة وإقامة خليفة علوي<sup>(٥)</sup>.

غير أن الذي يظهر للباحثة، من خلال استقراء ما تقدّم والنظر فيه، أن المستعصم بالله لم يكن منقاداً لابن العلقمي إلى هذه الدرجة؛ فالمستعصم بالله كان قد رفض وشاية ابن العلقمي بالدويدار الصغير، كما أسلفنا، ولما كان هذا الأمر يتعلق بشخص واحد فما بالك إذا تعلق بمصير أمة، وبذا فإنني أجد هذه المصادر تتحامل وتبالغ في الأمر.

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس، جـ ٢، ص ٣٧٦-٣٧٧. مجهول، تاريخ الخلفاء والسلطين (مخطوط)، ٣٥ ب.

(٢) نظمي زادة، كلشن خلفا، ص ١٢٨.

(٣) خواندمير، دستور الورزاء، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٤) الغساني، المسجد المسبوك، جـ ٢، ص ٦٢٤-٦٢٥.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٢١٥.

ولمّا أخذ المغول في التجهز لقصد العراق، كاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، في أن يسير إليهم ما يطلبونه من آلات الحرب، فكتب بدر الدين لؤلؤ سراً إلى الخليفة يحذره من المغول، لكن ابن العلقمي لم يوصل رسله إلى الخليفة<sup>(١)</sup>، وفي رواية ابن الطقطقي أن ابن العلقمي كان يعرف الخليفة حقيقة الحال بالتحذير والتنبيه، لكن خواص الخليفة كانوا يوهمونهم أن هذا الأمر ليس فيه خطر كبير، أما الوزير فكان يعظم هذا لتبرز إليه الأموال، وليجنّد العساكر فيقتطع منها لنفسه<sup>(٢)</sup>.

وفي أثناء محاصرة هولاء قلاع الإسماعيلية، سیر رسولاً إلى الخليفة يطلب النجدة، لكن الأمراء حول الخليفة عدّوا طلب هولاء احتيلاً وخديعة، وفي أثناء مشاوره ابن العلقمي أشار عليه إرضاء هولاء ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه، وقد أخذ الخليفة في تجهيز ما يسيره إلى هولاء من الجوهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، لكن الدويدار الصغير وأصحابه اعتبروا أن الوزير أراد بذلك تدبير شأن نفسه مع المغول<sup>(٣)</sup>.

وعند اقتراب هولاء، حاول الخليفة أخذ الاحتياطات الكافية، لكن الوزير رفض وقال إن كل سلاطين الدنيا وخواتينها خدم لمركز الخلافة، وهم على استعداد للمجيء، بأي إشارة، كما أن الشام وبغداد وحدهما قادران على ردّ الاعتداء، وقد اقتنع الخليفة بكلامه، ولم يستدع أمراء الجيش، بل أشغلهم بأمور أخرى<sup>(٤)</sup>.

حاصر هولاء بغداد، وعقد الخليفة مجلساً لرجال دولته، وكان أول من تكلم ابن العلقمي الذي أشار أن عساكر المغول لا نهاية لها، وأن الخلافة عاجزة عن مقاومتهم، وأنه لا مجال للدفاع؛ لأن الأعداء يتقدمون يوماً بعد يوم، وصبر الأهالي قد نفذ، ولم تعد لهم طاقة على تحمل الحرب، وأن معالجة الحال هي الأخذ بالقول المأثور: اتركوا الترك ما تركوكم، وأن الواجب على الخليفة القيام بعمل ينهي القتال، والذهاب بنفسه إلى مقابلة هولاء ومعه الهدايا الثمينة والأموال؛ لأن غاية هولاء الحصول على المال، ثم السعي إلى إقناعه بأن يزوج ولي عهده بابنة هولاء اخترخان، وبهذه المصاهرة يرتفع العدا، ويشترك الاثنان في الملك، ويتعاضم

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث السنة (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٣٤-٣٠. ابن الوردي، تنمة المختصر،

ج ٢، ص ٢٨٢. اليونيني، ذيل مرآة، ج ١، ص ٨٦-٨٧.

(٢) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٥.

(٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦. ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٥٣٤.

(٤) نظمي زادة، كلشن خلفاء، ص ١٢٩.

أحياء الخلافة بمعاهدة هولكو فوافقها الخليفة<sup>(١)</sup>. وأشار الخليفة على ابن العلقمي أن يخرج إلى هولكو في تقرير الصلح ولخطبة ابنته وعقد نكاحها على ولي عهده توثيقاً لأواصر الصداقة. وعند خروج ابن العلقمي في جماعة من مماليكه وأتباعه، كانوا يهونون الناس عن الرمي بالنشاب، ويقولون سوف يقع الصلح<sup>(٢)</sup>. خرج ابن العلقمي وتوثق لنفسه، وعاد إلى الخليفة مؤكداً أن هولكو رغب في تزويج ابنته لولي العهد وأن تكون له الطاعة كالمملوك السلجوقية. فخرج الخليفة في جمع من أكابر أصحابه إلى هولكو وأنزل في خيمة، ثم أخذ ابن العلقمي يستدعي الفقهاء والأعيان، حتى اجتمع عند هولكو جميع سادات بغداد، فلما تكاملوا قتلهم عن آخرهم<sup>(٣)</sup>.

وبعد أن دخل المغول بغداد قاتلوا السنة والشيعة على حد سواء<sup>(٤)</sup> فسفكت دماؤهم وسببت حريمهم وأولادهم<sup>(٥)</sup>. وقد عاتب بعضهم ابن العلقمي بالقول: أنت فعلت هذا حمية للشيعة، وقد قتل من الأشراف الفاطميين ما لا يحصى، فقال بعد أن قتل الدويدار ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك<sup>(٦)</sup>، كما أن الباحثة لم تجد أية إشارة في المصادر إلى أن المغول قتلوا السنة فقط، بل كان القتل للسنة والشيعة معاً.

وتختلف الروايات حول مصيره؛ فبعضهم يذكر أنه لما مثل بين يدي هولكو سببه على عدم إخلاصه ووفاءه لسيدته، فأمر بقتله فقتل<sup>(٧)</sup> وقيل أنه حسن له هولكو أن يقيم ببغداد خليفة علوياً فلم يستجب له، وبقي مع المغول على صورة بعض الغلمان<sup>(٨)</sup>، وقيل بقي منبوذاً

- (١) نظمي زادة، كلشن خلفاء، ص ١٤٦-١٤٧. الديميري، كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، حياة الحيوان الكبرى، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٣٧م، ج١، ص ١٤٤.
- (٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٣٩. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٣.
- (٣) أبي الفداء، المختصر، ج٢، ص ٢٣٣. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٣٧؛ دول الإسلام، ج٢، ص ١٦٠. السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٢٧٠. ابن كثير، البداية، ج١٣، ص ٢١٤. ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٣٣-٥٣٤. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٤٧-٤٨. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٤٧١-٤٧٢. نظمي زادة، كلشن خلفاء، ص ١٢٨.
- (٤) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٦١. الغساني، المسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٤١. الديار بكري، تاريخ الخميس، ج٢، ص ٣٧٧.
- (٥) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٨٣-٢٨٤.
- (٦) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٨٤-١٨٥. الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص ٢٥٣.
- (٧) النويري، نهاية الأرب، ج٢٧، ص ٣٨٣.
- (٨) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٤٠.



مطروداً<sup>(١)</sup> وموضع سخرية من قبل المغول والأهلين؛ حيث كان يتلقى الإهانات صباحاً ومساءً، فقدم على ما فرط وتوفي. وبعد وفاته كتب أهل بغداد على الجدران وأبواب المدارس والأربطة بأقلام مختلفة، لعن الله من لا يلعن ابن العلقمي<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية أخرى إن هولاء ولاء الوزارة، وكان في أثناء ذلك مهزلة، فذكر أنه كان جالساً يوماً بالديوان، فدخل عليه بعض المغول ممن ليس له وجاهة ركباً فرسه، فسار إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبة بما أراد، حتى بال فرسه على البساط وأصاب الرشاش ثياب ابن العلقمي وهو صابر لهذا الهوان<sup>(٣)</sup>. ثم قلد ابنه الوزارة بعده، فكان على قاعدة الوزراء يلبس فاخر الثياب وعلى فرسه كنبوش حرير، وفي عنقه شدة<sup>(٤)</sup>.

إذا استعرضنا ما قاله المؤرخين سابقاً نجد أن المؤرخين أنفسهم الذين اتهموا ابن العلقمي بالخيانة، يقولون أن ابن العلقمي كان موضع سخرية ومهزلة من قبل المغول، كيف ذلك وهو متولي الوزارة في عهدهم، ثم تولى الوزارة من بعده ابنه، فلو لم يتقوا به ويقدره لما وضعوا ابنه مكانه.

وأخيراً نرى أنه إذا كان الاتهام يرتبط بعدد المؤيدين أو المعارضين له، فإن تهمة الخيانة العظمى تثبت على ابن العلقمي. لكثرة عدد المؤرخين الذين أيدها وأشاروا إليها. وكما ذكرنا فإن المصادر رمت ابن العلقمي بتهمة الاتصال بالمغول واستدعائهم للقضاء على الخلافة، وتمهيد الطريق لهم بتسريح الجيوش، وكنم أنبائهم عن الخليفة والتقليل من شأنهم. وسبب ذلك أن ابن العلقمي كان شيعي المذهب، وكان راغباً في نقل الخلافة إلى العلويين، فضلاً عن حقه الشخصى على الخليفة الذي لم يحفظ حرمة في صراعه مع الدويدار الصغير، الذي كلف جنود الخلافة بالاعتداء على الشيعة في الكرخ.

وتتفق الباحثة مع الرأي الذي ذهب إليه القزاز<sup>(٥)</sup>، بأن تحقيق هذا الاتهام أو نفيه لا يرتبط بعدد المؤيدين أو المعارضين، إنما يتم بدراسة طبيعة الأوضاع السياسية التي كانت سائدة آنذاك، ودور الانقسامات المذهبية والخصومات الشخصية التي كانت تؤثر كثيراً في صنع الحقائق أو الأكاذيب، كما لا يجب أن نغفل أن شدة النكبة التي مني بها المسلمون من سقوط الخلافة وما رافقها من مذابح وفضائح، جعلت الناس يصيرون لعنهم على المغول ومن تعاون

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ج٢، ص ٦٤١. نظمي زادي، كلشن خلفا، ص ١٥٠.

(٢) نظمي زاده، كلشن خلفا، ص ١٥١. خواندمير، دستور الوزراء، ص ٢١٠.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٨٤-١٨٥. الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص ٢٥٣.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٣٢٦.

(٥) القزاز، الحياة السياسية، ص ٣١٦-٣١٧، فوزي، تاريخ العراق، ص ٣٦٥-٣٦٧. خصباك، العراق في

عهد المغول، ص ٢٦.

معهم من المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة بعد مجزرة بغداد، ومن هؤلاء ابن العلقمي. على أنه لا يتم تبرئة ابن العلقمي من جريمة التقصير، سيما وأنه كان وزيراً منذ أكثر من أربع عشرة سنة، وكان عليه أن يتدبر الأمر ويستعمل الحزم أمام الخطر المغولي، ويتخذ الاستعدادات اللازمة لمواجهته.

والقزاز يبرئ ابن العلقمي من تهمة الخيانة، ويرجعها إلى ظروف الصراع السياسي والطائفي لأن المغول لم يكونوا بحاجة إلى أن يستدعيهم ابن العلقمي؛ إذ كانوا في زحف عام وفق خطة للسيطرة على العالم<sup>(١)</sup>. كما أن جعفر خصباك قد رفض هذه التهمة رفضاً قاطعاً معتمداً على عدة أمور أبرزها: أن غزو المغول للعراق كان أمراً تتضمنه طبيعة الغزو المغولي الذي كان يستهدف السيطرة على العالم<sup>(٢)</sup>.

كما أننا إذا استعرضنا آراء المؤرخين حول ابن العلقمي نجدهم بدايةً قد مدحوه وأثنوا عليه ووصفوه بصفات عظيمة، ثم بعد ذلك يصفوه بالخائن، المخادع، الذي ضلل المستعصم بالله بعد أن جعله يثق به، فهل تغير ابن العلقمي لدرجة أنه انقلب على الخليفة مرةً واحدة، ثم أصبح مصدر تهديد للخلافة والخليفة؟

كما أن الوزير لم يكن له نفوذ على الخليفة كنفوذ القادة العسكريين<sup>(٣)</sup>، بالإضافة إلى أن احتلال المغول بغداد كان جزءاً من مشروع سياسي يستهدف الاتساع في رقعة الامبراطورية المغولية، أضف إلى ذلك أن قتل المغول أهل بغداد شمل السنين والشيعية معاً<sup>(٤)</sup>. إذن كان لذوي الرأي ورجال حاشية الخليفة من الوزراء وأمراء الجيش وكبار موظفي الدولة الذين يستعين بهم الخليفة أثر كبير في ما آلت إليه الخلافة العباسية من الضعف والانحلال.

فإذا استعرضنا الروايات بخصوص الموضوع السابق نجد أن قدوم المغول وسقوط بغداد لم يكن بسبب بسيط يتمثل في اتصال ابن العلقمي بالمغول، بل كان نتيجة عوامل وظروف تتصل في الأغلب بأوضاع الخلافة والظروف التي تمرّ بها والتحديات التي كانت تواجهها، وبخاصة أن رجال الدولة وأمراء الجيش كانوا جميعاً يتحملون مسؤولية الكارثة لاختلاف آرائهم وصراعاتهم الشخصية وعجز الخليفة عن السيطرة عليها.

(١) القزاز، الحياة السياسية، ص ٣١٧-٣١٨.

(٢) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ٢٦-٢٧.

(٣) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ٣٥.

(٤) حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج٤، ص ١٦١.

## رابعاً: سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

كان هدف هولاكو الأول هو القضاء على طائفة الإسماعيلية، وقد تحقق له ذلك وسيطر على عدد كبير من قلاعهم، وخاصة قلعة الموت<sup>(١)</sup>؛ حيث كانت مركزهم الرئيس، وبعدها اتجه هولاكو إلى هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية في بغداد، وكان المغول قد جاؤوا في عهد المستعصم بالله إلى العراق عدة مرات؛ حيث حدثت مناوشات بين المغول وجيش الخلافة، لكنهم لم يوفقوا في الاستيلاء على بغداد حتى سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وعندما أراد هولاكو مهاجمة الإسماعيلية<sup>(٢)</sup> سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) أرسل بعد أن استقر بمعسكره في كيش<sup>(٣)</sup> إلى الخليفة يطلب إليه أن يمدّه بجيش ليعاونه في القضاء على تلك الطائفة<sup>(٤)</sup>، فلما شاور الخليفة أتباعه حذروه من أن يقدم على هذا العمل، وأدخلوا في روعه أن هولاكو يريد بهذه الوسيلة أن تخلو بغداد من الجيش حتى يتيسر له الاستيلاء عليها لأن هولاكو ليس بحاجة إلى نجدة المسلمين<sup>(٥)</sup>، وقد تبادل هولاكو الرسائل مع ملك الإسماعيلية ركن الدين خورشاه<sup>(٦)</sup>، وهدده وشدد على ضرورة الاستسلام في الوقت الذي كان يرسل إليه قوات تحاصر قلاعه، وتخرّبها وتستولي عليها الواحدة بعد الأخرى، ويعود الفضل إلى عطا ملك الجويني في إنقاذ الكثير من كتب قلعة الموت بما فيها المصاحف وآلات التجيم والرصد والعديد من المصادر التاريخية<sup>(٧)</sup>. إلى أن اضطر ملك الإسماعيلية ركن الدين خورشاه إلى النزول والتسليم إلى هولاكو فسي ذي القعدة سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)<sup>(٨)</sup>.

- (١) قلعة الموت، يبعد عن مدينة قزوین أكثر من ستة فراسخ، كما أنه بعد مركز تجمع الإسماعيلية، إقبال، تاريخ المغول، ص ١٩١.
- (٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦. الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٣٩ - ٢٤٠. القزاز، الحياة السياسية، ص ٢٤٤.
- (٣) كيش: مدينة بقرب سمرقند حصينة، القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٤.
- (٤) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٣٩-٢٤٠.
- (٥) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦. الهمذاني، جامع التواريخ، مج ١، ج ١، ص ٢٣٩ - ٢٤٠. الرفيعي، العراق، ص ١٠٩.
- (٦) خورشاه: خلف أبيه علاء الدين محمد (ت ٦٥٣هـ/١٢٥٥م) على الحكم بعد أن تأمر على قتله مع أحد الحجاب، وبذا أصبح زعيماً لكل ملاحدة إيران والشام، إقبال، تاريخ المغول، ص ١٩٣.
- (٧) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ص ٣٠٢-٣٥٠. الأمين، الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، ط ٢، دار النهار للنشر، ١٩٨٣م، ص ١١٨. إقبال، تاريخ المغول، ص ١٩٥-١٩٦. العبيدي، إخلاص محمد، عطا ملك الجويني ودوره السياسي والثقافي (٦٠٣-٦٨١هـ/١٢٢١-١٢٨٢م)، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، ٢٠٠٤م، ص ١١.
- (٨) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٥٢-٢٥٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٤٣٥.

وَسُطِيعَ الْقَوْلِ إِنَّ الْمَغُولَ بِقِيَادَةِ هَوْلَاكُو تَبَادَلُوا جَمَلَةً مِنَ الْمُرَاسِلَاتِ مَعَ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمُسْتَعَصِمِ بِاللَّهِ فِي بَغْدَادِ<sup>(١)</sup>؛ حَيْثُ كَانَتْ مَتَقَطَعَةً فِي الْبَدَايَةِ ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ انْتَضَمَتْ أُخِيرًا.

ويقول القزاز " وبالرغم من أننا لا زلنا نجهل ما دار في المرحلة الأولى منها، فإنني أعتقد أنها لم تكن تخرج عن محاولة الخلافة التأثير في المغول وإرهابهم بقوى الخلافة المختلفة؛ الروحية والمادية لكي يمتنعوا عن مهاجمة حدودها ويكتفوا بما ملكوه من بلاد المسلمين، وكان المغول يقصدون من وراء إرسال رسلهم في هذه الفترات المتباعدة معرفة استعدادات الخلافة وحقيقة قوتها"<sup>(٢)</sup>.

بعدها، وفي سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) أرسل هولاكو إلى الخليفة يتهدده ويتوعده ويلومه على عدم إرساله المدد لقتال الإسماعيلية، ويذكره بما حل بالأمة الأخرى على يد الجيوش المغولية منذ أيام جنكيز خان، ويمضي في رسالته قائلاً: "إن الخليفة إذا أطاع فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلة هولاكو، وإلا فليرسل كلاً من الوزير وسليمان شاه ليبلغوه الرسائل، فإذا استجاب فسوف تبقى له دولته وجيشه ورعيته، وإلا فليستعد للحرب"<sup>(٣)</sup>.

وقد بلغ رسل المغول رسالتهم وعادوا إلى بلادهم، وفي أثناء خروجهم من بغداد وجدوا طريقهم مليئاً بالرعاك الذين آذوهم واعتدوا عليهم وبصقوا في وجوههم، فعندما علم الوزير بذلك أرسل بعض الغلمان لإبعادهم عنهم وتسهيل خروجهم، بينما أرسل الخليفة شرف الدين بن الجوزي ومعه بدر الدين محمود زنكي النخجواني يحملون رسالة تتضمن رفض أوامر هولاكو بعبارات شديدة وتظاهر بالاستعداد للحرب، فصرف هولاكو رسل الخليفة وبعث يعيد إليه تهديداته ويقول له إنه متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد<sup>(٤)</sup>، وقد عرض الوزير الرسالة الجديدة على الخليفة فاستشاره في ما يفعل فأشار عليه ببذل المال وإرسال هدايا كبيرة مناسبة لهولاكو وخواصة في صحبة رسل كفاة، وتقديم الاعتذار وجعل الخطبة والسكة له، فرضي الخليفة بهذا الرأي، ولكن الدويدار الصغير بعث إلى الخليفة رسالة بالاتفاق مع أمراء بغداد الآخرين يقول فيها إن الوزير إنما يدبر الحيل مع المغول لمصلحته الخاصة ليسلم البلاد إليهم<sup>(٥)</sup>.

(١) حول الرسائل المتبادلة بين الخليفة المستعصم بالله وهولاكو، انظر الملاحق، ص ٢٩٩.

(٢) القزاز، الحياة السياسية، ص ٣٢٧.

(٣) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٤) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٥) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٦٠-٢٧٠.

لذلك عدل الخليفة عن إرسال الهدايا الكثيرة واقتصر على النزر اليسير منها، ثم الالتفات

إلى تجهيز الجيش لمواجهة المغول؛ حيث طلب الخليفة من وزيره ابن العلقمي استعراض الجند وتجهيزهم<sup>(١)</sup>. فغضب هولاء وقال إنه لا بد من مجيء الخليفة نفسه أو تيسير أحد ثلاثة نفرهم الوزير أو الدويدار أو سليمان شاه بن برجم، ولكن الخليفة سير غيرهم مثل ابن الجوزي وابن محيي الدين فلم يجدوا نفعاً. وقد اشتد الاضطراب في الدولة العباسية وأخذ عظماء بغداد وأمراؤها يجتمعون عند الوزير، مثل سليمان شاه بن برجم وفتح الدين بن كرم ومجاهد الدين الدويدار الصغير، وأخذوا يطلقون ألسنتهم في الخليفة، ودعا أحدهم، وهو سليمان شاه بن برجم، إلى الاستعداد العسكري؛ حيث بلغ الوزير رأي هؤلاء إلى الخليفة فأعجب به وطلب تعبئة الجند حتى يقوم هو بتقديم المال اللازم، ففعل الوزير ذلك ولبى طلب الخليفة، فدعا بالمال اعتذر عن تقديمه فياس الوزير واستسلم للقضاء والقدر، ثم إن الخليفة أرسل هدية صغيرة إلى هولاء مع تحذير من خطر المس بأسرة العباسيين<sup>(٢)</sup>؛ حيث كان هدف الخليفة إظهار قوة الخلافة الإسلامية ليخيف هولاء بها ويثنيه عن عزمه في مهاجمة بغداد، وأظهر نفسه بمظهر القوة والعظمة وكثرة من هم على استعداد لنصرتة والدفاع عن الخلافة الإسلامية، وهؤلاء رهن إشارته وعبيد بلاطه.

وتشير بعض المصادر أيضاً إلى أن الخليفة المستعصم بالله كان قد ألقى زمام الأمور إلى الأمراء والقواد، واعتمد على وزيره مؤيد الدين بن العلقمي وهو الذي كاتب قائد المغول هولاء، يشير عليه باحتلال بغداد، ويعدده بالإعانة على الخليفة<sup>(٣)</sup>، وكان ابن العلقمي في الوقت نفسه قد بين للخليفة المستعصم بالله أن هولاء رغب في أن يزوج ابنته من ابن الخليفة مقابل أن يبقى في منصب الخلافة، كما فعل بسلطان الروم من قبل، فإن هذا فيه حقن للدماء، ثم استدعى

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦٩-٢٧٠. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٨٧.

الهمداني، جامع التواريخ، مج٢، ج١، ص ٢٧١، ٢٧٢.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦. الهمداني، جامع التواريخ، مج٢، ج١، ص ٢٧١ -

٢٧٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٨٧، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٧١. الأمين،

الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، ص ١٢٦-١٢٧.

(٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ج٢، ص ٢٧٢-٢٧٤، ٢٨٤. الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص ٣٦.

الهمداني، جامع التواريخ، مج٢، ج١، ص ٢٩٣-٢٩٥. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص ٢٨٣.

الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٧، ص ٣٤٣. الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص ١٤٣. ابن كثير،

البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٨٨. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٧٣-١٧٤. انسيوطي، تاريخ

الخلفاء، ص ٤٧١. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٣. المكي، سمط النجوم العوالي،

ج٣، ص ٥١٨-٥١٩.

الوزير الفقهاء والسادة والعلماء، والمدرسين ليحضروا العقد، فعندما تكاملوا قسائمهم هولاءكو جميعاً<sup>(١)</sup>.

ثم إن هولاءكو أمر القائدين جرماغون وبايجونويان الذين كانت قواعدهم في بلاد السروم بالحركة إلى الموصل عن طريق أربيل، وعبور جسر الموصل والزحف على الجانب الغربي من بغداد<sup>(٢)</sup> في الوقت الذي سار فيه من همدان عن طريق كرمناشة وحلوان متجهاً نحو العراق ومخترباً الجبال المغطاة بالثلوج الفاصلة بين العراقيين العجمي والعربي، وكان يرافقه عدد من الأمراء، مثل: نصير الدين الطوسي وعلاء الدين عطا ملك الجويني، وعندما بلغ أسد آباد<sup>(٣)</sup> أوفد رسولاً يدعو الخليفة إلى المثل بين يديه، بينما وصل ابن الجوزي إلى دينور قادمًا من بغداد ملتمساً عودة هولاءكو مقابل تسليم الخليفة له المال الذي يقرره<sup>(٤)</sup>. فرد هولاءكو مستهزأً " وكيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذه الطريق، سوف نعود بإذنه بعد الحضور للقائه والتحدث معه"<sup>(٥)</sup>. ونزلت القوات المغولية كرمناشاه واشتغلت بالقتل والنهب، ولقيت كشافة المغول أحد أمراء الخليفة المسمى أبيك الحلبي وحملته إلى هولاءكو فأمنه إن تكلم الصحيح، فصار دليلاً لعسكره، وكتب إلى بعض أصحابه يخبرهم بكثرة الجيش المغولي وقوته وشدة بأسه، وبعث هولاءكو رسولاً من جديد يطلب فيه حضور الوزير وسليمان شاه بن برجم والدويدار الصغير ليسمعوا ما يقول، ويضيف إلى ذلك أن الخليفة إذا أطاع فليخرج وإلا فليأهب للقتال<sup>(٦)</sup>.

- (١) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص١١١؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٤٣٦؛ العبر، ج٣، ص٢٧٨. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص٢٨٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٨. المقرئ، السلوك، ج١، ق١، ص٤١٠. مآثر الأنفاة، ج٢، ص٩١. العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٧٣-١٧٤. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٧١. المكي، سمط النجوم العوالي، ج٣، ص٥١٨-٥١٩. شبر، خلفاء بني العباس أسقطوا بغداد، ص٦١٢.
- (٢) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص٣١١. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج٢، ص١٩١. العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٨٣-٢٨٤.
- (٣) أسد آباد: مدينة بينها وبين همدان مرحلة واحدة نحو العراق، نسب إليها جماعة كبيرة من أهل العلم والحديث، الحموي، معجم البلدان، مج١، ص٣١٧.
- (٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٥-٢٣٦. الهمذاني، جامع التواريخ، م٢، ح١، ص٢٧١-٢٧٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٧. العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٧١. الأمين، الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، ص١٢٦-١٢٧.
- (٥) الهمذاني، جامع التواريخ، مج٢، ح١، ص٢٧١-٢٧٦. الأمين، الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، ص١٣٢-١٣٣.
- (٦) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١.

وفي التاسع من ذي الحجة سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) عسكر هولوكو على ساطى نهر

حلوان، وفي التاسع من المحرم سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وصل بايجو نويان وبوقا تيمور وسونجاق إلى نواحي نهر عيسى<sup>(١)</sup>.

أما في بغداد فقد أمر الخليفة قائده مجاهد الدين الدويدار الصغير بالخروج بجيش بغداد مع فتح الدين بن كرك لمواجهة هولوكو على طريق حلوان، فخرج هذا ونزل بالقرب من بعقوبا، فلما بلغه اقتراب الجيش المغولي من الجانب الثاني من المدينة عبر النهر إليها، وأمر الخليفة مرشداً الخصي بالخروج بباقي العسكر للقاء هولوكو، فامتنع الأمراء عن المسير تحت لوائه، أما أهل السواد فقد أجمعوا أمام الجيوش المغولية ودخلوا بغداد بنسائهم وأولادهم<sup>(٢)</sup>.

وفي المحرم سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) اشتبكت قوات الخليفة مع القوات المغولية بالقرب من الأنبار<sup>(٣)</sup>، فتراجعت القوات المغولية خديعة تتبعها قوات الخليفة بقيادة الدويدار الصغير، واستمرت كذلك بالرغم من نصيحة القائد فتح الدين بن كرك بضرورة ثباتها في مكانها، حتى أدركها الليل وقد تجاوزت نهر بشير الذي كان فرعاً من فروع نهر دجيل، وأرسل المغول في جنح الظلام من فتح سدود النهر المذكور وراء جيش الخليفة، وعند الصباح حملت القوات المغولية على قوات الخليفة حملة شديدة وكسرتها فتراجعت ووجدت الأرض قد غطيت بالماء والوحل فغرقت خيولهم وأموالهم<sup>(٤)</sup>، وهلك أكثر أفراد الجيش البغدادي إلا من ألقى بنفسه في الماء ومن دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام والحلة والكوفة، وأفلح قائد جيش الخليفة الدويدار الصغير بالإفلات والعودة إلى بغداد مع ثلثة من جنوده وهم على أقبح صورة تتبعهم الجنود المغولية يقتلونهم ويغنمون ما كان معهم، حتى نزلوا في الجانب الغربي من المدينة وكان خالياً من أهله إلا القليل، فقتلوهم وشرعوا يرمون النشاب إلى الجانب الشرقي من المدينة حتى صارت سهامهم تصل الدور الشطانية<sup>(٥)</sup>. أما هولوكو فإنه ترك خانقين وزحف بالجيش المغولي الرئيس نحو بغداد، فنزل الجانب الشرقي منها في أواسط محرم سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وأحاط

(١) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ح ١، ص ٢٨٤-٢٨٥. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٦٣٠.

(٢) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٦٦. الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٨٥.

ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٠١. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٦٨-١٦٩. إقبال، تاريخ المغول، ص ٢٠١.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦-٣٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣،

ص ٢٠٠. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج ١، ص ٢٢٣.

(٥) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦-٣٣٧. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة

(٦٥٠-٦٦٠هـ)، ص ٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٠٠.

بها من كل جهة، وكان في عدد يقدر بمائتي ألف محارب<sup>(١)</sup>، يتفوق بالنظام والعدة والمعنوية والقيادة، وقد أغلقت أسوار بغداد وصعد الناس أعالي السطوح والمناير لرؤية وثار الغبار من جهة بعقوبا، حيث لاحت من تحته عساكر المغول التي طبقت وجه الأرض، وأمر هولاء بحفر خندق وبناء سور من ترابه يطوق المدينة نصبت عليه المناجيق وآلات الحصار والنفط، وأهل بغداد يرقبون ذلك من أسوارهم وقد نصبوا عليها مناجيقهم، إلا أنها لم تصح ولم تنفع لنقص استعداداتهم وعدم تهيئهم للقتال وترميمهم الأسوار<sup>(٢)</sup>، وأقيمت الاستحكامات اللازمة للحصار حتى إنهم أقاموا جسراً على دجلة جنوبي بغداد بالقرب من قرية العقاب لكي يمنعوا الهاربين منها بطريق النهر، كما استخدموا أشجار النخيل للرمي بالمناجيق بدلاً من الأحجار، وكانت قليلة حول بغداد، وكان على المغول أن يأتوا بها من جبل حمرين وجلولا<sup>(٣)</sup>.

وقد بدأت الحرب في أواخر المحرم من سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وكان هولاء يتخذ قاعدته مقابل برج العجمي الواقع في الطرف الأيسر من أسوار المدينة<sup>(٤)</sup>؛ حيث ركزت المناجيق عليه لضعفه وقصره، وبوساطة السهام أقيمت على المدينة منشورات تعلن أن العلماء والسادة والمشايخ وكل من لا يقاتل آمن على نفسه وحرمة إذا وضع السلاح<sup>(٥)</sup>. ولما اشتدت الحرب حاول الدويدار الصغير الهرب عن طريق النهر، ولكنه عندما اجتاز قرية العقاب إلى الجنوب من بغداد ألقى عليه جنود المغول حجارة المناجيق ورموه بالسهم والنفط فأهلكوا من في سفنه واضطروه على العودة إلى المدينة<sup>(٦)</sup>. وفي أواخر المحرم نجح المغول في الاستيلاء على برج العجمي وأخذوا ينتشرون منه إلى بقية الأسوار يطهرونها من المسلمين<sup>(٧)</sup>.

وخلال الحصار جرت مفاوضات بين الخليفة وهولاء بعد أن اتضح التفوق المغولي وأخذ اليأس يدب في نفوس أهل بغداد وحكامهم، فأرسل الوزير والجاثليق كي يقولوا: "إن الملك قد أمر بأن أبعث إليه بالوزير، وها أنا ذا قد لببت طلبه، فينبغي أن يكون الملك عند كلمته"<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦-٣٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠٠.

(٢) ابن الكارزوني، مختصر التاريخ، ص ٢٧١-٢٧٢. ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٣) ابن العبري، مختصر التاريخ، ص ٤٧٣. الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٨٦-٢٨٨. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٥-٣٢٦. إقبال، تاريخ المغول، ص ٢٠١. العربي، المغول، ص ٢١٨.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦. الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٨٦.

(٥) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٨٨-٢٩١.

(٦) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦.

(٧) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦.

(٨) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٨٦-٢٨٧.



لكن ذلك لم ينفذ شيئاً، حيث رد هولاء قائلين: إن هذا الشرط طلبته وأنا على باب همدان، أما الآن فنحن على باب بغداد، وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة، فكيف أفتع بواحد؟ ينبغي أن ترسل هؤلاء الثلاثة، يعني الدويدار وسليمان شاه والوزير" (١)، فأرسل الخليفة الثلاثة السابقين، لكن هولاء أعادهم، وفي التاسع والعشرين من المحرم خرج الابن الثاني للخليفة أبو الفضل عبدالرحمن يصحبه ابن الجوزي صاحب الديوان وعدد من الأعيان ومعهم أموال كثيرة فلم تقبل منهم. وفي آخر المحرم خرج الابن الأكبر للخليفة أبو بكر ومعهم الوزير وجماعة من المقرّبين فلم يحققوا نفعاً (٢)، وأرسل عامة بغداد شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني ليأخذ لهم الأمان، وفي غرة صفر خرج سليمان شاه (٣)، والدويدار الصغير فأعيدوا إلى المدينة ليخرجوا أتباعهما، وقد خرج معهم عدد كبير من جند بغداد، ولكن المغول قسموهم ألوفاً ومئات وعشرات وقتلوهم، وفي الثاني من صفر قتل الدويدار وجيء بسليمان شاه وقتل مع أتباعه كافة وقتل الأمير تاج الدين بن الدويدار الكبير وأرسلت رؤوس الثلاثة على يد الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل، وكان بدر الدين صديقاً لسليمان شاه فبكى، ولكنه علق رؤوسهم على أعواد المشانق خوفاً على حياته من هولاء (٤).

ولما رأى الخليفة أن لا بدّ من الخروج استأذن هولاء بالحضور بين يديه فأذن له بذلك، فخرج ومعهم أولاده وأهله، فصدر الأمر بأن تقام لهم الخيام ببوابة كلواذي (٥) في معسكر كتبوغا نويان، وعهد بحراستهم إلى عدد من المغول، ثم دخل هولاء بغداد ليشاهد دار الخليفة، فشاهد الغرفة التي كانت معدة لجلوس الخليفة عندما كان يريد القراءة، فأمر بإحضار الخليفة المستعصم بالله مع نفر من الأعيان والعلماء، وقدم جملة كبيرة من الجواهر والدرر والحلي وأواني الفضة والثياب النفيسة وغيرها، فخاطبه هولاء خطاباً شديداً وعنفه على عدم استخدامه كنوزه في تهيئة جيش يمنع عنه عدوه (٦). فأجابه الخليفة أن كل ذلك كان بتقدير الله، فرد عليه هولاء بأن ما سيجري عليك سيكون بتقديره، كما أن هولاء أمر الخليفة بإخراج الدفائن، فاعترف بوجود

(١) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٨٧.

(٢) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٨٦.

(٣) سليمان شاه: كان يعمل منجماً في دار الخلافة. الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٠.

(٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ١٨٧. إقبال، تاريخ المغول، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٥) كلواذي: هو طسوج قرب مدينة السلام بغداد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٧٦.

(٦) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ١٨٧. العريني، المغول، ص ٢١٩. إقبال، تاريخ المغول، ص ٢٠١-٢٠٢.

حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ظهر أنه مليء بسبائك تزن الواحدة مائة مثقال (١)، ثم إن هولاء أمر بأن تفرز جميع النساء اللواتي باشرهن الخليفة وأبناؤه فعزلن عن غيرهن فكن سبعمائة امرأة أخرجن ومعهن ألف وثلاثمائة وصيف وخدامة (٢)، وبذلك قضى على الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد كما قضى على أولاده باستثناء ابنه الأصغر أبو المناقب المبارك، أما بناته فيذكر بأنهن أسرن ولكن لم يعرف عنهن شيء في ما بعد (٣).

وقد وضع المغول السيف في أهل بغداد في الخامس من صفر سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) مدة أربعين يوماً (٤)، فقتلوا خلالها خلقاً كثيراً (٥). كما أن المغول قتلوا الرجال والنساء ولم يرحموا شيخاً كبيراً، ولا طفلاً صغيراً (٦)، ما عدا النصارى فإنه قد عيّن لهم من يحرس بيوتهم، والتجأ إليهم خلق كثير من المسلمين، فسلموا عندهم (٧)، وأيضاً نجا من الموت من كان صغيراً؛ حيث أخذ أسيراً (٨)، وكذلك نجا التجار الذين تعاونوا مع المغول، ولمنانة علاقتهم بهم، نجد المغول قد رعو لهم خدماتهم، فعند اجتياحهم بغداد، جعلوا بيوت هؤلاء التجار أمناً لمن لاذ بها،

- (١) الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٢. الأمين، الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، ص ١٣٨-١٣٩.
- (٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٧٢. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٦.
- (٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٦. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٥.
- (٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ج ٢، ص ٢٧٢-٢٧٤، ٢٨٤. الدواداري، كنز الدرر، ج ٨، ص ٣٦. الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١١١؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٤٣٦؛ العبر، ج ٣، ص ٢٧٨. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٨٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٨٨. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧١.
- (٥) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ج ٢، ص ٢٧٢-٢٧٤، ٢٨٤. الدواداري، كنز الدرر، ج ٨، ص ٣٦. الهمذاني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٣-٢٩٥. الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١١١؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٤٣٦؛ العبر، ج ٣، ص ٢٧٨. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٨٣-٢٨٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٧، ص ٣٤٣. الكنتي، عيون التواريخ، ج ٢٠، ص ١٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٨٨. ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٥٣٣-٥٣٤. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤١٠. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧١. ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٠٣. المكي، سمط النجوم العوالي، ج ٣، ص ٥١٨-٥١٩. مدني، تاريخ الدولة العباسية سياسياً وحضارياً، ص ٤١٩-٤٢٠.
- (٦) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٣٨٠-٣٨٢. الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٧٥. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٠.
- (٧) الغساني، المسجد المسبوك، ج ٢، ص ٥٧٥. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٤-١٧٥.
- (٨) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٨٤. المقرئ، مآثر الأنافة، ج ٢، ص ٩٢. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٤.

ومن أشهر هؤلاء التجار، عز الدين بن صفي الدين بن الخرداذي، الذي كان من عظماء التجار العراقيين، وكذلك عندما سقطت بغداد حصل بعض تجار بغداد الذين كانوا يسافرون إلى خرسان وغيرها على فرامين حماية<sup>(١)</sup>، وكذلك آمن من لجأ إلى دار الوزير ابن العلقمي<sup>(٢)</sup> ودار صاحب الديوان ابن الدامغاني، ودار صاحب الباب ابن الدوامي وقد سلم فيها خلق كثير، وألقيت النار في معظم البلد، وقام المغول بإحراق المباني والعمارات كأضرحة الخلفاء وضريح الإمام موسى الكاظم، والمساجد، كجامع الخليفة، وكذلك خربوا قبور الخلفاء والجسور، وكانت القتلى في الأسواق والدروب كالتلوث وقعت عليهم الأمطار وداستهم الخيول فتغيرت صورهم<sup>(٣)</sup>.  
أما من بقي حياً في بغداد فقد هربوا إلى الأنفاق ومواقد الحمامات<sup>(٤)</sup> أو اختبئوا في الآبار والقنوات<sup>(٥)</sup>.

وقد اختلفت الروايات في كيفية قتل الخليفة المستعصم بالله<sup>(٦)</sup>، كما اختلف المؤرخون أيضاً في عدد من قتل في واقعة بغداد، فقيل بأنهم زادوا على ثمانمائة ألف نفس<sup>(٧)</sup> عدا من ألقى في الوحول من الأطفال ومن هلك في القنى والآبار وسراييب الموتى جوعاً وخوفاً<sup>(٨)</sup>، كما قيل بأنهم كانوا ألف ألف وثمانمائة ألف وزيادة<sup>(٩)</sup>، وقيل بلغوا ألف ألف شخص<sup>(١٠)</sup>، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف شخص<sup>(١١)</sup>، كما أن أحد الكتاب المحدثين يقدر عدد القتلى بأنه تقريباً بلغ تسعين ألفاً<sup>(١٢)</sup>. ولكن المبالغة واضحة في هذه الأرقام، فإن أسوار بغداد كانت تضم الرقعة الواقعة بين

- (١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩. بدري، تاريخ العراق، ص ٣٦٠.
- (٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٧٢. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٠٩-٤١٠. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٤.
- (٣) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٢-٢٩٣. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٩٤، ١٢٧. ابن حبيب الحلبي، درة الأسلاك (مخطوط)، ص ١٢٥-٢٥٠. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٠٩-٤١٠. العيني، المغول، ص ٢٢٠.
- (٤) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٨٩.
- (٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٠. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٤. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٢. المكي، سمط النجوم العوالي، ج ١٣، ص ٥١٩.
- (٦) حول قتل الخليفة المستعصم بالله انظر الفصل الأول، ص ٦٩.
- (٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٤. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٤.
- (٨) ابن الطقطقي، الفخري في الأحكام السلطانية، ص ٣٣٦. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٤.
- (٩) الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٢١. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٤.
- (١٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٨٨-١٨٩. المكي، سمط النجوم العوالي، ج ٣، ص ٥١٩.
- (١١) العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٤.
- (١٢) Grousset, Rene L'Empire des Steppes, paris, 1948, P.299.

باب المعظم الحالية والباب الشرقي من جهة، وتمتد بعيداً عن النهر حتى مبنى متدفب الأسلحة الحالي، وهي مساحة صغيرة نسبياً لا يمكن أن تضم ملايين من السكان، خصوصاً وأنها كانت تشتمل على الكثير من قصور الخليفة ودور السكنى والعبادة وغيرها، ومن المؤكد أن كثيراً من أهل المدينة سلموا من القتل، يدلّ على هذا عودة الازدهار والنشاط إلى المدينة بعد فترة قصيرة<sup>(١)</sup>.

كما أن بغداد لم تكن في أواخر الدولة العباسية مدينة مزدحمة بالسكان وأن الخراب كان يدب فيها وفي العراق منذ مدة طويلة قبل الاحتلال المغولي، أما السكان الذين لجأوا إليها فمن المستبعد أنهم ظلوا فيها كلهم بعد أن أحسوا باقتراب الجنود المغولية منها، وقد مرّ بنا أن هولاء وضع مستحفظين لمنع الهاربين من المدينة، حيث أمر هولاء بعد إعلان الأمان بتعمير بغداد ودفن أجساد الموتى من البشر والحيوان التي كانت مطروحة في الطرقات والأسواق<sup>(٢)</sup>، كأنها الثلول، وعندما سقطت عليهم المطر تغيرت صورهم وأنتنت البلاد من جيفهم، فأفسدت الهواء وكثر الذباب الذي ملأ الفضاء وأخذ يسقط على المطعومات فيفسدها فمات خلق كثير من تغرّ الجوّ وفساد الريح<sup>(٣)</sup>، وصار الناس يكثرّون من شمّ البصل اتقاء الرائحة النتنة<sup>(٤)</sup>.

فبذلك خربت مدينة السلام، ومعقل الإسلام بغداد، فلو كان شاهد الأسود ابن يعفر موجوداً لبكى على أهل بغداد لا على إباد:

(بحر الكامل)

تركوأ منازلهم بغير معاد	ماذا أوْمَلُ بعدَ آلِ المصطفى
والكسرخ والأنبار والأجماد	أهل الرصافة والعراق وواسط
من قاطنٍ أو رائحٍ أو غادي	ملكوا البلادَ ومنَ عليها عُنوة
فكأنهم كانوا على ميعاد	جرت الرياحُ على ممرِّ ديارهم
يوماً يصيرُ إلى بلى ونفاد <sup>(٥)</sup>	ورأى النعيمَ وكلَّ ما يُلهى به

(١) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٥. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٥.

(٢) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٥. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٥.

(٣) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٣٠٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٠٣. العيني،

عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٦.

(٤) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٣٠٠. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٦.

(٥) ابن عذبية، إنسان العيون، ص ٣٠٨.

وقبل رحيل هولوكو عن بغداد أعطي الأمان لمن بقي من سكانها؛ حيث خرج من تحت الأرض ومن كان بالمطامير والفنى والمقابر وكأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً، فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، فأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى<sup>(١)</sup>.

وبعدها رحل هولوكو عن المدينة بعد أن فوّض أمرها إلى جماعة لإعادة تنظيمها وترك فيها القائدين (كوكالكا) و (قره بوغا) مع ثلاثة آلاف محارب، واتجه إلى همدان وأمر أن تُبنى عمارة عالية محكمة على ساحل بحيرة أورمية لخزن الكنوز التي غنمها في فتوحاته الأخيرة<sup>(٢)</sup>.

فخضعت بقية المدن والمناطق العراقية من غير مقاومة عدا واسط وأربيل، ولكن الموصل ثارت في وقت لاحق، فقد كان أهل الحلة والكوفة قد نزحوا بأولادهم وأموالهم خلال حصار بغداد إلى البطائح، وحضر أكابرهم إلى هولوكو وسألوه حقن دمائهم، فأجابهم إلى ذلك وعين لهم شحنة فعادوا إلى بلادهم وأرسلوا إلى من في البطائح من الناس يعرفونهم بذلك فخرجوا وحملوا إلى هولوكو مبلغاً عظيماً من المال فتصدق عليهم بنفوسهم. ثم إن القائد بوفاتييمور سار لامتحان ولانهم وولاء أهل الكوفة بعد سقوط بغداد، فاستقبله أهل الحلة استقبالاً حسناً، وعندما توثق منهم غادرهم في العاشر من صفر من السنة نفسها نحو واسط؛ حيث وصلها في السابع عشر من الشهر المذكور، فقاومه أهلها وحاربوه ولكنه انتصر عليهم وقتل منهم حوالي الأربعين ألفاً<sup>(٣)</sup> ثم غادرهم نحو البصرة فأعلنت المدينة خضوعها مع منطقتها، وكذلك فعلت تَستَر<sup>(٤)</sup> ومنطقتها خوزستان. أما الموصل، فإن أميرها بدر الدين لؤلؤ كان قد دخل في طاعة المغول وأمد هولوكو بالسلاح، ولكنه ظل يرسل الخليفة المستعصم بالله سراً ويحذره منه، وبعد واقعة بغداد حضر عند هولوكو فأحسن استقباله لكبر سنه وضعفه وأقره على إمارة الموصل، ولكنه حينما عاد إليها مرض أياماً ومات، فتولى الحكم بعده ولده الملك الصالح إسماعيل، الذي أعلن الثورة على المغول سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)<sup>(٥)</sup>.

وهكذا أخضعت غالبية المناطق التي تكوّن عراق اليوم، وقُتل عدد كبير من سكانها وخُرِبَت أجزاء منها، وقتل المغول أغلب أفراد العائلة العباسية الموجودين في بغداد بعد أن كانوا

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٣.

(٢) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٤٧. الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٦.

(٤) تستر: مدينة مشهورة قسبة الأهواز، الماء يدور حولها، وهي كثيرة الخيرات، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٣٠.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٤٧.

فَدُ أُخْرِجُوهُم مِّن حَبْسِهِمْ فِي دَارِ الشُّجْرَةِ وَدَارِ الصُّخْرِ وَحَمَلُوهُمْ إِلَى مَقْبَرَةِ الْحَلَالِ وَقَضَوْا عَلَيْهِمْ جَمِيعاً<sup>(١)</sup>. وَقَدْ يَكُونُ مَقْصَدُهُمْ مِنْ هَذَا التَّصَرُّفِ كَمَا قَالَ الْقَزَازِ<sup>(٢)</sup> أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِّنْ بَنِي الْعَبَّاسِ حَيًّا فَيَسْعَى إِلَى الْخِلَافَةِ ثَانِيَةً، وَيَخْلُقُ لِحُكْمِهِمْ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَشْكَالَاتِ مِنْ جِرَاءِ تَعَلُّقِ النَّاسِ بِخِلَافَتِهِمْ، أَوْ قَدْ يَكُونُ الْقَصْدُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِّنَ الْعَبَّاسِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ الْمَوَالِينِ لِلْخِلَافَةِ يَسْعَى إِلَى لِنْتِقَامِ مِنَ الْمَغُولِ وَالْأَخْذِ بِالثَّأْرِ، فَأَرَادُوا بِهَذَا التَّصَرُّفِ أَنْ يَقْضُوا عَلَى الْعَبَّاسِيِّينَ وَعَلَى غَيْرِهِمْ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَطَاعَ الْقَلِيلُ مِنْهُمْ الْفِرَارَ وَالنَّجَاةَ، وَكَانَ أَحَدُ هَوْلَاءِ أَبِي الْقَاسِمِ أَحْمَدَ بْنَ الظَّاهِرِ بِأَمْرِ اللَّهِ، الَّذِي هَرَبَ إِلَى الشَّامِ وَمِنْهَا إِلَى مِصْرَ، حَيْثُ بَايَعَهُ الْمَمَالِكُ فِيمَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ فِي مِصْرَ؛ أَي سَنَةَ (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، وَصَارَ الْمُسْتَعْصِمُ بِاللَّهِ الثَّامِنَ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ<sup>(٣)</sup>.

وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنْ كَثِيرًا مِنَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لَمْ تَعْتَرِفْ أَسْلاً بِخِلَافَةِ الْقَاهِرَةِ، وَظَلَّتْ عَلَى وِلَايَتِهَا لِخِلَافَةِ بَغْدَادِ حَتَّى بَعْدَ زَوَالِهَا وَقَتْلِ آخِرِ خُلَفَائِهَا الْمُسْتَعْصِمِ بِاللَّهِ، فَالْهِنْدُ سِتْلاً ظَلَّتْ تَدْعُو لِلْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَقْتُولِ الْمُسْتَعْصِمِ بِاللَّهِ، وَتَنْقُشُ اسْمَهُ عَلَى السِّكَّةِ مَدَّةَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ، كَمَا لَوْ كَانَ حَيًّا يَرْزُقُ، مِثْلَ سُلْطَانِ دَوْلَةِ الْمَمَالِكِ فِي دِلْهِي بِالْهِنْدِ، غِيَاثُ الدِّينِ بَلْبَانَ، الَّذِي ظَلَّ يَنْقُشُ اسْمَ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَعْصِمِ بِاللَّهِ عَلَى نَقُودِهِ وَيَذْكَرُ اسْمَهُ فِي الْخُطْبَةِ عَلَى الْمَنَابِرِ طَوَالَ عَهْدِهِ (٦٦٦-٦٨٨هـ/١٢٦٥-١٢٨٧م)<sup>(٤)</sup>.

وَلَقَدْ عَمِلَ الشُّعْرَاءُ قِصَائِدَ فِي مَرَاثِي بَغْدَادِ وَأَهْلِهَا، وَتَمَثَّلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِ أَبِي الْفَتْحِ سَيْبِ بْنِ التَّعَاوِيذِيِّ<sup>(٥)</sup>:

(بِحَرِّ الْكَامِلِ)

بَادَتْ وَأَهْلُهَا مَعاً فَبِيوتُهُمْ      بَبَقَاءِ مَوْلَانَا الْوَزِيرِ خِرَابُ

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) القزاز، الحياة السياسية، ص ٣٣٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٧٧. اليافعي، مرآة الزمان، ج٤، ص ١١٥. خصباك، العراق في عهد المغول، ص ٥٩.

(٤) Arnold, Thomas, the caliphate, p.87.

(٥) هو أبو الفتح محمد بن عبدالله بن عبدالله، وعُرف باسم التعاويذي نسبة إلى جده الذي كان يعمل في كتابة التعاويذ. المكي، سمط النجوم العوالي، ج٣، ص ٥٢٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٤٦٦. الذهبي، مختصر تاريخ الإسلام، ج١، ص ٦٢. هامش ٢.

وقال شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي الواعظ:

(بحر الكامل)

يا عصابة الإسلام نوحى وانذبي  
حزنا على ما تمّ للمستعصم  
دست الوزارة كان قبل زمانه  
لابن الفرات فصار لابن العلقمي (١)

وقال أيضاً نقي الدين أبو الفتح السبكي الشافعي، ألقى القضاة:

(بحر الطويل)

إذا رمت تعداد الخلائف غدهم  
كما قلته تدعى اللبيب المحصلاً  
عتيق وفاروق وعثمان بعده  
عليّ الرضا من بعده حسن تلا  
معاوية ثم ابنه وحفيده  
معاوية وابن الزبير أخو العلاء  
ومروان يتلوه ابنه ووليد  
سليمان وافى بعده عمر تلا  
يزيد هشام والوليد يزيدهم  
سناهم وإبراهيم مروان قذعلا  
بسفاح المنصور مهدي ابتي  
وأعقب بالأمون معتصم غدا  
ومنتصر والمستعين وبعده  
ومعتمد يقفوه معتضد وعن  
ويا لقاهر الراضي تعوض متق  
وطائعهم لله بالله قادر  
ومسترشد والراشد المقتفي به  
وظاهرهم مستنصر قد تكلموا  
ومستنصر وحاكم وابنهم ولم  
فدونكها مني بديها نظمتها  
فإن آت تقصيراً فكن متطوّلاً (١)

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٩٨. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٢. ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٠٤. المكي، سمط النجوم العوالي، ج ٣، ص ٥٢٠. ورد عند ابن كثير يا فرقة الإسلام، وأيضاً ورد عند ابن كثير وابن الفوطي أسفاً بدل حزناً.

ولتقي الدين بن أبي اليسر قصيدة مشهورة في بغداد، وهي:

(بحر البسيط)

لسائلِ الدمعِ عن بغدادَ أَخْبَارُ      فما وَقُوفَكَ والأَخْبَابُ قَدْ ساروا  
يا زائرِين إلى الزوراءِ لا تَقْدُوا      فما بِذاكِ الحمى والدارِ ديارُ  
تاجِ الخِلافةِ والرَبْعِ الذي شَرَفَتْ      بهِ المعالمُ قَدْ عَفَاهُ إقْفارُ  
أضحى لِعَصْفِ البلى في رَبْعِهِ أَثْرُ      وللدموعِ على الأثارِ آثارُ  
يا نارُ قلبي من نارِ الحربِ وَغَى      شبتُ عليه ووافى الرَّبْعِ إعصارُ  
عَلَا الصليبُ على أَعْلَى منابرها      وقامَ بالأمرِ مَنْ يَحْوِيهِ زُنارُ  
وكم حريمِ سِنْتِهِ التُّرْكُ غاصبَةٌ      وكانَ من دونِ ذلكِ السُّترِ أَسْتارُ  
وكم بدورِ على البدريةِ انخسفت      ولمْ يَعدْ لبدورِ منه إيدارُ  
وكم نخائرَ أضحتْ وهي شائِعَةٌ      من النهابِ وقد حازتْهُ كُفَّارُ  
وكم حدودِ أُقيمتْ من سيوفِهِمْ      على الرقابِ وَحَطَّتْ فيه أوزارُ  
ناديتُ والسَّبْيُ مهتوكٌ تجرُّ بهم      إلى السَّقَّاحِ مِنَ الأعداءِ دُعَارُ (٢)

وإلى جانب شعراء العرب نجد أن شعراء الفرس قد تأثروا بهذه الحادثة، فهذا الشاعر الفارسي الكبير سعد الشيرازي ينظم قصيدة بالعربية، وفيها:

(بحر الطويل)

حبستُ بجفني المدامعَ لا تجري      فلما طغى الماءُ استطالَ عليَّ السُّكْرُ  
نسيمُ صَبَاً بغدادَ بعدَ خرابِها      تمنيتُ لو كانتْ تمرُّ على قبري (٣)

(١) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٩٠م، ج٤، ص ٥٢٦. السبكي، طبقات الشافعية، ج٩، ص ١٨٢. ابن عذبية، إنسان العيون، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٣. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٠٤.

(٣) الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٢٨٦.



لم يتعرض الإسلام لأوقات عصيبة مثل التي تعرض لها زمن الغزو المغولي؛ إذ دمرت الجيوش المغولية مدن المسلمين، وأنت على كثير من الناس قتلاً أو أسراً أو تعذيباً، وقوضت معالم المدينة بكل مكان في غير شفقته أو رحمة، ومن سوء الحظ أن القوى الإسلامية لم تتضافر جهودها من أجل مواجهة مثل ذلك الغزو العنيف، وكان هذا التضافر يجب أن يكون في وقت مبكر.

إذن لم يكن سقوط بغداد بيد هولاكو سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) حدثاً مفاجئاً بل جزءاً من حركة واسعة لغزو العالم الإسلامي بدأها جنكيز خان في سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م)، واستمرت بعد سقوط بغداد باستيلائه على بلاد الشام واستعداده للاستيلاء على مصر في سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م). وقد كانت جميع الغزوات المغولية لهذه المنطقة بعد القضاء على الدولة الخوارزمية في سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) تصدر من إيران وتشمل منطقة واسعة تمتد من آسيا الصغرى إلى الجزيرة والعراق، وتتسم غالبيتها ما عدا الحملة على آسيا الصغرى، بطابع السرعة والعمل على إشاعة البلبلة والفوضى والرعب في نفوس السكان من أجل النهب والسلب، وكانت منذ بدايتها في سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م) ترتبط ارتباطاً شديداً بتقلبات الحكم في بلاد المغول نفسها، فقد أدت عودة جنكيز خان إلى منغوليا سنة (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) وموته في سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) إلى هدوء الأحوال في المنطقة، ولكن تصيب ابنه أوكيتاي خلفاً له أدى إلى إرسال جيش جديد للقضاء على بقية الدولة الخوارزمية وإطلاق الكتائب المغولية تنتشر الرعب والخراب في البلاد المجاورة<sup>(١)</sup>.

#### خامساً: نتائج الغزو المغولي على الخلافة العباسية

عندما سقطت الخلافة العباسية في بغداد، تأجج الحزن العميق والجزع الشديد في جميع أنحاء البلاد الإسلامية على تلك الخلافة التي استمرت قائمة أكثر من خمسة قرون، فكان ذلك الحدث من أكبر الوقائع التي حدثت في التاريخ؛ لأنه لم يكن حدثاً عادياً يمكن أن يمر بسهولة، بل كان لهذا الحدث أسوأ الأثر في نفوس المسلمين جميعاً، فاهتزت مشاعرهم وتحركت سواكنهم لهذا الحدث الأليم؛ حيث عُدَّت هذه الحادثة لطمة قاسية وبلاء شديداً سلَّط على رؤوس المسلمين، فانتَهكت حرمة المسلمين على يد المغول.

إذن كان من الطبيعي أن يؤدي غزو المغول لبغداد إلى نتائج مهمة وكثيرة، منها ما يتعلق بالناحية الدينية إذ أن المغول عندما تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية في بغداد

(١) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ٧-٨.

تُكُونُوا مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى الْوَحْدَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ حَوْلَ الْخِلَافَةِ<sup>(١)</sup> وَتُرْبِطُهُمْ بِهَا،  
بعد أن كانت الخلافة الإسلامية في نظر المسلمين رمزاً للوحدة الدينية.

وحينما سقطت بغداد وقُتِلَ الخليفة المستعصم بالله، قضى على النفوذ الديني، وزال ما  
كان لمدينة بغداد - العاصمة - من مكانه دينية، وخاصة أن نظرة المسلمين إلى الخليفة كانت  
نظرة إجلال واحترام، وعلى هذا كان نفوذه الديني بعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعاً .  
وكذلك تأثر المسلمون نفسياً لسقوط الخلافة الإسلامية وخلو بلاد الإسلام من خليفة يكون  
له المقام الروحي المتميز، فشعر المسلمون بالحاجة الشديدة إلى هذا المنصب، الأمر الذي جعل  
السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري حاكم مصر، يسعى إلى إحياء الخلافة الإسلامية  
باستدعائه أبا القاسم أحمد<sup>(٢)</sup>، الذي لقب بالمستعصر، وهو أحد أحفاد الخليفة العباسي الناصر  
لدين الله، وكان قد نجا من مذبحه المغول في بغداد، وقد بويغ في القاهرة بالخلافة يوم ١٣  
رجب سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) بعد أن مكث المسلمين من غير خليفة مدة ثلاث سنوات<sup>(٣)</sup>،  
فأصبحت الخلافة العباسية في القاهرة مسلوقة النفوذ والسلطان، وظلت منصب دينياً محضاً؛  
حيث تركزت السلطة الفعلية لإدارة شؤون البلاد في أيدي سلاطين المماليك، في حين كان  
الخليفة أشبه بالمسجون في قصر السلطان وتحيط به الجواري<sup>(٤)</sup>، وليس له - تقريباً - أي دور  
سوى إعطاء تقليد السلطنة للسلطان الجديد، وذلك من أجل إكسابه الصفة الشرعية أمام الأمراء  
المنافسين والرعية<sup>(٥)</sup>.

وعندما اجتاحت المغول بغداد تعمدوا تخريب المباني والعمارات وتدميرها، خاصة  
المساجد وأضرحة الخلفاء، وضريح الإمام موسى الكاظم<sup>(٦)</sup>.

وأما من الناحية السياسية فإن بغداد قد أصبحت بسقوطها في أيدي المغول مجرد مدينة  
تابعة لإمبراطورية المغول، وانتقل مركزها الروحي والسياسي والفكري إلى القاهرة التي  
تصدّرت العالم الإسلامي<sup>(٧)</sup>، وأضحت بحكم وضعها الجغرافي أقرب من بغداد إلى أوروبا، مما  
ساعد على اقتراب العالم الغربي من الحضارة الشرقية<sup>(٨)</sup>، وبذلك فقدت بغداد أهميتها السياسية

(١) الصياد، المغول في التاريخ، ج١، ص ٢٨٢ .

(٢) المقرئزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٤٤٨-٤٥١ .

(٣) المقرئزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٤٤٨-٤٥١ . مدني، تاريخ الدولة العباسية، ص ٤١٩-٤٢٠ .

(٤) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٢٥ . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٦٤ .

(٥) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ١٢٥ .

(٦) ابن عذبية، إنسان العيون، ص ٣٠٨ . إقبال، تاريخ المغول، ص ٢٠١-٢٠٢ .

(٧) بدر، محنة الإسلام الكبرى، ص ١٨٢ .

(٨) caml. Med, Hist, combridge Medieval History, Vol4. p. 641.

وآلت السيطرة من بعد هولاء إلى أبنائه، الذين استقلوا تدريجياً وأسسوا لأنفسهم دولة في إيران عرفت باسم دولة الإيلخانيين .

وكذلك فقدت بغداد أهميتها السياسية بعد حملة هولاء عليها وسقوطها بيد المغول؛ حيث أصبحت مدينة ثانوية، يعين عليها وال، وانتقل النشاط كله إلى مدن الشمال في أذربيجان؛ لأنها أخذت دور العواصم<sup>(١)</sup>. وقد كانت قبل ذلك مركزاً للنشاط السياسي في جميع أنحاء الشرق الإسلامي، يؤمها وفود الحكام والأمراء المسلمين، وكانت الروابط تربط بينها وبين مختلف العواصم .

وقد أثر ذلك في الناحية الثقافية، فعندما تعرضت بغداد للغزو المغولي، قتل الآلاف من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء وغيرهم وهرب من بقي على قيد الحياة إلى مصر والشام وغيرها من المناطق، كما أحرقت المكتبات وخربت المدارس والمعاهد ودمرت، وقضي على الآثار الإسلامية التي تعب الفنانون المسلمون في إبداعها، وأيضاً فقدت آلاف الكتب القيمة والمخطوطات النادرة<sup>(٢)</sup>، بالحرق أو الإتلاف أو الضياع، وقد ورد أن المغول بنوا من الكتب جسراً مع الطين والماء بدل الأجر<sup>(٣)</sup>، وهناك عامل آخر ساعد في ضياع وتشتت معظم الكتب وهو المجاعة التي تأثرت بها بغداد خلال فترة النكبة، ودفعت أغلب الناس إلى بيع ما سلم من كتبهم النفيسة لأهل الحلة والكوفة، الذين كانوا يجلبون الأطعمة لبيعها في بغداد<sup>(٤)</sup>، وهذه طريقة من الطرق التي سلمت بها الكتب لكنها انتشرت في عدة مدن من العراق، ولا بد أن يكون هناك طرق أخرى.

وكذلك هجرة العلماء والأدباء وأهل الحرف والصناعات؛ حيث استقبلت مصر في فترة الغزو المغولي عدداً كبيراً من المشاركة الذين بنوا لأنفسهم بيوتاً على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل<sup>(٥)</sup>.

فبذلك أصبحت بغداد خراباً بعد أن كانت مركزاً مهماً للعلوم والفنون والآداب يهرع إليها العلماء والأدباء وطلاب العلم للتزود بمعارف الثقافة الإسلامية التي كانت تتمثل هناك بأجل

(١) الصياد، المغول، ج١، ص ٢٨٠ .

(٢) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج١، ص ٢٨٩-٢٩٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٦٤. العبادي، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٢٩.

(٣) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج١، ص ٢٨٩-٢٩٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٦٤. زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٤م، ج٣، ص ١١١-١١٢.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣١ .

(٥) المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٣٦٤-٣٦٥.

معانيها، وخاصة أن بغداد كانت تزخر بالعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء؛ حيث كان هؤلاء أساتذة وقادة لرجال العلم والأدب في مختلف مناطق العالم الإسلامي (١).

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على عدم اهتمام المغول بالتراث الإسلامي الذي نفخر به جميعاً؛ لأن التراث بالنسبة للمغول لا يعني لهم شيئاً.

وقد فقدت اللغة العربية مكانتها التي تميزت بها في ميادين الثقافة العلمية والأدبية قبل الغزو المغولي وسقوط بغداد؛ حيث تمت الخطوة النهائية في سبيل تفوق اللغة الفارسية على اللغة العربية، ورغم أن هذه اللغة قد بقيت كلغة علمية وأدبية في إيران ولم يستطع الأدباء والكتاب الإيرانيون أن يكفوا عن تعلمها والتأليف بها، فإنّ عنايتهم باللغة الفارسية كانت أشد وأقوى لأنها اللغة التي استطاعت أن تشبع رغبة العامة وتوافق إحساس الناس في ذلك الوقت (٢). ولكن بالرغم مما أحدثه المغول من الحرق والتدمير والقتل والخراب، فإنّ الناحية العلمية والثقافية قد استمرت بعد أن هدأت الأوضاع في بغداد معبرة عن روح الإسلام القوية وعزيمة المسلمين في التحدي لأساليب حكمهم، التي من شأنها أن تضعف المسلمين أو تسلخهم عن تاريخهم وثقافتهم وحضارتهم.

فقد بقيت روح الإسلام قوية ولم يتمكن المغول من القضاء عليها بسهولة، فبقيت بعض المدارس في العراق مؤدية عملها العلمي، مثل المدرسة المستنصرية التي أسست سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م)؛ إذ استمرت تؤدي عملها طيلة الحكم المغولي مؤثرة في الفكر الإسلامي والثقافة العربية (٣)، كما أن المدارس الآتية استمرت وبقيت - تقريباً - تؤدي عملها بالرغم من سقوط بغداد ووجود المغول، وهي: المدرسة البرانية، ومدرسة ابن ورام، ومدرسة عبدالمحسن، والمدرسة الشرايية التي بنيت سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) (٤).

ولم يقتصر ذلك على النواحي الأنفة الذكر وحدها، ففي الناحية الاقتصادية؛ كان المغول قد عزموا على فتح بغداد من أجل السيطرة على اقتصاديات العراق، ووضع أيديهم على طرق التجارة بحيث تصبح سيطرتهم تامة على هذه الطرق التي تصل الشرق بالغرب من العالم،

(١) الهمداني، جامع التواريخ، مج ٢، ج ١، ص ٢٩٥. العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٥. زيدان،

تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٣، ص ١١١-١١٢.

(٢) الصياد، المغول في التاريخ، ج ١، ص ٢٨١.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٧٥-٤٩٢.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٢٤. معروف، مدارس واسط، نشر ناجي معروف، بغداد،

١٩٦٦م، ص ١٦، ١٩، ٢٥، ٣٥.

وكذلك سيطرتهم على أرض العراق الخصبة والكثيرة الخيرات التي تحكها بنظرهم دولة منهوكة القوى<sup>(١)</sup>.

وقد طمع المغول من وراء غزوهم وتوسعهم إلى إيجاد أسواق جديدة لتصريف منتجات بلادهم واستيراد ما يلزمهم من هذه الأسواق ، وخاصة أنهم منذ عهد جنكيز خان أظهرُوا اهتمامهم الشديد بالطرق التجارية وتوفير الأمن على طولها<sup>(٢)</sup>، وهذا هو هدف المغول الذي جاؤوا من أجله؛ القتل والسلب والنهب إلى منغوليا<sup>(٣)</sup>.

كما أن بغداد كان يطمع في امتلاكها كل سلاطين الدنيا؛ لأنها كانت على درجة عظيمة من التقدم والرقي، وذات هواء عليل وماء يشفي الغليل، وفيها من النعم ما يعجز اللسان عن وصفها<sup>(٤)</sup>.

وعلى العموم، فإننا نستطيع القول إن الحياة المدنية قد تدهورت وتعطلت في بغداد على نحو خاص والعراق على نحو عام لعدة عقود على إثر الغزو المغولي، كما أن الإسلام لم يتعرض لأوقات عصيبة مثل التي تعرض لها زمن الغزو المغولي؛ بسبب الخراب والدمار وهدم المدن ومقتل الصناع والحرفيين والتجار أو هروبهم.

(١) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩، ١٠٤، ج ٣٠، ص ٨ . الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد، ص

١٢٤ . فهد ، العامة في بغداد، ص ٦٨ .

(٢) العربي، المغول، ص ١١٩ .

(٣) خصباك، العراق في عهد المغول، ص ٧-٧ . ديورانت، قصة الحضارة، ج ٢، م ٤، ع ١٣٤، ص ٣٨١ .

(٤) نظمي زادة، كلشن خلفاء، ص ١٣٥ .

## نتائج الدراسة

جاءت هذه الرسالة محاولة للكشف عن أوضاع الخلافة العباسية في عهد المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وذلك في ضوء ما تقدمه المصادر من معلومات تساعد على توضيح تلك الأوضاع، وتمكننا من تتبع تطورها.

١- إن الخليفة المستعصم بالله نشأ في فترة انتعاش الخلافة حيث عاصر جد أبيّة الناصر وجده الظاهر ووالده المستنصر بالله حتى توليه الخلافة سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) فاستمر عهده على هذا النحو من الانتعاش والاستقرار والهدوء - بعض الشيء -، إلا أن هذا الوضع كان مهدد بظهور المغول وتعاظم قواتهم، حيث بدأت هجماتهم تتكرر على أرض الخلافة بين الحين والآخر، فضلاً عن اكتساحهم للقوى المجاورة لهم كالدولة الخوارزمية التي قضوا عليها عام (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، والحركة الإسماعيلية (النزارية) عام (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وقد تعرضت الخلافة في عهده لعدة هجمات من المغول حيث استطاع ضمن إمكاناته ملاقاتهم وتمكن من الانتصار عليهم.

٢- كما لم يقف المستعصم بالله مكتوف اليدين أمام أخبار تقدم المغول نحو بغداد، بل كانت رسله تجوب البلاد تستصرخ أمراءها لنبذ الشقاق والفرقة، وتدعوهم إلى الاتحاد استعداداً لمواجهة التحدي المغولي، حيث استفاد المستعصم بالله من علاقته الحسنة التي تميز بها مع أكثر مناطق العالم الإسلامي، وذلك لأنه كان يحظى بمكانة رفيعة عند الحكام الذين يديرون مناطقهم على نحو مستقل.

٣- كشفت الدراسة بأن أغلب المؤرخين وصفوا المستعصم بالله بأنه كان عفيف الفرج واللسان، كريم الطباع، شريف النفس، فاضلاً، سليماً، محدثاً، عادلاً، وفيماً، متديناً، متمسك بالسنة، يحفظ القرآن الكريم، صوام للثنين من كل شهر، وشهر رجب بشكل مستمر. كما كان مهتماً بأمور الناس وقضاء حوائجهم، محباً للعلم والعلماء، حيث كانت له إنجازات علمية ودينية كالمدرسة البشرية التي كانت وفقاً على المذاهب الأربعة على قاعدة المدرسة المستنصرية، والتي أصبحت ثاني مدرسة متعددة المذاهب، ليس في بغداد فقط بل في العالم الإسلامي كله، كما لم تقتصر الأوقاف على المدارس بل تجاوزتها إلى دور القرآن والمعاهد الخيرية.

٤- من خلال الدراسة تبين لنا أن مبايعة المستعصم بالله بالخلافة كانت شرعية وتمت حسب الأصول، وليس كما قال بعض المؤرخين بأن المستعصم الله ببيعة بطريفة توحى بالقسر، وأن من بايعوه أجبروا على ذلك.

٥- وتبين الدراسة أيضاً أن المجتمع البغدادي في عهد المستعصم بالله ينقسم إلى قسمين :

• المسلمين (سنة وشيعة).

• أهل الذمة (يهود ونصاري).

وسياسة الدولة اتجاه هذه الفئات كانت تمتاز بعدم الثبات، فأحياناً تقف موقفاً محايداً وعادلاً، تعمل من خلال هذه السياسة على توحيد فئات الشعب، وأحياناً أخرى تدعم أحد فئات الشعب ضد الأخرى.

٦- أما في موضوع السياسة الداخلية فقد أوضحت الدراسة موقف الخلافة من مختلف طوائف الشعب، وكما أوضحت موقف طائفتي السنة والشيعة منها، وكذلك تعرضت لموقف الخلافة من أهل الذمة، وأنهم كانوا دون المسلمين في المنزلة، وأن الخلافة تركت لهم حريتهم الدينية بعد أن ألزمتهم بشروط ومميزات معينة، فضلاً عن دفعهم ضريبة الجزية، وكانت الخلافة تشرف على شؤونهم عن طريق اختيارها لرئيس من بين أفضل رجالهم، ويسمى الرئيس عند النصاري بالجائليق، وعند اليهود برأس الجالوت.

كما أن الشيعة في عهد المستعصم بالله عبروا عن آرائهم ومعتقداتهم وإحباط شعائرهم بكل حرية، بعكس ما عرف عنه بأنه أتبع سياسة سننية بالكامل ومنع الشيعة من قراءة المقتل إلا في مقام موسى الكاظم .

٧- من خلال دراستنا للعلاقات السياسية للخلافة في عهد المستعصم بالله يتضح أنها كانت حسنة مع أغلب دويلات الأطراف التابعة للخلافة بما فيها مكة والمدينة واليمن والأيوبيين وإمارة الموصل وسلاجقة الروم والدولة الخوارزمية والمغرب والأندلس، حيث كان يذكر فيها اسم الخليفة في الخطبة والسكة، ولم تكن العلاقة عدائية - تقريباً - إلا مع الحركة الإسماعيلية بسبب الاختلاف العقائدي معها.

٨- كما أن أسرة الخليفة المستعصم بالله لم يكن لها أي دور في النشاط السياسي أو الاجتماعي باستثناء ما قامت به زوجة الخليفة من أعمال الخير، وذلك لأن أفراد هذه الأسرة في هذه الفترة أبعادوا عن الحياة السياسية " معتقلون اعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون ".

٩- وبالنسبة للتنظيمات الاجتماعية فقد كانت مؤيدة للسلطة، لما تتلقاه من دعم ونفقات من الحكومة، فاختيار التصوف كان المظلة التي يستظل بها البطالون والعاطلون عن العمل، يمكنهم الانضمام إلى إحدى طرقها للحصول على الرعاية باعتبارهم منقطعين للعبادة.

١٠- نستنتج أن المستعصم بالله سار في تجديد حركة الفتوة على مسار جد أبيه الناصر الذي نشأها، وذلك عندما لاحظ تفكك العالم الإسلامي، وكثرة الحركات المذهبية وسيطرة فتوة

العيارين وتحريفهم لاسم الفتوة القديمة، لكن بالرغم من ذلك فقد تراجعت في عهده حيث غلب على الفتوة في زمنه الاهتمام بالنواحي الترفيهية، واللعب واللهو أكثر بكثير من الاهتمام بالنواحي التربوية التي حرص الناصر على تحقيقها، فكان المستعصم بالله يهتم بالفروسية وخاصة رياضة السعي، ولم يكن دافعها الوحيد التسلية وملئ الفراغ، بل كانت غايتها أكبر فهي مرتبطة بالفتوة، فمن صفات الفتى الشدة والبأس، وعليه أن يمارس مختلف الرياضات التي تؤهله الدخول بمنظمة الفتوة.

١١- يتضح لنا أن الوظائف الإدارية الرئيسية كالوزارة والقضاء والدواوين والحسبة هي امتداد للعهود السابقة، وأنها استمرت في عهد المستعصم بالله مع ظهور بعض الوظائف الجديدة مثل نائب الوزارة، والأستاذ دار، كما يتضح لنا أن النظام الإداري بوضعه الجديد للخلافة لا زال يحتفظ ببقايا التأثير السلجوقي متمثلاً ذلك بمنصب الشحنة، لكن عمله تغير عما كان عليه من قبل، حيث كان عيناً للسلطان السلجوقي على الخليفة، حتى أصبح تابعاً للخليفة. وتركز عمله في استتباب الأمن والنظام ومكافحة الفوضى والتمرد التي تعجز الشرطة عن القضاء عليها.

١٢- وليس هناك أساس للتشكيك في انتعاش الوزارة زمن الخليفة المستعصم بالله، وذلك رغبة الخليفة في النهوض بالدولة، وقد أصبح الوزير في عهد المستعصم بالله يراعي نيابة عن الخليفة الاحتفالات الدينية، والمواسم الأدبية، يوزع الجوائز والهدايا والخلع في المناسبات شأنه شأن بعض وزراء الصدر الأول من الخلافة.

١٣- وتضطرب الروايات حول احتمال وجود صلات بين المغول وبين بعض الجهات في بغداد، ويمكن الرواية التي تزعم بأن الوزير ابن العلقمي بعث بسفارة إلى المغول لا يوثق بها، كما أنني تطرقت إلى اختلاف وانقسام المؤرخين في التهم الموجهة إلى ابن العلقمي بخصوص موقفه من المستعصم بالله، والخلافة العباسية.

١٤- وعرضت الدراسة كذلك للنظام المالي فأشارت إلى موارد الخلافة الرئيسية من ضرائب الخراج والجزية والزكاة وبعض الموارد الأخرى، وبيّنت أن حاجة الخلافة إلى الأموال دفعتها في بعض الأحيان إلى فرض ضرائب جديدة على الأسواق والتجارة، كما أن نسبة الضرائب الرئيسية لم تبقى كما شرعت أولاً، بل خضعت لكثير من الزيادة.

١٥- أما النفقات، فقد قامت الخلافة بالإنفاق على الجيش والمرافق العامة كبناء وتعمير الأسواق، وتنظيم طرق المواصلات، والقيام ببعض المشروعات الخيرية كالربط، ومشروعات الري وغيرها، كما أن الخلافة كانت تراقب الأسواق عن طريق المحتسب، وتتدخل في الحياة الاقتصادية عند الأزمات.



١٦- بالنسبة للدواوين فقد عرضت لديوان الخراج الذي أصبح يحمل في هذه الفترة اسم المخزن، حيث أصبح أهم الدواوين، حيث أشرت إلى أشهر موظفيه، وكما أشرت أيضاً إلى ديوان الجوالي وهو الذي يختص بشؤون الجزية، وأشهر من تولى هذا الديوان، وأيضاً ديوان الطبق، وهو الذي يختص بالإشراف على دور الضيافة في بغداد التي تفتح أبوابها في المناسبات الدينية، وقد اهتم المستعصم بالله لهذه الدور كثيراً، حيث بلغ عدد الذين يفترون بها بأكثر من عشرة آلاف شخص.

١٧- وتبين الدراسة أن الزراعة في عهد المستعصم بالله والتي كانت تعد المورد الأساسي للدولة، قد عانت من الخراب بسبب الكوارث الطبيعية التي كان تأثيرها كبيراً في إضعاف اقتصاد الدولة، وشكلت الفيضانات دوراً مهماً في تخريب الاقتصاد، فغرقت بغداد مرات عديدة، كما أدى إهمال السلطة للري إلى زيادة أثار الفيضانات، فضلاً عن سقوط الثلوج مما أثر في الزراعة فقل الإنتاج وارتفعت الأسعار، إذ كانت تنغمر الأراضي من المياه فتؤدي إلى تلف المحاصيل الزراعية.

١٨- وبالرغم من ذلك فقد كان للمستعصم بالله إنجازات في مجال الزراعة مثل حفر السدود كالسد الذي بني على فم نهر عيسى، وكذلك بناء السد على شاطئ دجلة في بستان الصراة، كما أن المستعصم بالله كان يخرج بنفسه لإصلاح السدود وسد البثوق.

١٩- والدراسة تبين أن هناك بعض الصناعات التي لمعت وتطورت في عهد المستعصم بالله مثل صناعة ضرب النقود الذهبية والفضية، ويتضح أيضاً التعامل بها في التجارة، كما كانت هناك بعض الصناعات الشائعة التي يعود قسم منها إلى العهود السابقة لعصره مثل صناعة الثياب العراقية الشهيرة التي تعدد شهرتها حدود العراق مثل العتابي والسقلاطون.

٢٠- وبالنسبة للتجارة فقد تدهورت بسبب هجمات المغول المستمرة على المدن والطرق التجارية، وانتشار قطاع الطرق مما أدى إلى اضمحلال الطرق التجارية وعدم قيام التجار بأية محاولة تجارية إلا من كان يحتفظ منهم بعلاقات مع المغول، أما التجارة مع بلاد الشام فقد كان لوجود الإمارات الصليبية أثرها في عرقلة حركة التجارة، كما ازدادت حالات السرقة، وكثر العيارون والشطار في بغداد، وبنفس الوقت نستطيع القول أن التجارة استطاعت أن تلبى حاجات البيت العباسي والمجتمع.

٢١- ويتضح أن الفتن والاضطرابات ازدادت مما كان لها الأثر الكبير في الحياة الاقتصادية وعدم استطاعة الدولة القضاء عليها لضعفها، كما كانت لحالة القلق بين الناس نتيجة للغزو المغولي وانهيار معنوياتهم وهجرتهم المستمرة إلى بغداد وتأثير ذلك على تعقيد الحياة الاقتصادية والنفسية فيها.

٢٢- ويعد العصر العباسي الأخير: العصر الذهبي للنقابات، لما وصلت إليه أهميته في

المجتمع، وضمن أعداد كبيرة من المهنيين بغض النظر عن أجناسهم أو دياناتهم، وتشكل هذه الفترة منعطفاً تاريخياً في حياة العراق فقد كان دور الأمراء والقادة كبيراً في إضعاف الخلافة وتولية الخلفاء حسب طموحاتهم الشخصية، فضلاً عن الصراعات التي كانت تنشأ بينهم لأغراض شتى كانت سبباً في ضعف الدولة العباسية.

٢٣- وتبين لنا أن أعظم خطر واجهه الخليفة المستعصم بالله هو الخطر المغولي، وكيف أن

بعض المؤرخين يشيرون إلى أن الخليفة لم يستطع تقدير الموقف بشأن دفع خطر المغول، لأنه كان ضعيف الرأي، ولم يكن له سياسة واضحة تجاه الجيش، حيث قلل الجند وقطع أرزاقهم، في الوقت الذي كان فيه بأمر الحاجة إلى جيش قوي ليقف بوجه الأطماع الأجنبية، حيث أن قلة عدد الجيش جعل الخلافة عاجزة عن القيام بدور مهم في الأحداث السياسية، مع أنني أجد أن المستعصم بالله بدأ عهده بالاستعداد لمواجهة التتار، حيث عندما وصل التتار (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) إلى خانقين وبعقوبة أمر الخليفة بخروج جيش الخلافة واستتفار الأعراب من البوادي، وبالنسبة لتقليل الجند وإنقاص رواتبهم كان ذلك نتيجة لظروف تتعرض لها الخلافة.

٢٤- كان للمتطوعة من أهل بغداد دور كبير في دعم ومساندة الجيش والخلافة، كما أصبحت

قوة البدو والعربان قوة محاربة وعنصر متطوعاً في جيش الخلافة في معارك ضد التتار من أجل توفير النفقات العسكرية للجند ولتخفيض هذا العبء وبخاصة الرواتب عن خزينة الدولة، استخدام نظام الإقطاع العسكري في جيش الخلافة العباسية، فكانت تعطى الأراضي الخراجية كإقطاع استغلال للجند والقادة العسكريين، فتدفع رواتب الأجناد، وتتفق الأموال على شراء الأسلحة والتحصينات (والإقطاع بحد ذاته راتباً للجند أو القائد).

٢٥- إن كثرة الحروب التي خاضتها الخلافة العباسية ضد أعدائها، سواء كانوا مغول أو

سلاجقة، أو حروبها ضد حركات العصيات والفتن أدت إلى إضعاف قوة الجيش، إلى جانب الصراعات الداخلية بين قادة الجيش العسكريين وأصحاب الإدارة والحكم في الدولة، حيث أثر سلباً على الجيش، فانتشرت النزاعات والخصومات بين عناصرها المختلفة، فضعف الجيش وأهمل كمؤسسة عسكرية ولم يتمكن من الدفاع عن بغداد، فسقطت بيد التتار سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وأن هذا الضعف قد تسلسل إلى الجيش منذ عام (٤٤٧هـ).

٢٦- إذن تبين لنا أن سقوط الخلافة العباسية في بغداد ليس مسؤولية المستعصم بالله وحده بل هي مسؤولية جميع الخلفاء المتأخرين، كما كان لرجال الحاشية دوراً في إهمال الاستعدادات، وتأثير الانقسامات الطائفية وما نشأ عن ذلك من مهاترات لقي منها الوزير ابن العلقمي الشيء الكثير من التهم.

٢٧- وكذلك كشفت الدراسة عن الرسائل المتبادلة بين الخليفة وهولاكو والتي دلت في البداية على قوة موقف الخليفة، ثم ما لبثت أن تغيرت إلى محاولة مهادنة هولاكو للوصول إلى تسوية بشأن إبعاد الغزو المغولي عن بغداد، ولكن دون جدوى، وخاصة بعد أن كشف المستعصم بالله أن جيشه الذي خرج للدفاع عن الخلافة كان في غاية القلة ولا يستطيع الوقوف أو الثبات أمام جيوش المغول الغازية.

# الملاحق

أولاً: نسب الخلفاء العباسيين .

ثانياً: الرسائل المتبادلة بين هولاء والمستعصم بالله.

ثالثاً: الخرائط

• خريطة (١) الشرق الإسلامي في عصر المغول.

• خريطة (٢) مدن الشرق الإسلامي.

• خريطة (٣) إقليم العراق وخوزستان مع قسم من أقاليم

الجزيرة.

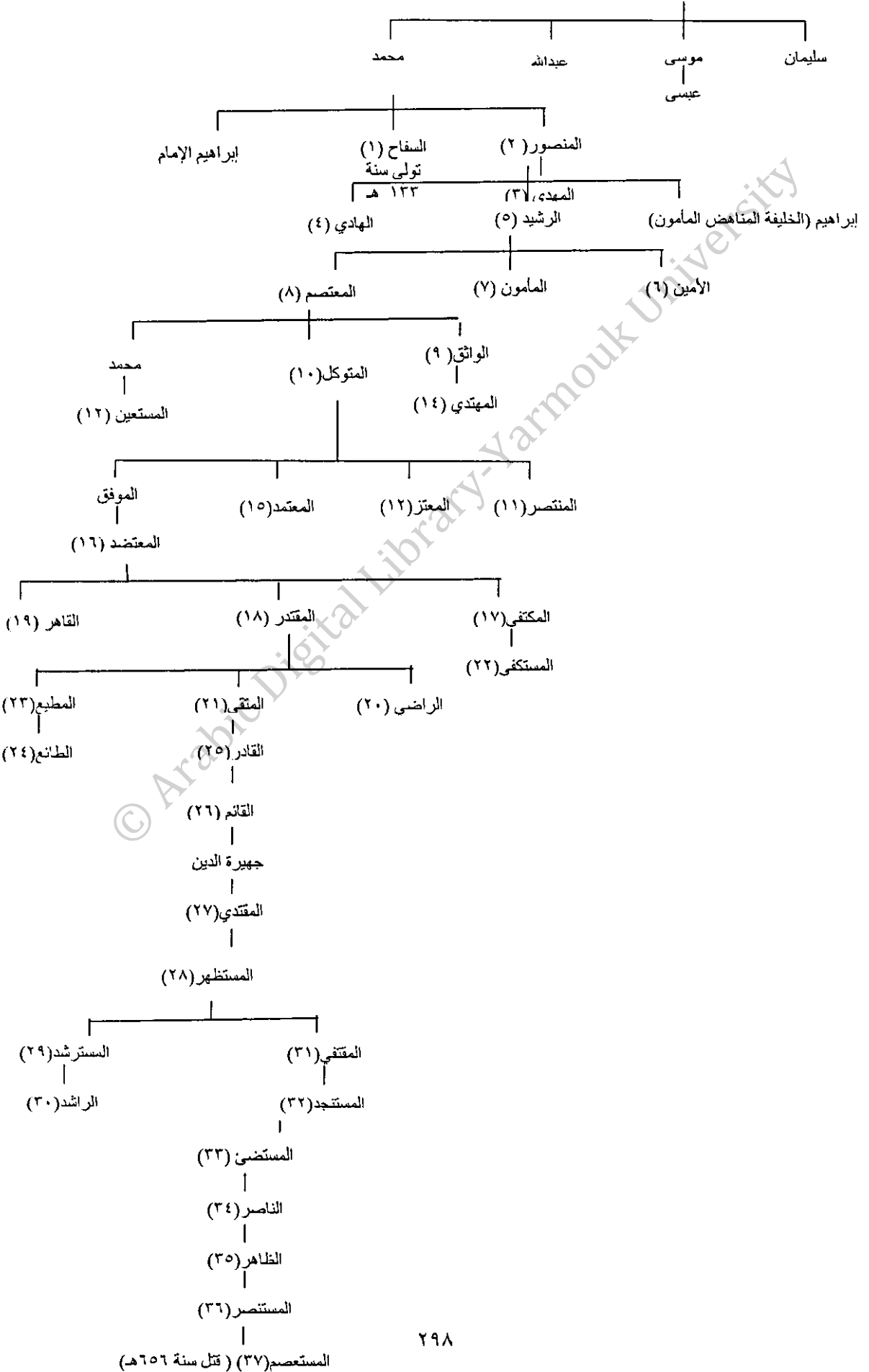
رابعاً: نماذج من العملة التي كانت في عهد المستعصم بالله واستمرت بعده.

أولاً: نسب الخلفاء العباسيين

العباس

عبدالله

علي



ثانياً: الرسائل المتبادلة بين هولاكو والمستعصم بالله

الرسالة الأولى - دعوة ملوك المسلمين للمساهمة معه في حرب الملاحدة

" بناء على أمر ألقا أن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيش والعدد والآلات، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ، وستحمد لكم مواقفكم. أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة، فإننا لا نقبل عذرکم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم ".

الهمذاني، جامع التواريخ، م٢، ج١، ص ٢٤٠ .

## الرسالة الثانية - من هولاكو إلى الخليفة المستعصم بالله

بعد انتهائه من حرب الاسماعيلية

" لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة، وطلبنا مدداً من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة، فلم ترسل إلينا الجند، والتمست العذر، ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد ...

شعر :

فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة،

يخفى معها نور الشمس الساطعة.

ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام، ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي، منذ عهد جنيكز خان إلى اليوم، والذل والذي حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم، ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة، وذلك ذل بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة ملك لهم. فكيف يغلق في وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟ ولقد نصحناك من قبل. والآن نقول لك: احذر الحقد والخصام، ولا تضرب المخصف بقبضة يدك، ولا تلطخ الشمس بالوصل فتتعب.

ومع هذا فقد مضى ما مضى. فإذا أطاع الخليفة، فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا، وإذا لم يرد الحضور فليرسل كلا من الوزير وسليمانشاه والدويدوار ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقد، وسن بقي له على دولته وجيشه ورعيته، أما إذا لم يصغ إلى النصح، وآثر الخلاف والجدال، فليعبئ الجند وليعين ساحة القتال فإننا متأهبون لمحاربتة، وواقفون له على استعداد، وحينما أقود إلى بغداد، الجيش مندفعاً بسورة الغضب إلى بغداد، فانك لو كنت مختلفياً في السماء أو في الأرض هو مطبوع لكنه ترتيبه بهذا الشكل:

شعر:

- فسوف أنزلك من الفلك الدوار،  
وسألقيك من عليائك إلى أسفل كالأسد.
- ولن أدع حيا في مملكتك ... ،  
وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار.

فاذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء  
وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله ."

الهمذاني، جامع التواريخ، م ٢، ج ١، ص ٢٦٧-٢٦٨.



## الرسالة الثالثة: رسالة الخليفة المستعصم بالله جواباً على رسالة هولاءكو الثانية:

" أيها الشاب الحدث ... المتمني قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغترباً بيومين من الإقبال، متوهماً أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم، لماذا تطلب مني شيئاً لمن تجده عندي ...  
شعر:

- كيف يمكن أن نتحكم في النجم وتقيدته،  
بالرأي والجيش والسلاح.

ألا ليعلم الأمير انه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط، وجنود لي؟.

أنني حينما أشير بجمع الشتات، سأبدأ بحسم الأمور في إيران، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب، غير أنني لا أريد الحقد والخصام ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذائهم، كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش، أن تلهج السنة الرعية بالمدح أو القذح، خصوصاً وأنتي مع الخاقان وهولاءكو خان قلب واحد، ولسان واحد، وإذا كنت مثلي تزرع المحبة، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريق الود، وعد إلى خراسان، وان كنت تريد الحرب والقتال ... .

شعر :

فلا تتوانى لحظة، ولا تعتذر،

إذا استقر رأيك على الحرب.

أن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة،

وهم متأهبون للقتال ..

وأنهم يثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان ."

## الرسالة الرابعة: رسالة هولاكو الثالثة إلى الخليفة المستعصم بالله:

" إن الله الأزلي رفع جنكيزخان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه، تبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه، ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يتمتع بشيء من ذلك ".  
ثم عاتب الخليفة بشدة قائلاً: " لقد فتتك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث انه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وان في أذنيك وقرأً فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال. فإنني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى، فتلك هي مشيئة الله العظيم".

الهمذاني، جامع التواريخ، م ٢، ج ١، ص ٢٧١.

## الرسالة الخامسة: رسالة الخليفة المستعصم بالله الثانية جواباً على رسالة هولاكو الأخيرة:

" لو غاب عن الملك، فله أن يسأل المطلعين على الأحوال، إذ إن كل - ملك حتى هذا العهد - قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد، كانت عاقبته وخيمة. ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى إلى يوم القيامة .

وفي الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة، وتوجه بجيش لجب إلى بغداد فلم يبلغ مأربه، إذ مات بعة الزحار. والأمر كذلك من أخيه عمرو، إذ قبض عليه إسماعيل الساماني وكبله وأرسله إلى بغداد لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء. وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة .

وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستعصم الذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر .

وفي النهاية علم طغرل بك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله، وأخرج الخليفة من السجن، وإعادة إلى بغداد، وأجلسه على عرش الخلافة. وكذلك قصد السلطان محمد السلجوقي بغداد، فعاد منهزماً وهلك في الطريق، وجاء محمد خورازم شاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة فابتلي في روابي (أسد آباد) بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه، وهلك أكثر جنده وعاد خائباً خاسراً. ثم لاقى ما لاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة أبكسون، فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين. فاحذر عين السوء من الزمان الغادر.

الهمذاني، جامع التواريخ، م ٢، ج ١، ص ٢٧٥-٢٧٦.

الرسالة السادسة: رد هولاءكو على رسالة الخليفة المستعصم بالله:

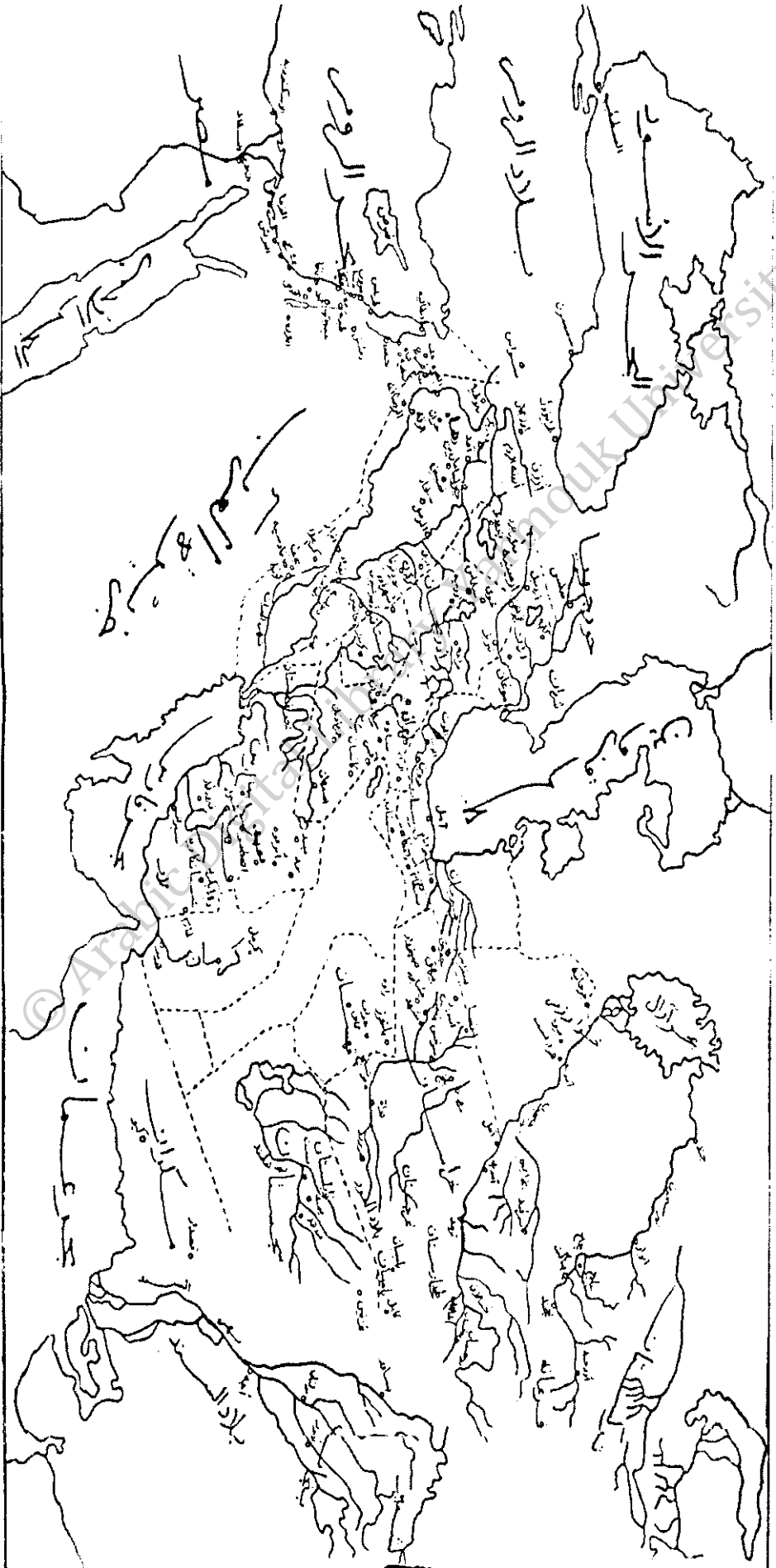
عندما وصلت رسالة الخليفة الأخيرة أشد غضب هولاءكو بسبب ما جاء فيها، وأعاد الرسل قائلاً:

شعر:

- اذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار،  
وأرفع من الفولاذ الأبراج والهيكل،
- واجمع جيشاً من المردة والشياطين،  
ثم تقدم نحوي للخصام والنزال.
- فسأنزلك ولو كنت في السماء،  
وسأدفع بك غضباً إلى أفواه السباع.

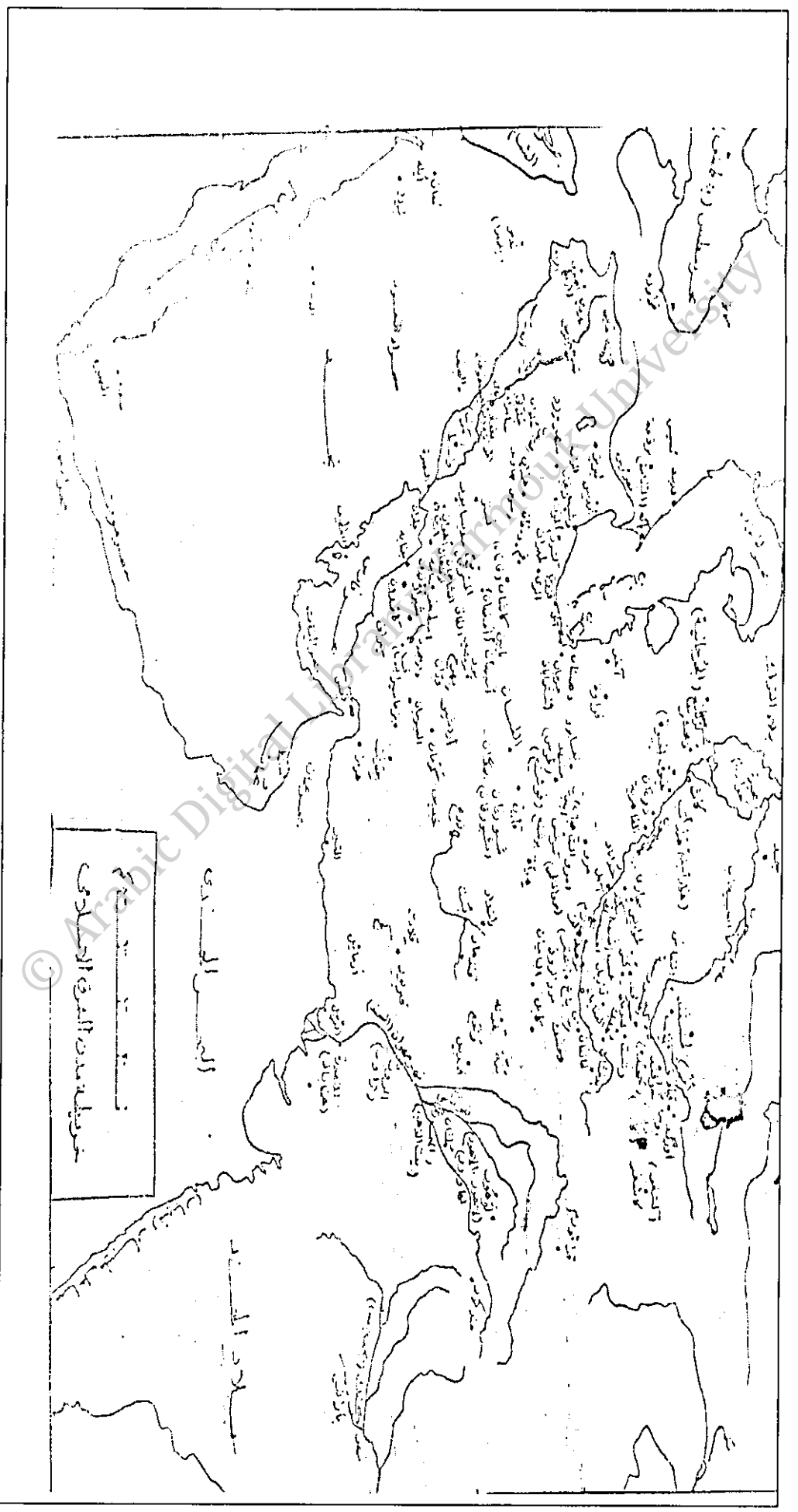
الهمداني، جامع التواريخ، م ٢، ج ١، ص ٢٧٦.

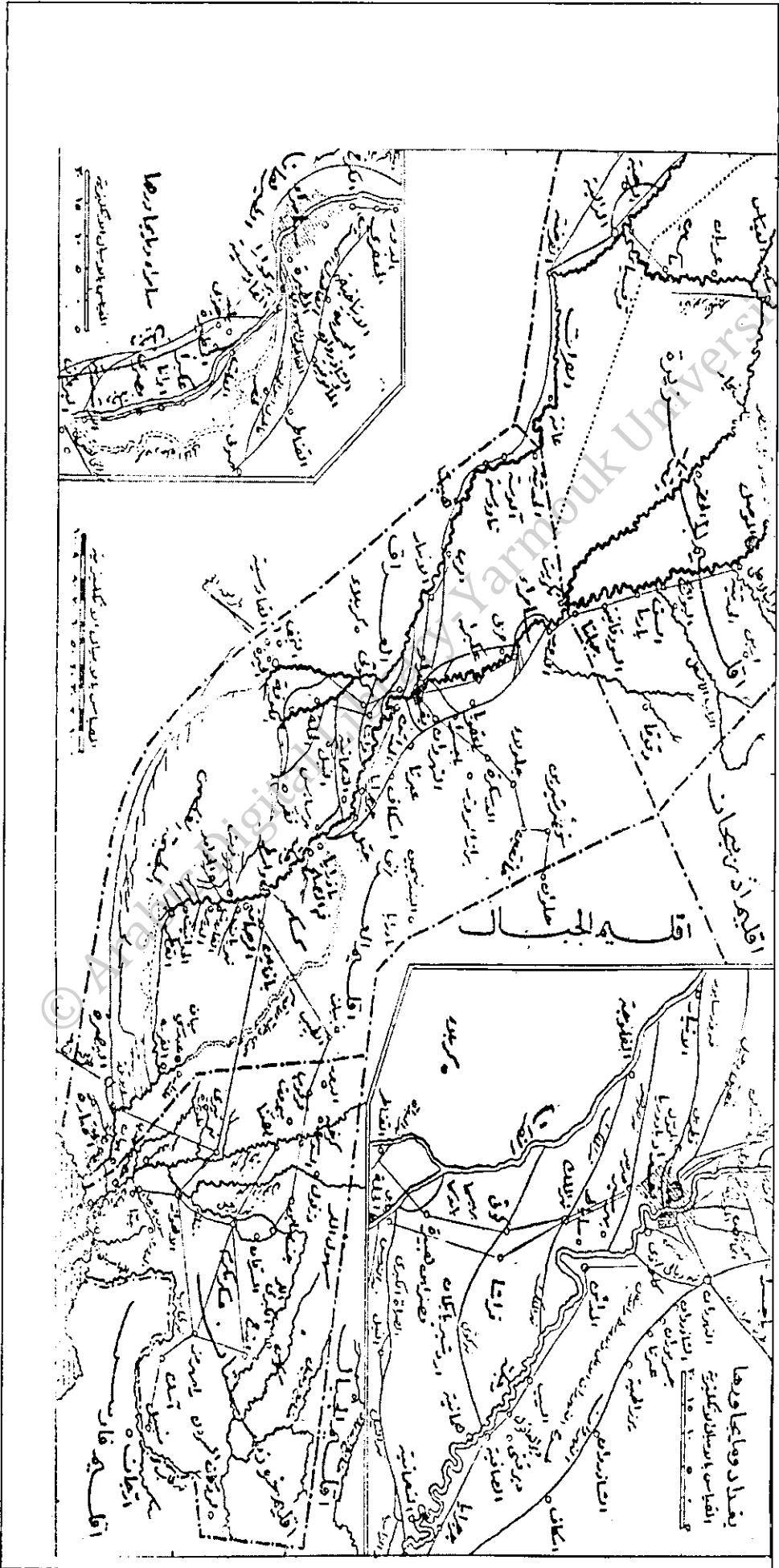
ثالثاً: الخرائط



خريطة (١) الشرق الإسلامي في عصر المغول (أخذت عن فؤاد الصياد، المغول في التاريخ)

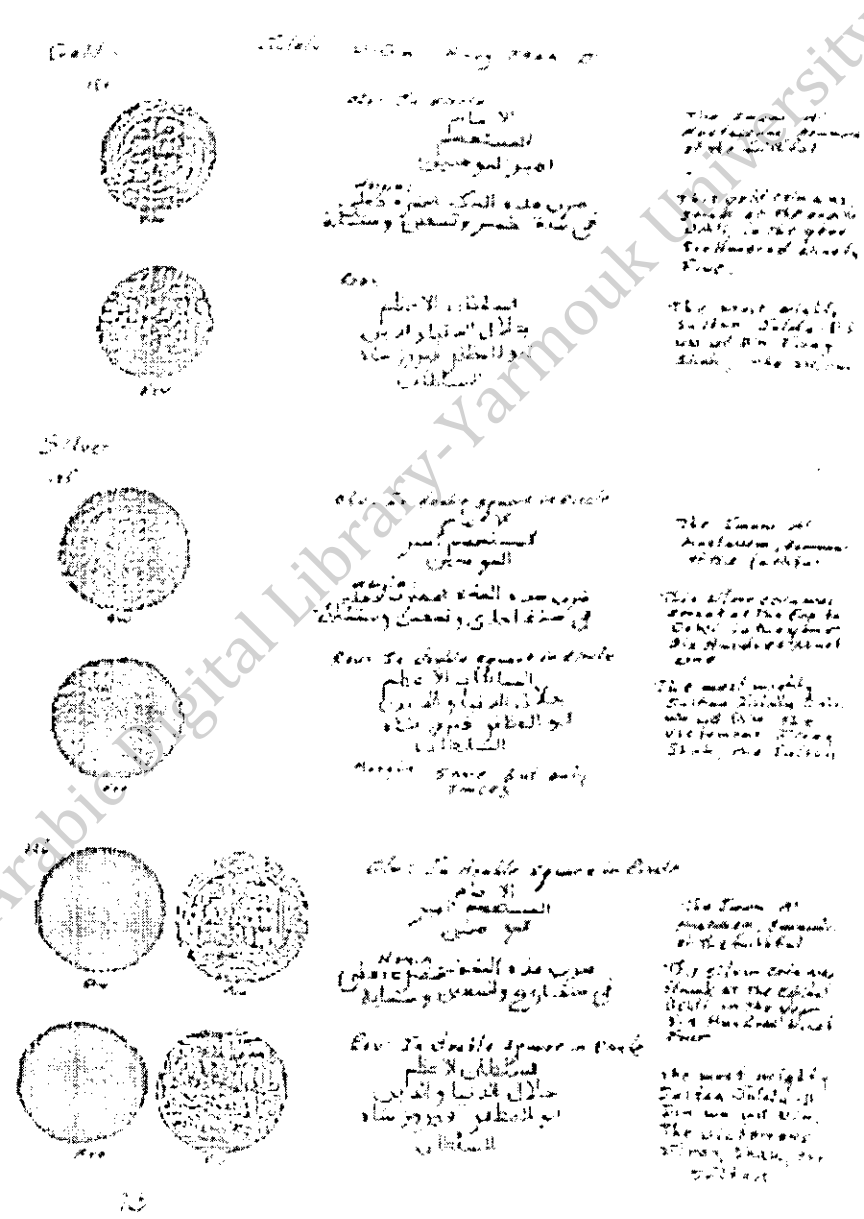
خريطة (٢) مدن الشرق الإسلامي (أخذت عن كتاب الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، حققه عبد المنعم ماجد)





خريطة (٣): إقليم العراق وخوزستان مع قسم من إقليم الجزيرة (أخذت عن لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية)

رابعاً: نماذج من العملة التي كانت في عهد المستعصم بالله واستمرت بعده (أخذت عن يحيى بن جنيد، المستعصم بالله العباسي).



نماذج من الدراهم المصروية في عهد سلاطين دهلبي ٦٩١ و٦٩٤ و٦٩٥ هـ



— ١٤٢ —

١٤٢٢ هـ (متروك)

رجوع أوردته:

لا إله إلا الله  
وحده لا شريك له  
المستصحب بآله  
أسير أتو ضنين

دوره سنه (داخلًا) : بعد الله الرحمن الرحيم شرب هذا  
الدينار بالوصول سنة اثنين واربين  
وسنة .

• (خارجًا) : في الامر من قبل (الخ)

كبري قطار دائره اجتهده: لولو

محمد رسول  
الله عليه  
السلام  
والدين انا بكم

دوره سنه: بعد رسول الله ارسله بالهدا (الخ)

التون، وري ١٤ ٢٠ هـ (بازيرون لنبه وقله من كويكتره) شرب ٢٠

دينار انا بكي شرب الوصول سنة ١٤٢٢ هـ

نوع ٣

بانر

الجزيرة

— ١٥١ —

تاريخي ٦٤٧ (تسويست)

الامر

دوره اورتوده:

لا اله الا الله

المتحد بانه

ايد المؤمنين

دوره سنده: ضرب هذا القس بالجزيرة سنة سبع واربعين وستاء.

لولو

توريك اورتوده:

محمد وسولك

بدر الدين

والدين اتابك

دوره سنده: بسم الله الرحمن الرحيم لصر من الله وفتح قريه وبشر المؤمنين.

ظري ٢٦

لوحة ٦

— ١٥٢ —

تاريخي ٦٤٩

بالامه كينك عيني حيارال شادي

اولوب رسم خطي قرقلندر.

ظري ٢٦

فلس اتابكي ضرب الجزيرة سنة ٦٤٧ هـ

نوع ٣

بانر

﴿ الجزائر ﴾

- ١٥١ -

تاریخ ٦٤٧ (تصویر)

دوره اول: ١٥١

الانار

لا اله الا الله

التمتع بالله

امير المؤمنين

دوره ستمه: ضرب هذا الفلوس بالجزيرة سنة سبع واربعين وستمائة.

لؤلؤ

تعمیر اول: ١٥٢

عبد رسولك  
 بدر الدين تيساوي  
 والدين اتابك

دوره ستمه: بسم الله الرحمن الرحيم لعن من الله وفتح

قريب وبشر المؤمنين.

٢٦ عدد

لوحه ٦

- ١٥٢ -

تاریخ ٦٤٩

اللاه كذك عيني عباراتي شاملي

اولوب رسم خطي لرفيدو.

٢٧ عدد

فلوس اتابكي ضرب الجزيرة سنة ٦٤٧ هـ

(عربی) ۱۰۱ (فارسی)

تاریخی ۶۵۵

۱	۱
تاریخی شوبہ دار۔	۱
(سنہ ۵۰۰ - سنہ ۵۰۱)	۱
وزلہ ۱۱۲۰	۱

۱۰۱

۶۶

ملاحظہ فرمائیں

کوٹھ

۱۰۲

خط عربی تاریخی ۶۵۵

مسئلہ [الحین الاظم]

عزیز الدین کیکاؤس  
ورکن الدین اور الدین قاضی ارسلاں  
و علاء الدین اور الدین کیکاؤس  
براہین امیر السوسین

۱۰۱

محمد رسول اللہ [م]  
[۱] استعمالات اجرائی  
بین قیامت ۵۵۰ سنہ [۱]  
ضرب مطبوعہ

۶۶

وزلہ ۱۱۲۰

۶۵۷ سنہ قدر عز الدین کیکاؤس کی قومیہ وہ ورکن الدین  
قلعہ ارسلاں رابع دخی سوانسہ آرو آرو اجرائی حکومت  
اپلاکری سالدہ سنہ مذکورہ کو جیک برادرلی علاء الدین کیکاؤس  
تای دخی دال ازلق اوزدہ اوچی بدن ادارہ حکومتی بد اشترک  
کثرت المنسل و سکاڈک اوچی تانس سکا دخی ضرب و اخراج  
ابتدایہ سطرده

درهم سلجوقی ضرب ملامتیہ سنہ ۶۵۵ھ

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر المخطوطة:

- ١- ابن الأخوة، ضياء الدين محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م).  
- المغبة والرغبة في معرفة أحكام الحسبة، نسخة مايكروفلم في الوثائق والمخطوطات في جامعة اليرموك، الشريط رقم ١٠٤.
- ٢- ابن حبيب الحلبي، بدر الدين الحسن بن أبي القاسم عمر الشافعي (٧٧٩هـ/١٣٧٧م).  
- درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج١، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط رقم ٥٣٩.
- ٣- الدوادر، ركن الدين بيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م).  
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط رقم ٢٠.
- ٤- العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م).  
- نصره الفترة وعصرة القطرة، مخطوط مصور لدى الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية.
- ٥- مجهول، مؤلف.  
- تاريخ الخلفاء والسلاطين، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط ميكروفلم رقم (٥٦٢).
- ٦- ابن الموصلايا، أمين الدولة العلاء بن الموصلايا (ت ٤٩٧هـ/١١٠٤م).  
- رسائل أمين الدولة، دار الكتب الوطنية، تونس، رقم ١٤٧١٢. صورة عن المخطوط في جامعة اليرموك.

### ثانياً: المصادر المطبوعة

- ٧- القرآن الكريم.
- ٨- ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر البننسي (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٧م).  
- الحلة السرياء، ج٢، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣م.

- ٩- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).  
 - التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، بغداد، ١٩٦٣م.
- ١٠- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م).  
 - النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الراوي ومحمد الطنامي، دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ١١- ابن الأخوة، ضياء الدين محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م).  
 - معالم القرية في أحكام الحسبة، نقل وتصحيح روبن ليوي، مطبعة دار الفنون كمبرج، ١٩٣٧م.
- ١٢- الأربلي، بهاء الدين المنشي (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٤م).  
 - كشف الغمة في معرفة الأئمة، ط ٢، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٥م.
- ١٣- الأربلي، عبدالرحمن سنبط قنينو (ت ٧١٧هـ / ١٢١٧م).  
 - خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، طبع وتصحيح مكّي السيّد جاسم، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.
- ١٤- الأزدي، أبو المظهر محمد بن أحمد (عاش في ق ٤هـ / ١٠م).  
 - حكاية أبي القاسم البغدادي، هيدلبيرج، مطبعة كول ونتر، ١٩٠٢م.
- ١٥- ابن الأزرق، أبو عبدالله (ت ٨٩٦هـ / ١٤٩١م).  
 - بدائع السلك في طباع الملك، تحقيق وتعليق د. علي سامي النشار، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق، ١٩٧٨م.
- ١٦- ابن الأزهر، أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠هـ / ٨٩٠م).  
 - تهذيب اللغة، الدار المصرية للتأليف مطابع سجل العرب، د.ت، أو تحقيق عبدالسلام محمد هارون، نشر الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ١٧- الأسنوي، جمال الدين عبدالرحيم (ت ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م).  
 - طبقات الشافعية، ط ١، ج ٢، تحقيق عبدالله الجبوري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠م.

- ١٨- الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م).  
 - المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، القاهرة، ١٩٦١م.
- ١٩- ابن الأوسي الأنصاري، عمر بن إبراهيم (ت ٨١٤هـ/١٤١٠م).  
 - تفريج الكروب في تدبير الحروب، تحقيق جورج اسكاتلون، نشر الجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٦١م.
- ٢٠- الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧هـ/١٢١٩م).  
 - مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨م.
- ٢١- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م).  
 - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نقل وتصحيح أمرؤ القيس بن الطحان، دم، ١٨٨٢م.
- ٢٢- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م).  
 - بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط٢، ٤، ج، المكتبة الفلكية العلمية، بيروت، ١٩٦٠م.
- ٢٣- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٩٧٧م).  
 - صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٥٨م.
- ٢٤- ابن بسام، شمس الدين محمد بن أحمد التتحي (كان حيًا في ق ٦هـ/١٢م).  
 - نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.
- ٢٥- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله أبو عبدالله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).  
 - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المسمى برحلة ابن بطوطة، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب الأكاديمية أزميز، ٢٠٠٠م.
- ٢٦- البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).  
 - تاريخ دولة آل سلجوق، ط٢، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م.
- ٢٧- البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٩٨٢م).  
 - أنساب الأشراف، ط٣، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م.  
 - فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧م.
- ٢٨- التادفي، محمد بن يحيى (ت ٩٦٣هـ/١٥٥٦م).  
 - قلاند الجواهر في مناقب عبد القادر، ط٣، القاهرة، ١٩٥٦م.

- ٢٩- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي (ت ٢٧٩هـ/٨٧٥م).  
 - سنن الترمذي، ط١، تحقيق ناصر الدين الأنباري، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ٣٠- التطيلي، بنيامين بن يونه (٥٦٩هـ/١١٧٣م).  
 - رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، ط١، المطبعة الشرقية، بغداد، ١٩٤٥م.  
 ٣١- ابن التعاويذي، أبي الفتح محمد بن عبيدالله بن عبدالله (ت ٥٨٣هـ/١١٨٧م).  
 - ديوان سبط ابن التعاويذي، اعتنى بنسخة وتصحيحه د.س مرجليوث، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩٠٣م.  
 ٣٢- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).  
 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩ج، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.  
 - الدليل الشافي على المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٦ج، ط٢، تحقيق فهمي محمد شلتوت، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.  
 ٣٣- الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محد بن إسماعيل (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م).  
 - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.  
 ٣٤- الجاحظ، أبو عثمان بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٢٨م).  
 - رسائل الجاحظ، ط١، قدم لها وشرحها علي أبو ملح، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م.  
 - البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، ط١، القاهرة، ١٩٤٨م.  
 - التبصرة بالتجارة، دمشق، ١٩٣٢م.  
 ٣٥- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن احمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٦م).  
 - رحلة ابن جبير، المسماة رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، طبعة جديد، منقحة بإشراف لجنة تحقيق التراث، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.  
 ٣٦- الجهشياري، أبي عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م).  
 - الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ط١، مطبعة مصطفى الباني، القاهرة، ١٩٣٨م.



- ٣٧- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م).  
 - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨ ج، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٣٨- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٢٩٨هـ/١٠٠٦م).  
 - الصحاح، تحقيق أحمد عبدالغفور، دار العلم للملايين، القاهرة، ١٩٨٤م.  
 - مناقب بغداد، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٣٤٢هـ.
- ٣٩- الجويني، عطا ملك (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م).  
 - تاريخ جهانكشاي، ترجمة محمد التونجي، ط١، دار الملاح، دمشق، ١٩٨٢م.
- ٤٠- الحريري، القاسم بن علي (ت٥١٦هـ/١١٢٢م).  
 - مقامات الحريري، بيروت، ١٩٦٥م.
- ٤١- الحسن، عبدالله بن محاسن بن العباس (ت٧٠٨هـ/١٣٠١م).  
 - آثار الأول في ترتيب الدول، طبعة بولاق، القاهرة، ١٩٢٥م.
- ٤٢- الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي ابن أبي الفوارس ناصر بن علي (٥٧٥هـ/١١٨٠م).  
 - كتاب أخبار الدولة السلجوقية، عنى بتصحيحه محمد إقبال، مراجعة لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٤٣- الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف (ت٦٤٤هـ/١٢٤٦م).  
 - التاريخ المنصوري، المسمى بـ تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، عنى بنشره وتحقيقه أبو العيد دودو، ومراجعة عدنان درويش، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١م.
- ٤٤- الحميري، محمد بن عبدالمنعم (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م).  
 - الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٤٥- ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد الشيباني (ت٢٤١هـ/٨٥٣م).  
 - المسند، المطبعة اليمنية، القاهرة، ١٣١٣هـ.
- ٤٦- الحنفي، محيي الدين أبي محمد عبدالقادر بن محمد بن محمد بن نصر الله ابن سالم ابن أبي الوفاء القرشي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م).  
 - الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ط٢، ٥ ج، تحقيق عبدالفتاح محمد الطور، هجر للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٣م.

- ٤٧- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت ق ٤هـ/١٠م).  
 - صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ٤٨- ابن خرداذبه، أبو القاسم عبدالله بن عبدالله (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م).  
 - المسالك والممالك، بغداد، ١٩٨١م.
- ٤٩- الخزرجي، موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن الزبيدي، (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م).  
 - كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بن علي الأكوح، مصر، ١٩١١م.
- ٥٠- خسرو، ناصر (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م).  
 - سفرنامه، نقله للعربية يحيى الخشاب، ط١، القاهرة، ١٩٤٥م.
- ٥١- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م).  
 - تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ ج، دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٥٢- ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).  
 - تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ ج، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م.
- ٥٣- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٦م).  
 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ ج، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ٥٤- الخوارزمي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م).  
 - مفاتيح العلوم، ط١، مصر، ١٩٢٣م.
- ٥٥- الخوارزمي، جمال الدين أبو بكر (ت ٣٨٣هـ/٩٩٣م).  
 - مفيد العلوم ومبيد الهموم، تحقيق عبدالله إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٨٠م.
- ٥٦- خواندمير، غياث الدين بن همام الدين (ت ٩٤٢هـ/١٥٣٩م).  
 - دستور الوزراء، ترجمة وتعليق حربي أمين سليمان، تقديم فؤاد عبدالمعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دم، ١٩٨٠م.

- ٥٧- الخوانساري، محمد بن سعيد بن محمد (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م).  
 - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، ٨ ج، تحقيق أسد الله إسماعيليان، عنى  
 بنشره مكتبة إسماعيليان، تهران ناصر خسرو، باشار مجيدي، قم قيايان ارم، د.ت.
- ٥٨- أبي داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٧م).  
 - سنن أبي داوود، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، حديث رقم ١٣٤٢.  
 ٥٩- ابن دبيثي، جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م).  
 - ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد، ٢ ج، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف، ج ١، مطبعة  
 دار السلام، بغداد، ١٩٧٤م، ج ٢، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٤م.  
 - المختصر المحتاج إليه، ٣ ج، في امج، دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، وهو  
 جزء ١٥ من كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، المجمع العلمي العراقي، بغداد،  
 ١٩٥١م.
- ٦٠- ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن أبي علي (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٥م).  
 - النبراس في تاريخ بني العباس، بغداد، ١٩٤٦م.
- ٦١- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن ايدير العلاني (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م).  
 - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطين، ٢ ج في امج، تحقيق محمد كمال الدين عز  
 الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٦٢- الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (ت أواخر ق ٦هـ/١٢م).  
 - الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق البشري الشوربجي، ط ١، الإسكندرية، ١٩٧٧م.
- ٦٣- الدمياطي، أحمد بن أيبك الحسامي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).  
 - المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، تحقيق محمد مولود خلف، مؤسسة الرسالة، دم، ١٩٨٦م.
- ٦٤- الدميري، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى (٨٠٨هـ/١٤٠٥م).  
 - حياة الحيوان الكبرى، ٢ ج، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٣٧م.
- ٦٥- الدوادار، ركن الدين بيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م).  
 - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد.س. ريتشاردز، الشركة المتحدة للتوزيع،  
 بيروت، ١٩٩٨م.

- ٦٦- الدواداري، أبي بكر عبدالله بن أبيك (ت ٦٩٩هـ/١٣٣٥م).  
 - كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨، تحقيق أولرخ هارمان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١م.
- ٦٧- الدياربكري، حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٩٦هـ/١٥٨٧م).  
 - تاريخ الخميس في أحوال أنفـس نفيس، ج٢، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٠م.
- ٦٨- الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).  
 - سير أعلام النبلاء، ج٢٣، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.  
 - العبر في خبر من غبر، ج٤، حققها وضبطها على مخطوطتين أبو هاجر محمد السعيد بن بسبوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.  
 - دول الإسلام، ط١، ج٢ في امج، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، ١٣٣٧هـ. أيضاً تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٤م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث (٤٤٠-٦٦٠هـ)، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتب العربي، بيروت، ١٩٩٦م.  
 - مختصر تاريخ الإسلام.  
 - وفيات سير أعلام النبلاء، ط١، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٧م.
- ٦٩- الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت ٦٠١هـ/١٢٠٤م).  
 - راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله من الفارسية إبراهيم أمين الشواربي وعبدالنعيم محمد حسنين وفؤاد عبدالمعطي الصياد، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٧٠- ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين الدمشقي الحنبلي (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م).  
 - الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، خرَج أحاديثه ووضع حواشيه، محمد حامد الفقهي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢م.

- ٧١- ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م).  
- الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩١م.
- ٧٢- الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد مرتضي الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م).  
- تاج العروس من جواهر القاموس، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، ١٩٦٦م.
- ٧٣- ابن الساعي، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب بن عثمان البغدادي (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م).  
- تاريخ ابن الساعي، تحقيق محمد القدحات، دار الفاروق، عمان، ٢٠١٠م.  
- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ج ٩، عنى بنسخه ونشره وإصلاح تصحيحه وتعليق حواشيه وعمل فهرسه مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، ١٩٣٤م.
- نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، ط ٢، حققه وعلق عليه مصطفى جواد، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ٧٤- ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر (ت ٩٢٦هـ/١٩٢٠م).  
- صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط ٢ ج، عنى به وحققه عمر عبدالسلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٣م.
- ٧٥- سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قزاوغي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م).  
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ٨، ق ٢+١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥١-١٩٥٢م.
- ٧٦- السبكي، تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م).  
- طبقات الشافعية الكبرى، ط ١، ج ٨، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، ١٩٧١م.
- ٧٧- السرخسي، شمس الدين (ت ٤٨٣هـ/١٠٩٠م).  
- المسيوك، مصر، ١٤٢٤م.
- ٧٨- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).  
- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط ١، بيروت، ١٩٧٠م.  
- بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط فينيس، تطوان، ١٩٥٨م.
- ٧٩- السمعاني، أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت ٥٦٢هـ/١١٦٧م).  
- الأنساب، ج ١١ في ٦ مج، تحقيق عبدالرحمن يحيى اليماني، ط ٢، نشر محمد أمين دمج، بيروت، ١٩٨٠م.

- ٨٠- سهراب، عاش في النصف الأول من (ق ٤هـ/ ١٠م).  
 - عجائب الأقاليم السبعة، مطبعة أدولف هولز، فيينا، ١٩٢٩م.
- ٨١- ابن سلام، أبو عبيدة القاسم (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م).  
 - الأموال، صححه محمد حامد الفقي، المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٥٣م.
- ٨٢- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٥٦م).  
 - المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.  
 - المخصص، مكتب التجارة، بيروت، د.ت.
- ٨٣- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م).  
 - تاريخ الخلفاء، ط٣، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٤م.  
 - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج٢ في ١مج، تحقيق خليل المنصور، بيروت، ١٩٩٧م.  
 - مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفاء، دن، القاهرة، ١٨٥٩م.
- ٨٤- أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).  
 - الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٤ج، ط١، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.  
 - الذيل على الروضتين، ط٢، عنى بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.
- ٨٥- ابن الشحنة، أبو الفضل محمد (ت ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م).  
 - روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، هامش الكامل في التاريخ، ج٧، ٨، ٩، مطبعة بولاق، ١٢٩٥م.
- ٨٦- ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م).  
 - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، دار الفكر، القاهرة، ١٩٦٠م.

- ٨٧- ابن شداد، عز الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٦م).  
- الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٦م.
- ٨٨- الشطنوفي، نور الدين أبي الحسن علي بن جرير اللخمي (ت ٧١٣هـ/١٣١٣م).  
- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني محيي الدين أبي محمد عبدالقادر الجيلاني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ٨٩- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم أحمد (٥٤٨هـ/١١٥٣م).  
- الملل والنحل، تحقيق محمد سيد الكيلاني، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٩٠- الشيزري، عبدالرحمن بن عبدالله بن نصر بن عبدالرحمن (ت ٥٩٠هـ/١١٩٣م).  
- المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق ودراسة علي عبدالله موسى، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٧م.
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشر السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٤٦م.
- ٩١- الصابوني، أبو حامد محمد (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م).  
- تكملة الإكمال في الأنساب والألقاب، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م.  
- أعيان العصر وأعيان النصر، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٩٠م.
- ٩٢- الصابي، أبو الحسن الهلال بن المحسن الحراني (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م).  
- الوزراء وتحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ودار أحياء الكتب العربية، دم، ١٩٥٨م.
- ٩٣- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٤م).  
- الوافي بالوفيات، ٢٤ج، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩١١م.
- نكت الهميان في نكت العميان، دار الصميعي، الرياض، ١٩١١م.
- ٩٤- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م).  
- تاريخ الطبري، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

- ٩٥- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م).  
 - كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٩م.
- ٩٦- ابن الطوير، أبي محمد المرتضي عبدالسلام بن الحسن (٦١٧هـ/١٢١٨م).  
 - نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ١٩٩٢م.
- ٩٧- ابن عبد الحق، صفي الدين عبدالمؤمن بن البغدادي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م).  
 - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٣مج، تحقيق علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٩٨- ابن العبري، جمال الدين بن هارون أبو الفرج الملطي (٦٨٥هـ/١٢٨٦م).  
 - تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.  
 - تاريخ الزمان، نقه إلى العربية الأب إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩١م.
- ٩٩- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م).  
 - بغية الطلب في تاريخ حلب، ١١ج، حققه وقدم له سهيل زكار، دن، دمشق، ١٩٨٨م.  
 - زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ج، عنى بنشره وتحقيقه ووضع فهرسه سامي السدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٨م.
- ١٠٠- ابن عذاري المراكشي (ت بعد سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م).  
 - البيان المغرب من أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ح. س، كولان. وإليفين بروفنسال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ١٠١- ابن عذبية، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشافعي المقدسي (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م).  
 - إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، تحقيق إحسان ذنون الثامري ومحمد عبدالله القدحات، طبعة دار ورد، عمان ٢٠٠٧م.
- ١٠٢- العسقلاني، عز الدين أبو البركات أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م).  
 - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشراقوي، مطبعة الثقافة الدينية، مصر ١٩٩٦م.
- ١٠٣- ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبو الفرج عبدالحَيّ (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م).  
 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط ١، ٨ج، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.



- ١٠٤- ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م).  
 - الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق وتقديم ودراسة قاسم السامرائي، نشریات المعهد الهولندي للأثار المصرية والبحوث العربية، لايدن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ١٠٥- ابن العميد، المكين جرجيس (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٣م).  
 - أخبار الأيوبيين، تحقيق كلود كاهن، دمشق، ١٩٥٨م.
- ١٠٦- ابن عنبه، أحمد بن علي الداودي الحسني (ت ٨٢٨هـ/١٤٢٤م).  
 - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، حقق نصوصه نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- ١٠٧- العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م).  
 - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أحمد أمين، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتب، لقاهرة، ١٩٨٧م.
- ١٠٨- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ/١١١١م).  
 - فضائح الباطنية، ط٢، تحقيق عبدالكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.
- إحياء علوم الدين، ٤ج، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ١٩٣٩م.
- ١٠٩- الغساني، إسماعيل بن العباس عماد الدين الأشرف (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م).  
 - العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاکر محمود عبدالمنعم، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٥م.
- ١١٠- الفاسي، تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٩م).  
 - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ٧ج، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- ١١١- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل الأيوبي (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٢م).  
 - المختصر في أخبار البشر، ٤ج، ط١، دار المعارف، القاهرة، د.ت.  
 - تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٤٨٠م.
- ١١٢- ابن الفراء، أبو الحسين محمد بن الحسين الحنبلي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م).  
 - طبقات الحنابلة، ٢ج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

- ١١٣- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م).  
 - تاريخ ابن الفرات، ٤ج، عنى بتحرير نصه ونشره حسن محمد الشماع، ج١، حوادث (٥٦٣-٥٦٧هـ)، ساعدت جامعة بغداد على طبعه، ج٢، حوادث (٥٨٧-٥٩٩هـ) ساعدت جامعة البصرة على طبعه، ك٥ ق١، حوادث (٦٠٠-٦١٥هـ) دار الطباعة الحديثة، البصرة، ١٩٧٠م.
- ١١٤- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى بن شهاب الدين (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).  
 - التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبي، الأردن، ١٩٩٢م.  
 - مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبدالقادر خريسات، وحسن النابودة، العين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٤م.
- ١١٥- ابن الفقيه، أبي عبدالله أحمد بن محمد الهمذاني (ت ٣٤٠هـ/٩٥٠م).  
 - مختصر كتاب البلدان، ط١، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦م.
- ١١٦- ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق بن تاج الدين الشيباني (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م).  
 - تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، ج٤ في ٤ ق، حققه مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٢م.  
 - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، عنى بطبعه المكتبة العربية، بغداد، طبع مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٣٢م.
- ١١٧- الفيروز آبادي، أبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (٨١٧هـ/١٤١٥م).  
 - القاموس المحيط، اعتنى به ورتبه إحسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية.
- ١١٨- ابن القاسم، يحيى بن الحسين بن الإمام (١٠٩٩هـ/١٦٨٨م).  
 - غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتابة العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.
- ١١٩- القرمانى، أبو العباس أحمد جليبي بن يوسف (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م).  
 - أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، مكتبة سعد الدين، دمشق. د.ت.
- ١٢٠- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م).  
 - آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

- ١٢١ - القضاء، أبي عبدالله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي (ت ٤٥٤هـ/١٠٥٦م).  
 - عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، تحقيق عبدالرحيم محمد عبدالحميد، دار الينابيع، عمان، ١٩٩٧م.  
 - أخبار العلماء بأخبار الحكماء، عني بتصحيحه محمد أمين، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٦هـ.
- ١٢٢ - القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي الفزاري (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م).  
 - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق نبيل خالد الخطيب، دار الفكر، بيروت،  
 - مآثر الأئمة في معالم الخلافة، ٢ج، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، بيروت، ١٩٦٠م.  
 ١٢٣ - القمي، عباس محمد رضا (ت ٨٧٧هـ/١٤٧٣م).  
 - الكنى والألقاب، ٣ج، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩م.  
 ١٢٤ - ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م).  
 - تاريخ أبي يعلى المعروف بتاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.  
 ١٢٥ - ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).  
 - مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠م.  
 - مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، تحقيق كوركيس عواد، وميخائيل عواد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٢م.  
 ١٢٦ - الكتاني، محمد عبدالحى.  
 - نظام الحكومة البنوية المسمى بالتراتب الإدارية، ط٢، تحقيق عبدالله الغامدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٩٩٠م.  
 ١٢٧ - الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م).  
 - فوات الوفيات، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبدال موجود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.  
 - عيون التواريخ، ١٢ج، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم داود، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.  
 ١٢٨ - ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٢٧٣م).  
 - البداية والنهاية، ١٤ج، مكتبة الإيمان، المنصورة.

- ١٢٩- ابن كنان، محمد بن عيسى (ت ١١٥٣هـ/١٧٤٠م).  
 - حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس للطباعة والنشر، لبنان، ١٩٩١م.
- ١٣٠- لسان الدين الخطيب، أبو عبدالله محمد عبدالله (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٣م).  
 - الحلل الموشيه في ذكر أخبار المراكشية، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٠١م.  
 - اللوحة البدرية في الدولة الناصرية، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.  
 - تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م.
- ١٣١- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م).  
 - أدب الوزير، تحقيق محمد سلمان داود، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٦م.  
 - أدب القاضي، تحقيق محيي هلال السرحان، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد، ١٩٧١م.  
 - الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ج ١، مصر، ١٩٦٦م.
- ١٣٢- المراكشي، محيي الدين عبدالواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٨هـ/١٢٥٠م).  
 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم عزب، دار الفرجان، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ١٣٣- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م).  
 - مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت.
- ١٣٤- ابن المعمار، أبو عبدالله محمد بن أبي المكارم الحنبلي (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).  
 - كتاب الفتوة، ط ١، حققه ونشره مصطفى جواد وآخرون، مطبعة شفيق، مكتبة المثني، بغداد، ١٩٥٨م.
- ١٣٥- مغلطاوي، الحافظ مغلطاوي بن قليج (ت ٧٦٢هـ/١٣٦٠م).  
 - الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح، ط ١، دار القلم، ١٩٩٦م.
- ١٣٦- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد (ت ٧٦٣هـ/١٣٦١م).  
 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.
- ١٣٧- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م).  
 - المقفى الكبير، ج ١٦، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.

- اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ٣ ج، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، جمال الدين الشيتال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ١، ٢، ط ٢، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.
- النقود الإسلامية المسمى بذور العقود في ذكر النقود، ط ٦، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٨م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م.
- ١٣٨- المكي، عبدالملك بن حسين الشافعي العاصمي (ت ١١١١هـ/١٦٩٨م).
- سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، ط ١، تحقيق عادل أحمد عبدالجواد وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- ١٣٩- ابن مماتي، أبو المكارم أسعد بن مهذب (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٨م).
- قوانين الدواوين، القاهرة، ١٩٩١م.
- ١٤٠- منجم باشي، أحمد بن لطف الله (ت ١١١٣هـ/١٧٠٢م).
- جامع الدول، الجلد الثاني، تحقيق د. علي أونكول، نشرات دار الكتب الأكاديمية، أزمير، ٢٠٠٠م.
- ١٤١- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م).
- لسان العرب المحيط، دار الحديث، القاهرة.
- ١٤٢- ابن منقذ، مؤيد علي أبو المظفر الشيزري (ت ٥٨٤هـ/١١٥٣م).
- كتاب الاعتبار، حررة فيليب حتي، دار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٨١م، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠م.
- ١٤٣- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م).
- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.
- ١٤٤- ابن النجار، محب الدين أبي عبدالله محمد بن محمود بن الحسن (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).
- ذيل تاريخ بغداد، ٣ ج، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية تحت إدارة السيد شرف الدين أحمد مدير دائرة المعارف العثمانية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٨١م.

- ١٤٥- النسوي، محمد بن أحمد (ألفه بعد سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م).  
 - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٥٣م.
- ١٤٦- نظمي زادة، مرتضي أفندي (ت ١١٣٦هـ/١٧٢٣م).  
 - كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٧١م.
- ١٤٧- النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الحوراني (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م).  
 - رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٦٠م.
- ١٤٨- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م).  
 - نهاية الإرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ج ٢٣ تحقيق أحمد كمال زكي، مراجعة محمد مصطفى زيادة، ج ٢٦، تحقيق محمد فوزي الفيل، ومراجعة محمد طه الحاجري، ج ٢٧، تحقيق سعيد عاشور ومراجعة محمد مصطفى زيادة، وفؤاد عبد المعطي الصياد، ج ٢٩، تحقيق محمد ضياء الدين الرئيس ومراجعة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دم، متعدد السنوات، مج ٦-٨، ج ٨، تحقيق علي أبو ملح ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ١٤٩- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م).  
 - جامع التواريخ، ٢مج، نقله للعربية محمد صادق نشأت وآخرون، مراجعة يحيى الخشاب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.  
 - التاريخ الغازاني، الدار الثقافية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- ١٥٠- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م).  
 - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.  
 ج ٢: تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر، د.ت.  
 ج ٣: تحقيق جمال الدين الشيال، مطبوعات إدارة إحياء التراث، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م.  
 ج ٤: تحقيق حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب، دم، ١٩٧٢م.  
 ج ٥: تحقيق حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٧م.
- التاريخ الصالحي، نص من المخطوط لوحة ١٢٣٥-١٣٧، الدراسة بعنوان نص جديد لابن واصل في انتزاع الكامل بن العادل دمشق من أخيه الملك الصالح، قدم له وعلق حواشيه الدكتور درويش النخيلي، مطبعة التوني، الإسكندرية، ١٩٨٦م.

- ١٥١- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م).  
 - تنمة المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردي، ط١، تحقيق أحمد رفعت البدرأوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠م.
- ١٥٢- اليافعي، أبي محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م).  
 - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ٤ج، وضع حواشيه خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- ١٥٣- ياقوت، شهاب الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).  
 - معجم البلدان، ط٢، ٧مج، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ١٥٤- اليزدي، محمد بن محمد بن عبدالله ابن النظام الحسيني (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م).  
 - العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمة وتحقيق عبدالنعيم حسنين، حسين أمين، طبع على نفقة جامعة بغداد، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٩م.
- ١٥٥- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٠هـ/٨٩٧م).  
 - تاريخ اليعقوبي، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م.  
 - مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم فلورد، دار الكتاب الجديد، ط٢، بيروت، ١٩٨٠م.
- ١٥٦- ابن أبي يعلى، القاضي محمد (ت ٥٢٦هـ/١١٣١م).  
 - طبقات الحنابلة، ط١، تحقيق أحمد عبيد، المكتبة العربية، ١٣٥٠م.
- ١٥٧- اليماني، تاج الدين عبدالباقي بن عبدالمجيد المخزومي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤١م).  
 - تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار العودة، بيروت، ١٩٦٥م.
- ١٥٨- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م).  
 - الخراج، ط١، تحقيق محمد الباجي، تونس، ١٩٨٤م.
- ١٥٩- اليونيني، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م).  
 - ذيل مرآة الزمان، ٣ج، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٥٤م.

### ثالثاً: المراجع العربية والمعربة

- ١٦٠- الأعظمي، علي ظريف.  
- مختصر تاريخ بغداد، مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٢٦م.
- ١٦١- الأفغاني، سعيد.  
- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٤م.
- ١٦٢- الأمين، حسن.  
- الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، بيروت، ١٩٧٦م.
- ١٦٣- الأنباري عبدالرزاق علي.  
- النظام القضائي في بغداد في العصر العباسي، مطبعة النعمان، بغداد ١٩٧٧م.
- ١٦٤- إسماعيل، غالب.  
- تقويم مسكوكات سلجوقية، معهد الدراسات التاريخية، أنقرة، ١٩٧١م.
- ١٦٥- إقبال، عباس.  
- تاريخ المغول، ترجمة عبدالوهاب علوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٠م.
- ١٦٦- أمين، أحمد.  
- ضحى الإسلام، ج١، ط١٠، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.  
- ظهر الإسلام، ط٣، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ١٦٧- أمين، حسين.  
- المدرسة المستنصرية، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٠م.
- ١٦٨- بارتولد، فلاديمير.  
- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط٤، مصر. د.ت.  
- تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨١م.
- ١٦٩- الباشا، حسن.  
- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م.



- ١٧٠- براون، ادوارد. - دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ١٧١- بركلمان، كارل. - تاريخ الشعوب الإسلامية (الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها)، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦١م.
- ١٧٢- بروي، أدوار وآخرون. - تاريخ الحضارات العام، نقله للعربية، يوسف أسعد داغر وفريدوم داغر، ط١، بيروت، ١٩٦٥م.
- ١٧٣- ثابت، نعمان. - العسكرية في عصر العباسيين، راجعه وعلق عليه حامد أحمد الورد، مديرية المطابع العسكرية، بغداد، ١٩٨٧م.
- ١٧٤- جب، هامتلون. - الجندية في الدولة العباسية، ط٢، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٥٦م.
- ١٧٥- جمالية، نهاوند محمد. - دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرون، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م.
- ١٧٦- الجميلي، رشيد عبدالله. - التربية والتعليم عند الفاطميين في مصر، عمان، ٢٠١٠م.
- ١٧٧- دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي (٥٢١-٦٣١هـ)، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٠م.
- ١٧٨- إمارة الموصل في العصر السلجوقي (٤٨٩-٥٢١هـ)، ساعدت جامعة بغداد على نشره، بغداد، ١٩٨٠م.
- ١٧٩- الجنابي، خالد جاسم. - تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤م.

- تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩م.
- الجيش والشرطة، بغداد، ١٩٨٥م.
- ١٧٨- ابن جنيد، يحيى محمود.
- المستعصم بالله العباسي (٦٤٠-٦٥٦هـ)، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م.
- ١٧٩- جهادية القرغرلي.
- العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأولى (١٣٢-٢٣٢هـ)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.
- ١٨٠- جواد، مصطفى.
- سيدات البلاط العباسي، دار الفكر للجميع، بيروت، د.ت.
- دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً، بغداد، ١٩٥٨م.
- المعاهد الخيرية، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- ١٨١- حتى، فيليب.
- تاريخ العرب المطول، ط٣، دار الكشاف، بيروت، ١٩٦١م.
- موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.
- مقدمة كتاب الجامع المختصر لابن الساعي.
- ١٨٢- حداد، جورج الحسامي.
- مختصر تاريخ الحضارة العربية، ط٢، دمشق، ١٩٥٠.
- ١٨٣- حسن، إبراهيم حسن.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٤ج، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٧م.
- النظم الإسلامية، ط٤، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ١٨٤- حسن، زكي محمد.
- فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤٨م.
- ١٨٥- حسن، شبر.
- خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد، دار الملاك، بيروت، ٢٠٠١م.

- ١٨٦- حسنين، عبدالنعيم محمد.
- سلاجقة إيران والعراق، ط٢، مطبعة السعادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ١٨٧- حسين، أحمد محمود.
- قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ١٨٨- حسين، جميل حرب محمود.
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ط١، تهامة، ١٩٨٥م.
- ١٨٩- الحسيني، محمد باقر.
- النقود العربية الإسلامية ودورها الحضاري والإعلامي، الموسوعة الصغيرة، دائرة الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٥م.
- ١٩٠- حلمي، أحمد كمال الدين.
- السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٥م.
- ١٩١- حمدي، حافظ أحمد.
- الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، د.ت.
- الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٥٠م.
- ١٩٢- حنفي، علاء الدين علي حليبي بن أمر الله.
- طبقات الحنفية، دار ابن الجوزي، عمان، ٢٠٠٣م.
- ١٩٣- الخازن، وليم.
- الحضارة العباسية، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٢م.
- ١٩٤- الخالدي، إسماعيل عبدالعزيز.
- العالم الإسلامي والغزو المغولي، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٥٤م.
- ١٩٥- الخالدي، فاضل عبداللطيف.
- النظم في العراق في أواخر العصر العباسي من (٤٤٧-٦٥٦هـ)، جامعة القاهرة، ١٩٧٢م.
- ١٩٦- خصباك، جعفر حسين
- العراق في عهد المغول الإيلخانيين، (٦٥٦-٧٣٦هـ)، ط١، مطبعة، العائني، بغداد، ١٩٦٨م.

- ١٩٧ - الخضري، محمد بك.
- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، مصر، ١٩٦٩م.
- ١٩٨ - الخلف، جاسم محمد.
- جغرافية العراق الطبيعية، ط٣، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ١٩٩ - خلفات، جمال يوسف وبهاء الدين محمد أسعد.
- العسكرية الإسلامية، وقادتها العظام، ط١، مطبعة المنار، الأردن، ١٩٦١م.
- ٢٠٠ - خليل، عماد الدين.
- عماد الدين زكي، الدار العلمية، بيروت، ١٩٧١م.
- ٢٠١ - الدوري، عبدالعزيز عبدالكريم.
- مقدمة في تاريخ العراق الاقتصادي، ط٤، بيروت، ١٩٧٤م.
- دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان، بغداد ١٩٤٥م.
- الجذور التاريخية للشعبوية، ط٤، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٦م.
- النظم الإسلامية، ط١، وزارة المعارف العراقية، مطبعة نجيب، بغداد، ١٩٥٠م.
- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط٢، بيروت، ١٩٧٤م.
- ٢٠٢ - ديورنت، ول.
- قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط٢، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ٢٠٣ - الرفاعي، أنور.
- الإنسان والحضارة العربية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م.
- الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣م.
- ٢٠٤ - الرفيعي، عبدالأمير.
- العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ٢٠٥ - رؤوف، عماد عبدالسلام.
- مدارس بغداد في العصر العباسي، ط١، مطبعة البصري، بغداد، ١٩٦٦م.
- ٢٠٦ - روزنتال، فرانز.
- علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

- ٢٠٧- الرئيس، محمد ضياء الدين.
- الخراج في الدولة الإسلامية، ط١، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ٢٠٨- زامباور.
- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة سيدة إسماعيل كاشف، حافظ أحمد حمدي وأحمد ممدوح حمدي، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥١م.
- ٢٠٩- الزبيدي، السيد محمد مرتضى.
- تاج العروس، بنغازي، د.ت.
- ٢١٠- الزبيدي، محمد حسين.
- العراق في العصر البويهي، التنظيمات السياسية والإدارية والاقتصادية، دار النهضة العربية، بغداد، ١٩٦٩م.
- ٢١١- الزركلي، خير الدين.
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٢١٢- زكار، سهيل.
- تاريخ العرب السياسي من فجر الإسلام حتى سقوط بغداد، د.م، ١٩٧٤م.
- ٢١٣- زيدان، جورج.
- تاريخ التمدن الإسلامي، راجعه وعلق عليه حسين مؤنس، ٥ج، دار الهلال، بيروت، ١٩٥٣-١٩٥٧م.
- تاريخ آداب اللغة العربية، ٤ج، دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٤م.
- ٢١٤- الساعدي، محمد الشيخ حسين.
- مؤيد الدين ابن العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٢م.
- ٢١٥- سالم، السيد عبدالعزيز.
- التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٩٧م.
- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٥٢م.
- ٢١٦- السامرائي، نعمان عبد الرزاق.
- النظام السياسي في الإسلام، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٩م.

- ٢١٧- السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون.
- تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٠-١٢٥٨م)، مديرية دار الكتب للطباعة، الموصل، ١٩٨٨م.
- ٢١٨- سرور، محمد جمال الدين.
- الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٢١٩- سليمان، أحمد السعيد.
- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، القاهرة، ١٩٦٩م.
- ٢٢٠- سليمان، محمود حسن.
- تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، بغداد، ١٩٦٩م.
- ٢٢١- سوادي، عبد محمد الرويشدي.
- إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ، ط١، مطبعة الرشاد، بغداد، ١٩٧١م.
- ٢٢٢- سوسة، أحمد.
- تطور الري في العراق، وبغداد ١٩٤٦م.
- ٢٢٣- سيد، أيمن فؤاد.
- المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، أعدته للنشر عن العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ٢٢٤- الشريف، أحمد إبراهيم وحسن أحمد محمود.
- العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ٢٢٥- الشيبلي، محمد رضا.
- مؤرخ العراق ابن الفوطي، ٢ج، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، ١٩٥٨م.
- ٢٢٦- الشبخلي، صباح إبراهيم سعيد.
- الأصناف في العصر العباسي، نشأتها وتطورها، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٦م.
- ٢٢٧- الصالح، صبحي.
- النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط٤، بيروت، ١٩٧٨م.

- ٢٢٨- صبري، سليم.
- الأتراك الخوارزميون في الشرق الأدنى الإسلامي، (٦٢٨-٦٤٤هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- ٢٢٩- الصياد، فؤاد عبدالمعطي.
- المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٢٣٠- العابد، صالح محمد وآخرون.
- العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣م.
- تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، ١٩٧٠م.
- ٢٣١- عاشور، سعيد عبدالفتاح.
- التاريخ العباسي والأندلسي، مكتب كريدية إخوان، بيروت، ١٩٧٤م.
- الحركة الصليبية، ٢، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.
- أضواء جديدة على الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٦٤م.
- العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٢٣٢- العاصي، محمد سلامة.
- التوافق التاريخي بين الحركتين الصليبية والصهيونية، ط١، عمان، ٢٠١٠م.
- ٢٣٣- العبادي، أحمد مختار.
- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م.
- ٢٣٤- عبدالغني، عارف.
- نظم الاستخبارات عند العرب والمسلمين، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١م.
- ٢٣٥- عبدالفتاح، صفاء حافظ.
- نظم الحكم في الدولة العباسية من أوائل القرن الثالث الهجري إلى دخول بني بويه بغداد، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- ٢٣٦- عبد المولى، محمد أحمد.
- العيارون والشطار والبغادة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م.

- ٢٣٧- العبود، عبدالكريم توفيق.
- الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٦م.
- ٢٣٨- العبود، نافع توفيق.
- = الدولة الخوارزمية في الشرق الأدنى الإسلامي (٦٢٨-٦٤٤هـ)، ط١، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٨م.
- الدولة الخوارزمية (٤٩٠هـ-١٠٩٧م/٦٢٨هـ-١٢٣١م)، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٨م.
- ٢٣٩- العريني، السيد الباز.
- المغول، دار النهضة، بيروت، ١٩٦٧م.
- مؤرخو الحروب الصليبية، دار النهضة، القاهرة، ١٩٩٢م
- ٢٤٠- العزاوي، عباس.
- تاريخ الضرائب العراقية من صدر الإسلام إلى آخر العهد العثماني، بغداد، ١٩٥٩م.
- تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، ١٩٧٠م.
- ٢٤١- علي، جواد.
- تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٢٤٢- علي، سيد أمير.
- مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، ترجمة رياض رأفت، مطبعة التأليف، القاهرة، ١٩٣٨م.
- ٢٤٣- العمري، أكرم ضياء.
- موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ساعدت جامعة بغداد على نشره، دار العلم، دمشق، بيروت، د.ت.
- ٢٤٤- عنان، محمد عبدالله.
- تراجم إسلامية، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٠م.
- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ٢٤٥- عواد، محمود
- الجيش والقتال في صدر الإسلام، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٧م.



- ٢٤٦- الغامدي، مسفر بن سالم
- الجهاد ضد الصليبيين في المشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر (٤٩١-٥٦٩هـ)، (١٠٩٧-١١٧٣م)، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ١٩٨٦م.
- ٢٤٧- غنيمه، يوسف رزق الله.
- تجارة العراق قديماً وحديثاً، بغداد، ١٩٢٢م.
- ٢٤٨- غوانمة، يوسف.
- إمارة الكرك الأيوبية، منشورات بلدية الكرك، الكرك، ١٩٨٠م.
- ٢٤٩- فتحي، أبو يوسف.
- الدولة العباسية والمشرق الإسلامي، ط١، دار المؤيد، الرياض، ٢٠٠٧م.
- ٢٥٠- فرج، محمد.
- المدرسة العسكرية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- ٢٥١- الفقي، عصام الدين عبدالرؤوف.
- دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م
- ٢٥٢- فلهاوزن، يوليوس.
- تاريخ الدولة العربية وسقوطها، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده، القاهرة، ١٩٦٨م، كلكتا، ١٩٢٢م.
- ٢٥٣- فهد، بدري محمد.
- تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥١٢-٦٥٦هـ/١١٥٧-١٢٥٨م). مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٣م.
- العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، بغداد، ١٩٩٧م.
- ٢٥٤- فوزي، فاروق عمر.
- الخلافة العباسية (السقوط والانهار)، ٢ج، ط١، عمان، ٣٠٠٣م.
- النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية الأخيرة (٢٤٧-٦٥٦هـ)، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، سلسلة بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٩م.
- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية، (١-٦٥٦هـ/٦٢٢-١٢٥٨م)، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٨م.

- الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية (٢٤٧-٣٣٤هـ)، ط٢، مكتبة المنشى، بغداد، ١٩٧٧م.
- الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة، دم، ١٩٨٣م.
- حكام بلاد فارس والعدوان على العراق، بغداد، ١٩٨٨م.
- ٢٥٥- فلاديمير، ستوف.
- حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية، ترجمة سعد الغامدي، ط١، الرياض، ١٩٨٣م.
- ٢٥٦- القذحات، محمد عبدالله.
- الحياة السياسية في بغداد في العصر العباسي الأخير، دار البشير، ٢٠٠٥م.
- ٢٥٧- القزاز، محمد صالح داود.
- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القضاء، النجف، ١٩٧١م.
- ٢٥٨- كاهن، كلود.
- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، بيروت، ١٩٧٢م.
- ٢٥٩- الكبسي، حمدان.
- النظام النقدي في الدولة العربية الإسلامية، ط١، بغداد، ١٩٨٨م.
- ٢٦٠- الكساب، علي عبدالكريم.
- الألقاب ودلالاتها على نقود الخليفة المستعصم بالله، ط١، عمان، ٢٠١٠م.
- ٢٦١- الكناني، محمد بن عقلة.
- أشرف الزمان في تاريخ الأعيان، ط١، عمان، ٢٠١٠م.
- ٢٦٢- كنعان، محمد أحمد
- تاريخ الدولة العباسية وما رافقها من الممالك (خلاصة تاريخ ابن كثير)، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٩٨م.
- ٢٦٣- كوبرلي، محمد فؤاد.
- قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٢٦٤- كورنيل، أرنست.
- الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، بيروت، ١٩٦٦م.

- ٢٦٥- كوك، ريجارد.  
 - بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، بغداد، ١٩٦٢م.
- ٢٦٦- لباد، ميشيل.  
 - الإسماعيليون والدولة الإسماعيلية بمصياف، د.م، ١٩٦٢م.
- ٢٦٧- لسترانج، كي.  
 - بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركويس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤م.
- بغداد في عهد الخلافة العباسية، ط١، بغداد، ١٩٣٦م.
- ٢٦٨- لويس، برنارد.  
 - الدعوة الإسماعيلية، ترجمة سهيل زكار، بيروت، ١٩٧١م.
- ٢٦٩- ماجد، عبدالمنعم.  
 - تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م. العصر العباسي الأول، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ٢٧٠- متر، آدم.  
 - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة، ترجمة محمد عبدالهادي، أبو ريدة، ٢ج، بيروت، ١٩٦٧م.
- ٢٧١- محفوظ، جمال.  
 - فن الحرب في الجاهلية والإسلام، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.م، ١٩٨٧م.
- ٢٧٢- مدني، صلاح.  
 - تاريخ الدولة العباسية سياسياً وحضارياً، دار المعارف، الرباط، ١٩٧٧م.
- ٢٧٣- مصطفى، شاكرو.  
 - التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣، دار العلم للملايين، د.م، د.ت.
- ٢٧٤- معروف، بشار عواد.  
 - الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مطبعة عيسى البابي الحلبي، وشركاه، القاهرة، ١٩٧١م.
- ٢٧٥- معروف، ناجي.  
 - تاريخ علماء المستنصرية، ط٢، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٥م.

- المدارس الشرايية ببغداد وواسط ومكة، ط٢، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٧م.
- مدارس واسط، نشر ناجي معروف، بغداد، ١٩٦٦م.
- حياة إقبال الشرايي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٦م.
- المدخل في تاريخ الحضارة العربية، ط١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٠م.
- ٢٧٦- المناصير، محمد عبدالحفيظ.
- الجيش في العصر العباسي الأول، ط١، دار مجدلاوي، عمان، ٢٠٠٠م.
- ٢٧٧- المنجد، صلاح الدين.
- بين الخلفاء والخلاء في العصر العباسي، دار الحياة، بيروت، ١٩٥٧م.
- معجم أماكن الفتوح، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٢٧٨- مؤنس، حسين.
- أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ٢٧٩- الناطور، شحادة وآخرون.
- النظم الإسلامية التشريعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والدفاعية، ط١، دار الأمل للنشر، اربد، ١٩٩٢م.
- ٢٨٠- النبراوي، فتحية.
- تاريخ النظم والحضارة والإسلام، ط١٤، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- ٢٨١- النقشبندي، ناصر السيد محمود.
- الدينار الإسلامي، بغداد، ١٩٥٣م.
- ٢٨٢- النور، عبدالله بن أحمد.
- مختصر من تاريخ اليمن، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ٢٨٣- الهاشمي، رحيم كاظم محمد وآخرون.
- الحضارة العربية الإسلامية، الدار المصرية، القاهرة، د.ت.
- ٢٨٤- ولز، هربت جورج.
- معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبدالعزيز جاويد، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ٢٨٥- اليافي، عمر أبو نصر.
- قلعة ألموت، لجنة النشر العربية، بيروت، ١٩٤٥.

٢٨٦- البيوزبكي، توفيق سلطان.

- دراسات في النظم العربية والإسلامية، جامعة الموصل، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٨٨م.

#### رابعاً: المراجع الفارسية

٢٨٧- المستوفي، حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر القزويني، (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣١م).

- تاريخ كزيدة، جاب أول، مؤسسة انتشارات، أمير كبير، تهران، ١٣٦٢هـ، هـ، ش.

#### خامساً: الدوريات والمقالات العربية

٢٨٨- الأنباري، عبد الرزاق علي. النظام القضائي، بحث منشور ضمن موسوعة حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٤م.

٢٨٩- بصرى، صبري.

- العراق طريق تجاري عالمي، مجلة غرفة تجارة بغداد، ع ٨، سنة ٣، بغداد، ١٩٤٠م.

٢٩٠- بطاينة، محمد ضيف الله.

- الجيش الإسلامي نشأته وتطوره، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٣، السنة ١٣، بغداد، ١٩٨٧م.

- القضاء في الإسلام، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٢، السنة ١٣، بغداد، ١٩٧٨م.

٢٩١- بيليايف.

- الحالة الاقتصادية في عهد الخلافة العباسية، ترجمة جليل كمال الدين، مجلة المورد، مج ٨، ع ٤، بغداد، ١٩٧٣م.

٢٩٢- التكريتي، محمود ياسين.

- الأيوبيين في اليمن، تاريخهم السياسي من (٥٦٩-٦٢٦هـ)، آداب الرفادين، ع ١٢، الموصل، ١٩٨٠م.

٢٩٣- جواد، مصطفى.

- المدرسة المستنصرية، مجلة سومر، ع ٤، مج، بغداد، ١٩٥٨م.

- الربط البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية، مجلة سومر، مج ١٠، ج ٢، ١٩٥٤م.

- ٢٩٤- الدوري، عبدالعزيز عبدالكريم.
- نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع ١٤، ١٩٥٩م.
- ٢٩٥- الزيلعي، أحمد عمر.
- "دراهم رسولية مظفرية نقش عليها اسم الخليفة المستعصم بالله بعد وفاته، دراسة في مغزاها السياسي وطراز سكها"، مجلة اليرموك للمسكوكات، مج ٥، ١٩٩٣م.
- ٢٩٦- السامرائي، عبدالجبار محمود.
- حصار المغول للعاصمة بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، المورد، مج ٢٦، ع ٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ٢٩٧- سوسة، أحمد.
- الفيضانات وغرق بغداد في العصر العباسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ١٠، بغداد، ١٩٦٢م.
- ٢٩٨- الشامي، أحمد.
- العلاقات التجارية بين الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى، مجلة المؤرخ العربي، ع ١٢، بغداد، ١٩٨٠م.
- ٢٩٩- عبداللطيف، كانو.
- دراسة عن المسكوكات الإسلامية، مجلة الوثيقة، تصدر عن مركز الوثائق التاريخي بدولة البحرين، ع ٢، السنة الأولى، يناير، ١٩٨٣م.
- ٣٠٠- العزاوي، عباس.
- تاريخ النقود العراقية، مجلة غرفة تجارة بغداد، ع ١٤، السنة الرابعة، بغداد، ١٩٤١م.
- ٣٠١- العقيلي، محمد أرشيد.
- دور العيارين والشطار في حرب الأمين والمأمون، مجلة دراسات تاريخية، ع (٤٩)-٥٠، دمشق، ١٩٩٤م.
- ٣٠٢- العلي، صالح أحمد.
- قضاة بغداد في العصر العباسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، ع ١٨، سنة ١٩٦٩.

- ٣٠٣- العميد، طاهر مظفر .
- دور المدارس الأثرية في التعليم في العصر العباسي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع١٤، ١٩٥٩م.
- ٣٠٤- غنيمه، يوسف رزق الله.
- صناعات العراق في عهد العباسيين، مجلة غرفة بغداد، ج١، ١٩٤١م.
- ٣٠٥- فوزي، فاروق عمر .
- نشأة الجيش النظامي في الإسلام وتطوره حتى منتصف القرن الثالث الهجري، وقائع ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي، ١٩٨٤م.
- الجند الأموي والجيش العباسي، مجلة آفاق عربية، بغداد، ع٢، ١٩٧٩-١٩٩٨م.
- ٣٠٦- الفيل، محمد رشيد.
- الحالة الاقتصادية لمدينة بغداد أثناء الحكم الإيلخاني (١٢٥٨-١٣٣٦م)، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع١٦، بغداد، ١٩٦٣م.
- ٣٠٧- الكرمل، أنستاس، ماري.
- الحياكة في العراق، مجلة غرفة تجارة بغداد، ع١، السنة الرابعة، بغداد، ١٩٤١م.
- ٣٠٨- المياح، برهان نزر محمد علي.
- خانات من القرن التاسع وحتى مطلع القرن العشرين، مجلة المورد، مج٨، ع٤، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م.
- ٣٠٩- ناجي، معروف.
- تاريخ علماء المستنصرية، مجلة الأقلام، السنة الثانية، كانون الأول، ٢مج، بغداد، ١٩٦٥م.
- ٣١٠- نوري، دريد عبدالقادر.
- الشرطة في العراق خلال العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، ع٢٩، الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٨٦م.
- ٣١١- الهتي، صبري فارس.
- أنهار بغداد، مجلة المورد، بغداد، ١٩٧٩م.
- ٣١٢- الهلالي، محمد مصطفى.
- الفتوة والفروسية العربية والإسلامية، المورد، ع٤، مج١٢، وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، ١٩٨٣م.

- ٣١٣- الموسوعة العربية، النسخة العربية.  
 - بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت.  
 - الموسوعة الإسلامية.  
 ٣١٤- الموسوعة العربية، النسخة العربية.  
 ٣١٥- دائرة المعارف الإسلامية:  
 - فريد وجدي، مادة وزر.  
 - هارثمان، مادة دجلة.  
 - زمباور، مادة حسبة.  
 - سترك، مادة بطيحة.  
 ٣١٦- إبراهيم أنيس وآخرون.  
 - المعجم الوسيط، أشرف على طباعته حسن عطية، ومحمد شوقي أمين.

#### سادساً: الرسائل الجامعية:

- ٣١٧- الأصبحي، آلاء أحمد، المدرسة الأشرفية بتعز زمن الدولة الرسولية في اليمن (٦٢٦-  
 ٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤م)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠٢م.  
 ٣١٨- الجالودي، عليان عبدالفتاح محمد، تطور السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي  
 (٤٤٧هـ/١٠٥٥م-٥٩٠هـ/١١٩٣م)، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٩٩٦م.  
 ٣١٩- خفاجي، محمد توفيق، تطور النظم الإدارية والمالية في بلاد العراق والفرس من مستهل  
 العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، إشراف  
 محمد جمال الدين سرور، القاهرة، ١٩٦٦م.  
 ٣٢٠- خياط، ملك، السيدة زبيده ودورها السياسي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠١م.  
 ٣٢١- الربيدي، فاطمة يحيى زكريا، سلطنة سلاجقة الروم في الأناضول منذ الغزو المغولي وحتى  
 سقوطها (٦٤٠-٧٠٨هـ/١٢٤٢-١٣٠٨م)، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، ٢٠٠٤م.  
 ٣٢٢- عبد الحسين، علي بن أحمد، بيت المال في بغداد خلال العصر العباسي الأول (١٣٢-  
 ٢٣٢هـ)، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، ١٩٨٩م.  
 ٣٢٣- عبدالله، محيي الدين، يوسف بن تاشفين والأندلس (٤٧٩-٥٠٠هـ/١٠٨٦-١١٠٦م)، رسالة  
 ماجستير، إشراف الأب الدكتور لويس بوزية جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٩٧م.



- ٣٢٤- العبدلي، عائشة مانع، إمارة الحج في عصر الدولة المملوكية وأثرها على الأوضاع الداخلية بمكة المكرمة (٦٤٨-٩٢٣هـ)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٩٩م.
- ٣٢٥- العرامشي، عبدالحكيم محمد، الدولة الرسولية في عهد السلطان المظفر الأول يوسف بن عمر (٦٤٧-٦٩٤هـ)، رسالة ماجستير، جامعة عدن، ٢٠٠٦م.
- ٣٢٦- العزي، محمد فياض محمد، الخلافة بين الجيش والدولة في ضل العباسيين خلال الفترة (٢٤٧-٣٣٤هـ/٨٦١-٩٤٥م)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠١م.
- ٣٢٧- العيدي، إخلاص محمد، عطا ملك الجويني ودوره السياسي والثقافي (٦٠٣-٦٨١هـ/١٢٢١-١٢٨٢م)، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، ٢٠٠٤م.
- ٣٢٨- فضل محمد، صالح محمد، الحياة العلمية في اليمن في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، (عصر الدولة الرسولية)، رسالة ماجستير، جامعة عدن، ٢٠٠٦م.
- ٣٢٩- القزاز، عبدالسلام محمد يونس، الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣-١٧٤م)، رسالة ماجستير، إشراف عبدالمنعم رشاد، جامعة الموصل، ١٩٨٨م.
- ٣٣٠- كاتب، غيداء خزنة، الخراج (ضريبة الأرض) بين الواقع التاريخي والنظرية الفقهية من صدر الإسلام حتى نهاية العصر العباسي الأول، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢م.
- ٣٣١- الكعبي، علياء سالم، الجيش العباسي تطوره وتنظيماته (٢١٨-٢٨٩هـ/٨٣٣-٨٩٤م). جامعة الشارقة. رسالة ماجستير، ٢٠٠٧م.
- ٣٣٢- مبيضين، فادي موسى، الملك الناصر داود (ملك الكرك) شاعراً، رسالة ماجستير، إشراف شفيق الرقب، جامعة مؤتة، ٢٠٠٥م.
- ٣٣٣- المجالي، بيان، المأمون وعصره، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م.
- ٣٣٤- مصطفى، حسين عبدالرحيم، دور عبدالمؤمن بن علي الكوفي بنشر دعوة ابن تومرت وإقامة دولة الموحدين (٥١٠-٥٥٥هـ)، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣م.
- ٣٣٥- المعاينة، زريف مرزوق، نشأة وتطور الدواوين في صدر الإسلام، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٨٥م.
- ٣٣٦- موسى، رائده أحمد علي، الثغر الأندلسي من الفتح حتى السقوط (٩٢-٦٢٧هـ/٧١٠-١٢٣٠م)، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م.
- ٣٣٧- موسى، عز الدين عمر، تنظيمات الموحدين ونظمهم في المغرب، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، ١٩٦٩م.

- 338- Arnold, Thomas; w, The caliphate.
- 339- Balafier Mohamed, Tresors et collections des Monnaies Islamiques du Musees du yemen, thes de Doctorat, universite de Sorbonne paris, london, 1994 tomell.
- 340- J.A. Boyle Juvayni And Rashed Al-Din As Sources on the History of the Mongols, London, No Jate.
- 341- Caml, Med, Hist Cambridge Medieval History Vol,4.
- 342- Duri . A.A: Baghded, The Encyclopedia of Islam, Leiden, Brill, 1979.
- 343- Grousset, Rene, L'Empire des steppes, paris, 1948.
- 344- Hartog, leo. de. Genghiskhan, conqueror of the world, london, 1989.
- 345- John, Andrew Boyle "The Death of the last, Abbasid caliph" Jornal of semitic studies vol, 6, No2.
- 346- Khashab, Yahua-El. "The Islamic conept of state", in Buuetion of the faculty of cairo faculty of arts. Vol. 18m 1956m 001-7.
- 347- Rashad, Abdul-Munim, The Abbasid caliphate (575H-1179M/656H-1258M), University of London, london, 1963.
- 348- Runciman, Ahistory of the crusades At the university press,1988.
- 349- Rupen, Mongolia, The land, The Encyclopedia of Americana, Vol, 19.
- 350- Stanley, Iane-Poole, Catalogue of oriental coins in British Museum, 10 vols, Londa 1875.
- 351- Terncewise The wars of the crasades, osprey No. date.
- 352- The Travels of Marco polo, (Edited by Monuel Komroff).
- 353- Von Hammer, Histoire de order des Assassins, 1968.

Abstract  
**Almusta'sem Billah- the Last Abbasid Caliph in Baghdad  
(640H/1242AD- 656H/1258AD)**

PREPARED BY  
**Asma Farhan Abdul-Rahman Ash-Sharab**

Supervised by  
**Prof. Sulaiman Al-Kharabshah**

This study deals with the ruling period of Almusta'sem Billah-the 37<sup>th</sup> Caliph during the period (640H/1242AD- 656H/1258AD). Historian called this period (Revival of the Caliphate) or (the Final Awakening) that began during the Caliph An-Naser Li-Deen Allah (575H/1179AD-622H/1225AD), especially after the independence of the Caliphate and the liberation from the Seljuk dominance. His time was a period of welfare, prosperity and relative stability of the Caliphate despite the external threat of Mughal during all of the ruling of al-Musta'sim Billah. The emergence of the Mughal, their invasion of the Islamic World , the fall of Baghdad and assassination of the Caliph Al-Musta'sim Billah- the last Abbasid Caliph in Baghdad, and their destruction and sabotage of the Islamic countries in general and Iraq in particular, all these are considered as a period of transition in the Islamic History.

This period has aroused my strong interest during history study. This desire was emphasized when I began reading and searching for a title for my dissertation. Thus, I have determined to study this period and implement comprehensive and scientific research methods. This study contains the Caliph's lifetime, ruling period, achievements and other interests since his succession until he was killed by the Mughal . I also addressed some issues related to what was said about Almusta'sim Billah and his Minister Ibn Al-A'lqami and traced the historians opinions in these issues.

This study consists of five chapters, and a section for analysis of resources in which historical importance of these resources were discussed. This section also highlights the significance of these resources for this research as well as its importance and method of study. Also, I have included appendices of maps, correspondence between Almusta'sim Billah and Holako, and samples of currency used during the ruling of Almusta'sim Billah and remained after he passed away.

**Chapter One** is about the lifetime of Almusta'sim Billah and his personality in terms of : his ancestry, title, birth, as well as his upbringing and his family; explaining that Almusta'sim Billah grew in Bagdad. He was coeval with three Abbasid Caliphs during his childhood and youth. I also studied in this chapter the homage of Almusta'sim Billah to be the caliph and the circumstances surrounding that issue. I also addressed his qualities as described by some historians (i.e. whether positive or negative

qualities). Al-Musta'sim Billah had constructional and scientific achievements in terms of opening the so called buildings "ArbiTah", schools, and libraries. I also clarified his ring inscription. Then, I studied and how this Caliph passed away in light of the historians' recounts.

**Chapter Two** is divided into two sections. The first is about the internal situation of the Abbasid Caliphate during his ruling in terms of his efforts in conquering the internal strife and the spread of chaos, disorder, insecurity and his role to face all of these problems. Moreover, I have discussed Sufism during his ruling. He was keen to create ArbiTah- special buildings- in different parts of Baghdad, and endowed them to Sufis. Among some of the aspects of the Caliphs' interests in Sufis were designating some of them as assistants, entourages, and messengers to the kings of the other countries.

I also mentioned the role of the princes and senior statesmen in political life and public life during the ruling of Al-Musta'sem Billah.

The second section of this chapter is about the external relationship of the Caliphate during the ruling of Al-Musta'sem Billah by clarifying the positive or aggressive nature for other countries and their mini-states where I discussed the relationship of Caliphate with Morocco and Andalusia, and then Hijaz (i.e.Mecca and Medina), Yemen, Ayyubids in the Levant and Egypt, also the relationship with the Emirate of Mosul, Romans' Seljuks, and Khawarism State. I also discussed the relationship of Ismaelis' State and the attitude of Ismaelis' towards the Caliphate during that period until the end of this movement through Holko in (654 H/ 1256 AD.), the relationship of the Caliphate with Mughal and the beginning of ruling of the latter, their attacks on the territory of the Caliphate, and the attitude of Almusta'sem Billah towards these attacks.

**Chapter Three** includes a study of management: the major and important positions in the state such as ministry, army, government offices, mailing, judiciary, and weights and measures control (Al-Hisbah-in Arabic), mentioning dignitaries and most influential personalities that undertook these positions during the period of Al-Musta'sim Billah, and explaining their importance in the state. I also emphasized the army in terms of their components, categories, types, and soldiers' ranks to clarify the situation of the army when the Abbasid Caliphate fell in Baghdad in (656H/1258AD).

In **Chapter Four** this study discussed the economic aspects of the state of Al-Musta'sem Billah that included agriculture and what related to it such as agricultural lands, irrigation and canals. In the study, I discussed the two rivers (Tigris and the Euphrates) and their routes. I also tackled quality of ownership and feudal lands. The second topic of this chapter was about industry. I explained professions and crafts during the ruling of Al-Musta'sem Billah. I also discussed the most important industries available in that period and existed during the reign of Al-Musta'sim Billah such as

textile industry, dyeing, paper industry, drafting, glass industry, blacksmithing. I also studied trade in terms of its importance and causes, and methods of business, whether waterways (marine and river), or land methods. I also discussed exports and imports as well as the most important prevailing means of commercial transactions. This chapter ends up with the most renowned commercial centers of significant commercial activity during that period.

In **Chapter five**, I studied the early start of Mughals' army towards the Islamic World clarifying the attitude of Al-Musta'sim Billah towards the Mughals' threat during his ruling. We found that he spared no effort to repulse the threat of Mughal in Baghdad. I also discussed in this chapter the issue of Ibn-Al-Alqami accusation of treason. I showed the historians diversity of opinions in Ibn-Al-Alqami. Some of them were supporters to him, others were opponents, some others maintained silence. I concluded that Mughals' attack to Baghdad was part of a Mughals' plan aimed at dominating the world. This indicates that Mughal did not need Ibn-Al-Alqami's invitation to invade the land. I discussed in this chapter correspondence between Al-Musta'sim Billah and Holako but without reaching any significant conclusion. The result was as this: Holako set out for Baghdad, he then laid siege to the city, then the battle took place between the two parties until the fall of Baghdad in (656H/1258 AD). Then I presented the situations of Baghdad during the fall of Baghdad. Finally I mentioned the consequences of Mughal's invasion on the Abbasid Caliphate.

My method of study was accumulating the historical recounts, criticizing and analyzing as much as possible, then selecting the most likely recounts taking into account the views of former and contemporary historians. For example, when I studied the accusations of treason addressed to Ibn-Al-Alqami, I mentioned recounts that confirmed them in the historical resources. I then mentioned the recounts that refuted them. After that I mentioned the contemporary points of view (i.e. confirming of refuting them). I did my best and looked for sources and recent references in Jordan libraries in order to get the most accurate state of affairs. So, I hope this modest effort is useful for the students and researchers. I also hope it is a service to the nation's heritage in order to maintain its identity, by linking the present with the past.